سماحة المرجع الديني آية الله العظمى

السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء الثاني عشر

سورة الفاتحة - سورة البقرة - سورة آل عمران

دار القارئ

بسم الله الرحمن الرحیم

من هدى القرآن

کاتب:

آیت الله سید محمد تقی مدرسی

نشرت فی الطباعهٔ:

دار محبی الحسین (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

من هدی القرآن المجلد ۱۲

اشاره

سرشناسه:مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور:من هدی القرآن/ محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر:تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری:ج ۱۸

شابک:۱۸--ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-
۱۸-۱۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-
۹۱۰-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳ ؛ ۱۸--ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-
ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳

وضعیت فهرست نویسی:فهرستنویسی قبلی

یادداشت:عربی

یادداشت:کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت:کتابنامه

موضوع:تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره:BP۹۸/م ۴م ۸ ۱۳۷۷

رده بندی دیویی:۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی:م ۷۷-۱۲۵۶۱

اشاره

سوره المؤمن

اشاره

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره:

«من قرأ حم المؤمن فی کلّ لیله غفر اللّه له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر،و ألزمه کلمه التقوی،و جعل الآخره خیرا له من الدنیا».

نور الثقلین/ج ۳ ص ۵۰۰،عن الإمام الباقر(علیه السّلام) .

«الحوامیم ریاحین القرآن فإذا قرأتموها فاحمدوا اللّه و اشکروه لحفظها و تلاوتها.إنّ العبد لیقوم و یقرأ الحوامیم فیخرج من فیه أطیب من المسک الأذفر و العنبر،و إنّ اللّه عزّ و جلّ لیرحم تالیها و قارئها،و یرحم جیرانه و أصدقاءه و معارفه و کلّ حمیم و قریب له،و إنّه فی یوم القیامه یستغفر له العرش و الکرسی و ملائکه اللّه المقربون».

المصدر عن الإمام الصادق(علیه السّلام).

الإطار العام

الاسم:

اشتهرت هذه السوره باسمين:

١-غافر.لما فيها من ذكر كرامه اللّه للمؤمنين و استغفار حمله العرش لهم.

٢-المؤمن.لما فيها من تفصيل قصه مؤمن آل فرعون،و لما فيها من ذكر إكرام اللّه له و لسائر المؤمنين.

الإطار العام:

الغايه الساميه التى تسعى آيات هذه السوره نحوها بحق هى التذكره بأسماء اللّه الحسنى لتزداد النفوس العامره بالإيمان عرفانا بربّها الكريم،و لتتم الحجّه على الكافرين.

و لقد تجلّى ربّنا العظيم فى آيات كتابه الكريم جميعا،و لكن كما الشمس

-و تعالى اللّه عن الأمثال-تتجلّى فى كل أفق تجلّيات بديعه و جديده،فإنّ لكلّ سوره تجلّياتها الخاصه بها،و هكذا فى هذه السوره حيث عرّفت فاتحه السوره ربّنا العظيم بأنّه غافر الذنب(و من هنا جاء أحد اسمى السوره)و أنّه قابل التوب شديد العقاب ذو الطّول،ثم فى آيه(۱۵)ذكر اسم رفيع الدرجات ذى العرش و أنّه يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده،ثم جاء فى الآيه(۶۵) أنّه سبحانه هو الحىّ لا إله إلاّ هو.

و جاء فى الآيه(۱۳)و الآيه(۸۱)أنّه سبحانه يرينا آياته(و يعرّفنا نفسه عبرها) و نتساءل:فلما ذا-إذا-لا نعرف ربنا عبر تلك الآيات المبصرات؟!و يعرف الجواب حقّا من يرهف سمعه لكلام ربّه،حيث أنّ منهج القرآن هو تصفيه العقبات النفسيه قبل إلقاء البصائر ببلاغه نافذه،و حجّه تامّه،و خطاب فصل مبين.

و قد تركّزت آيات السوره فى هذا التوجّه،حيث نجد التحذير من الجدال فى آيات اللّه أربع مرّات تعتبر كلّ مره عنوانا لسلسله من البصائر و الحديث الشافى الذى يطهّر القلب من عقبات الإيمان،و ذلك عبر الترتيب التالى:

أوّلا:فى البدء نجد تحذيرا من الجدال عبر التذكير بعاقبه الجدال السوئى،ثم نتلوا بيانا لطائفه من آيات اللّه التى تهدف إقامه الحجّه على الكافر،و زياده إيمان و معرفه الذى ألقى السمع،و سلّم للحق.

دعنا نستعرض جانبا من هذا المنهج،و فى ذات الوقت نجمل الحديث حول موضوعات السوره،ضمن هذا الإطار،و هو إعداد القلب لتقبّل آيات الذكر.

أوّلا:الآيات(۶/۴)تنعت المجادل فى آيات اللّه بالكفر و الغرور،و تحذّر من

عاقبه سيئه له مثل التى كانت لقوم نوح و الأحزاب.

و الآيات(٩/٧)تبشّر المؤمنين(الـذين يسـلّمون لآيات اللّه بأنّهم مكرمون عنـد اللّه و عنـد حمله العرش من ملائكته،الذين يدعون لهم بالوقايه من النار، و دخول الجنه،و حفظهم من السيّئات.

و هكذا لا يكتفى المنهج القرآنى بالإنذار بل يقرنه غالبا بالتبشير.

و يعود السياق الى التحذير من الكفر(و الجدال)بأنّ صاحبه مخزىّ ممقوت، و سيندم حيث لا ينفعه الندم(١٢/١٠).

و هكـذا تتهيّأ النفوس لاسـتقبال آيـات اللّه من دون الجـدال الباطـل فيه،فيبين السـياق طـائفه منها مع الأمر بإخلاص الـدين له و توحيده و أنّه رفيع الدرجات(أسماء اللّه)و ذلك عبر الآيات(١٥/١٣).

و يعود السياق الى التحذير من مغبّه الجدال فى يوم القيامه(٢٠/١٦)مع التذكره بأسماء اللّه التى تتجلّى فى ذلك اليوم الرهيب.

و يـذكّرنا بمصير الكفّار فى الـدنيا،و كيف أخذهم اللّه-على شدّه قوتهم و مكاسبهم الكثيره-كلّ ذلك لأنهم جادلوا فى آيات اللّه،و كفروا بالبينات التى جاء بها رسله.

و يضـرب القرآن مثلا على عاقبه الجـدال فى آيات اللّه و الـذى يساوى الكفر مما انتهى إليه أمر فرعون و قومه،كما يضـرب مثلا للذين آمنوا بآيات اللّه من العاقبه الحسنى التى فاز بها مؤمن آل فرعون.

و يفصّل الكتاب ذات الحقائق من خلال حوار ساخن بين موسى(الرسول)

و هارون(وزيره)و المؤمن(الذى صدق بهما)من جهه،و بين فرعون(الطاغيه) و هامان(وزيره)و قارون(الذى اتبعهما)من جهه ثانيه،و تحوّل الحوار الى صراع، و انتهى الصراع بمصرع آل فرعون،و تدمير حضارتهم،و عذابهم بالغدوّ و الآصال فى البرزخ،و اقحامهم و التابعين فى جهنّم،و ساءت مصيرا.

و تتجلّى فى السياق صوره مؤمن آل فرعون مثلا رائعا لشخصيه المؤمن الصلبه و نفاذ بصيرته،و قدرته الربّانيه على تحدّى الطغيان المادّى،مما جعلت اسمه عنوانا لهذه السوره الكريمه.

ثانيا:و خلال الحوار و الصراع و التحدّى يذكّرنا الكتاب مرّه ثانيه بقضيه الجدال فى آيات اللّه و كيف ينتهى بصاحبه أن يطبع اللّه على كلّ قلبه،و يمسى كفرعون الذى بلغ به الغرور الأهوج حدّا قال لوزيره هامان: اِبْنِ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَبْلُغُ اَلْأَسْبٰابَ ،و مضى فى طريق الغوايه حتى النهايه البئيسه،بينما دعا الصّدّيق الى اتباع نهجه نهج الرشاد،و ركّز على مسئوليه البشر عن أعماله و مواقفه،ثم فوض أمره الى اللّه بعد أن تحداهم بقوّه،و كانت العاقبه أنّ اللّه وقاه من سيئات ما مكروا، بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب،و لم يفلت المستضعفون من ذات العاقبه التى كانت للمستكبرين،لأنّهم جميعا جادلوا فى آيات اللّه و عصوا رسله.أمّا رسل اللّه و الذين آمنوا فإنّ اللّه ينصرهم فى الدنيا و يوم يقوم الأشهاد،إلاّ أنّ عليهم الصبر و الاستغفار و أن يسبّحوا بحمد اللّه بالعشىّ و الإبكار(۵۵).

ثالثا:و فى المرّه الثالثه يحذّرنا السياق من الجدال فى آياته،مبيّنا-هذه المرّه- الجذر النفسى لهذه اللعنه التى تصيب القلب و هى الكبر الذى لن يبلغه صاحبه، و بعد أن يأمرنا بالاستعاذه باللّه العظيم يهدينا الى عظمه خلق اللّه للسموات و الأرض،و يوحى إلينا أنّ الكبر عمى و الإيمان بصيره،و أنّ الساعه آتيه لا ريب

فيها،ثمّ يأمرنا بالدعاء لأنّه شفاء من الكبر.

و حسب المنهج القرآنى الفريد يلقى على الأفئده السليمه آياته(۶۲/۶۱)ثم يحذّر من الجحود بها،لأنّ من يجحد بها يؤفك عن الحق(۶۳)و يعود يذكّرنا بآياته المبصره،و بأنّه الحىّ الواحد،و يأمر رسوله بتحدّى آلهه الزيف(۶۶)و يذكّرنا بأنّه يحى و يميت.

رابعا و أخيرا:ينهى عن الجدال فى آيات اللّه(۶۹)و ينذر الذين كذّبوا بالكتاب بأنه سوف يعلمون أىّ جريمه اقترفوا،و ذلك حين توضع الأغلال فى أعناقهم و فى السلاسل يسحبون.

و كذلك يعالج داء الجدال بالتحذير من عاقبته الأخرويه،و يجمل السياق فى خاتمه السوره بصائرها،من الأمر بالصبر(۷۷)اتباعا لسنه الأنبياء،و التحذير بعاقبه الاستهزاء(۷۸)و التذكره بآيه اللّه فى خلق الأنعام،و الأمر بالسير فى الأرض للنظر فى عاقبه المكذّبين،و كيف دمّروا فلم يغن عنهم ما كانوا يكسبون،و ذلك أنّهم حينما أنذرهم الرسل فرحوا بما عندهم من العلم فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون(۸۳)بلى.إنّهم آمنوا فى اللحظه الأخيره حين رأوا بأس اللّه،و لكن سنّه اللّه جرت بألاّ ينفع الإيمان فى ذلك الوقت،و أنّه قد خسر هنالك الكافرون(۸۵).

و كلمه أخيره:الحقائق الكبرى الثلاث التى تحيط بالخليقه(التوحيد و البعث و الرساله)شواهدها و آياتها مبثوثه فى الآفاق و الأنفس،إلاّ أنّ حجبا سميكه تغطّى البصائر عن رؤيتها و التفاعل معها،و تؤدى الى الجدال فى آياتها و دلائلها،و القرآن الكريم شفاء للقلب من تلك الحجب،و فى هذه السوره المباركه نجد نهجا بديعا و شفاء سريعا،و علينا فقط أن نلقى السمع الى آياتها بلا جدال!.

ص:۱۳

[سوره غافر (۴۰): الآیات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ . حم (۱) تَنْزِیلُ اَلْکِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِیزِ اَلْعَلِیمِ (۲) غٰافِرِ اَلذَّنْبِ وَ قٰابِلِ اَلتَّوْبِ شَدِیدِ اَلْعِقٰابِ ذِی اَلطَّوْلِ لاٰ
إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ إِلَیْهِ اَلْمَصِیرُ (۳) مٰا یُجٰادِلُ فِی آیٰاتِ اَللّٰهِ إِلاَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَلاٰ یَغْرُرْکَ تَقَلُّبُهُمْ فِی اَلْبِلاٰدِ (۴) کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ
اَلْأَحْزٰابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ کُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِیَأْخُذُوهُ وَ جٰادَلُوا بِالْبٰاطِلِ لِیُدْحِضُوا بِهِ اَلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کٰانَ عِقٰابِ (۵) وَ
کَذٰلِکَ حَقَّتْ کَلِمَةُ رَبِّکَ عَلَی اَلَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ (۶)

اللغه

۳[ذی الطّول]:الطّول هو الإنعام الذی تطول مدّته.

۵[لیدحضوا]:لیبطلوا و یزیلوا.

ص:۱۵

غافر الذنب و قابل التوب

هدى من الآيات:

المؤمن و غافر هما اسمان لهذه السوره المباركه،التى تبدأ حديثها عن القرآن(أو قل عن نفسها)قبل الحديث عن أىّ قضيه أخرى،و السبب هو أنّ المنهج يسبق الفكر،و الذى يريد معرفه شىء ما يجب عليه أوّلا أن يعرف الطريق المؤدى إليه، و القرآن هو ذلك المنهج الذى نفهم من خلاله الحياه،و نعالج الأمراض النفسيه و العقليه،و غير ذلك مما يمنع الفهم الصحيح عن الإنسان.

و أكثر سور القرآن حينما تبدأ الحديث عنه فإنّها تنذر بمختلف ألوان النذر أولئك الذين ينكرون الحقيقه استجابه لأهوائهم و لظروفهم،و فى هذه الآيات يبيّن لنا القرآن أنّ الذين يكفرون بالحقّ إنّما بسبب نفوسهم المريضه،و ليس لنقص فى الآيات الداله عليه فهى بيان واضح للحق بالحق.

ص:۱۶

بينات من الآيات:

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ و هو الرب الـذى يتـألّه و يجـأر إليه،و الـذى به يسـتغاث و به يسـتعان و اليه يجأر كل مضـطر و صاحب حـاجه، حيث غرزت الحـاجه إليه فى فطره كـلّ مخلوق،و أركز الإحساس بألوهيته فى أعمق أعماق شـعورنا جميعا،فمهما اختلفنا فى الألفاظ و التعابير على اختلاف ألسـنتنا و مـذاهبنا إلاّ أنّنا لا نختلف فى الحقيقه التى فطرنا عليها جميعا،إذ كلّنا يسـتعين باللّه و يتوسل إليه بأسمائه التى أظهرها لفاقتنا إليها كما فى الأخبار.

[۱] حم من المقطعات القرآنيه التى سبق تفسيرها فى عده مواضع. (۱)

و جاءت روايات بأنّ(ح)إشاره إلى اسم الحميـد و(م)إشاره إلى اسم المجيـد فيكون«حم»حينئـذ قسـما بحاكميه اللّه التى تقتضـى حمـده و مـالكيته التى تقتضـى مجـدا على أنّ القرآن حق،أو ليست آيـات القرآن تجلّيـات لأسـماء ربنا،و لعل السور السـبع التى تبتدئ بكلمه«حم»و أوّلها هذه السوره مظاهر لاسمى الحميد و المجيد.

[۲]و الكتاب الذى يتكوّن من أمثال هذه الحروف تنزّل من ربّ عزيز عليم.

تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

ص:۱۷

۱- ۱) راجع بدايات السور المماثله.

فبعزته يفرضه على الإنسان و يطبق ما فيه على واقع الحياه،و بعلمه الـذى أحاط بكلّ شـىء إحاطه مطلقه جعله كلّه هدى و حكمه و نورا ينسجم مع واقع الحياه و الإنسان.

و يبدو لى أنّ الآيه جمله مفيده كامله،مبتدؤها« تَنْزِيلُ الْكِتابِ »و خبرها« مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »و هذا ما يوحى بالمعنى المتقدم.

[۳]و تعرّفنا الآيات بربّنا من خلال ذكر صفاته،و هـذا ينفعنا فى تحديـد علاقتنا به تعالى.و أوّل أسـماء اللّه المذكوره هنا أنّه غافر الذنب، وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ ،و أىّ رحمه واسعه تلك التى تغسل جريمه المعصيه،و أىّ قدره تستطيع محو الآثار العديده للمعاصى على النفس و الواقع غير رحمه اللّه و قدرته.

و تضفى أسماء اللّه السكينه على القلب،فهو غافر الذنب و قابل التوب و هو ذو الطول،و لولا هـذه السكينه لتصدّعت قلوب المؤمنين عند استماعهم لاسم شديد العقاب.

غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِى الطَّوْلِ و المؤمن حقّا يعيش متوازنا مباركا،يحثّه الرجاء على التوبه و العمل الصالح، و يمنعه الخوف عن المعصيه.

و الخوف من عذاب اللّه كما رجاء رحمته ليس قضيه نفسيه و حسب،إنما يعنيان العمل،فنحن يجب أن نتحرّك عند الرجاء و لكن ليس فى أىّ اتجاه،إنّما فى اتجاه مرضاه اللّه و باتباع هـداه،لأنّ الحياه تشبه حقل الألغام و الـذى ينجو فيها هو الذى يمتلك خريطه واضحه لها يتبعها بدقه،أمّا حينما ينحرف الإنسان عن الحق فسوف يضلّ و يخسر و لن يجد من ينقذه أبدا،لأنّ اللّه وحده هو الإله المتصرّف الذى يحدّد

مسیره الإنسان و مصیره دون أن یکون أحد قادرا علی التغییر و التبدیل.

لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ فهو الذی یقرّره کیف یشاء بإرادته.

[۴]و لکن بعض الناس یرفضون الحق و بکلّ إصرار،فتراهم یجادلون فی آیات اللّه التی تهدیهم الی الحق.

و الجدل-حسب اللغه-لفّ الخیوط الناعمه أو أنسجه اللیف علی بعضها لتصبح حبلا،و هذا یشبه حال المجادلین الذین یلفّون بعض الکلام علی بعضه للتغطیه علی جهلهم.

مٰا یُجٰادِلُ فِی آیٰاتِ اللّٰهِ مع وضوحها بما لا یدع مجالا للشک.

إِلاَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لأنّهم لا یبحثون عن الحقیقه،و لو کانوا کذلک لاستوجب الأمر قبولهم للآیات باعتبارها بینات بینما یسعی هؤلاء لتبریر اتباعهم للباطل لیخدعوا أنفسهم بأنّهم علی الحق،و لیغطّوا ضعفهم و یتراءوا بأنّهم أقویاء،و لکن المؤمن الذی یتبع بصائر القرآن لا ینخدع بهم أبدا.

فَلاٰ یَغْرُرْکَ تَقَلُّبُهُمْ فِی الْبِلاٰدِ فمهما تظاهروا بالمقدره من خلال تنقّلهم فی البلاد عبر مسیرات عرض القوه، کما تعوّد الطغاه فعله، کلما احسّوا بالخطر،و لکن علی المؤمن ألاّ تغرّه مظاهر القوه

ص:۱۹

لأنّهم ضعفاء بمخالفتهم للحق،فمهما بلغوا من القوه و القدره و أنّى أزاحوا الحقّ عن مراسيه،فإنّ عاقبتهم إلى البوار و إنّ إلى اللّه المصير.

[۵]و يضرب لنا القرآن مثلا من واقع التاريخ على أنّ تقلّب الكفار فى البلاد و سيطرتهم الماديه الظاهره ليس دليلا على سلامه خطّهم.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أى قبل كفّار قريش الذين يجادلونك يا محمد،و قبل كلّ الطغاه فى كلّ عصر.

قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزٰابُ مِنْ بَعْدِهِمْ لأنّهم لم يستفيدوا من تجربه قوم نوح.

وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّهٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ و كم هو مؤسف أن تصل البشريه الى هذا الحضيض،فإذا بها بدل أن تكرم المصلحين و تتّبعهم لأنّهم يحملون لها الهدى و السعاده ترفضهم و تسعى لقتلهم و القضاء على خطّهم،هذا من الناحيه العمليه،أمّا من الناحيه النظريه فإنّها تحاول إبطال الحق الذى يأتى به الأنبياء.

وَ جٰادَلُوا بِالْبٰاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ و هكذا كلّ كافر لا يملك عقيده إلاّ الكفر بالحق،فهو لكى يملأ الفراغ العقائدى فى نفسه يبحث عن باطل ليس ليعتقد به إنّما ليقاوم به الحق،و إنّما ازداد ركام الباطل،و تنوّعت مذاهبه،و كثر الكلام فيه لأنّه لم يكن يملك رصيدا من الواقع و لا شاهدا من الفطره فيحتاج الى المزيد من السفسطه باسم البرهان،

و الفلسفه باسم الحکمه،و الجدل باسم الحوار.

و لکنه مع ذلک کلّه لا یغنی شیئا،و هکذا نهت النصوص عن الجدال فی الدین،

فقد روی عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال :«لعن المجادلون فی دین اللّه علی لسان سبعین نبیّا،و من جادل فی آیات اللّه فقد کفر » (۱)و إنّما یفشل الباطل-رغم الجدال عنه-لأنّ اللّه من فوق عرشه و عبر سننه فی الحیاه یدافع عن الحق،فهو یفشل کلّ محاوله لدحضه،فالحق هو المنتصر دائما لأنّه یملک قوه المنطق و منطق القوه بتأیید اللّه.

فَأَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کٰانَ عِقٰابِ و الأخذ تنطوی علی الشده و المباغته،و تساؤل السیاق عن العقاب لیثیر أفکارنا فنبحث عن الإجابه التی فیها العبره و الموعظه.

[۶]و لأنّ الحدیث هنا عن سنّه إلهیّه تحکم الحیاه نجد السیاق و بعد تخصیص قوم نوح و الأحزاب بالذکر یعمّم الحدیث لیضمّ إلیهم کلّ الکافرین فی کلّ مکان و زمان،فهم جمیعا ینالهم عذاب اللّه و انتقامه.

وَ کَذٰلِکَ حَقَّتْ کَلِمَهُ رَبِّکَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ النّٰارِ ففی الدنیا ینالهم انتقام اللّه،و فی الآخره عذابه الشدید،فهم خالدون فی نار جهنم لأنّهم أصحابها.

ص:۲۱

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۴ ص ۵۱۱.

[سوره غافر (۴۰): الآيات ۷ الی ۱۴]

اشاره

اَلَّذِينَ يَحْمِلُونَ اَلْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً
فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اِتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذَابَ اَلْجَحِيمِ (۷) رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ اَلَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ
أَزْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۸) وَ قِهِمُ اَلسَّيِّئَاتِ وَ مَنْ تَقِ اَلسَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذٰلِكَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ
(۹) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اَللّٰهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى اَلْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (۱۰) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اِثْنَتَيْنِ وَ
أَحْيَيْتَنَا اِثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (۱۱) ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اَللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ
لِلّٰهِ اَلْعَلِيِّ اَلْكَبِيرِ (۱۲) هُوَ اَلَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ اَلسَّمَاءِ رِزْقاً وَ مَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (۱۳) فَادْعُوا اَللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
اَلدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْكَافِرُونَ (۱۴)

ص:۲۲

فالحكم للّه العليّ الكبير

هدى من الآيات:

لكى لا تهزم الظروف الصعبه إراده المؤمن،خصوصا إذا كان يتحدّى الطغاه وحده،أو يحافظ على إيمانه فى سريه،و لكى يطّهر المؤمن بالإنابه من درن الشرك أوحى ربّنا بأنّ أعظم خلق اللّه الذين يحملون عرش القدره الإلهيه يستغفرون للذين آمنوا و أنابوا الى اللّه،و يدعون لهم بالمغفره،و أن يقيهم عذاب جهنم،و يدخلهم جنات الخلود هم و من صلح من آبائهم و ذرياتهم،و أن يحفظهم من السيئات برحمته.

بينما الكفار يلعنون و ينادون بأنّ مقت اللّه أكبر من مقتهم أنفسهم حين رفضوا الإيمان،و تراهم يتضرّعون يومئذ الى اللّه قائلين:إنّنا بعد أن مررنا بتجربه الموت و الحياه مرتين أصبحنا نعترف بذنوبنا،و يسألون:هل نستطيع الخروج من العذاب؟ فيرفض طلبهم بحجه أنّهم قد كفروا بالتوحيد و آمنوا بالشركاء،و إنّما الحكم للّه العليّ الكبير لا للشركاء المزعومين.

ص:۲۴

و اللّه وحـده الحاكم فى الخليقه فهو الـذى يهدى الناس الى نفسه عبر آياته، و يرزقهم من السـماء، و لكن لا ينتفع بآيات اللّه إلاّ من ينيب إليه فيتذكر.

و فى ختام الدرس يدعونا الربّ الى إخلاص الدين و نبذ الشركاء برغم الكفار الذين يكرهون التوحيد.

بينات من الآيات:

[۷]تتّبع الآيات القرآنيه منهجا يتميز عن المناهج البشـريه فى أنّه كالضوء ينتشـر من نقطه مركزيه واحـده،هى التوحيد لتتسع سائر الحقول.ذلـك أنّ عالم الخلق و الحق كما عالم العلم و المعرفه مظهر و تجلّ لأسـماء اللّه الحسـنى،و كلّ شـىء فيه آيه تـدلنا الى ربنا الحميـد المجيد.و لقد افتتحت هذه السوره بذكر بعض صـفات اللّه التى تتجلى فى الخليقه فاسم اللّه«الرحيم»الذى يتجلّى فى قبول اللّه للتوبه«قابل التوب»لها انعكاس على خلق اللّه،و من ثم على سلوك الإنسان،و عليه أن يتخذ منه منهجا لتقويم سلوكه.

بـل ينعكس هـذا الاـسم الكريم على الخليقه إذ يحـدثنا القرآن عن الملاـئكه الحـافّين بعرش اللّه،فهم من جهه يتصـلون باللّه عبر علاـقه التسبيـح و الإيمـان،و يتصـلون بالإنسـان المؤمن عبر علاقه الحب و الرحمه،و ربنا إذ يشـرح لنا جانبا من هـذه العلاقه يبين ذلك فى صوره دعاء من قبل الملائكه للمؤمنين التائبين.

و يبقى السؤال:ما هو عرش اللّه؟ للعرش معنيين:

الأوّل:إنّ اللّه يملك محلا واسعا يسمّى بالعرش،لا نعرف إلاّ أنّه عظيم يسع السماوات و الأرض بل الخلق بأجمعهم.

و قد جاء فى الحديث المروى عن أمير المؤمنين

علیه السلام :«إنّ الملائکه تحمل العرش،و لیس العرش-کما تظن-کهیئه السریر،و لکنّه شیء محدّد مدبّر،و ربّک عزّ و جلّ مالکه » (۱)

و فی الحدیث المأثور عن أبی ذر عن النبی-صلّی اللّه علیه و آله-أنّه قال :

«یا أبا ذر ما السموات السبع فی الکرسی إلاّ کحلقه ملقاه فی أرض فلاه،و فضل العرش علی الکرسی کفضل الفلاه علی تلک الحلقه » (۲)الثانی:إنّ العرش هو رمز القدره و الهیمنه.حیث فسرت الآیه الکریمه وَ کٰانَ عَرْشُهُ عَلَی الْمٰاءِ (۳)بأنه سیطرته و هیمنته تعالی.أمّا الملائکه الذین یحملون العرش فإنّهم وسائط رحمه اللّه،و تنفیذ إرادته فی الحیاه.

و الی ذلک تشیر الروایه المأثوره

عن الإمام الرضا علیه السلام :«العرش لیس هو اللّه،و العرش اسم علم و قدره » (۴)

و فی حدیث آخر عن الإمام الصادق-علیه السلام -أنّه حین سئل عن قول اللّه عزّ و جلّ« وَسِعَ کُرْسِیُّهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ »قال:«علمه » (۵) و یحتمل أن یکون لربّنا مقام معلوم حمله علمه و قدرته،و منه ینطلق تدبیره للخلیقه و هو عرشه،و فیه ملائکه اللّه المقربون.

و ما یهمّنا معرفته أنّ حمله العرش خلق من خلق اللّه و لیسوا أنصاف آلهه،و هم مشغولون بالتسبیح و التمجید.

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۵۵ ص ۹.

۲- ۲) المصدر/ص ۵.

۳- ۳) هود۱۱/.

۴- ۴) بحار الأنوار/ج /۵۵ص ۱۴.

۵- ۵) المصدر/ص ۲۸.

هـذا عن علاقتهم بـاللّه،أمّا عن علاقتهم بالإنسان فهى التى تكشف عن علاقه الطبيعه بالبشـر،إذ الملائكه وسائط أمر اللّه و تنفيذ إرادته،فهم إذن يمثّلون موقف الخلائق من الإنسـان،و هو يرتبط بموقف الإنسـان من الحق،فـإذا كان البشـر على فطرته و علاقته الإيجـابيه مع ربّه فهم معه و إلاّ فلا،فمـا على الإنسـان حتى يفلـح فى الحيـاه إلاّ أن يتحرّك باتجاه تسـخير الطبيعه التى من أهم عوامـل تسـخيرها العبوديه للّه،و حينهـا سوف يجـد كـلّ شـىء يقف معه مؤيّدا،إذ الملائكه الموكله من قبـل اللّه بقوى الطـبيعه المختلفه سـوف يكونون معه.و لو كـان مجمـل سـلوك الإنسـان صالحـا فـإنّ هفواته لا تضـرّه إذ سـرعان مـا يتوب الى اللّه منها فتسـتغفر الملائكه لـه منهـا،و لعلهـم يسـدّدون خطـاه بـأمر اللّه للعـوده الى نقـائه و طهره،و قـد يعصـمونه بـإذن اللّه من الـذنوب الجديده،و يثبتون قلبه،و يحفظونه من تسوّلات النفس و وساوس الشيطان،و يبدو أنّ هذا من علامات قبول التوبه.

اَلَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ و هم من أعظم ملائكه اللّه،و لعلّهم أوّل من يتلقّون أمر اللّه.

وَ مَنْ حَوْلَهُ من الملائكه الآخرين.

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ و أعظم الذكر هو التسبيح الذى يقدّس الربّ عن الشريك و الشبيه و النقص و العجز.

وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

ص:۲۷

فتسبیحهم لیس مجرد کلمات یتلفظونها،أو أفعال یمارسونها،إنّما یقومون بکل ذلک عن معرفه و قناعه راسخه بوجوبه علیهم.هذا عن علاقتهم باللّه،أمّا عن علاقتهم بالمؤمنین فهی الاستغفار لهم لکی یتوب اللّه علیهم و یوفقهم فی الحیاه.

وَ یَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِینَ آمَنُوا و لیس یغفرون،لأنّهم لیسوا آلهه،إنّما هم عباد مقربون عند اللّه،و کل ما یستطیعونه لخدمه المؤمنین هو طلب العفو من اللّه لهم عبر الدعاء.

و من آداب الدعاء:

أوّلا:البدء بحمد اللّه و تسبیحه و الثناء علیه ثم طلب الحاجه،و هکذا فعل الملائکه إذ تراهم سبحوا اللّه بحمده ثم استغفروا للمؤمنین.

ثانیا:البدء بطلب العفو قبل سائر الطلبات حیث أنّ رحمه اللّه قریبه من التائبین،إذ الذنوب تمنع استجابه الدعاء،و نزول الرحمه،و هکذا فعل الملائکه.

رَبَّنٰا وَسِعْتَ کُلَّ شَیْءٍ رَحْمَهً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِینَ تٰابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِیلَکَ و التوبه هی الشرط الأوّل لقبول اللّه عوده العبد إلیه.أمّا الشرط الثانی فهو أن تکون التوبه صادقه یستقیم علیها العبد،فیتبع سبیل اللّه وحده دون أن یعود الی سبیل الشیطان.و هذا ما یبصره ربّنا الذی أحاط بکلّ شیء علما.

وَ قِهِمْ عَذٰابَ الْجَحِیمِ و هذا أهمّ و أعظم ما یمکن للمؤمن الدعاء به لنفسه و لإخوانه.و هکذا عند ما یتوب المؤمن إلی اللّه فإنّ الملائکه تکون معه.و بالتالی فإنّ ما فی الحیاه یدعو البشر

ص:۲۸

الی إصلاح نفسه و العوده الی الطریق المستقیم.

[۸]و حینما یکون الإنسان صالحا فإنّه سوف ینفع الآخرین،فإذا بآبائه و أبنائه کما الأشخاص المحیطین به کزوجه یفیدهم بصلاحه و یدخلون معه الجنه،إلاّ إذا کانوا منحرفین تماما،و هذا یعنی أنّ الحیاه قائمه علی أساس البناء لا الهدم، و الصلاح لا الفساد،و الملائکه تدعم هذه المسیره و تؤیدها،بإذن ربها.

رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّاتِ عَدْنٍ الَّتِی وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّیّاتِهِمْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ فبعزّتک تقدر علی استجابه الدعاء،و بحکمتک تستجیب أو لا تستجیب، و هکذا ینبغی علی من یدعو أن لا یحتّم علی اللّه بل یقدّم دعوته و یثنی علی ربّه و حسب.

و یتوافق هذا الدعاء مع رغبه الإنسان حیث یتطلّع الی العیش مع أحبّائه و أعزّته فی الدنیا و الآخره.و إنّما تکتمل النعم عند ما یجتمع الأحبه تحت ظلال نعم اللّه فی الجنه.

[۹]و لا یبلغ البشر غایه مناه إلاّ إذا تخلّص من سیئاته التی تتجسد یوم القیامه فی صور شتی،فمنها الظلمات الحالکه،و منها النیران الملتهبه،و منها العقارب و الشجعان،و منها اقتران الشیطان،و قد تبتلع سیئه واحده عامّه صلاه الفرد و صیامه،و قد تتسبّب فی حبط أعماله الصالحه و نقص درجاته.

و قد جاء فی الحدیث عن ربّ العزّه أنّه سبحانه قال :«أنا المالک أنا الدیّان لا ینبغی لأحد من أهل الجنه أن یدخل الجنه،و لا لأحد من أهل النار أن یدخل النار و عنده مظلمه حتی أقصّه منه » (۱)

۱- ۱) المصدر/ص ۵۱۶.

و هكذا كان فى دعوه الملائكه حفظ المؤمنين من سيئاتهم فى ذلك اليوم الذى تتجسد فيه السيئات.

وَ قِهِمُ السَّيِّئٰاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئٰاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ و الوقايه هنا بمعنى الحفظ،و إنّما يتقى البشر آثار السيئات فى الآخره عند ما ينتصر على نفسه فى الدنيا و يتجاوز الأهواء و الشهوات السلبيه.

وَ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ إنّ الوصول الى النجاه من النار و دخول الجنه غايه عظيمه،و عمل صعب،و على الإنسان المؤمن أن يعقد عزمه و يشحذ إرادته من أجل تحقيقها،إذ كلّما كان الهدف عظيما يجب أن تكون الإراده عظيمه بقدره.

[۱۰]هذا عن علاقه الملائكه بالمؤمنين.أمّا علاقتهم بالكافرين فهى سلبيّه و تتسم بالدعاء عليهم و التشمّت بهم.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنٰادَوْنَ تناديهم الملائكه و كلّ الطبيعه المفطوره على الحقّ الذى خالفه هؤلاء..

لَمَقْتُ اللّٰهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمٰانِ فَتَكْفُرُونَ إنّ اللّه يريد الخير لعباده و ما خلقهم إلّا ليرحمهم،أمّا إذا رفضوا الإيمان به و الاستجابه لدعوته،و بالتالى أهانوا أنفسهم و أذلّوها بالكفر،فإنّه سوف يهينهم أضعافا مضاعفه على إهانتهم لأنفسهم،بإبعادهم عن رحمته،و إدخالهم العذاب.

و الإنسان يهين نفسه و لا يحترمها حينما يحتقر الحقّ و يرفض الاستجابه له.ذلك أن لا قيمه للإنسان إلاّ بقربه من الحقّ و تجسيده له فی حياته.

[۱۱]و فی جواب الكفّار للنداء بشده مقت اللّه لهم:

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ و نتساءل:متی كانت الموتتان؟! لقد اختلف العلماء و المفسّرون فی بيان هذه الآيه،فقال بعضهم:إنّ الموته الأولی قبل دخول الإنسان فی الحياه الدنيا،حيث كان فی عالم الأشباح حيّا ثم مات،ثم دخل الحياه الدنيا ثم يموت عند بلوغه أجله ثم يحيا للحساب و الجزاء.

و قال آخرون:إنّ اللّه يحيی الإنسان فی قبره بعد الموت ليحاسبه حساب القبر، و بعدها يميته ثم يحييه يوم القيامه للجزاء.

و جاء فی الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال- فی تفسير الآيه-:

«ذلك فی الرجعه » (۱)و هناك تفسير آخر هو:إنّ الإنسان منذ أن خلقه اللّه لا يزال حيّا،و هذه الحياه الأولی التی وهبها الربّ للأرواح تستمرّ مع الإنسان فی الدنيا فلا موت قبل هذه الحياه،ثم يوافی الإنسان أجله المتعارف فيموت،بمعنی:أنّه تنفصل روحه عن جسده و تبقی الروح فی حاله الحياه.

و بعد هذا الموت يموت البشر-مره أخری-فتنعدم عنه الحياه تماما و ذلك حينما ينفخ فی الصور النفخه الأولی،و قد أشار القرآن الحكيم لهذا المعنی فی سوره

۱- ۱) المصدر/ص ۵۱۳.

الزمر حيث قال: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرىٰ فَإِذٰا هُمْ قِيٰامٌ يَنْظُرُونَ (۱) و هذه هی الحیاه الثانیه التی تستمرّ مع الإنسان خالده للأبد.

و بین الحیاتین و الموتین تتجلّی قدره اللّه للبشر حیث لا یملک الکفّار سوی الاعتراف بخطئهم،و أنّهم قد أحیط بهم من کلّ جانب بسبب الذنوب التی اقترفوها فی الحیاه الدنیا،فیسألون اللّه بضراعه عن مخرج من مأزقهم.

فَاعْتَرَفْنٰا بِذُنُوبِنٰا و إنّنا لا نملک من أمرنا شیئا.

فَهَلْ إِلىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ [۱۲]و تجیبهم الملائکه بأنّه قد کان یوجد مخرج واحد فقط من هذا المأزق،و هو الإیمان باللّه الواحد القهّار و التسلیم له وَ مَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (۲)، و لکنکم رفضتم الدخول فیه و ضیعتم علی أنفسکم الفرصه.

ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذٰا دُعِيَ اللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا لأنّکم کنتم تریدون إیمانا یبرّر لکم شهواتکم،و یعترف بواقعکم الفاسد و تصرّفاتکم الخاطئه،و هذا ما لا تجدونه فی الدین التوحیدی الخالص،مما یدعوکم لرفضه.

فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

ص:۳۲

۱- ۱) الزمر۶۸/.

۲- ۲) الطلاق۲/.

أمّا الشركاء الذين عبدتموهم من دون اللّه فلن ينفعوكم أبدا لأنّهم لا يملكون شيئا من الحكم.

[۱۳]و ليس اللّه بعيدا عن البشر و لا مجهولا لمن يستثير عقله حتى يشرك به الإنسان،فرحمته المعنويه التى تتمثل فى الهدايه مهيئه لنا فى كلّ شىء و فى كلّ حين، إذ كلّ شىء آيه تهدينا الى ربنا،و رحمته الماديه التى تتجسد فى أنواع الرزق هى الأخرى تتنزّل علينا من السماء و تحوطنا من كل جانب.و يبقى الإنسان مع ذلك يشرك بربّه و لا ينتفع من كل ذلك،إلاّ إذا كان مؤمنا به منيبا إليه.

هُوَ الَّذِی یُرِیکُمْ آیاتِهِ وَ یُنَزِّلُ لَکُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَ ما یَتَذَکَّرُ إِلاّ مَنْ یُنِیبُ و المنيب هو الذى يرجع الأمور الى اللّه،و يتوب إليه كلّما أدركه النسيان أو الخطأ،أمّا المشرك فإنّه لا ينتفع بهذه الآيات و لا بهذه النعم حتى يحصل على معرفه ربّه،لأنّه ينسب كلّ ذلك الى الشركاء،فإذا به يعتقد أنّ منبع رزقه هو صاحب المال و السلطه،أو يرجع الرزق الى حتميّات و عوامل من عنده فلا يشكر ربّه و لا يتذكره بها.

[۱۴]و لمّا كان الشرك يحرف مسيره الإنسان فى الحياه،و يوجّهه لغير اللّه و لغير الحق،أكّد ربنا على ضروره الإخلاص له فى الإعتقاد بعيدا عن كلّ عوامل الشرك.

و لأنّ الضغوط التى يواجهها المؤمن الاجتماعيه منها و السياسيه و الاقتصاديه من قبل الآخرين من أهمّ تلك العوامل و أبلغها أثرا خصّصها بالذكر.

فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ وَ لَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ

ص:۳۳

و هـذا ينسـجم مـع سـياق السـوره الـذى يحـدثنا عن مؤمن آل فرعون كمثـل لمحـافظه الإنسـان على إيمـانه و إخلاـصه للّه رغم الضغوط و الظروف المعاكسه.

[سوره غافر (۴۰): الآیات ۱۵ الی ۲۴]

اشاره

رَفِیعُ اَلدَّرَجاتِ ذُو اَلْعَرْشِ یُلْقِی اَلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِیُنْذِرَ یَوْمَ اَلتَّلاقِ (۱۵) یَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا یَخْفی عَلَی اَللّهِ مِنْهُمْ شَیْءٌ لِمَنِ اَلْمُلْکُ اَلْیَوْمَ لِلّهِ اَلْواحِدِ اَلْقَهّارِ (۱۶) اَلْیَوْمَ تُجْزی کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ لا ظُلْمَ اَلْیَوْمَ إِنَّ اَللّهَ سَرِیعُ اَلْحِسابِ (۱۷) وَ أَنْذِرْهُمْ یَوْمَ اَلْآزِفَهِ إِذِ اَلْقُلُوبُ لَدَی اَلْحَناجِرِ کاظِمِینَ ما لِلظّالِمِینَ مِنْ حَمِیمٍ وَ لا شَفِیعٍ یُطاعُ (۱۸) یَعْلَمُ خائِنَهَ اَلْأَعْیُنِ وَ ما تُخْفِی اَلصُّدُورُ (۱۹) وَ اَللّهُ یَقْضِی بِالْحَقِّ وَ اَلَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا یَقْضُونَ بِشَیْءٍ إِنَّ اَللّهَ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْبَصِیرُ (۲۰) أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَهُ اَلَّذِینَ کانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ کانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّهً وَ آثاراً فِی اَلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اَللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما کانَ لَهُمْ مِنَ اَللّهِ مِنْ واقٍ (۲۱) ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کانَتْ تَأْتِیهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَکَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اَللّهُ إِنَّهُ قَوِیٌّ شَدِیدُ اَلْعِقابِ (۲۲) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسی بِآیاتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِینٍ (۲۳) إِلی فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ کَذّابٌ (۲۴)

اللغه

۱۵[یوم التّلاق]:أصله التلاقی حذف الیاء تخفیفا،أی یوم یلتقی فیه أهل السماء بأهل الأرض.

۱۸[یوم الآزفه]:من أزف بمعنی دنی،و یسمّی یوم القیامه بالآزفه لدنوّه.

ص:۳۵

۲۱[واق]:الواق أصله واقی،من وقی بمعنی حفظ، أی لم یکن لهم حافظ یحفظهم من بأس اللّه و عذابه.

ص:۳۶

يَعْلَمُ خٰائِنَهَ الْأَعْيُنِ وَ مٰا تُخْفِى الصُّدُورُ

هدى من الآيات:

انطلاقـا من النقطه المحوريه فى توجيهـات القرآن الحكيم و هى التـذكره بـاللّه الواحـد القهّار و برسالاته الحضاريه الهابطه على عبـاده،يبين لنا هـذا الـدرس بعض ما يتصل بالرؤيه التاريخيه و ما يـدور فى هـذا المجال من الحقائق التى أبرزها انتقام اللّه انتقاما عمليّا للأفكار الحقه ممن يكفر و يستهزئ بها.

بينات من الآيات:

[۱۵]بماذا نسـتدل على ربّنا؟و ما هو السبيل الى المعرفه الأعمق به؟ إنّ الكون بما فيه من مخلوقات،و ظواهر،يهـدينا لو تفكّرنا فيه الى ربّنـا والى الحق،و لكنّ آيـات القرآن أبلغ بيانا و هـدايه،لأنّها حـديث اللّه عن نفسه،كما أنّها موضع التجلّى الأعظم للّه تعالى بصفاته و أسمائه الحسنى،

و فى الدعاء عن أمير المؤمنين عليه السلام يخاطب ربّه فيقول :«يا من دلّ على ذاته بذاته »فلنقرأ كلام اللّه

عن نفسه.

رَفِيعُ الدَّرَجٰاتِ إنّه المالك لتلك الآفاق و المراتب الساميه فى الدنيا و الآخره،فهو يرفع المؤمنين به الى أسمى درجات الكمال و الرقى و العزّه.أمّا المعنى الآخر للآيه فهو:إنّ اللّه ذاته تبارك و تعالى فى أرفع الدرجات من الكمال فى كلّ صفاته،فهو مطلق الرحمه، و مطلق العزه و القدره،و..و..كما أنّه مطلق الانتقام و الشده و..و..

ذُو الْعَرْشِ أى القوه و السيطره.و قد تقدم أنّ للعرش أحد معنيين:الأول المعنى المادى، و هو أنّ العرش خلق عظيم واسع الحجم،ممتد الطول هائل المقام،و الثانى المعنى المعنوى بأن يكون العرش رمزا للقوّه و الهيمنه.

و ربّنا من تلك الدرجات الرفيعه ينزل رسالاته للبشر على من يصطفى من عباده،و التى تعتبر فى لغه القرآن منبع الحياه الحقيقيه للإنسان،لأنّها تنقذه من الهلكات،و تنفخ فيه الحركه و التكامل و العروج الإنسانى الفاضل،و لعلّه لهذا السبب سمّيت الرساله و الملك الذى يتنزّل بها و هو جبرئيل عليه السلام بالروح.

يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ و هنا إشاره الى أنّ الروح ليس جزء ينفصل من اللّه لينزل من عنده الى الأرض،إنّما هو مخلوق فهو من أمر اللّه كما هو حال سائر الخلق فى كونهم من أمره تعالى،و الذى تشير إليه الآيه الكريمه إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۱)و هذا يعنى أنّ الأنبياء و الرسل ليسوا آلهه بما اختصّوا به من الوحى إنّما

۱- ۱) سوره يس/۸۲.

هم عباد له تعالى،و ما عندهم من الوحى و المنزله الرفيعه لم يبلغوه بسعيهم المجرّد و إنّما بمشيئه اللّه و حكمته.

و تنفى هـذه الفكره فكره التكامل الطبيعى عند الإنسان،و التى يدّعى أصـحابها بأنّ الإنسان يتكامل بطبعه حتى يعرج إلى السـماء أو إلى مقام الرساله و الألوهيه، بلى.الإنسان يسـتطيع أن يهيئ فى نفسه أرضـيّه للعروج،و لكن اللّه هو الذى يكمّله،و إذا رفعه الى مقـام الأنبيـاء فليس معنى ذلـك أنّه أصـبح إلها،أو أنّه رفعت عنه المسؤوليه،كلا..و الـدليل أنّ نزول الروح على أىّ إنسان يحمّله مسئوليه التبليغ لهدايه الناس.

لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاٰقِ و تلخّص هذه الآيه كثيرا من العقائد الإسـلاميه و النظرات الحياتيه فى القرآن بمفرداتها الأربع:« رَفِيعُ الدَّرَجٰاتِ »،« ذُو الْعَرْشِ »،« يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ »، «يوم التلاـق»،و يوم التلاـق هو يوم يلتقى الإنسـان بخصومه،و هو من الأيّام الحسـاسه و المشـهوده فى حيـاته،فيلتقى المسـتكبر بالمستضـعف،و الظـالم بالمظلوم، و الغاصب بالمغصوب منه،و الكاذب بمن افترى عليه،و كلّ عامل يلتقى يومئـذ بعمله،و يلتقى المجرمون بالشـهود،و الناس جميعا يلتقون بالحساب عنـد ربهم، و هكذا يكون يوما عظيما لا بد أن يرهب مقامه،و ينذر به المنذرون.

[۱۶]و يضيف القرآن مبينا واقع ذلك اليوم العظيم و الحاسم:

يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ فى الدنيا يحاول الإنسان جاهدا إخفاء سلبياته و تجاوزاته لحقوق الآخرين، و حتى إنّه يحاول خداع ذاته،و إخفاء جرائمه عن ضميره بالتبريرات و الأعذار،و قد

يستطيع الهرب من يد العداله،و لكن هل يتمكّن من مثل ذلك فى الآخره؟كلا..

لأنّ اعتقادات الإنسان و أقواله و أعماله كلّها تظهر يومئذ و لا تخفى منها خافيه أبدا كما يقول تعالى: يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاٰ تَخْفىٰ مِنْكُمْ خٰافِيَةٌ كبيره كانت أو صغيره، و كيف يكون ذلك و قد أوكل اللّه بكل واحد ملائكه يكتبون له و عليه كل ما يصدر منه،و هو من ورائهم رقيب؟! و حينئذ يرتسم فى الأفق سؤال عريض ربما ينطق به كلّ شىء،لأنّه سؤال الساحه الذى يقتضيه الحال،و قد ينادى به مناد من عند اللّه،السؤال هو:

لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ و الإجابه يحكيها لسان الواقع،و هى التى وردت فى فاتحه الكتاب التى وصفت اللّه بأنه مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ و هنا أيضا يقول القرآن مجيبا على النداء أو السؤال المفترض:

لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ فلا يشاركه أحد فى الملك و الحكم.

اَلْقَهّٰارِ و القهار هو أبرز سمات الانفراد بالملك،حيث لا شىء يعجز اللّه و يقهره،و لا أحد ينازعه على الملك إلاّ و قصمه،و ملك اللّه ليس محدودا بالآخره و حسب،فهو الملك فى الدنيا أيضا،و لكنّ الكفّار يعمون و يصدون عن هذه الحقيقه بعنادهم و بفقدانهم للبصيره الهاديه حيث رفضوا رسالات اللّه،أمّا المؤمنون فهم يعرفون هذه الحقيقه بعمق،لهذا يسلمون للّه و لمن يختاره راضين طائعين.

ص:۴۰

جاء فی الأثر فی تفسیر هذه الایه الکریمه عن یعقوب الأحمر قال :دخلنا علی أبی عبد اللّه علیه السلام نعزیه بإسماعیل فترحم علیه ثم قال:إنّ اللّه عزّ و جلّ نعی الی نبیّه صلّی اللّه علیه و آله نفسه فقال:« إِنَّکَ مَیِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَیِّتُونَ »و قال: کُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَهُ الْمَوْتِ ،ثم انشأ یحدث فقال:إنّه یموت أهل الأرض حتی لا یبقی أحد، ثم یموت أهل السماء حتی لا یبقی أحد الا ملک الموت و حمله العرش و جبرئیل و میکائیل علیهم السلام،قال:فیجیء ملک الموت حتی یقوم بین یدی اللّه عز و جل فیقال:من بقی؟-و هو أعلم-فیقول:یا ربّ لم یبق إلاّ ملک الموت و حمله العرش و جبرئیل و میکائیل،فیقال له:قل لجبرئیل و میکائیل فلیموتا،فیقول الملائکه عند ذلک:یا ربّ رسولیک و أمینیک؟فیقول:إنّی قد قضیت علی کلّ نفس فیها الروح الموت،ثم یجیء ملک الموت حتی یقف بین یدی اللّه عزّ و جلّ فیقال له:من بقی؟-و هو أعلم-فیقول:یا رب لم یبق الا ملک الموت و حمله العرش،فیقال:قل لحمله العرش فلیموتوا،قال:ثم یجیء کئیبا حزینا لا یرفع طرفه فیقال له:من بقی؟-و هو أعلم-فیقول:یا ربّ لم یبق إلاّ ملک الموت، فیقال له:مت یا ملک الموت فیموت،ثم یأخذ الأرض و السماوات بیمینه و یقول:

أین الذین کانوا یدعون معی شریکا؟أین الذین کانوا یجعلون معی إلها آخر؟ (۱) [۱۷]ثم یبیّن القرآن أنّ کون الملک للواحد القهار لا یعنی أنّه یجور علی الناس، تعالی ربّنا عن الظلم و الحیف، إنّما یحاسبهم علی أساس المقاییس العادله التی جاءت ببیانها رسالات الأنبیاء.

اَلْیَوْمَ تُجْزیٰ کُلُّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَبَتْ

ص:۴۱

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۴/ص ۵۱۶.

فی السر أو العلانیه،قلیلا کان أو کثیرا،و الآیه تلغی المقاییس الأخری الباطله،کالفداء و الشفاعات المزعومه،أو أن ینتفع الإنسان لمجرّد انتمائه ظاهرا للحق،و ذلک حینما تؤکد المسؤولیه«بما کسبت»و ترکّز الآیه الکریمه هنا علی العداله الإلهیه فتقول:

لاٰ ظُلْمَ الْیَوْمَ إِنَّ اللّٰهَ سَرِیعُ الْحِسٰابِ لأنّه مطلق العلم و القدره،و لأنّه یحاسب الناس علی ضوء المقاییس و الحجج، و إذا کان الإنسان بعلمه و إمکاناته المحدوده قد اکتشف جهاز الکومبیوتر الذی یفحص الأمتعه و الحقائب من خلال الشاشه فی لحظات فکیف بربّنا و هو سریع الحساب؟! فلا یتوهّم البعض أنّ کثره عدد البشر و تنوّع ما یکتبونه بما لا یحصی یمنع ربّنا من الدقه فی الحساب أو النصف فیه،کلا..إنّه سریع الحساب یحصی علیهم حتی أنفاسهم و خفیّ ضمائرهم فیحاسبهم جمیعا علی کلّ ذلک فی ساعه یوم القیامه.

[١٨] وَ أَنْذِرْهُمْ یَوْمَ الْآزِفَهِ و هو أحد أسماء یوم القیامه،و لعلّ کلّ اسم من أسماء الآخره جاء بمناسبه معیّنه أو بحاله معینه.

و لهذا الاسم عدّه معان:

منها:أنّ القیامه قریبه جدا،من أزف الأمر إذا دنا وقته و اقترب،و فعلا الساعه قریبه فلا تفصلنا-نحن البشر-عنها عملیا إلاّ زجره الموت،و بعده یغفل عن أکثر الناس حتی قیام الساعه فیکونون کمن غطّ فی نوم عمیق سحابه نهاره

فیتصل عنده أوّل یومه بآخره و یکون ما یحدث علیه آخر النهار قریبا من أول النهار.

أمّا الذین محضوا الإیمان و الکفر فإنّهم إذا ماتوا قامت قیامتهم،فتدفع أرواح المؤمنین فی الجنان فور انتقالها من أبدانهم،و یعرض علی أرواح المعاندین النار غدوّا و عشیّا کآل فرعون،فالقیامه إذا قریبه منّا جمیعا.و فی القرآن إشاره الی هذا المعنی فی قوله تعالی: فَإِنَّما هِیَ زَجْرَهٌ واحِدَهٌ فَإِذا هُمْ بِالسّاهِرَهِ (1)و منها:أنّ العذاب یکون قریبا من الناس فی ذلک الیوم،أو أنّ روح الإنسان یقرب خروجها من جسده لأهوال ذلک الیوم.

إِذِ الْقُلُوبُ لَدَی الْحَناجِرِ کاظِمِینَ و ربما یکون المقصود من القلب هنا بالإضافه إلی الروح،القلب بواقعه المادی، ذلک أنّ الإنسان یحسّ و کأن قلبه یصعد الی الأعلی عند ما یتعرّض للفزع،و بالذات إذا کان مفاجئا لا یتوقعه،و لأنّ الناس کلّهم مشغولون بأنفسهم لا یجد الواحد طرفا یمکنه أن ینفعه یظهر له ما فی نفسه لذلک یخفی الجمیع ما فی صدورهم و یکظمون غیظهم، و حتی إذا أرادوا البوح فهل هی إلاّ ندامه و خسارا!بالإضافه إلی هیبه ذلک الیوم التی تعقل ألسنتهم،و إلی الملائکه الغلاظ الشداد الذین لا یأذنون لهم بالکلام،و إلی خشوع الأصوات جمیعا لربّ العالمین،فهم لهذه الأسباب و غیرها یضطرون للکظم بالرغم من شدّه غیظهم حتی لیکادون یتمیّزون حنقا.

ما لِلظّالِمِینَ مِنْ حَمِیمٍ و هو أقرب الأصدقاء و أحبّهم للإنسان،إذ تنقطع بینهم الروابط و العلاقات.

١- ١) النازعات١٣/-١۴.

وَ لاٰ شَفِیعٍ یُطٰاعُ و الشفیع هو الوسیط الذی یعرف الشخص و یقضی حاجته عند الآخرین،و قد تعوّد الظلام فی الدنیا علی التوسّل بالشفعاء فی بلوغ مآربهم و حلّ مشاکلهم، و لکنّهم فی الآخره لا یجدون الی الشفعاء سبیلا،لأنّ الذین اعتمدوا علیهم من أئمه الظلم هم بدورهم یریدون من یشفع لهم،و لو افترضنا أنّ أحدا صالحا أو طالحا تحمّل هذه المسؤولیه و حاول الشفاعه للظلمه فإنّه لا ینفعهم شیئا،إذ لا تعتبر الشفاعه عند اللّه للظلمه إنّما تنفع من تکون مسیرتهم العامه فی الحیاه سلیمه،فتأتی الشفاعه لترفع عنهم تبعات الذنوب الجزئیه.

فقد روی عن الإمام موسی بن جعفر-علیه السلام-أنّه قال :ما من مؤمن یرتکب ذنبا إلاّ ساءه ذلک و ندم علیه،و قد قال النبی صلی الله علیه و آله :«کفی بالندم توبه»،و قال:«من سرّته حسنته و ساءته سیئته فهو مؤمن»،فإن لم یندم علی ذنب یرتکبه فلیس بمؤمن،و لم تجب له الشفاعه و کان ظالما،و اللّه تعالی یقول:

مٰا لِلظّٰالِمِینَ مِنْ حَمِیمٍ وَ لاٰ شَفِیعٍ یُطٰاعُ (۱)هکذا نعرف أنّ الشفاعه إنما هی للتائبین الذین تسوؤهم سیئاتهم فیندمون علیها،و کفی بالندم توبه.

و حیث أکد ربّنا علی أنّ الشفاعه لا تنفع الظالمین،لأنّهم إنّما اعتقدوا بالشرکاء و بشفاعتهم لیتهربوا من المسؤولیه،فأراد اللّه بذلک تأکید المسؤولیه علیهم،و نفی هذه الذریعه التی یتوسّل بها البعض لاجتراح الجرائم.

[۱۹]و یمضی السیاق مؤکدا مسئولیه البشر بأنه تعالی یحصی علیه کلّ شیء،

۱- ۱) المصدر ص ۵۱۷.

و لا تفوته من تصرفاته صغيره و لا كبيره،و يكفى بهذا وازعا إيّاه عن المعصيه، و دافعا نحو تحمّل المسؤوليه.

يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ حيث ينظر الإنسان الى ما حرّم عليه أو أن يستخدم نظره فى غير أهدافه، كالتجسس على الناس و حسدهم،و النظر إلى أعراضهم و عموم عوراتهم و أسرارهم.

و فى الحديث قال الراوى :سألت أبا عبد اللّه عن قوله عزّ و جلّ:«يعلم خائنه الأعين»فقال:«ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشىء و كأنّه لا ينظر؟فذلك خائنه الأعين » (١)

و جاء فى تفسير هذه الآيه :أنّ النبى صلى الله عليه و آله حينما فتح اللّه له مكه المشرّفه أهدر دم بعض المشركين،و كان بينهم عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح،فجاء إليه عثمان يستأمنه منه فسكت النبىّ طويلا ليقتله بعض المؤمنين،ثم أمنه بعد تردّد المسأله من عثمان،و قال:أما كان منكم رجل رشيد يقوم الى هذا يقتله؟!فقال عباد بن بشر:يا رسول اللّه إنّ عينى ما زالت فى عينك انتظارا أن تومئ فأقتله، فقال صلى الله عليه و آله :«إنّ الأنبياء لا يكون لهم خائنه الأعين » (٢)بلى.قد تفوت نظرات الخيانه بنى البشر،أمّا اللّه فلا يفوته منها شىء..

و كيف يكون ذلك و هو يحيط بنوايا الإنسان و ما ينطوى عليه قلبه؟! و لو تعمّقنا فى هذه الآيه الكريمه،و اعتبرنا بها لاستطعنا أن ننزع من قلوبنا بذور النفاق و جذور الخيانه،لأنّ الإنسان حينما يتحسّس رقابه اللّه عليه،و يستشعر

١- ١) المصدر ص ٥١٧.

٢- ٢) المصدر

حقيقه علمه تعالى بما فى قلبه فإنّه لن ينافق أو يخون،و لن تأخذه روح اللامبالاه بالذنب.

وَ مٰا تُخْفِي الصُّدُورُ من نوايا يسعى نحو تحقيقها،و التى قد تخفى فى بعض الأحيان عن الإنسان نفسه.

[۲۰] وَ اللّٰهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ و إنّما يكون قضاؤه حقّا لحكمته و إحاطته بما يحكم فيه،فمهما حاول أحد أن يتعلّل و يقدم المعاذير ليفلت من العداله فلن يستطيع أبدا،لأنّ اللّه يعلم الغيب و الشهود حتى نوايا الضمير،و على الإنسان أن يبحث عن الحق و يلتزم به فهو وحده الذى ينفعه عند اللّه.

و كلمه«بالحق»توحى بأنّ وسائل الحكم و نتائجه كلّها حق،فربّنا يعتمد الحق فى تحديد الموضوع،و يعتمده أيضا فى تحديد الحكم و تنفيذه،أما الآخرون الذين يشرك بهم الظلمه و جهّال الناس فإنّهم لا مقياس لهم فى الحياه و الحكم فلا يصيبون حتى جزء من الحق.

وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ و السبب بالإضافه الى اعتمادهم الأهواء و الشهوات فى قضائهم أنّهم لا يحيطون بموضوعات الحكم إحاطه تامّه،فحكمهم قائم على الشهادات الظاهريه أو الظنون و التخرّصات،أمّا اللّه فهو يحيط إحاطه مطلقه بكلّ شيء مما يجعل حكمه حقّا تامّا.

إِنَّ اللّهَ هُوَ السَّمِیعُ الذی یحیط بکلام الناس و ما تنطوی علیه نفوسهم.

اَلْبَصِیرُ الذی یری تصرّفاتهم و أفعالهم.

و فی الآیه إیحاء بأنّ الباطل لا یمثّل شیئا.أو لیس الباطل کان زهوقا، فالشرکاء المزعومین یقضون بالباطل الذی لا یمثّل شیئا،و یا لروعه الکلمه و بلاغه التعبیر،فهم لا یقضون-عند اللّه-شیء بالرغم من أنّ الطغاه یتشدقون بألوف القوانین التی یتظاهرون أنّهم یقضون بها خلافات الناس،بینما یعقّدون بها فی -الواقع-أوضاع الناس،و یزیدون بأحکامهم الباطله هذه الصراعات، فیا لخساره تابعیهم!.

[۲۱]إنّ تحمّل أمانه المسؤولیه لأشد علی قلب الإنسان من حمل الجبال الراسیات،و إنّه-فی ذات الوقت-السبیل الوحید لنجاته،و القرآن یهدینا الی ذلک بحجج شتی،أبرزها بیان عاقبه أعمال البشر فی الآخره و قد تحدّث السیاق عنه آنفا،و الحجه الثانیه بیان عاقبه أعماله هنا،و لکن کیف نعرف ذلک؟إنّما بالنظر فی أحداث التاریخ،التی تکشف عن خطأ التکذیب بالحق،و بالتالی ضعف الإنسان أمام إراده ربّه المتجلّیه فی سنن الحیاه.

و أصدق کتاب ینبّؤنا عن حقائق التاریخ-بعد القرآن-آثار الغابرین علی الطبیعه،فلا بد من السیر فی الأرض و قراءه تلک الآثار.

أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ الَّذِینَ کٰانُوا مِنْ

قَبْلِهِمْ كٰانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثٰاراً فِی الْأَرْضِ یعنی قوه أبدانهم أو عموم أسباب القوه التی اجتمعت عندهم بحیث استطاعوا إعمار الأرض مادیّا بما لم یصل الی مستواه الأقوام الذین یعنیهم القرآن بخطابهم.

إلاّ أنّ هذه القوه و تلک الآثار لم تکن قائمه علی أساس صالح ینمیها و یحافظ علی کیانها،إنّما کانت القوه تزیدهم غرورا،و الإعمار یزیدهم کفرا و فسادا،ممّا دعاهم للإسراف فی المعصیه اعتمادا علیهما.

فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ و لکن لیس بظلم و إنّما بالحق.

بِذُنُوبِهِمْ و لم یکن ثمه أحد ینقذهم من عذاب اللّه و أخذه.

وَ مٰا کٰانَ لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وٰاقٍ فلم تنفعهم قوتهم و قدراتهم شیئا عند العذاب و لا أولئک الشرکاء الذین اعتقدوا بهم،إنّ الواقی الوحید هو عمل الإنسان الصالح الذی لم یتزوّدوا منه بالرغم من وصیه ربّهم حین قال لنا:« وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزّٰادِ التَّقْویٰ ».

[۲۲]و یبین القرآن السبب فی هلاکهم.

ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ کٰانَتْ تَأْتِیهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ و الرسل إنّما بعثهم اللّه لیستنقذوهم من الذنوب و ما تنتهی إلیه من العذاب، و لکنّهم رفضوهم و تمسکوا بقیاده الطواغیت،و رفضوا رسالاتهم و تمسکوا بالعقائد

و الأفكار المنحرفه،فما بقيت ضمانه لهم تمنع عنهم العذاب.

فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقٰابِ و إذ يصف اللّه نفسه هنا بالقوه و شدّه العقاب فلكى يبيّن لنا نوع العذاب الذى حلّ بهم،ببيان صفات منزله عليهم،و لكى يبين لنا من جانب آخر أنّه لم و لن يقدر أحد على منع العذاب عن الظالمين و الكافرين حين ينزل بساحتهم.

[۲۳]و كشاهد على تكذيب الأقوام تضرب الآيات لنا مثلا من واقع موسى عليه السلام مع قومه الذين كذّبوا برسالته.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا وَ سُلْطٰانٍ مُبِينٍ و لعلّ الآيات هى التوراه،و أمّا السلطان المبين فلعلّها المعاجز الّتى أظهرها اللّه على يد نبيّه عليه السلام كالعصا و اليد البيضاء.

[۲۴]و قد جاء موسى عليه السلام لتغيير الواقع المنحرف،و مقاومه الفساد المتمثّل فى الطاغوت و أعوانه،و كل من يجسّد ذلك الواقع.

إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ قٰارُونَ و هؤلاء هم نماذج مختلفه،كلّ واحد منهم يمثّل جانبا من الفساد،فرعون يجسّد الطاغوت الحاكم،و هامان يمثّل الجهاز الإدارى له،بينما يمثّل قارون بماله الرأسماليّه التى تمتصّ خيرات الشعوب،و قد جاء موسى عليه السلام لتصفيه هذه الأجهزه الثلاثه.

فَقٰالُوا سٰاحِرٌ كَذّٰابٌ

ص:۴۹

و واجهوا بهذا المنطق الباطل الحجج الظاهره و البينات فكان عاقبتهم الدمار كما تفصّله الآيات التاليه.

ص:۵۰

[سوره غافر (۴۰): الآيات ۲۵ الى ۳۳]

اشاره

فَلَمّا جٰاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا اُقْتُلُوا أَبْنٰاءَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اِسْتَحْيُوا نِسٰاءَهُمْ وَ مٰا كَيْدُ اَلْكٰافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ (۲۵) وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسىٰ وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخٰافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي اَلْأَرْضِ اَلْفَسٰادَ (۲۶) وَ قٰالَ مُوسىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاٰ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ اَلْحِسٰابِ (۲۷) وَ قٰالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمٰانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اَللّٰهُ وَ قَدْ جٰاءَكُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كٰاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صٰادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ اَلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّٰابٌ (۲۸) يٰا قَوْمِ لَكُمُ اَلْمُلْكُ اَلْيَوْمَ ظٰاهِرِينَ فِي اَلْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنٰا مِنْ بَأْسِ اَللّٰهِ إِنْ جٰاءَنٰا قٰالَ فِرْعَوْنُ مٰا أُرِيكُمْ إِلاّٰ مٰا أَرىٰ وَ مٰا أَهْدِيكُمْ إِلاّٰ سَبِيلَ اَلرَّشٰادِ (۲۹) وَ قٰالَ اَلَّذِي آمَنَ يٰا قَوْمِ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ اَلْأَحْزٰابِ (۳۰) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اَللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبٰادِ (۳۱) وَ يٰا قَوْمِ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ اَلتَّنٰادِ (۳۲) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مٰا لَكُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (۳۳)

اللغه

ص:۵۱

۳۲[یوم التّناد]:أصله التنادی،و إنّما حذف الیاء تخفیفا، و المراد به:أمّا یوم نزول العذاب،فإن فیه ینادی کلّ إنسان صاحبه بالفرار و الحذر،و أمّا یوم القیامه حیث ینادی أهل النار أهل الجنه:« أَنْ أَفِیضُوا عَلَیْنا مِنَ الْماءِ »و ینادی أهل الجنه أهل النار:« ما سَلَکَکُمْ فِی سَقَرَ ».

ص:۵۲

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ

هدى من الآيات:

تتكرر فى القرآن قصه موسى مع فرعون و ذلك لأسباب شتّى من أهمّها أنّ هذه القصه تكشف خلفيّات الصراع بين المستضعفين و المستكبرين،و الذى ينتهى بانتصار المستضعفين حين يتوسلون باللّه،و يتبعون القياده الشرعيه التى تستمد مواصفاتها من الحق المتجلّى فى رساله اللّه.

بينات من الآيات:

[۲۵]حينما جاء موسى بالتوراه و واجه فرعون و أتباعه بالبيّنات لم يكن عندهم منطق حقّ لمواجهته،لهذا توسلوا بالإرهاب الذى يمثّل منطق القوه.

فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا اقْتُلُوا أَبْنٰاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسٰاءَهُمْ

ص:۵۳

و قـد کـانوا یریـدون من وراء ذلـک الضـغط علیهم لکی یتنـازلوا عن مسـیرتهم الثـوریه،و یتخلّوا عن الجهـاد تحت رایه الحرکه الرسـالیه و قیادتهـا المتمثلـه فی نـبیّ اللّـه موسـی علیه السـلام ،و هـذا من أهمّ مـا یتوسـل به الطغـاه فی خططهم الرامیه لمـواجهه الحرکات الجهادیه عبر التاریخ، و لکن إذا اسـتقامت الجماهیر و واجهت طلائعها الضـغوط بوعی و حزم اسـتطاعت إفشال خطط الطغاه.

وَ مَا کَیْدُ الْکَافِرِینَ إِلاّ فِی ضَـلاَلٍ و الکید هو الخطه الماکره التی یستهدف صاحبها النیل من عدوّه،و ربّنا یصف کید الکافرین و الطغاه(کفرعون)بأنّه لا ینتهی الی النتیجه التی یتطلعون إلیها، بل ربما جاءت النتیجه مخالفه لمصالحهم،لأنّ أمرهم یشبه من یرمی فی الظلام و لا یدری لعلّه یقتل أقرب الناس إلیه.

و السـبب أنّ الخـط الإسـتراتیجی العـام للکفّـار خـط منحرف،فکلّما حاولوا تکتیکیّا أن یخططوا لأنفسـهم انتهت خططهم للفشـل بسـبب انحراف أفکارهم، کما لو افترضـنا شـخصا یریـد الـذهاب الی مدینه تقع شـمالا و لکنّه یتحرک باتجاه الجنوب،فإنّه مهما حـاول أن یکون تحرکه دقیقـا و مـدروسا فلن یصل الی هـدفه المنشود،و فکر الکفّار خاطئ لأنّهم یکفرون بالنقطه المحوریه فی الخلیقه و هی الإیمان باللّه عزّ و جل.

[۲۶]فالجـانب الأـول من خطتهم أن یفصـلوا النـاس عن الحرکه الرسـالیه من خلال الإرهاب و الضـغوط،أمّا الجانب الثانی منها و الذی یستهدف القضاء علی التحرّک الثوری فی المجتمع فهو القضاء علی النبی موسی علیه السلام محور الحرکه و قائدها.

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِی أَقْتُلْ مُوسیٰ

ص:۵۴

و من كلمه فرعون«ذرونی»يتضح أنّ خلافا تفشّی فی بيته حول تحديد الموقف المناسب من النبی عليه السلام ،و لعلّه كان من رأی جماعه منهم بالاستماع الی دعوته و مقارعه الحجه بالحجه و كان يمنع هذا الرأی فرعون من قتله،و حيث يعلم هو بخطئه و قصوره عن مواجهه موسی و رسالته بهذا الأسلوب حاول تجاوز هذا الرأی و إقناع أصحابه بقبول خطته القاضيه بتصفيه موسی عليه السلام تصفيه جسديه،و طالما يتكرّر و بصوره مستمره فی الثورات أنّ مفجّرها يثير الخلاف فی صفوف الطاغوت و قراراتهم تجاه الثوره.

و لأنّ فرعون تبنّی قرار التصفيه الجسديه أراد إقناع المخالفين له بصحه رأيه، و ذلك بتبرير أنّ موسی عليه السلام لم يكتف بقوه المنطق و حسب و إنّما تسلح أيضا بمنطق القوه.اذن مواجهته بهذا الأسلوب أمر موضوعی فی رأی الطاغوت.

وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ الذی تحدّانا به كثيرا،و هذا منطق كلّ الطغاه،إنّه لو كان الثائرون علی الحق إذن لكانوا أقوياء و لانتصروا لأنفسهم فعلا!إلاّ أنّ خلط القوه بالحق،و جعل القوّه الظاهريه الآنيه مقياسا لمعرفه الحق من الباطل خطأ كبير يقع فيه الطغاه،لأنّ الحق و القانون لا يتحدّد بالقوه و الإرهاب،فقد يكون الحق ضعيفا لعوامل خارجه عن إراده أصحابه،و قد يكون الباطل قويّا و لكن هذا لا يبدّل الباطل حقّا و الحقّ باطلا أبدا،و فی ما يلی من الآيات نجد المزيد من البيان فی خطأ هذه الفكره التی يعتمدها الطغاه فی تضليل الناس لأنّ هذه الفكره من الأسس التی تقوم عليها الأنظمه الفاسده و تعطيها صبغه الإرهاب و القمع،الذی يسعی الطغاه لتبريره بشتّی الحجج، فهذا فرعون يحاول تبرير قراره الإرهابی و تهيئه المعارضين له لقبوله.

إِنِّی أَخٰافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ

أى أفكـاركم و ثقـافتكم،و كـلّ أفكار يلتزم بها الناس فهى دينهم،و تبـدّل ثقافه الناس من ثقافه التخلف و القابليه بالطاغوت الى ثقافه ثوريه حضاريه من أشد الأمور خطوره على الطواغيت،فهم يخافون من حدوث ذلك كما صرّح فرعون بنفسه.

أو ليس النظـام الطـاغوتى هو إفراز لثقافه المجتمع،و بقاؤه يعتمـد على سـكوته؟ إذن فأىّ تغيير إيجابى فى هـذه الثقافه يعنى تغيّر النظام الحاكم أيضا.

و حيث أحسّ فرعون بخطوره الحركه الرساليه سعى بالإضافه الى ضغطه على تيّارها الاجتماعى و مؤيديها لفصلهم عنها،و قراره بقتـل قائـدها،سـعى الى إثـاره الناس ضـدها عن طريق الإيحاء لهم بأنّها تحارب دينهم و ما التزموا به هم و آباؤهم، هـذا فيما إذا سكت فرعون،أمّا إذا عارض موسـى فسوف تقع الفتنه بين الناس، و تسـبّب فى قتل الناس و تـدمير اقتصادهم،هكذا صوّر فرعون لقومه و قال:

أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسٰادَ و هاتـان التهمتـان همـا فى عرف السياسـيين اليوم أخطر مـا يمكن توجيهه للمعارضه و خاصه فى البلاد الديكتاتوريه،و القرآن يختصر بهذه العبارات الموجزه موقف الطغاه من الحركات التغييريه فى كلّ مكان و زمان.

[۲۷]أمّا موسـى عليه السـلام فهـو فى الوقت الـذى تحـدّى هـذا الغرور و العنجهيه الفرعونيه،لم يعتمـد على ذاته،و لا على منطق القوه،إنّما اعتمد و كسائر الأنبياء و الربّانيين على قوه ربّه و قوه الحق الذى يؤمن به و يجاهد من أجله.

وَ قٰالَ مُوسىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاٰ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسٰابِ

ص:۵۶

و التكبر و الكفر بيوم الحساب،هاتان الصفتان تنتهيان الى شىء واحد،هو ضياع المقاييس عند الإنسان،فإذا به يعتقد بأنّ ما تشتهيه نفسه هو الحق،فبتكبره لا يخضع للحق،و بكفره بالجزاء لا يتحسّس المسؤوليه،و لمقاومه شرّ هذا النوع من الرجال لا بدّ من الاستعاذه باللّه،أوّلا:للاستقامه أمام إغرائهم و إرهابهم،و ثانيا:

للاستلهام من الوحى سبل مقاومتهم.

[٢٨]و ينعطف السياق القرآنى ليكشف جانبا من الصراع الداخلى الذى يدور فى صفوف الطاغوت،حيث الموقف الرسالى الحاسم لمؤمن آل فرعون من النظام الفاسد،و الذى يكشف ظهوره فى هذا الموقع من الصراع عن مدى تغلغل الحركه الرساليه فى الأجهزه الفرعونيه،كما يعكس محتوى الاستعاذه باللّه و كيف أنّ ربّنا ينصر رسله برجال ادخرهم لمثل ذلك.

وَ قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ و هو حزقيل الذى بقى إيمانه طىّ الكتمان دهرا طويلا حسب بعض الأخبار، و إن دلّ هذا الأمر على شىء فإنّما يدلّ على أنّ أساليب النضال ليست واحده،بل ينبغى لكلّ مناضل أن يتحرّك فى جهاده من الخندق المناسب،و إذا كانت خنادق الجهاد تختلف-كما صوره-من شخص لشخص و من ظرف لآخر فإنّ الهدف يبقى واحدا و المحتوى هو المحتوى،بينما يقتضى الأمر الإلهى أن يفجّر موسى عليه السلام صراعا صريحا مع الطاغوت،و يتساقط أتباعه من بنى إسرائيل كأوراق الخريف بعاصفه الإرهاب،نجد هذا المؤمن المجاهد يحتفظ بمركزه فى بيت فرعون،ليقوم بدور أساسى فى هدم نظامه.

فبينما كان الطاغوت جالسا يتباحث أمر موسى عليه السلام مع خاصته ليكيدوا به و يقتلوه،و الكل يزعم بأن لا غريب بينهم،و إذا بالمؤمن ينهى فتره الصمت

و الكتمان و يستنكر عليهم قرارهم المنحرف.

أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللّٰهُ و هذا هو الحقّ و الواقع.

وَ قَدْ جٰاءَكُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ثم إنّ دعوته لم تكن مجرده،إنّما كانت مدعمه بالأدله و البراهين التى تؤكد صدقها،و إنها ليست من عند موسى نفسه بل من ربّ الخلائق،و لعل هذا الحدث كان ذا أثر عميق على فرعون و قاده نظامه،أن ينهض من بينهم شخص يؤيد المعارضه و ينتمى لها.

من هنا ينبغى لأولئك الذين يتوبون للّه من أعوان الظلمه،أن يدركوا أهميه كتمانهم،فلا يظهرون قرارهم بالتوبه،و إنّما يبعثون بشخص موثوق أو برساله،أو يلتقون هم بأنفسهم بالقياده الدينيه الواعيه،و يستطلعون رأيها،و يعرفون مسئوليتهم و الدور المناسب الذى يجب أن يمارسوه،كما

فعل نعيم بن مسعود الأشجعى الذى جاء الى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال:يا رسول اللّه!إنّى قد أسلمت و لم يعلم بى أحد من قومى،فمرنى بأمرك،فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله إنّما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت (يعنى شط الأعداء و جبنهم)فإنّما الحرب خدعه،فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظه فقال لهم:إنّى لكم صديق و اللّه ما أنتم و قريش و غطفان من محمد صلى الله عليه و آله بمنزله واحده.إنّ البلد بلدكم و به أموالكم و أبناؤكم و نساؤكم،و إنّما قريش و غطفان بلادهم غيرها،و إنّما جاؤوا حتى نزلوا معكم فإن رأوا فرصه انتهزوها،و إن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم و خلّوا بينكم و بين الرجل و لا طاقه لكم به،فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهنا من أشرافهم تستوثقون به أن لا

يبرحوا حتى يناجزوا محمـدا،فقالوا له:قـد أشـرت برأى،ثم ذهب فأتى أبا سـفيان و أشـراف قريش فقال:يا معشـر قريش إنّكم قد عرفتم ودّى إيّاكم،و فراقى محمـدا و دينه،و إنّى قـد جئتكم بنصـيحه فاكتموا علىّ،فقالوا:نفعل ما أنت عندنا بمتهم، فقال:تعلمون أنّ بنى قريظه فـد نـدموا على مـا صـنعوا فيمـا بينهم و بين محمـد فبعثوا إليه أنّه لاـ يرضـيك عنّا إلاّ أن نأخـذ من القوم رهنا من أشـرافهم و ندفعهم إليك فتضـرب أعناقهم ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك فقال:بلى.فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرا من رجـالكم فلاـ تعطوهم رجلاـ واحـدا،و احـذروا،ثم جاء غطفان و قال:يا معشـر غطفان إنّى رجل منكم،ثم قال لهم ما قال لقريش،فلما أصبح أبو سفيان و ذلك يوم السبت فى شوّال سنه خمس من الهجره بعث إليهم أبو سفيان عكرمه بن أبى جهل فى نفر من قريش أنّ أبا سـفيان يقول لكم:يا معشـر اليهود إنّ الكراع و الخف قد هلكا و إنّا لسنا بدار مقام فاخرجوا الى محمد حتى نناجزه، فبعثوا إليه:إنّ اليوم السـبت و هو يوم لا نعمل فيه شـيئا،و لسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم نسـتوثق بهم لا تذهبوا و تدعونا حتى نناجز محمدا فقال أبو سفيان:و اللّه قد حذرنا هذا نعيم،فبعث إليهم أبو سفيان:إنّا لا نعطيكم رجلا واحدا فإن شـئتم أن تخرجوا و تقاتلوا،و إن شئتم فاقعدوا،فقالت اليهود:هذا و اللّه الذى قال لنا نعيم،فبعثوا إليهم،إنّا و اللّه لا نقاتل حتى تعطونا رهنا.و خذّل اللّه بينهم،و بعث سـبحانه عليهم الريح فى ليال شاتيه بارده شديده البرد حتى انصرفوا راجعين.قال محمـد بن كعب قال حـذيفه بن اليمان:و اللّه لقـد رأيتنا يوم الخنـدق و بنا من الجهد و الجوع و الخوف ما لا يعلمه إلاّ اللّه،و قام رسول اللّه صـلى الله عليه و آله فصلّى مـا شـاء اللّه من الليـل ثم قـال:ألاـ رجـل يأتينـا بخبر القوم يجعله اللّه رفيقى فى الجنه.قـال حذيفه:فو اللّه ما قام منّا أحد ممّا بنا من الخوف و الجهد و الجوع،فلمّا لم يقم أحد دعانى فلم أجد بدّا من إجابته،قلت:

لبيك!قال اذهب فجئنى بخبر القوم و لا تحدثنّ شيئا حتى ترجع،قال:و أتيت

القوم فإذا ريح اللّه و جنوده يفعل بهم ما يفعل،ما يستمسك لهم بناء و لا تثبت لهم نار و لا تطمئن لهم قدر،فإنّى لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحاله ثم قال:يا معشر قريش لينظر أحدكم من جليسه،قال حذيفه:فبدأت بالذى عن يمينى فقلت:من أنت؟قال:أنا فلان،ثم عاد أبو سفيان براحليه فقال:يا معشر قريش!و اللّه ما أنتم بدار مقام،هلك الخفّ و الحافر،و أخلفتنا بنو قريظه،و هذه الريح لا يستمسک لنا معها شیء،ثم عجل فركب راحلته و إنّها لمعقوله ما حلّ عقالها إلاّ بعد ما ركبها.قال:قلت فى نفسى:لو رميت عدوّ اللّه فقتلته كنت قد صنعت شيئا، فوقرت قوسى،ثم وضعت السهم فى كبد القوس،و أنا أريد أن أرميه فأقتله، فذكرت قول رسول اللّه صلى الله عليه و آله :«لا تحدثنّ شيئا حتى ترجع»،قال:فحططت القوس ثم رجعت الى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و هو يصلّى فلّما سمع حسى فرّج بين رجليه فدخلت تحته،و أرسل على طائفه من مرطه(يعنى الكساء،و لعلّ الرسول كان يريد أن يخفيه حتى عن المسلمين ليبقى مجهولا فى تحرّكه)فركع و سجد،ثم قال:ما الخبر؟فأخبرته (1)و لا ريب أنّ الدور الذى مارسه مؤمن آل فرعون(حزقيل)لم يكن بعيدا عن قرار القياده الرساليه المتمثله يومئذ فى شخص موسى عليه السلام فقد بقى إيمانه طىّ الكتمان مدّه طويله،كان خلالها حذرا قوىّ المراوغه،فلم يفتضح أمره أبدا،و كان ثابت العقيده،راسخ الإيمان،فلم تغيّر المناصب و لا ـ المغريات من موقفه، و هو مع ذلك لم يعتبر الكتمان هدفا فى حركته،إنّما اعتبره وسيله لهدف،لهذا فجّر صراعه مع الطاغوت حيث كانت الظروف مناسبه للإعلان عن موقفه الواقعى،و ذلك حينما دافع عن موسى عليه السلام و عارض الطغيان الذى مارسه فرعون و نظامه الى حد رفض الآراء المعارضه و مواجهتها بالقتل و الإرهاب،قائلا:بأنّ الموقف السليم تجاه آراء

۱- ۱) مجمع البيان/ج ۷-۸ ص ۲۴۴-۳۴۵.

الآخرين ليس استخدام منطق القوه و إنّما استماعها و الإصغاء لصاحبها،فإن كانت خاطئه فليس ذلك مما يضرّ السلطه إذا كانت على الحق،و إن كانت صادقه و سليمه فيجب إتباعها و الانتفاع بها،و إلاّ فإنّ العاقبه ستكون غير محموده إذا رفض الإنسان الحق.

وَ إِنْ يَكُ كٰاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ و هو الذى يتحمّل مسئوليه رأيه و موقفه.

وَ إِنْ يَكُ صٰادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ هكذا تساءل مؤمن آل فرعون:لماذا تقتلون موسى؟فهو إن كان كاذبا لم نخسر نحن شيئا،و إن يكن صادقا فالأمر خطير بالنسبه لكم؟و كان هذا السؤال كافيا لو انطلق منه فرعون و حاشيته أن يوصلهم الى الحق،و لكنّ الشك المنهجى لا ينفع الذين حجبت شهواتهم عقولهم،و أرادوا الإسراف فى اللّذات ثم تبريرها بالأعذار و الأسباب الكاذبه.

إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ فقلبه متجه الى الشهوات كليه.

كَذّٰابٌ يستخدم لسانه فى تبرير شهواته،و الخلط بين الحق و الباطل و هذه من أخطر المشاكل التى يبتلى بها الإنسان،و لذلك

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :«أعوذ باللّه من قلب مطبق و لسان مطلق ».

[۲۹]و يبيّن المؤمن السبب الذى جعل فرعون و قومه يكفرون بموسى عليه السلام و هو

الخلط بين الحق و القوه،فقد زعموا بأنّ ما عندهم من قوه ظاهره تغنيهم عن البحث الجاد من أجل الوصول الى الحق و الالتزام به.

يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فأنتم أصحاب القوّه الماديّه و السيطره الاجتماعيه،و لا أحد ينافسكم،و لكن هل تبقى هذه القوه و تستمر؟ثمّ إذا حلّ غضب اللّه فهو لا يرد.

فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللّهِ إِنْ جاءَنا و بالطبع سوف تكون الإجابه على هذا السؤال بالنفى(لا أحد)إذن فما قيمه القوه التى لا تمنع عن أصحابها الأذى؟و كل هذه الأسئله و التى ستليها يجمعها سياق واحد هو:محاوله المؤمن من خلالها إثاره الشك المنهجى فى النفوس و قيادتها للحق.

و لعل المؤمن أفلح فى إيجاد جبهتين فى صفّ الحاكمين،مما دفع فرعون للتدخل من أجل حسم الخلاف و إنهائه لصالحه.

قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاّ ما أَرى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلاّ سَبِيلَ الرَّشادِ قطع عليهم مسيره الشك المنهجى و التفكير،قائلا:إنّكم لا تحتاجون الى التفكير،و لا أن تروا شيئا،فأنا أفكّر و أرى لكم،و لا أرى إلاّ الحق و لا أهدى إلاّ إليه،فيجب عليكم أن تسلّموا لى تسليما مطلقا،و هذا هو ديدن الطغاه فى كلّ مكان و زمان،و بالذات فى الدول الديكتاتوريه التى يعتقد حكّامها بأنّ صحفهم و إذاعاتهم و بالتالى رأيهم و فكرهم وحده الذى يجب أن تؤمن به الجماهير،و من هنا نهتدى إلى أنّ فرعون الذى حاربه موسى لم يكن سوى مظهر من مظاهر الطغيان عبر التاريخ.

ص:٦٢

[۳۱-۳۰]و إذا كان كلام فرعون هـذا قـد أخضع ظاهرا من كان حوله،فإنّ المؤمن بقى متصـلّبا فى نصـرته للحق،و التزامه ببصـيره الهدى،رغم تضليل الطاغوت،و هكذا ينبغى للمؤمنين فى كل الأمكنه و العصور.

وَ قٰالَ الَّذِی آمَنَ يٰا قَوْمِ إِنِّی أَخٰافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزٰابِ و هم كـلّ جمـاعه يتحزّبون على أسـاس الهوى ضـد الحق و من يمثّله،و كمثل لهذه الفئه يشير القرآن إشاره عابره إلى طوائف منهم ذهبت قصصهم عبرا و أحدوثات فى الأمم الغابره.

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُـوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُـودَ وَ الَّذِيـنَ مِنْ بَعْـدِهِمْ فهؤلاـء و إن اختلفـوا فى تـاريخهم و قصصـهم و فى عـاقبتهم إلاّـ أنّهم متشابهون فى جحودهم الحق،إذ كـذّبوا الرسل و خالفوا رسالاتهم،و هـذا الربط بين أحـداث التاريخ ثم الاهتداء بها الى سنّه اللّه فى الحياه يدلّ على عمق البصيره و الإيمان عند مؤمن آل فرعون.

و بعـد أن وجّه هـذا الـداعيه العقول الى عبر التاريـخ من خلال أحداثه المأساويه الفظيعه يؤكد على عداله اللّه و أنّ ما يصـير إليه البشر نتيجه تفكيرهم و سلوكهم لا نتيجه قدر إلهىّ ظالم،حاشا للّه.

وَ مَا اللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبٰادِ بل العباد هم الذين يظلمون أنفسهم حينما يخالفون الحق و سنن الحياه.

[۳۳-۳۲]ثم تابع تحذيره من يوم غضب اللّه.

ص:۶۳

وَ يٰا قَوْمِ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ یَوْمَ التَّنٰادِ حیث ینادی کلّ شخص بالآخرین لعلهم ینقذونه من العذاب.و کلمه «أخاف»التی یقولها المؤمن دلیل علی شفقته و رأفته بالناس.

ثم یبین واقع ذلک الیوم.

یَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِینَ مٰا لَکُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ لأنّ ما یعصم البشر من عذاب اللّه و نقمته هو الإیمان و العمل الصالح،و لیس عندکم من هذا شیء.

وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ فالهدایه مرتبه رفیعه لا یصل إلیها کلّ إنسان،و من یرید الهدایه فإنّها لا تحصل بالبحث عن الحق و تزکیه النفس و حسب،إنّما لا بد من التوسّل باللّه و دعائه،لأنّ الهدی الحقیقی لا یکون إلاّ من عنده و بإرادته،و الدلیل علی ذلک أنّه تعالی حینما یضلّ أحدا فلا سبیل بعدها لهدایته.

[سوره غافر (۴۰): الآيات ۳۴ الى ۴۰]

اشاره

وَ لَقَدْ جٰاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمّٰا جٰاءَكُمْ بِهِ حَتّٰى إِذٰا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اَللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذٰلِكَ يُضِلُّ اَللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتٰابٌ (۳۴) اَلَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِي آيٰاتِ اَللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اَللّٰهِ وَ عِنْدَ اَلَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّٰارٍ (۳۵) وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ يٰا هٰامٰانُ اِبْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ اَلْأَسْبٰابَ (۳۶) أَسْبٰابَ اَلسَّمٰاوٰاتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كٰاذِباً وَ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ اَلسَّبِيلِ وَ مٰا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاّٰ فِي تَبٰابٍ (۳۷) وَ قٰالَ اَلَّذِي آمَنَ يٰا قَوْمِ اِتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ اَلرَّشٰادِ (۳۸) يٰا قَوْمِ إِنَّمٰا هٰذِهِ اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيٰا مَتٰاعٌ وَ إِنَّ اَلْآخِرَةَ هِيَ دٰارُ اَلْقَرٰارِ (۳۹) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهٰا بِغَيْرِ حِسٰابٍ (۴۰)

اللغه

۳۷[تباب]:هلاك و خساره،من تبّ بمعنى هلك و خسر.

ص:۶۵

وَ مٰا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاّٰ فِی تَبٰابٍ

هدى من الآيات:

يشكّل نموذج فرعون في حكم مصر المحور المناقض ليوسف عليه السلام الذى حكم تلك الديار أيضا،و حينما لا يريد الإنسان أن يؤمن فسوف يجادل فى آيات اللّه سواء هبطت على يوسف عليه السلام الملك المقتدر،الذى جمعت فيه الصفات الحسنه الماديّه و المعنويّه،أو أنزلت على موسى عليه السلام الراعى الفقير و المنتمى الى طائفه مستضعفه مظلومه.و نموذج فرعون يناقض كلتا الرسالتين،لأنّ مقياس الإيمان أو الكفر هو القلب فتاره يكون خاشعا يسلّم للحق و لمن يجسّده فى المجتمع،و تاره يكون متكبّرا يكفر بكلّ ذلك،مهما كان الشخص الذى يمثّل الحق،و مهما كانت الآيات بيّنه واضحه.

و يذكّر ربنا فى هذا الدرس بهذه الحقيقه،فبينما نجد شخصا كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه مزروعا فى قلب النظام الطاغوتى،و محاطا بكلّ إرهاب فرعون و إغرائه و تضليله،نجد شخصا آخر يعيش فى كنف يوسف عليه السلام ،حيث الملك و الرخاء

و الهدايه،و لكنّه يكفر فى قلبه بالحق،و لا يؤمن إيمانا حقيقيّا بيوسف و بربه.

بينات من الآيات

[۳۴]يوسف عليه السلام هو أحد الأبناء الاثنى عشر ليعقوب عليه السلام و الذى يسمّى بالعبريه إسرائيل أى عبد اللّه،و من صلب هؤلاء الإخوه انسلّ بنو إسرائيل فى اثنى عشر سبطا و قبيله،و يوسف كان أحد آبائهم الكبار.

و قد بعث يوسف عليه السلام بالرساله و أصبح ملكا مقتدرا يخضع له أهل مصر،فقد جمعت عنده الكمالات الماديه بالملک و السيطره،و المعنويه بالرساله،و بالرغم من ذلک كفر به البعض،و لكنّهم قالوا فى أنفسهم:لا نظهر هذا الكفر بل ننتظر حتى يموت يوسف فنسيطر بعده على الحكم و الملک.

وَ لَقَدْ جٰاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ موسى عليه السلام .

بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمّٰا جٰاءَكُمْ بِهِ لأنّ قلوبكم لا تريد الإيمان،و إلّا فالأدله واضحه.

حَتّٰى إِذٰا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً مع أنّه-عليه السلام-جاءهم بالخير و الفضل،و لا يدلّ موقفهم إلّا على الضلال الذى كتب عليهم بسبب إسرافهم و تردّدهم فى الريب.

و الآيه توحى بأنّ شعب مصر أسلم ظاهرا على يد يوسف إلّا أنّه كان يحبّذ العوده إلى ضلالته،لأنّه كان فاسدا بالإسراف و الارتياب،و سرعان ما عاد إلى

كفره بعد هلاك يوسف، و كأنّه قد استراح بموت يوسف..و هناک أحاديث تدلّ على إسلام الشعب المصرى على يده.

كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتٰابٌ و هنا تكشف الآيه عن سبب موقفهم المنحرف من الحق،و هو إسرافهم من الناحيه العمليه،فلا يقنعون بما عندهم من الخير و النعمه،و ارتيابهم من الناحيه النظريه و النفسيه،فلا يسلّمون للحق و البينات،و إذا أمعنّا النظر لوجدنا كلتا الصفتين تنتهيان إلى صفه واحده هى عدم التسليم للحق،و عدم الاكتفاء بما أعطاهم اللّه،و طلب المزيد،المزيد من النعم الى حدّ الإسراف،و المزيد من الأدلّه إلى حدّ الجدل فى الآيات الواضحات.

و تدلّ هذه الآيه على أنّه كانت ليوسف رساله الى قوم مصر،و قد وفّر اللّه لهم فرصه الهدايه بهذه الصوره الفريده حيث جعل مليكهم الحبيب رسولا إليهم لعلّهم يهتدون.و لعلّ الحكمه فى ذلک كانت شدّه تعلّق الشعب المصرى ذا الحضاره النهريه بالسلطه السياسيه مما حدى بموسى-عليه السلام-أيضا الى التوجّه الى شخص فرعون الحاكم الأعلى لبلادهم.

[۳۵]و نسأل:من هم المرتابون؟و يجيب القرآن: اَلَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِی آيٰاتِ اللّٰهِ ،و يحاولون تحريفها من دون أدنى حجه،و الحال أنّ الذى يخالف فكره مّا لا بد أن يأتى بأخرى مثلها أو أفضل منها.

اَلَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِی آيٰاتِ اللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ و تشمل الآيه-كما يبدو-الذين يحرّفون آيات اللّه، و يتصرّفون فيها بغير تفويض من اللّه،فهم يضعون أنفسهم مواضع الحكم بلا سلطان من اللّه.

ص:۶۹

كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا فاللّه يمقتهم فيذلّهم فى الدنيا و يضلّ أعمالهم و لا يدعهم يفلحون أبدا.أمّا الذين آمنوا فيمقتونهم فلا ينخدعون بهم و لا يسلّمون لقيادتهم.و هاتان عاقبتان سيئتان لهم.أمّا العاقبه السوءى فهى سلب فرصه الهدايه عنهم إلى الأبد،و ذلك بإطفاء شعله الهدى من قلوبهم.

كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّٰارٍ و الجبّار هو الذى يسعى لقهر الآخرين و التسلّط عليهم،و هى من نزعات الملوك و الحكّام الظلمه.أمّا المتكبّر فهو الذى لا يتواضع للحق،و لا يقتنع بواقعه،إنّما يتصوّر نفسه دائما أكبر من حجمه الحقيقى،و من هذه صفته فإنّ قلبه يصير منغلقا فيختم اللّه عليه بسلب نور العقل و الفطره منه.

و التعبير القرآنى دقيق جدا حينما قال:« كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّٰارٍ »و مع أنّ بعضا من المفسّرين قالوا بأنّه يساوى قولنا:قلب كل متكبّر جبّار،إلاّ أنّه يبدو أنّ السياق القرآنى أراد بيان حقيقه هامّه هى:إنّ الطبع على القلب تختلف نسبته باختلاف الصفات السلبيه عند الإنسان،فقد يطبع اللّه بنسبه خمسين بالمائه على قلب الزانى أو السارق،أمّا المتكبر الجبّار فإنّه يطبع على قلبه كلّه أى مائه بالمائه،و هذا يكفى لبيان الخلفيّات السيئه جدا لهاتين الصفتين.

[۳۶-۳۷]و لأنّ بنى إسرائيل لم يؤمنوا إيمانا حقيقا فى ظلّ يوسف الملك النبى فقد ابتلاهم اللّه بفرعون يحكم من ذات الأريكه،و شتّان بين الإثنين،و حقّا إنّها عاقبه الكفر بالنعمه.

و يوجّهنا السياق هنا إلى النهايات السيئه لهذا التحوّل،لعلّنا ننتبه الى أنّ

الكفر برسالات اللّه،و الإسراف و الارتياب و التكبّر و التجبّر،و بالتالى التملّص من مسئوليات النظام العادل و الحاكم العادل-كيوسف عليه السلام-قد لا تظهر عاقبته فى البدايه و لكنّها عند الختام،حيث يكون مصير المجتمع ما انتهى إليه أهل مصر،إذ ابتلوا بحاكم مثل فرعون.و هكذا علينا ألاّ تخدعنا المظاهر الخلاّبه لحضاره الشهوات بل ندرسها من خلال نهاياتها المأساويه،و ما قيمه بدايه الغرور مع عاقبه السوء.

وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ يٰا هٰامٰانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبٰابَ بعد أن فشل فرعون فى إقناع من حوله بضروره قتل موسى عليه السلام ،ممّا أثبت ضعف حجته،حاول الاعتماد على القوه الماديه لفرض سيطرته على الجماهير،و هذه مرحله من المراحل التى تمرّ بها الحضارات،فهى تبدأ بالقيم قويه حيويه،و تبلغ المظاهر الماديه قبل أن تصل نهايتها إمّا بالدمار الشامل أو حاله العبثيه المطلقه و الانطواء التام.و هكذا نظام فرعون حينما تبيّن لهم خواؤه المعنوى و فراغه العلمى، توجّه الى البنايات الضخمه،حيث بنى صرحا عظيما حاول الوصول به الى إله موسى،و هذا مؤشّر واضح على نظرته الشيئيه للحياه،و سعيه لتحدّى القيم المعنويه بالمظاهر الماديه.

إنّه سعى نحو مواجهه إله موسى عزّ و جل،و تحدّيه سبحانه بما لديه من إمكانات محدوده،كما فعل نمرود حين أمر بإعدام سجين و إطلاق الآخر،و قال لإبراهيم متحدّيا ربّ العزّه:أنا أحيى و أميت،و هكذا يفعل الطغاه فى كلّ عصر.إنّهم يقومون-أمام كلّ حركه تحرريه-باستعراض قوّتهم لفرض الهيبه التى تكاد تسقط أمام عاصفه الثوره.

و قد يكون فرعون هو الذى بنى بعض أهرامات مصر حسبما توحى به هذه الايه

الکریمه،و التی کان یسعی من خلالها لتضلیل الناس و بلوغ أعلی مکان فی نظره و هی أسباب السموات.

أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَی إِلَهِ مُوسَی وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ کَاذِباً و هذا دیدن الطغاه.إنّهم یستصدرون الأحکام فی مختلف القضایا بعیدا عن المنهجیه السلیمه حیث یعلم فرعون بأنّ الإله الحق الذی یدعو إلیه موسی علیه السلام لا یدرک بالمقاییس المادیه،و لکنّه أخذ یستخدم منهجا مادیّا بحثا للتعرّف علی اللّه -سبحانه و تعالی-و النتیجه التی سیصل إلیها حتی إذا قدّر أنّه بلغ السموات العلی خاطئه،و علی ضوء هذا المنهج سیکون موسی کاذبا.

و من المعروف أنّ فرعون کان یسخّر المستضعفین لبناء الصرح سخره و بلا أجور،و کان الکثیر من هؤلاء التعساء الذین کان یحشرهم من مختلف أنحاء مصر یموتون تحت ضغط الکدح،و سوء التغذیه،و انتشار الأمراض،و کان قد خصّص الی جنب أهرامات مصر أراضی واسعه لاستقبال جثث هؤلاء المساکین مما أثار هذا العمل بذاته غضب الجماهیر،و هیّأ أرضیه التحوّل عند شعب مصر.

وَ کَذَلِکَ زُیِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ بسبب تراکم العادات و الممارسات السیئه علی قلبه المتکبر الجبّار،فکان یری الباطل حقّا و العکس،الی هذا المستوی الهابط من الإعتقاد،حیث زعم أنّه یتحدّی بقوّته المحدوده إراده اللّه.ألم یر الجبال کیف أرساها الربّ،و أنّه إذا صعد علیها رجل لا یری السماء إلاّ بمثل ما یراها علی الأرض؟!أو لم یعلم أنّ عاصفه واحده تکفی لاقتلاع مظاهر قوّته فی لحظه؟!و قد جاء فی الحدیث:أنّ هامان رفع الصرح حتی منعته العواصف من الاستمرار،و لم یلبث أن جاءت عاصفه رهیبه

و قضت عليه. (۱)

و من جمله الآثار النفسيه التی یخلّفها العناد و الإصرار علی ممارسه السیئه الصدّ عن سبیل اللّه.

وَ صُدَّ عَنِ السَّبِیلِ و هو القیاده الرسالیه التی تمثّل رساله اللّه،و التی تهدی البشر الی ربّه الرحیم، و هل یخضع المتکبر الی الحق،أو هل یرتضی الجبّار العدل؟کلاّ.إذن فهو سوف یتبع الباطل فی الحیاه،و حیث رفض السبیل الی اللّه(القیاده الرسالیه)فسوف یحاربها و یکید لها.

و لکن سنّه اللّه و إرادته فوق محاولات فرعون الفاشله لإطفاء نوره عزّ و جل.

وَ مٰا کَیْدُ فِرْعَوْنَ إِلاّٰ فِی تَبٰابٍ أی یحوطه الفشل و الخسران من کلّ جانب.

[۳۸]و هنا یبرز علی مسرح الأحداث مره أخری مؤمن آل فرعون الذی کتم إیمانه ثم تحدّی به الطاغوت فی اللحظه المناسبه فحاز علی فضیله الکتمان و فضیله التحدّی معا،و هی کلمه الحق عند السلطان الجائر.و نحن إذا تعمقنا فی قصه هذا المؤمن من خلال القرآن الحکیم،نعرف حینها المعنی الحقیقی للتقیّه فی الإسلام، و یجب أن نبلور هذا المفهوم لأنّ التقاه تحوّلت لدی الکثیر الی تبریر للتقاعس و النکوص عن الجهاد،بینما التقیه(التقاه)فی مفهوم الرساله هی العمل و الجهاد المرکّز و المستمر بعیدا عن أعین الطغاه حتی تحین لحظه التحدّی الکبیر.و هل یحتاج

۱- ۱) نقلا عن موسوعه بحار الأنوار/ج ۱۳ ص ۱۲۵.

الی الکتمان إلاّ من یجاهد الطغاه؟! إنّ البعض یجعل کلمه التقیه بدیلا عن العمل و التحرک فی ظروف القمع و الإرهاب،و لکنّه لا یتحرّک حتی فی الظروف المناسبه،و مثال ذلک الکثیر من الشعوب التی ترفض التجاوب مع الحرکات الرسالیه و تعلّل ذلک بوجود الإرهاب، و لکنّها ترفض الجهاد حتی فی المهجر حیث لا إرهاب و لا شرطه.

إنّ(التقاه)حقّا هی أن تحافظ علی نفسک و تحرککَ الجهادی بعیدا عن سطوه الظالم فی ظلّ الإرهاب،لتحتفظ بقوتک لیوم الصراع.

و هکذا کان مؤمن آل فرعون(حزقیل)یکتم إیمانه،و یتحرّک فی ظلّ توجیهات القیاده الرسالیه،منتظرا الساعه المناسبه لتفجیر الصراع مع الطاغوت،و ها قد حلّ أوانها حیث جمع فرعون وزراءه و أنصاره و قوات جیشه و سحرته لیقرّروا قتل موسی علیه السلام ،فاستبسل من بینهم و تحدّی الظلم و الظالمین لیضرب لنا مثلا صادقا عن التقیه التی یرتضیها اللّه تعالی،و هی النابعه من الإیمان و الإراده و التخطیط و العمل،و لیست الناتجه عن خور العزیمه و خوف الإنسان و حبّه للراحه.فهی إذن تمهید للتحدی،و جمع للقوی،لتفجیر الصراع فی وقته المناسب.

و هکذا استطاع مؤمن آل فرعون تعویق مؤامرات فرعون التی استهدفت قتل موسی علیه السلام،و بذلک وفی ربّنا عهده لرسوله الأمین بنصره و تأییده.

وَ قٰالَ الَّذِی آمَنَ یٰا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِکُمْ سَبِیلَ الرَّشٰادِ فهو من جهه تحدّی فرعون،و من جهه أخری طالب من حوله باتباعه،و هکذا ینبغی للرسالیین أن یثقوا برسالتهم فی الحیاه،و أن یطرحوا أنفسهم قاده للناس بدیلا عن القیادات الفاسده.

ص:۷۴

[۳۹]و حیث شخّص المؤمن جذر الانحراف و نقطه الضعف التی تدعوهم للالتفاف حول فرعون و اتباعه و هی المادیه التی تتجسّد فی اللّهث وراء حطام الدنیا،ذکّرهم بالآخره التی تتمیّز عن الدنیا بنوعیّه نعیمها الأفضل،بینما الدنیا بما فیها تشبه المتاع الذی یأخذه المسافر معه و هو قلیل و محدود،کما أکّد علی مفارقه أخری هامّه هی:انّ نعیم الآخره دائم لا ینتهی حیث یلغی فیها حساب الزمن، بینما الدنیا محدوده جدّا.

یٰا قَوْمِ إِنَّمٰا هٰذِهِ الْحَیٰاهُ الدُّنْیٰا مَتٰاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَهَ هِیَ دٰارُ الْقَرٰارِ و هل یختار العاقل تلک علی هذه؟!!کلاّ..

[۴۰]و یمضی المؤمن فی بیان معالم ثقافته الرسالیه رغبه منه فی إنقاذ الناس من ضلالات الطاغوت،قائلا:

مَنْ عَمِلَ سَیِّئَهً فَلاٰ یُجْزیٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا عداله و رحمه من اللّه بعباده،و لعلّه أراد من ذلک فضح سیاسه فرعون القائمه علی الظلم و الجور.

وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فالمقیاس عند اللّه هو العمل،أمّا التمایزات المادیه و الظاهریه-التی تقرها الأنظمه البشریه الفاسده-فلا معنی لها أبدا.بلی.هناک أمر واحد یرتکز علیه العمل فلا یقبل إلاّ به و هو الإیمان.و الذین یتوفّر لدیهم هذان الشرطان (العمل+الایمان)هم الذین یدخلون الجنه.

فَأُولٰئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ یُرْزَقُونَ فِیهٰا بِغَیْرِ حِسٰابٍ

إنّ مشكله الكثير من الذين يرفضون الإيمان بالحق و العمل به هو انّهم ينظرون له من خلال البلاء و المعاناه التى يستتبعها الإيمان به،و ليس من علاج لهذه المشكله أفضل من التوجيه الى نعيم الآخره الذى هو ثمره الإيمان و العمل.و حيث ركّز المؤمن حديثه مع أتباع فرعون الغارقين فى الماده أراد علاج هذه المشكله،فهم يتساءلون:نحن الآن نترك فرعون و نخسر هذا النعيم فما ذا نجد باتباع الحق؟

ص:٧۶

[سوره غافر (۴۰): الآیات ۴۱ الی ۵۰]

اشاره

وَ يٰا قَوْمِ مٰا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى اَلنَّجٰاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى اَلنّٰارِ (۴۱) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ مٰا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى اَلْعَزِيزِ اَلْغَفّٰارِ (۴۲) لاٰ جَرَمَ أَنَّمٰا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي اَلدُّنْيٰا وَ لاٰ فِي اَلْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنٰا إِلَى اَللّٰهِ وَ أَنَّ اَلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ (۴۳) فَسَتَذْكُرُونَ مٰا أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ (۴۴) فَوَقٰاهُ اَللّٰهُ سَيِّئٰاتِ مٰا مَكَرُوا وَ حٰاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ اَلْعَذٰابِ (۴۵) اَلنّٰارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ اَلْعَذٰابِ (۴۶) وَ إِذْ يَتَحٰاجُّونَ فِي اَلنّٰارِ فَيَقُولُ اَلضُّعَفٰاءُ لِلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا إِنّٰا كُنّٰا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّٰا نَصِيباً مِنَ اَلنّٰارِ (۴۷) قٰالَ اَلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا إِنّٰا كُلٌّ فِيهٰا إِنَّ اَللّٰهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ اَلْعِبٰادِ (۴۸) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ فِي اَلنّٰارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ اُدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنّٰا يَوْماً مِنَ اَلْعَذٰابِ (۴۹) قٰالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالُوا بَلىٰ قٰالُوا فَادْعُوا وَ مٰا دُعٰاءُ اَلْكٰافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ (۵۰)

و أفوّض أمری إلی اللّه

هدی من الآیات:

کما البرق الخاطف فی جوّ مدلهم فی لیل داج،شعّت کلمات المؤمن فی بیت فرعون،و هم یتآمرون علی حیاه صاحب الرساله موسی بن عمران علیه السلام.

لقد قال لهم:إنّنی أدعوکم لنجاه أنفسکم من النار التی تحیط بکم،بینما أنتم تدعوننی لألتحق بکم فی سواء اللهب.بلی.إنّ الکفر باللّه و الشرک به(و اتباع سلطه غیر شرعیه)ان ذلک بذاته النار التی هم فیها،أمّا هو فإنّ دعوته الی النجاه منها بالإیمان باللّه العزیز الغفّار.

أنتم تدعوننی الی الشرکاء الذین لا ینبغی أن یدعو أحد إلیهم،لأنّهم تافهون حقراء،بینما أنا أدعوکم الی من إلیه مصیرنا جمیعا،و أنتم تدعوننی الی الإسراف الذی لا ریب ینتهی بصاحبه الی النار،بینما أدعوکم الی التقوی.

و تحدّاهم(حین لم یستجیبوا له)بأنّه ینتظر و إیاهم عاقبه الأمر حین یستذکرون

إنذاره،أمّا هو فقد فوّض أمره الى اللّه الذى وقاه سيئات ما مكروا،بينما أحاط بآل فرعون سوء العذاب،ففى عالم البرزخ يعرضون على النار صباحا و مساء،و إذا قامت الساعه يذوقون فى جهنم أشدّ العذاب.

هنالك حيث لا ينفع الضعفاء تبريرهم بأنّهم إنّما اتبعوا كبراءهم فلذلك لا بد أن يتحملوا عنهم نصيبا من العذاب،كلا كل من الضعفاء و المستكبرين فى النار بحكم اللّه الذى لا ينقض حكمه أحد.

بينات من الآيات:

[۴۱]لا يطيب الموت فى فم أحد إلاّ أنّ المترفين أشدّ هيبه منه،لأنّهم أحرص على حياه الدنيا،و أعمق اغترارا بزخارفها،و لا بد أن يضرب الدعاء إلى اللّه على هذا الوتر الحسّاس فى أفئده المترفين،و يذكّروهم بالموت و ما بعد من الجزاء الشديد،و كفى به موعظه لمن يريد هدى و خلاصا.

و هكذا فعل مؤمن آل فرعون حين ذكّرهم بعاقبه الدعوتين،دعوه الحق و دعوه الباطل.

وَ يٰا قَوْمِ مٰا لِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجٰاهِ وَ تَدْعُونَنِى إِلَى النّٰارِ إنّهم الآن فى النار و قد أحاطت بهم من كلّ صوب،السياسه طغيان، و الإقتصاد ترف،و التربيه انحراف،و الاعلام ضلاله،فهم يتقلبون فى سرادقات الجحيم،و إنما يدعوهم المؤمن للنجاه،بما تحتاجه من همّه و سعى و اجتهاد،و لكنهم يدعونه الى التوغّل فى النار.

و الآيه تشملنا أيضا،فباستثناء المتقين يعيش الناس فى سواء النار،ما دامت الشهوات تقودهم،و الفساد يحيط بهم،و قد قال ربّنا سبحانه: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّ

وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّالِمِینَ فِیها جِثِیًّا (۱)و نتساءل:کیف نحن جمیعا فی النار إلاّ المتقین؟ أ رأیت جرثومه السل فی المجهر؟أو سمعت بفیروس الجذام؟إنّهما فی الواقع یمثلان ذات المرض الذی تظهر أعراضه علی المسلول و المجذوم،و لکنّ الخبیر وحده یعرف ذلک،أمّا الجاهل فتراه یستنکر أن تکون هذه الجرثومه و ذلک الفیروس هو ذات المرض..کذلک خبیر المتفجّرات یعرف مدی قوه النار الکامنه فی کیلو غرام من ماده متفجّره حارقه،أمّا الجاهل فلعلّه یحسبها ترابا،کذلک الواعون یعرفون أنّ مال الیتیم هو ذاته اللّهب إذا أکله الغاصب،و أنّ الکذب ریحته نتنه تخرج من فم صاحبها و تنتظره علی باب جهنم،و أنّ الظلم الیوم ذاته ظلمات فی القیامه، و هکذا..

[۴۲]و النار التی یدعو المؤمن للنجاه منها هی الکفر باللّه الذی یتمثّل بالشرک به.فما هو الشرک؟إنّه الخضوع لأحد من دون أن یأذن اللّه و ینزل علیه سلطانا مبینا.

تَدْعُونَنِی لِأَکْفُرَ بِاللّهِ لعلّ قوم فرعون کانوا جاحدین باللّه رأسا،أو کانوا مشرکین و شرکهم دعاهم الی الکفر،لذلک قال لهم مؤمنهم:

وَ أُشْرِکَ بِهِ ما لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ

ص:۸۱

۱- ۱) مریم۷۲/.

و نستوحی من هذه الآیه کما من آیات أخری أنّ مجرد التسلیم لما لا یعلم الإنسان یقینا ان اللّه أمره به شرک.

و قد خلق اللّه الإنسان عبدا له لا لغیره،و لم یأذن له بأن یتنازل عن حریته لأحد أبدا،بل فرض علیه مقاومه من یرید سلب حریته و الاعتداء علی حرمه استقلاله،و اعتبر مجرد التسلیم للطاغیه شرکا،و إنّ الشرک لظلم عظیم.

أمّا دعوه الحق فهی الی اللّه:

وَ أَنَا أَدْعُوکُمْ إِلَی الْعَزِیزِ الْغَفّٰارِ فبعزته یهیمن علینا و یفرض سلطانه،و بمغفرته یقبل التوبه عن عباده المسرفین، الذین طالما سکتوا عن جرائم الطاغوت،و غدوا یأکلون رزق اللّه و یعبدون عدوّه، کما قبل توبه السحره.

[۴۳]لا ریب أنّ البشر-أنّی سخر القوی المادیه-یحیط به الضعف من کل جهه،فهو محکوم بسنن اللّه،و إنّما یسعی للطغیان لعلّه یخفّف عن ضعفه،لعلّه یمنع عن نفسه المرض و الشیخوخه و الموت،فهو أضعف من أن یمنح الآخرین قوّه..

و هکذا فهو لیس جدیرا بالدعوه إلیه.

لاٰ جَرَمَ أَنَّمٰا تَدْعُونَنِی إِلَیْهِ لَیْسَ لَهُ دَعْوَهٌ فِی الدُّنْیٰا وَ لاٰ فِی الْآخِرَهِ انها مجرّد خرافات و أوهام و أمانی و غرور.

و تفسیر کلمه«لا جرم»حرفیّا:لا قطع،و تعنی أنّه لا أحد قادر علی قطع هذا الکلام أو نقضه،فهو کلام حق،و قد استخدمها مؤمن آل فرعون لمزید من الثقه بهذه الحقیقه،و لتحدّی حاله الخوف و الرغبه عند أنصار فرعون الذین فقدوا کلّ

استقلالهم و ثقتهم بأنفسهم أمام طغيان فرعون..و إن كانوا يتفكرون قليلا لعرفوا أنّ فرعون أضعف من أن يفرض عليهم سلطانه،إنّه إن لم يكن أقلّ منهم قوه فلا ريب أنّه كواحد منهم،و إنّما يستمدّ قوته من ضعفهم،و هيبته من ذلّهم،و لو أنّهم عرفوا قيمه أنفسهم حقّا لوجدوه تافها حقيرا،و أنّه-بالتالى-ليس له دعوه، و لا فرق بينه و بين صخره صمّاء أو بقره عجماء أو شجره مسوسه.أ رأيت هؤلاء الذين يعبدون صنما أو بقرا أو شجره هل يعطيهم ما يعبدونه شيئا أم هم الذين يضفون عليه قداسه و يعطونه القوه على حسابهم؟ أمّا اللّه الذى يدعو إليه المؤمن فإليه مصير الجميع،فهو خير من دعى و أكرم.

وَ أَنَّ مَرَدَّنٰا إِلَى اللّٰهِ ثم ذكّرهم بالحقيقه الفطريه التى أودعت ضمير كلّ إنسان،تلك هى أنّ اللّه الذى خلق كل شىء و قدّره تقديرا حكيما،و انبثّت آيات عدله و حكمته فى كلّ صغيره و كبيره،لا يستقبل بترحاب المسرفين الذين تجاوزوا حدودهم، و اعتدوا على حقوق الآخرين،إنّما يودعهم سجنه الأليم النار و ساءت مصيرا.

وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحٰابُ النّٰارِ لو أيقن الإنسان حقّا أنّه يرد الى اللّه،و أنّ اللّه هو الذى يحاسبه و يجازيه،لارتدع عن الجرائم،لأنه يعلم أنّ ربّه بصير بعباده،و أنّه لا يمكن خداعه أو الهرب منه، و أنه لا يظلم أحدا،فهو الحكم العدل العزيز الجبار.

و هكذا نجد السياق يوصل المردّ الى اللّه بأنّ عاقبه المسرفين النار،و هى حقيقه فطريه لا جرم فيها و لا جدال.

ص:٨٣

[۴۴]إذا عرف المبتلی أنّ سبب آلامه سوء اختیاره،و أنّه کان یقدر أن یتقیها بحسن عمله،ازداد إحساسا بالألم.

و هکذا ذکّرهم داعیه الحقّ بأنّهم-فی یوم الجزاء-سوف یذکرون ما قال لهم،و یعلمون صدقه،فیضاعف إلی ألم أجسادهم عذاب روحی شدید.

فَسَتَذْکُرُونَ مٰا أَقُولُ لَکُمْ أمّا هو فقد بلغ أقصی درجات الیقین،ففوّض أمره الی ربّه،لذلک لا یحتمل قلبه الجدل فی تلک الحقائق التی سردها.

وَ أُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَی اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ بَصِیرٌ بِالْعِبٰادِ فهو یعلم ما فی صدور المفوّضین أمورهم الیه من إخلاص و یقین،و لذلک فهو یأخذ بأیدیهم.

و لعل ختام الآیه یهدینا الی شرط التفویض،و هو أعلی درجات الیقین،و هو الإخلاص.

و هناک شروط أخری للتفویض نجدها

فی الحدیث الذی رواه البعض عن الإمام الصادق-علیه السلام -:

المفوّض أمره إلی اللّه فی راحه الأبد،و عیش الدائم الرغد،و المفوّض حقّا هو الفانی عن کلّ همّه دون اللّه تعالی،کما قال أمیر المؤمنین علی:رضیت بما قسم اللّه لی،و فوّضت أمری إلی خالقی،کما أحسن اللّه فیما مضی کذلک یحسن

فیما بقی..قال اللّه عزّ و جلّ فی المؤمن من آل فرعون: وَ أَفَوِّضُ أَمْرِی إِلَی اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ بَصِیرٌ بِالْعِبٰادِ فَوَقٰاهُ اللّٰهُ سَیِّئٰاتِ مٰا مَکَرُوا وَ حٰاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذٰابِ .

و التفویض خمسه(أی أنّها خمس کلمات)لکلّ حرف منها حکم،فمن أتی بأحکامه فقد أتی به،«التاء»من ترکه التدبیر فی الدنیا،و«الفاء»من فناء کلّ همّه غیر اللّه تعالی،و«الواو»من وفاء العهد و تصدیق الوعد،و«الیاء» الیأس من نفسک و الیقین من ربّک،و«الضاد»من الضمیر الصافی للّه و الضروره إلیه،و المفوّض لا یصبح إلاّ سالما من جمیع الآفات،و لا یمسی إلاّ معافی بدینه (۱) [۴۵]و حین فوّض حزقیل أمره الی اللّه،تولاّه ربّ العزه بأحسن وجه،فحفظه من مکر آل فرعون،بینما أحاط بهم سوء العذاب.

فَوَقٰاهُ اللّٰهُ سَیِّئٰاتِ مٰا مَکَرُوا جاء فی بعض التفاسیر أنّه التحق بموسی علیه السلام و عبر البحر معه الی برّ الأمان، و قال البعض:إنّه اعتصم ببعض الجبال و سخر اللّه الوحوش للدفاع عنه. (۲)

و جاء فی حدیثین عن الإمام الصادق-علیه السلام -انّ عاقبه أمر حزقیل کانت الشهاده،و أنّ اللّه سبحانه إنّما وقی دینه عن مکر أولئک المفسدین..

قال:«و اللّه لقد قطّعوه إربا إربا،و لکن وقاه اللّه عزّ و جلّ أن یفتنوه عن دینه » (۳)بلی.قد یختار ربّنا هذه الخاتمه الحسنی لبعض الدعاه إلیه حین یعرف أنّ ذلک

ص:۸۵

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۴ ص ۵۲۰.

۲- ۲) عن مجمع البیان عند تفسیر الآیه.

۳- ۳) نور الثقلین/ج ۴-ص ۵۲۱.

صلاح لهم و للقضيه فيتقبّلها هؤلاء بكلّ رحابه صدر،أوّلا:لأنّها غايه مناهم، و ثانيا:لأنّها تحقّق أهدافهم التى أخلصوا لها،فإذا كان تحقيق الأهداف لا يمكن إلاّ عبر الشهاده فأهلا بها و ألف مرحبا.

وَ حٰاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذٰابِ لقد حقّ عليهم العذاب السىء لأنّهم ما استجابوا للنذير.

[۴۶]ما هو سوء العذاب الذى حاق بآل فرعون؟كلّنا يعلم أنّهم أغرقوا فى اليمّ،و أورث اللّه بنى إسرائيل ديارهم و أموالهم،و لكنّ السياق هنا يتجاوز ذلك الى عذاب آخر أشدّ من الغرق.لماذا؟ إنّ الإنسان يعرف جانبا من أهوال الغرق،خصوصا إذا شمل مئات الألوف من الناس،كما جرى لآل فرعون.و لكن السياق يذكّرنا بأنّ هذه الأهوال بسيطه إذا قيست بعذاب الآخره.أو ليس الموت مكتوبا على كلّ نفس؟و أنّى كانت أسبابه فإنّ مرارته فى لحظات.أمّا النار التى أنذر بها الوحى فهى خالده.أمّا فى البرزخ فإنّها:

اَلنّٰارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا غُدُوًّا وَ عَشِيًّا و نستوحى من الآيه أنّ أرواح الكفار تؤخذ كلّ يوم مرّتين إلى النار:أوّل النهار و آخره،و لعلّ مجرد زياره النار تعتبر عذابا سيئا،إذ أنّهم يمسّهم لهيبها،و يردعون بألوان العذاب فيها.أو أنّهم يدخلون سواء النار ليعذبوا فيها مباشره.

و فى الحديث عن الإمام الصادق-عليه السلام-فى تفسير هذه الآيه أنه:

سأل أوّلا عن تفسير الناس لهذه الآيه،فقال:ما يقول الناس؟قال الراوى:

يقولون:إنّها فی نار الخلد،و هم لا یعذّبون فیما بین ذلک،فقال:فهم من السعداء!فقیل له جعلت فداک!فکیف هذا؟فقال:إنّما هذا فی الدنیا،فأمّا فی نار الخلد فهو قوله: وَ یَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذٰابِ (۱)و حسب هذا التفسیر فإنّ أرواح الکفّار تعذّب فی البرزخ بعذاب أخفّ من عذاب الآخره،و لذلک

روی عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه سئل عن أرواح المشرکین؟ فقال:فی النار یعذّبون،یقولون:ربّنا لا تقم الساعه،و لا تنجز لنا[ما]وعدتنا، و لا تلحق آخرنا بأولنا (۲) وَ یَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذٰابِ [۴۷]و یبقی السؤال:لماذا أدخل اللّه کلّ آل فرعون أشدّ العذاب،بینما المجرم الأصلی هو فرعون و جنوده؟ الجواب:إنّ الضعفاء منهم خضعوا لفرعون،و رضوا به،فشارکوه الجزاء الشدید،و لم ینفعهم تبریرهم بأنّهم کانوا أتباعا لفرعون زاعمین أنّ فرعون و المستکبرین یتحمّلون عنهم وزر أعمالهم،کلا..

وَ إِذْ یَتَحٰاجُّونَ فِی النّٰارِ فَیَقُولُ الضُّعَفٰاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنّٰا کُنّٰا لَکُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّٰا نَصِیباً مِنَ النّٰارِ هنالک تسقط هذه الأعذار الواهیه التی یحاول الضعفاء تبریر سکوتهم عن المستکبرین بها.

کما یقال مثلا:أنا عسکری و علیّ طاعه قیادتی،أو یقال:المأمور معذور،أو

۱- ۱) المصدر/ص ۵۲۳.

۲- ۲) المصدر/ص ۵۲۳.

يقال:بأنّ القياده أعرف و أنّ الملوك أعلم بالصلاح و أبخص.كلا..إنّ كلّ بشر مسئول بصوره مستقله يوم القيامه عن كلّ مواقفه و أعماله.

[۴۸]و هكذا يسدل الستار على هذه المحاجه عند ما يكشف المستكبرون عن مدى عجزهم.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا كُلٌّ فِيها نحن و أنتم،فكيف نستطيع إنقاذكم و نحن لا نستطيع إنقاذ أنفسنا منها.

إِنَّ اللّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ و لا أحد بقادر على أن يفرّ من حكومه اللّه.

و هكذا كشف السياق بأنّ الذين يدعون من دون اللّه ليست لهم دعوه فى الدنيا و لا فى الآخره و أنّهم جميعا فى النار،كما بيّن السياق:نهايه الخضوع للطاغوت أنّها المشاركه معه فى النار،بينما عاقبه الثائرين عليه،أنّ اللّه يحفظهم من مكر الطاغوت،كما وقى مؤمن آل فرعون سيئات ما مكروا.

[۴۹]و بعد أن يقنط أهل النار من شفاعه بعضهم،يدفعهم الألم الى التوسل بخزنه جهنم،و هم الملائكه الغلاظ الشداد الذين وكّلوا بهم،و كلّفوا بالإشراف على تعذيبهم،فيتوسل بهم أصحاب النار لعلّهم يشفعون لهم عند ربّهم ليخفّف عنهم يوما من النار.

وَ قالَ الَّذِينَ فِي النّارِ سواء المستكبرون منهم و الضعفاء.

لِخَزَنَهِ جَهَنَّمَ و حفظه الجحيم.

اُدْعُوا رَبَّكُمْ و نتساءل:لماذا لم يبادروا بالدعاء بأنفسهم؟يبدو أنّه لا يحقّ لهم يومئذ التحدّث مباشره مع ربّ العزه كما كان يحقّ لهم فى دار الدنيا،و إنها لفرصه نادره ينبغى أن ننتهزها اليوم قبل فوتها غدا،

و قد جاء فى الدعاء المأثور :

«اللهم أذنت لى فى دعائك و مسئلتك،فاسمع يا سميع مدحتى،و أجب يا رحيم دعوتى » (۱)و سوف نتحدث إن شاء اللّه عن الدعاء و فضيلته قريبا.

يُخَفِّفْ عَنّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ فبعد أن فشلوا فى إلقاء جانب من العذاب على بعضهم بحجه أنّهم السبب فيه، حاولوا التخفيف فى برهه زمنيه،مثلا-بمقدار يوم من أيام الدنيا،و هل كان ينفعهم التخفيف فى يوم لو عادوا مره أخرى الى النار؟!كلا..و لكن لسوء العذاب و شدّه الألم كانوا يحاولون التخلّص منه بأيّه حجه،و لكن عبثا.

[۵۰]لقد جاء رفض الخزنه لطلبهم كالصاعقه صدعت أفئدتهم ألما،ليس فقط لأنّ بصيص الأمل الوحيد تبدّل عندهم إلى اليأس،و إنّما أيضا لأنّه حفل بالشماته،ممّا أضاف ألما نفسيّا الى آلامهم الجسميه.

۱- ۱) دعاء الافتتاح من أدعيه شهر رمضان.

قٰالُوا أَ وَ لَمْ تَکُ تَأْتِیکُمْ رُسُلُکُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ لقد عذّبوا بعد الإنذار،و الإنذار تمّ بوضوح کاف حیث حمله إلیهم رسل اللّه مدعوما بالآیات البینات.

قٰالُوا بَلیٰ فاعترفوا بعداله حکم اللّه علیهم بالعذاب.

قٰالُوا فَادْعُوا ما شئتم کثیرا أو قلیلا،و لکن اعلموا أنّه عبث.

وَ مٰا دُعٰاءُ الْکٰافِرِینَ إِلاّٰ فِی ضَلاٰلٍ فکما أنّ الضال کلّما جدّ فی السیر لم یبلغ هدفه،کذلک دعاء الکافر الذی أضاع فرصته فی الدنیا للتوبه،و أخذ یدعو فی الآخره.

ص:۹۰

[سوره غافر (۴۰): الآیات ۵۱ الی ۵۹]

اشاره

إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا فِی اَلْحَیاةِ اَلدُّنْیا وَ یَوْمَ یَقُومُ اَلْأَشْهادُ (۵۱) یَوْمَ لا یَنْفَعُ اَلظّالِمِینَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اَللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ
اَلدّارِ (۵۲) وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی اَلْهُدی وَ أَوْرَثْنا بَنِی إِسْرائِیلَ اَلْکِتابَ (۵۳) هُدیً وَ ذِکْری لِأُولِی اَلْأَلْبابِ (۵۴) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اَللّهِ
حَقٌّ وَ اِسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ بِالْعَشِیِّ وَ اَلْإِبْکارِ (۵۵) إِنَّ اَلَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اَللّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِی
صُدُورِهِمْ إِلاّ کِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِیهِ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْبَصِیرُ (۵۶) لَخَلْقُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ أَکْبَرُ مِنْ خَلْقِ اَلنّاسِ وَ لکِنَّ
أَکْثَرَ اَلنّاسِ لا یَعْلَمُونَ (۵۷) وَ ما یَسْتَوِی اَلْأَعْمی وَ اَلْبَصِیرُ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ وَ لاَ اَلْمُسِیءُ قَلِیلاً ما تَتَذَکَّرُونَ (۵۸)
إِنَّ اَلسّاعَةَ لَآتِیَةٌ لا رَیْبَ فِیها وَ لکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّاسِ لا یُؤْمِنُونَ (۵۹)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ

هدى من الآيات:

فی إطار الحدیث عن صلابه الشخصیه،و استقامتها عند المؤمن،الی درجه نراه یعیش فی کنف الطاغوت و هو یکتم إیمانه عنه سنین عدیده،ثم یتحدّاه فی ساعه المواجهه مفوضا أمره الی اللّه..فی هذا الإطار تحمل آیات هذا الدرس وعدا من اللّه بنصره رسله و المؤمنین بهم(بنصره أهدافهم المقدسه)و یضرب لنا من قصه موسی مثلا حین أنزل علیه الهدی،و ضمّنه فی کتاب أورثه بنی إسرائیل،و لکنّ النصر یأتی بعد عدّه أمور یوفّرها المؤمن:

أوّلا:الصبر انتظارا لوعد اللّه الحق.

ثانیا:الاستغفار من الذنوب(و إصلاح النفس حتی تتهیّأ لاستقبال النصر).

ثالثا:تسبیح اللّه آخر النهار و أوّله.

ص:۹۳

رابعا:التسليم للحق،و الاستعاذه باللّه من الكبر الذى يبعث البعض نحو المجادله فى آيات اللّه بغير سلطان أتاهم،ذلك أنّ هذا الكبر(الذى ينشأ من النزوع نحو الربوبيه)لا يبلغه الإنسان أبدا،و ما قيمه الإنسان حتى يتكبر على ربّه؟!أولا يرى أنّ اللّه خلق السموات و الأرض و هنّ أكبر منه؟!و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون.

خامسا:العمل الصالح،ذلك لأنّه لا يستوى الأعمى و البصير،كما لا يستوى المسيئون و الصالحون،و أنّ اللّه يجازى كلا بعمله يوم تقوم الساعه،و بالرغم من أنّها لا ريب فيها إلاّ أنّ أكثر الناس لا يؤمنون.

بينات من الآيات:

[۵۱]لقد وعد اللّه-و من أصدق من اللّه قيلا-أن ينصر رسله الذين حمّلهم مسئوليه بلاغ وحيه،و أمرهم بأن يتوكلوا عليه،و يفوّضوا أمورهم إليه،و هيهات أن يخلف معهم وعده أو يخذلهم بعد أن أمرهم بالتوكّل عليه،أو يتركهم بعد أن فوّضوا أمورهم الى حسن تدبيره.

و هذا النصر يمتدّ الى تابعى الرسل من المؤمنين،لأنّهم جميعا يشتركون فى المسؤوليه و العاقبه.

إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا و لكى لا يزعم البعض أنّ نصر اللّه مخصوص بالآخره فقد أكّد أنّ نصره يمتدّ من الدنيا إلى الآخره:

فِى الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا

ص:۹۴

و القرآن الكريم كلّه شاهد على مسيره النصر،شروعا من نوح عليه السلام و انتهاء بمحمد صلى الله عليه و آله و مرورا بسائر النبيين و الصّدّيقين و الشهداء و الصالحين،صلّى عليهم جميعا مليك السماء.

و إذا سرنا في الأرض،و أثرنا ذخائر المدن،و بحثنا عن بقايا الحضارات البائده،وجدنا شواهد التاريخ تدلّنا أيضا على تلك الحقيقه.

أمّا كتب التاريخ فبالرغم من أنّها تأثّرت بطبيعه المؤلفين لها إلاّ أنّ من قرأ فيها الحقائق و ترك التفسيرات يجد بين ثناياها ألف دليل و دليل على تلك الحقيقه.

و بكلّ المقاييس لا تزال حوادث الدنيا اليوميه تشهد امتدادا لحركه الأنبياء، عبر توسّع الديانات السماويه و المزيد من التوجّه الى تعاليمها.

بلى.إنّنا قد نجد مصير بعض الدعاه الشهاده أو لا- أقل الاعتقال و التهجير، فأين النصر منهم؟! أو لم يقتل السبط الشهيد بكربلاء؟!كما قتل المئات من أنصار الحق بعد استتباب الأمر للأمويين؟!بلى.و لكنّ النصر المطلوب ليس دائما انتصار الأشخاص،بل قد يفدى الشخص نفسه لدينه و قيمه راضيا مسرورا،و قد عبّر أحد الشعراء عن هذه الحقيقه فيما يتصل بالإمام الحسين سيد الشهداء عليه السلام :

إن كان دين محمد لم يستقم إلاّ بقتلى فيا سيوف خذينى

و عند ما سقط بطل الطف عن جواده مثخنا بالجروح البليغه،و حوله تناثرت جثث أهل بيته و أصحابه،و فى الأفق صيحات أطفاله:العطش العطش،و عويل النساء و الثكالى،حينذاك جمع حفنه من التراب،و وضع خدّه عليها،و ناجى ربّه قائلا:

«إلهى رضا برضاك،لا معبود سواك »بلى.إنّه كان يعلم أنّ السبيل

الوحید لحمل الرساله إلی القلوب هو استشهاده،و أنّ قطره الدم أبلغ أنباء من الکتب و الخطب.

و لا یزال السبط الشهید عالما یستلهم منه أبناء أمتنا البطولات،و ینتصرون لدینهم بأنفسهم..و کأیّن من مؤمن اعتلی عرش المشانق مطمئنا راضیا لتنتصر قیمه المقدسه،و کأیّن من مجاهد آثر الشهاده علی الحیاه لیعلو بناء الحق و العدل، و لتقوّض أرکان الظلم و الفساد.

و سؤال أخیر:کیف ینتصر الربّ لرسله و المؤمنین؟ لیس بالضروره أن یکون بصوره غیبیه،مما نجدها فی طوفان نوح،و تحوّل النار لإبراهیم الی برد و سلام،و عصا موسی،و إحیاء الأموات عند عیسی،و تأیید رسولنا الأکرم بالملائکه المسوّمین،صلی اللّه علیهم جمیعا.

بل قد یکون عبر السنن الجاریه فی الخلیقه،ذلک أنّ سنن اللّه الحاکمه فی الکائنات قائمه علی أساس الحق(فقد خلق اللّه السموات و الأرض بالحق) و رسالات اللّه تهدینا الی ذلک الحق،و رسل اللّه و المؤمنون مستقیمون علیه،و تلتقی أفکارهم و أعمالهم عند نقطه الحق مع حرکه الخلائق جمیعا،فلا جرم ینتصرون، أ رأیت لو أخبرت خصمک اللجوج أنّ الشمس تشرق بعد ساعه و کان حقا إنباؤک، فعند الشروق تنهار مقاومته،لأنّها سنه اللّه ألاّ تتأخّر الشمس عن شروقها لمجرد أنّ شخصا لجوجا یجادل فی ذلک،کذلک حین أنبأت رسالات اللّه أنّ عاقبه الظالمین الدمار بالرغم من أنّهم یجادلون فی ذلک،إلاّ أنه فی ساعه الدمار لا أحد قادر علی إنکار الحق،هکذا سنن اللّه تجری فی الاتجاه الذی تهتدی إلیه رسالات اللّه و لن تجد لسنه اللّه تبدیلا.

و التجلّی الأعظم لحقیقه رسالات اللّه لا یکون إلاّ عند قیام الساعه،ذلک لأنّ

الدنيا دار ابتلاء،و ستبقى فيها فرصه الإنكار أو الجدل لمن حقت عليه كلمه الضلال،فحتى عصا موسى الذى ابتلع حبال السحره لم يفحم فرعون الجاحد بل قال للسحره: إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً .

و هكذا ذكّرتنا الآيه هنا:أنّ النصر الشامل للرسل يكون عند انتهاء وقت الامتحان و حلول ساعه الجزاء.

وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ هنالك الولايه للّه و الشهاده لأوليائه،حيث يرى الناس المقام الكريم و المقام المحمود للرسل و المؤمنين حيث يقومون بالشهاده لهذا فيدخل الجنه و على هذا فيدخله اللّه النار.

[۵۲]أمّا الظالمون فهم الخاسرون إذ لا تنفعهم الأعذار التى عاده يبرّرون بها ظلمهم فى الدنيا،كما أنّهم يلاحقون بلعنه اللّه و الطرد عن بركاته و رحماته،كما أنّ مستقرّهم الأخير يكون النار.

يَوْمَ لاٰ يَنْفَعُ الظّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَهُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدّارِ [۵۳]لقد نصر اللّه المؤمنين من بنى إسرائيل عند ما هيّأ لهم قائدا كريما كموسى بن عمران،و زوّده بالتوراه،فيها هدى يحتوى على جمله القيم و التعاليم المباركه،و فيها ذكرى و مواعظ لمن شاء أن يزداد قربا من ربّه و وصولا الى الحقائق التى هى اللباب و الجوهر.

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدىٰ وَ أَوْرَثْنا بَنِى إِسْرائِيلَ الْكِتابَ

و يبدو أنّ الوراثه هنا توحى إلى أمرين:

الأوّل:إنّ الكتاب أعظم رأسمال و أكبر مجد،و كان بمثابه المحور الثابت الذى تدور حوله فاعليّات الأمه.

الثانى:إنّ الكتاب ظلّ بينهم يرثه الجيل بعد الجيل بينما رحل عنهم قائدهم موسى عليه السلام.

[۵۴]و لم يكن وجود الكتاب بين بنى إسرائيل بذاته مفخره لهم بل الاهتداء به و التذكر بآياته و هذا كان خاصا بأولى الألباب.

هُدیً وَ ذِکْریٰ لِأُولِی الْأَلْبٰابِ [۵۵]ماذا ينبغى أن يقوم به الرسل و المؤمنون تمهيدا لنصر اللّه،بل و ثمنا مدفوعا سلفا لهذه النعمه الكبرى؟ أوّلا:لا بدّ من الصبر،و الذى يعنى-بمعناه الشامل-الصبر فى تنفيذ الأوامر،و الصبر عند الشدائد،و بكلمه:السعى و الاجتهاد الآن انتظارا للنتائج المستقبليه،فمن كان عجولا،و كان يفتّش عن نتائج سريعه،فإنّه لن يبلغ مناه..

و رأسمال الصبر الإيمان بوعد اللّه،و أنّه حق لا ريب فيه.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ ثانيا:الاستغفار الذى يسقط سدود الذنوب التى تمنع النصر الإلهى،و يهىء أرضيه الفتح،و يوجه الإنسان الى نواقصه الذاتيه لكى يصلحها.

وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ

ص:۹۸

ثالثا:التقرّب الی اللّه بالمزيـد من التسبيـح و التقـديس لمقام ربّنا الكريم،حتی لا نظنّ بربنا ظنّ السوء فيوسوس الشـيطان فی قلوبنا الشكوک حول وعده أو نفقد خلال المسيره شيئا من عزمنا فی تأييد دينه.

رابعـا:التقرّب الی اللّه بحمـده عشـيّا و بكورا،ذلـک أنّ حمـد اللّه يجعلنا نتبصّـر النعم التی أسـبغها علينا فتمنع عنّا القنوط و النظره التشاؤميه.

وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ إنّ حمد اللّه يؤدّی الی تسبيحه،فمن عرف أنّ ما تصيبنا من حسنه فمن عنده و ما تصيبنا من سيئه فمن عند أنفسنا نزّه ربّه من النقص و نسبه السيئات إليه سبحانه.

و لعل هـذا أحد معانی الباء فی قوله«بحمد ربک»فيكون الحمد وسـيله التقديس لربّنا العظيم،و هو أقرب من أن نجعل معنی الباء مجرد المعيّه ليكون المفهوم سبّح و احمد ربک.

[۵۶]و لا بدّ أن نسـلّم لربّ العالمين،و معنی التسليم له الإيمان بآياته و الاحتراز من الجدل فيها،فمن يجادل فيها انطلاقا من أهوائه و بغير سـلطان مبين و حجه واضحه من عقله فقد استحوذ عليه الشيطان،و أثار فی نفسه الكبر الذی انطوت عليه حيث نازعت ربّ العزه رداء الالوهيه فأخزاه اللّه و لعنه و أبعده عن تحقيق مناه.

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِی آيَاتِ اللَّهِ المجـادل فی آيـات اللّه يغلق منافـذ قلبه عن النور.أو ليست آيـات اللّه فی الطـبيعه و آيـاته فی الكتاب تجلّيات لظهوره و أمواج نوره،فمن نظر إليها نظره ذاتيه دون أن

يجعلهـا وسـيله لبلوغ غيرهـا أصـيب بالعمى.أ رأيت الـذى ينظر الى المرآه ليعرف طولها و عرضـها،لا يمكن أن ينظر الى صورته فيهـا،أو رأيت الـذى يلاحظ فى علامات السـير طبيعه خطّها و طريقه صـنعها،لا ينتفع بإشاراتها،كـذلك عالم الطبيعه الـذى يركّز نظره فى خصائص الماده دون أن يجعلها معبرا إلى أسماء اللّه.

و من النـاس من عقـد عزمه على ألاّـ يعرف الحقيقه،لأـنّ الحقيقه تخالف ما انطوت عليه نفسه من الكبر،بل إنّ مجرد التسـليم لها يتنافى و حاله الكبر التى فى قلبه.

بلى.إنّما يجوز الجدال فى آيات اللّه إذا كان يملك الإنسان الحجه الكافيه من اللّه،حينئذ يمكن تفسـير آيه أو تأويلها انطلاقا من تلك الحجه،و أخذا بمبدإ النسخ فى الآيات كما قال ربّنا: مٰا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ .

أمّا من لا يملك حجه و سلطانا،فلا يجوز له إلاّ التسليم.

بِغَيْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰاهُمْ و يبدو أنّ المراد منه الوحى.

إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلاّٰ كِبْرٌ مٰا هُمْ بِبٰالِغِيهِ ما هو ذا الكبر الـذى لا يبلغوه؟هل هو مطلق الكبر و حبّ الـذات،و هو النفس؟أم أنّه أكبر من ذلـك؟ يبـدو لى أنّه نزعه الأـلوهيه فى النفس،حيث يزعم الإنسـان أنّه قـادر على بلوغ درجه الأـلوهيه بإمكاناته المحـدوده،و بعمره القصير..و لعل سائر الخصال الذميمه تنبع من هذا الإحساس الخاطئ،و بالرغم من أنّ الإنسان لن يحقّق هذه الرغبه

فإنّه يتعب نفسه من أجلها حتى يكون من الهالكين،و أبرز مثل لهذه النزعه الفراعنه و الطغاه الذين ينازعون اللّه رداء العظمه،و إنّما أثار إبليس هذه النزعه فى نفس آدم أبى البشر حين أطمعه فى الخلود و الملك الدائم.

و كفّار قريش و كلّ الكفّار فى التاريخ و الحاضر يتبعون هذه النزعه حين يرفضون التسليم للحق،لأنّ تسليمهم للحق يفرض عليهم التسليم لقيمه و شرائعه،و لمن يمثّل تلك القيم و ينفّذ الشرائع من القيادات الإلهيه.

و إنّ العلم-أيّ علم-يفرض على صاحبه مسئوليه و لذلك فهو صعب مستصعب،لأنّ احتمال المسؤوليه أمر عظيم،لذلك ترفض النفس البشريه الانفتاح أمام حقائق العلم إلاّ بصعوبه بالغه.

و لكى نتخلّص من جذر الفساد فى النفس و هو هذا الكبر،علينا أن نستعيذ باللّه،لأنّ الشيطان غوى مضل مبين،و هو يتقن أساليب المكر و الخداع،و يعرف من أين يدخل فى قلب هذا البشر الساذج،و لولا الاستعاذه باللّه تضعف النفس أمام وساوسه و أمانيه.

فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ فهو يسمع أقوال المتكبرين و المجادلين و يبصر أعمالهم، كما يسمع همسات المناجين ربّهم المستعيذين من مكر الشيطان و يبصر أعمالهم.

و نتساءل:كيف نستعيذ باللّه؟ أوّلا:بالدعاء و المناجاه.و الملاحظ أنّ المؤمن قد تهجم عليه أمواج البلاء أو صنوف الإغراء فيتردّد قليلا فى الأمر،و لكنّه بمجرّد أن يدعو اللّه حتى يعطيه القوه

الكافيه لمقاومه الشيطان.

ثانيا:بمعرفه اللّه و التقرّب إليه بذكره و تسبيحه و الثقه بنصره.

[۵۷]و من الوسائل الناجحه لمحاربه كبر النفس النظر فى عظيم خلق اللّه و قيامه بذاته،فهل أنا المتكبر أكبر أم الجبال أم الأرض أم الشمس و القمر؟!و أساسا:من أنا بالقياس الى هذا الخلق العظيم؟! لَخَلْقُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّٰاسِ تعالوا لننظر الى ملكوت السموات و الأرض،لنتعرف على الحجم الحقيقى لأنفسنا،أنا واحد من خمسه آلاف مليون إنسان يمشون اليوم فوق كوكبنا،و الإنسان واحد من ألوف الأحياء،و الأحياء نوع من عشرات الأجناس غير الحيه،ثم كلّ ما فى الأرض لا تحتلّ إلاّ مساحه محدوده منها،ثم إنّى لا أعيش عليها إلاّ سنين معدودات،لو قيست بالملايين من سنى عمر الأرض لكانت كلحظه خاطفه.

ثم الأرض هذه تابع صغير للشمس،فحجمها أقلّ من واحد الى مليون من حجم أمّها،و هى لا تزال تعيش على مقربه منها كالرضيع لا يبتعد عن أمّه،و لكن مع ذلك تبلغ المسافه بين كوكبنا و الشمس حوالى ثلاثه و تسعين مليون ميل!! أمّا الشمس فهى من عضوات مجره تحتوى على نحو من مائه مليون شمس..

و لكن هذه المجره ليست الوحيده فى هذا الفضاء الأرحب،بل هى واحده من عشرات الملايين من المجرّات اكتشفها البشر،و كلّما اخترعوا أجهزه جديده اكتشفوا ملايين جديده من المجرّات،حتى شاعت بين علماء الفضاء فكره تقول:إنّ الكون يشهد ولاده مجرات جديده لا تستطيع أن تلاحقها أجهزتنا المتطوره..

اللّه أكبر..من أنا أمام هذا الحشد من المجرات!

هکذا

قـال رسولنا الأکرم لزینب العطاره التی زارته فی بیته قائله:إنّما جئتک أسألک عن عظمه اللّه،فقال:جلّ جلال اللّه،سأحـدّثک عن بعض ذلک.

ثم قال:و إنّ هـذه الأرض بمن فیها و من علیها عند التی تحتها کحلقه فی فلاه قی (۱)،و هاتان و من فیهما و من علیهما عند التی تحتها کحلقه فی فلاه قی و الثالثه..حتی انتهی إلی السابعه،ثم تلا هذه الآیه: خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (۲)

و مضـی الرسول صلی الله علیه و آله یبیّن طبقات الأرض و ما وراءها،و أنّ الواحده منها بالنسبه الی تالیتها کحلقه فلاه واسعه،الی أن قال عن السـماء:«و السـماء الدنیا و من فیها و من علیها عند التی فوقها کحلقه فی فلاه قی،و هذا و هاتان السـماء ان عند الثانیه کحلقه فی فلاه قی، و هـذه الثالثه و من فیهن و من علیهن عنـد الرابعه کحلقه فی فلاه قی،حتی انتهی إلی السابعه،و هذه السـبع و من فیهن و من علیهم عنـد البحر المکفوف عن أهل الأرض کحلقه فی فلاه قی (۳)و مضی النبی صلی الله علیه و آله یبین عظمه خلق اللّه حیث أنّ بعض خلقه أعظم من بعض کمـا الحلقه الصـغیره فی الصـحراء المـترامیه،و هو أقرب مثـل لاتسـاع المنظومـات الشمسیه و المجرّات و ما أشبه.

فهل یحق لنا أن نتکبّر علی ربّنا الواسع الـذی وسع کرسیّه السـموات و الأرض أو نـدّعی مقامه سـبحانه؟! هـذا فی أفق المکان و امتداده.أمّا عن الزمان و امتداده فنحن لسنا أوّل ما خلق

ص:۱۰۳

۱- ۱) القفر من الأرض.

۲- ۲) الطلاق/۱۲.

۳- ۳) التوحید(للشیخ الصدوق)ص ۲۷۶.

اللّه،و لن نكون آخر خلقه سبحانه،

جاء فى حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال فى تفسير قوله تعالى: أَ فَعَيِينٰا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (۱)قال:يا جابر تأويل ذلك أنّ اللّه عزّ و جلّ إذا أفنى هذا الخلق و هذا العالم،و سكن أهل الجنه الجنه و أهل النار النار،جدّد عالما غير هذا العالم،و جدّد خلقا من غير فحوله و لا إناث يعبدونه و يوحّدونه،و خلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم،و سماء غير هذه السماء تظلّهم.لعلك ترى إنّما خلق هذا العالم الواحد و ترى أنّ اللّه لم يخلق بشرا غيركم،بلى و اللّه لقد خلق اللّه ألف ألف عالم و ألف ألف آدم أنت فى آخر تلك العوالم و أولئك الآدميين » (۲)و أخيرا يرى بعض علماء النفس أنّ أفضل وسيله لتربيه الإنسان أن يعطى له عند بلوغه مبلغ الرجال جهازان يرى بهما عظمه الخلائق،جهاز ميكرسكوب يرى به عجيب لطف الصنع فى خلقه الموجودات المتناهيه فى الصغر،و جهاز تلسكوب يرى به عظيم القدره فى خلقه الأجرام المتناهيه فى الكبر.

[۵۸]هل يستوى من يستوعب هذه الحقائق ببصيره قلبه فيكون كالبصير، و الذى هو أعمى حتى لو اقتربت منه حقائق الكون جميعا لا يعيها و لا يستوعب دروسها،و تراه كالشرنقه لا يزال فى تلك الزنزانه الضيقه من نسيج أهوائه و شهواته و وساوس الشيطان.

وَ مٰا يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ لاَ الْمُسِيءُ أ رأيت الذى قضى عمره فى جزيره مهجوره لا يعلم عن الدنيا شيئا،هل يختلف

۱- ۱) ق۱۵/.

۲- ۲) المصدر ص ۲۷۷.

بالنتيجه عمّن يعيش فى غرفه ضيقه فى وسط أضخم العواصم قد حجب نفسه عن كلّ ما حوله؟كلا..كذلك الكافر الذى تحيط به حقائق الكون فلا يستوعبها، و لا يعيش قلبه فى أجوائها و لا تعيها بصيره نفسه،بل هو فى ظلام جهله و جهالته،لا يعترف بشىء غير نفسه و أهوائها،إنّه أشدّ عمى ممّن فقد عينيه.أليس كذلك؟ و كم هو فرق بينه و بين من يعيش عوالم الخلق جميعا فى ضميره و وعيه،و يرى نفسه منها و لا بدّ أن يتناغم سلوكه و سننها،لأنّه يؤمن بربّها العظيم،و يعمل الصالحات التى أمر بها كما أمر سائر العوالم بمثلها.

قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ [۵۹]و فى خاتمه الدرس يلخّص السياق عبره الحقائق التى ذكّر بها أنّها الساعه حيث يتبدّل النظام القائم هنا على أساس الابتلاء،بنظام يقوم على أساس الشهود و الجزاء.

إِنَّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها و كيف يرتاب فى يوم تدلّ كلّ حقائق العالم على أنّه المنتهى،فحكمه اللّه التى تتجلّى فى كلّ خليقه صغيره أو كبيره تدلّنا بوضوح كاف على يوم الجزاء.

وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يُؤْمِنُونَ فلا تتبع سلوكهم،و ذرهم يخوضوا فى لهوهم،و أنقذ نفسك من المصير الذى ينتهون إليه بكفرهم بها.

[سوره غافر (۴۰): الآیات ۶۰ الی ۶۷]

اشاره

وَ قٰالَ رَبُّكُمُ اُدْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ اَلَّذِینَ یَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِی سَیَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِینَ (۶۰) اَللّٰهُ اَلَّذِی جَعَلَ لَكُمُ اَللَّیْلَ لِتَسْكُنُوا فِیهِ وَ اَلنَّهٰارَ مُبْصِراً إِنَّ اَللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى اَلنّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یَشْكُرُونَ (۶۱) ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ خٰالِقُ كُلِّ شَیْءٍ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ (۶۲) كَذٰلِكَ یُؤْفَكُ اَلَّذِینَ كٰانُوا بِآیٰاتِ اَللّٰهِ یَجْحَدُونَ (۶۳) اَللّٰهُ اَلَّذِی جَعَلَ لَكُمُ اَلْأَرْضَ قَرٰاراً وَ اَلسَّمٰاءَ بِنٰاءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ اَلطَّیِّبٰاتِ ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ فَتَبٰارَكَ اَللّٰهُ رَبُّ اَلْعٰالَمِینَ (۶۴) هُوَ اَلْحَیُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِینَ لَهُ اَلدِّینَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۶۵) قُلْ إِنِّی نُهِیتُ أَنْ أَعْبُدَ اَلَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ لَمّٰا جٰاءَنِیَ اَلْبَیِّنٰاتُ مِنْ رَبِّی وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۶۶) هُوَ اَلَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ یُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُیُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ یُتَوَفّٰى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۷)

وَ قٰالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ

هدی من الآیات:

لکی نعالـج الکبر الـذی انطوت علیه النفوس،لاـ بـدّ أوّلاـ:أن ننظر الی حجمنا بالقیاس الی عظمه الخلائق،ثانیا:إذا اطمأنّت النفس الی عظمه البارئ الـذی خلقها و أتقن صـنعها،التجأت إلیه بالدعاء،و خلعت رداء التکبّر،و ارتدت ثوب العبودیه لربّ العالمین،أمّا الذین یسـتکبرون عن عباده اللّه(و عن الدعاء و هو مخّ العباده)فسیدخلون جهنّم داخرین،ثالثا:نشکر ربّنا علی نعمه التی تحیط بنا، و لولا واحـده منها انعدمت حیاتنا و تحوّلت الی جحیم لا یطاق،فهو الذی جعل اللیل سـکنا و النهار معاشا،إنّه فضل عظیم،و لکنّ أکثر الناس لا یشکرون(و لذلک تجدهم یستکبرون).

و لمـاذا ینحرف البشـر عن صـراط اللّه الـذی ربّاه و نعّمه،و هو خـالق کلّ شـیء، و لا سـلطان إلاّ سـلطانه،و لا إله إلاّ هو الواحد الأحد؟لأنّه یجحد بآیات اللّه (و هکذا عاد السیاق الی موضوع رئیسی فی السوره،و هو التعامل مع آیات اللّه)

ص:۱۰۸

و آیات اللّه(التی هی السبل الی معرفته و عبادته)مبثوثه فی الآفاق و فی أنفسنا،فهو الذی جعل الأرض قرارا و السماء بناء(هذا عن الآفاق)،و هو الذی صوّر الإنسان فی أحسن تصویر،و أغدق علیه من رزقه الطیّب.إنّه ربّنا و ربّ العالمین تبارک و تعالی.

و هو الحیّ الذی تفرّد بالألوهیه فإلیه لا بدّ أن یجأر الإنسان خالصا له الطاعه و الانقیاد،و إنّ له الحمد کلّه، لأنّه ربّ العالمین،لأنه هدانا الیه بالبیّنات التی أرسلها،و یتجلّی حمدنا له فی تحدّی الکفّار الذین یدّعون الأنداد،و کذلک فی تسلیمنا له.أو لیس قد أسلم له کلّ شیء فی العالمین؟ من هذا الإنسان المسکین الذی یتکبّر علی ربّه،و ینازعه رداء العزّه؟!إنّه مخلوق کان أصله التراب فجعله اللّه نطفه ثمّ علقه ثمّ أخرجه طفلا-و رعاه حتی أضحی بالغا رشیدا،و أحاطت به نعم اللّه حتی أمسی شیخا،بینما البعض توفّاهم اللّه من قبل،کلّ قد حدّد له أجلا،کلّ ذلک بهدف أن یعرفوا ربّهم من خلال تطوّرات حیاتهم و یعقلوا.

و بیده-لا بید غیره-الحیاه و الموت،و هو مطلق القدره،فعّال لما یرید، و أمره-إذا قضی شیئا-بین الکاف و النون.

بینات من الآیات:

[۶۰]الذین یعیشون فی غیاهب السجون،أو فی ظلمات الحکم الطاغوتی،أو فی ذلّ المهاجر بعیدین عن الأهل و الوطن.إنّ مثل هؤلاء سوف تهجم علیهم سحب الیأس و القنوط،و یتعرّضون لموجات من الشک و الارتیاب.أحقّ نحن علی حق أم هم؟فلما ذا نراهم المسیطرین علینا،و إلی متی؟

و أكثر من هؤلاء جميعا،أولئك الذين يتحصّنون بالتقاه،و يعيشون داخل الكيان الطاغوتی،حيث يتعرضون لعمليات غسل الدماغ المستمره،و ترتبط مصالحهم و رغباتهم و مجمل وشائج حياتهم بعجله النظام،و فی ذات الوقت يكتمون إيمانهم، و تكاد صدورهم تتفجّر ضيقا بالأسرار التی يحملونها،فما الذی ينقذهم من هذا الوضع،و أیّ وقود إيمانیّ يمدّهم بطاقه الاستمرار و قدره الاستقامه..حيث لا صله بالقياده،و لا تفاعل مع المجتمع الإيمانی،و لا جلسات للتعبئه الروحيه،و لا برامج اجتماعيه،و لا مصالح مشتركه مع المؤمنين.

لقد فتح اللّه لهؤلاء و أولئك جميعا باب الدعاء حيث تتصل قلوبهم بنور ربّهم مباشره،و ينهلون من نبع التوحيد الأصفی ما يمدّهم بالرجاء و الثقه و الاستقامه فقال ربّنا:

وَ قٰالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُمْ ما هو هذا الدعاء؟قال المفسرون إنّه طلب الحاجه من اللّه،و تفرّد ابن عباس بتفسير آخر حيث قال انّه توحيد اللّه،و يبدو لی أنّ ابن عباس التقط إشاره خفيّه من الآيه حيث أرهف سمعه الی ضمير«ادعونی»و عرف أنّ المعنی لا تدعو من دونی أحدا،و حقّا:إنّ الإنسان إمّا أن يدعو ربّه أم يدعو الأنداد..و اللّه يأمرنا بدعوته دون الأنداد،و سوف نری-إن شاء اللّه-كيف أنّ الدعاء أسمی درجات التوحيد.

و عند ما وعد ربّنا الاستجابه فإنّ ذلک يكون شرطا ضمنيّا بأن يكون الدعاء خالصا للّه،كما قال سبحانه: وَ إِذٰا سَأَلَكَ عِبٰادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّٰاعِ إِذٰا دَعٰانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِی وَ لْيُؤْمِنُوا بِی لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ .

و لعلّ فی کلمه« إِذٰا دَعٰانِ »إشاره الی هذه الحقیقه،کما نجد تصریحا بذلک فی قوله« فَلْیَسْتَجِیبُوا لِی ».

إِنَّ الَّذِینَ یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِی سَیَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِینَ لماذا اعتبر الدعاء عباده؟و أوعد اللّه علی ترکه النار؟لکی نعرف الإجابه:

دعنا نتساءل:ماذا کان محور الخلاف الأصلی بین الموحّدین و المشرکین؟هل کان فی وجود اللّه؟کلا،هل کان فی أسماء اللّه التی تتعلّق حسب المصطلح بذاته سبحانه؟کلاّ،بل إنّ المشرکین کانوا یعترفون باللّه هو الخالق،و قد قال ربّنا:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِیزُ الْعَلِیمُ (1)إنّما جوهر الخلاف و محوره الأصیل فی کلمه:إنّ الموحّدین یقولون:إنّ اللّه هو المهیمن المدبّر لأمور اللّه،فهو القابض الباسط،المحیی الممیت،المعزّ المذل،و هو الذی یولج اللیل فی النهار،و یولج النهار فی اللیل،و یدبّر الأمر ساعه بساعه و لحظه بلحظه،بینما کان یری المشرکون عوامل حتمیّه أخری غیر مشیئه اللّه فی تدبیر شؤون الخلیقه،فیتوجّهون الی تلک العوامل من دون اللّه.

علی أنّ المشرکین قلوبهم شتّی،و آراؤهم فی ذلک مختلفه،إلاّ أنّ أبعدها ضلاله ما قالته الیهود بأنّ ید اللّه مغلوله،اتباعا لفلاسفه الیونان حیث زعموا بأنّ اللّه قد فرغ من أمر الخلق و استراح و لا یمکن له التأثیر فی الخلق أبدا.

و تتناقض رسالات اللّه عن فلاسفه البشر فی هذا المحور،حیث بشّرت البشریه بأنّ ربّهم قریب منهم،یهیمن علی حیاتهم،و یسمع نداءهم،و یستجیب دعاءهم، و توضّحت هذه البصیره الإلهیه عبر آیات الذکر،و فی تفسیر أهل بیت النبی صلی الله علیه و آله

۱- ۱) الزخرف۹/.

لکلمه(البداء)التی تعنی أنّ لربّنا سبحانه مطلق المشیئه فی فعل ما یرید،و الذی تشیر إلیه الآیات القرآنیه:

إِنَّ رَبَّکَ فَعّالٌ لِما یُرِیدُ (۱) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِیدُ فَعّالٌ لِما یُرِیدُ (۲) وَ کانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً (۳) کَذٰلِکَ اللّهُ یَفْعَلُ ما یَشاءُ (۴) لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَکَ اللّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ (۵)أمّا الآیات التی تبیّن أنّ ربّنا استوی علی العرش و أنّه المدبّر و المهیمن و الحاکم و ما أشبه مما تشیر الی هذه الحقیقه بصوره مّا فهی کثیره،بل هی-فی الواقع-المحور الأساس للقرآن کلّه.

و قد بیّنت آیات محکمات واقع البداء فی عدّه سور..قال اللّه سبحانه:

ما نَنْسَخْ مِنْ آیَهٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَیْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۶) وَ قالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّهِ مَغْلُولَهٌ غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ یَداهُ مَبْسُوطَتانِ

۱- ۱) هود۱۰۷/.

۲- ۲) البروج۱۵/-۱۶.

۳- ۳) الأحزاب۳۷/.

۴- ۴) آل عمران۴۰/.

۵- ۵) الأعراف۵۴/.

۶- ۶) البقره۱۰۶/.

يُنْفِقُ كَيفَ يَشٰاءُ (١) لِكَلِّ أَجَلٍ كِتٰابٌ يَمْحُوا اللّهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أَمُّ الْكِتٰابِ (٢)و جاء فى تفسير أهل البيت لبصيره البداء فى القرآن الكثير من الأحاديث الشريفه،

فقد روى عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال لسليمان المروزى:ما أنكرت من البداء يا سليمان و اللّه عزّ و جلّ يقول: أَ وَ لاٰ يَذْكُرُ الْإِنْسٰانُ أَنّٰا خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً ،و يقول عزّ و جل: وَ هُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ و يقول: بَدِيعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ ،و يقول: يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مٰا يَشٰاءُ و يقول: وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ و يقول عزّ و جل: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمّٰا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّٰا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ،و يقول عزّ و جل: وَ مٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لاٰ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاّٰ فِى كِتٰابٍ (٣)و

جاء فى حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال فى تفسير قول اللّه عزّ و جلّ: وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ لم يعنوا بذلك أنّه هكذا..و لكنّهم قالوا: قد فرغ من الأمر فلا يزيد و لا ينقص فقال اللّه جلّ جلاله تكذيبا لقولهم:

غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشٰاءُ ألم تسمع اللّه عزّ و جل يقول: يَمْحُوا اللّهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ (۴)و ذكر الفخر الرازى فى تفسير الآيه وجوها جاء فى الرابع منها:لعلّه كان فيهم من كان على مذهب الفلسفه،و هو إنّ اللّه تعالى موجب لذاته و إنّ حدوث الحوادث عنه لا يمكن إلاّ على نهج واحد،و إنّه تعالى غير قادر على إحداث الحوادث غير

١- ١) المائده۶۴/.

٢- ٢) الرعد٣٨/-٣٩.

٣- ٣) موسوعه البحار/ج ۴ ص ٩۵.

۴- ۴) المصدر/ص ١٠۴.

الوجوه التی علیها یقع فعبّروا عن عدم الاقتدار علی التغییر و التبدیل بغلّ الید.

إنّ معرفه اللّه بـأنّه قادر علی کلّ شـیء،و أنّه فعّال لما یریـد،و أنّه کما أبـدع الخلائق بعـد ان لم تکن شـیئا،قادر علی أن یبـدع ما یشاء،هی المعرفه الحق،و هی التی تبعث علی الثناء علیه و توصـیفه بالحمـد و الشـکر،و أیّ حمـد أو ثناء لمن لا یقـدر علی تغییر شیء حسب ما یزعمون.

و لذلک کان الاعتراف بهذه القدره للرب أی بالبداء أعظم عباده و أفضل تعظیم.

جاء فی الحدیث عن زراره عن أحدهما(الباقر أو الصادق علیهما السّلام) :

«ما عبد اللّه بشیء مثل البداء » (۱)

و فی حـدیث آخر عن هشـام بن سـالم عن الإمام الصادق علیه السـلام أنّه قال :«ما عظّم اللّه عزّ و جلّ بمثل البـداء» (۲)و قال:«لو یعلم النـاس مـا فی القول بالبـداء من الأـجر مـا فتروا عن الکلاـم فیه » (۳)و من مظاهر البـداء الـدعاء،ذلک أنّ فی الـدعاء اعترافا بسلطان اللّه الفعلی و المباشر علی الخلیقه،و أنه القادر علی أن یصنع ما یشاء فیما خلق،و أنّه المستعان علی بوائق الدهور و نوائب الحیاه،و لذا أضحی الدعاء العباده الأسمی،و قال ربّنا سبحانه: قُلْ مٰا یَعْبَؤُا بِکُمْ رَبِّی لَوْ لاٰ دُعٰاؤُکُمْ .

و قد استعرض السیاق القرآنی کیف أنّ الرجال العظام بلغوا الدرجات السامیه

۱- ۱) المصدر/ص ۱۰۷.

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) المصدر/ص ۱۰۸.

بالدعاء،شروعا من آدم أبی البشر حیث استغفر ربّه(بالدعاء)فغفر له،و آتاه النبوّه و الصفوه،حتی نوح حیث دعا علی قومه فأعانه اللّه علیهم بالطوفان العظیم، و إلی إبراهیم الـذی ما ونی عن الدعاء فی کل موقع حتی اتخذه اللّه خلیلا و جعله للناس إماما،و إلی موسی الـذی نصره اللّه علی فرعون بالـدعاء،و کذلک سائر النبیین،الذین ما فتئوا یدعون ربّهم و یستجیب لهم اللّه بخرق سنن الطبیعه،فمثلا حین یرزق مریم من عنده،یتذکّر کفیلها زکریا حاجه قدیمه فی نفسه،فیدعو زکریا ربّه و یطلب منه ذریه،فیرزقه اللّه یحیی و کانت امرأته عاقرا،و قد بلغ من الکبر عتیّا..

و هکـذا یعرف من خلال حیاه الأنبیاء مقام العبـد من ربّه،و کیف أنّه مقام الطلب و الدعاء،و هو من أبرز ما یستفیده المؤمن من قصص قدواته الصالحه الأنبیاء و الأولیاء،

و قد جاء فی الأثر عن الإمام الباقر علیه السلام فی تفسیر قوله سبحانه إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ لَأَوّٰاهٌ حَلِیمٌ قال:«الأوّاه الدعّاء » (۱)

و جاء فی حدیث آخر عن الإمام الرضا علیه السلام أنّه کان یقول لأصحابه: علیکم بسلاح الأنبیاء،فقیل:و ما سلاح الأنبیاء؟قال:«الدعاء » (۲)و للدعاء فوائد عاجله نتذکّر معا بعضها:

ألف:إنّه أفضل دواء لداء الکبر فی النفس البشریه.و إذا عرفنا أنّ الاستکبار أعظم حجاب بین العبد و ربّه،و هو العقبه الکأداء فی سبیل الصلاح و الفلاح،و هو مصدر أکثر الفواحش و الذنوب،فسوف نعرف أهمیّه الدعاء.

۱- ۱) موسوعه البحار/ج ۹۳ ص ۲۹۳.

۲- ۲) المصدر/ص ۲۹۵.

و هکذا نجد فی السیاق القرآنی هنا ما یوحی بأنّ من یستنکف عن الدعاء فقد استکبر عن عباده ربّه،و أنّه سوف یدخل جهنم داخرا،کما نجد هذه الآیه تأتی فی سیاق معالجه کبر النفس الذی لن تبلغه، الی جانب سائر طرق العلاج التی سبقت أو تأتی فی هذه الآیات.

باء:الدعاء یلهم الأمل و یرفع الیأس،و یعید إلی القلب حیویته و نشاطه و عنفوانه.

أ رأیت أعظم الهزیمه هزیمه القلب،و أعقد المشاکل انهیار النفس؟بلی.

و الدعاء هو الدواء.کیف؟ إنّ الداعی یرجو ربّه الکبیر أرحم الراحمین فکیف یعتریه الیأس؟و هل یظمأ من یرد علی حیاض مترعه؟

و قد روی عن الإمام الصادق علیه السلام انه قال :«إنّ الدعاء یردّ القضاء المبرم بعد ما أبرم إبراما،فأکثر من الدعاء فإنّه مفتاح کلّ رحمه، و نجاح کلّ حاجه،و لا ینال ما عند اللّه إلاّ بالدعاء،فإنّه لیس من باب یکثر قرعه إلاّ أوشک أن یفتح لصاحبه » (۱)

و روی عنه علیه السلام :«الدعاء کهف الإجابه کما أنّ السحاب کهف المطر » (۲)

و قد جاء فی حدیث-قدسی-مفصّل عن النبی صلی الله علیه و آله عن جبرئیل عن ربّ العالمین أنّه قال: «یا عبادی کلکم ضالّ إلاّ من هدیته،فاسألونی الهدی أهدکم، و کلّکم فقیر إلاّ من أغنیته،فاسألونی الغناء أرزقکم،و کلّکم مذنب إلاّ من عافیته،فاسألونی المغفره أغفر لکم..الی أن قال ربّنا سبحانه:و لو أنّ أوّلکم

۱- ۱) المصدر/ص ۲۹۹.

۲- ۲) المصدر/ص ۲۹۵.

و آخركم،و حيّكم و ميتكم،و رطبكم و يابسكم،اجتمعوا فيتمنّى كلّ واحد ما بلغت أمنيته فأعطيته لم يتبيّن ذلك فى ملكى، كما لو أنّ أحـدكم مرّ على شـفير البحر فغمس فيه إبره ثم انتزعها (۱)ذلك بأنّى جواد ماجـد واجد،عطائى كلام، و عداتى كلام،فإذا أردت شـيئا فإنّمـا أقـول له:كن،فيكـون » (۲)جيم:الـدعاء يزيـد العبـد حبّا لربّه،و الحبّ أفضـل علاـقه تصـل قلب الإنسـان بربّ العالمين.إنّه يغمر القلب صـفاء و عطاء،و حبّا للناس و حبّا للحياه،و بهجه و سـكينه..كذلك الدين ليس إلاّ الحب،و ما أغلى قيمه الحبّ إذا كان الحبيب ربّ السموات و الأرض.

و هل يشـعر بوحشه من يعيش بقلبه فى حضره ربّه؟و هل يحسّ بالفقر من يجد مليك السموات و الأرض،و هل يجد الذلّ سبيلا الى قلب جليس جبّار السـموات و الأرض؟ و من أحبّ ربّه سارع الى طاعاته،بلا تكلّف و لا توان و لا حزن،و كانت الصـلاه قره عينه،و الزكـاه مطيّه قربه،و الشـهاده غـايه منـاه،لأـنّ فيهـا لقاء ربّه.و إنّ أولئك الـذين منّ اللّه عليهم بحبّه لا يبيعون لحظه مناجاته بملك الدنيا،لأنّ فى تلك اللحظه وجدان الحقيقه و لذّه العمر،و حلاوه اللقاء بالحبيب.

و هكذا جاء فى النصوص انّ اللّه يحبّ الدعاء و يحبّ الدّاعين،و هل يحبّ اللّه أحدا ثم لا يرزقه حبّه،و هو أعظم نعمه؟!

قال النبى صلى الله عليه و آله :«ما من عبد يسلك واديا فيبسط كفّيه فيذكر اللّه و يدعو

۱- ۱) معناه:إنّ كلّ تمنيات العباد ليست عند ملك اللّه الا بمقدار رأس ابره بالنسبه الى بحر عظيم.

۲- ۲) المصدر/ص ۲۹۳.

إلّا ملأ اللّه ذلک الوادی حسنات.فلیعظم ذلک الوادی أو لیصغر » (۱)

و قال الإمام الباقر علیه السلام :«ما من شیء أحسن الی اللّه من أن یسأل » (۲)

و قال الإمام الصادق علیه السلام :«الدعاء سلاح المؤمن،و عمود الدین،و نور السموات و الأرض » (۳)

و قال النبی صلی الله علیه و آله :«لا تعجزوا عن الدعاء فإنّه لم یهلک مع الدعاء أحد، و لیسأل أحدکم ربّه حتی یسأله شسع نعله إذا انقطع،و اسألوا اللّه من فضله فإنّه یحبّ أن یسأل » (۴)

و قال صلی الله علیه و آله :«إنّ اللّه یحبّ الملحّین فی الدعاء » (۵)دال:الدعاء یوفّر نیّه المؤمن لمتابعه مسیرته نحو الأهداف الصالحه،إذ مع طول الأمد یخبو الهدف فی نفس صاحبه،خصوصا إذا واجهته الصعاب،فیتساءل:لماذا نسعی من أجله؟و هل هو یستحقّ کلّ هذه التضحیات؟فیأتی الدعاء لیکرّس الغایات النبیله فی النفس،خصوصا الأدعیه المأثوره التی ترسم لنا خریطه متکامله للأهداف السامیه،فإذا بنا نزداد تعلّقا بها کلّما کرّرناها.

هاء:الدعاء یساهم فی تزکیه النفس و التقوی،ذلک أنّ الإنسان لیعلم بفطرته أنّ دعاءه لا یستجاب إذا کانت بینه و بین ربّه حجب الذنوب أو لم یف بعهد اللّه، و هکذا ینشط-بالدعاء-لتنفیذ واجباته.

۱- ۱) المصدر/ص ۲۹۲.

۲- ۲) المصدر

۳- ۳) المصدر/ص ۲۹۴.

۴- ۴) المصدر/ص ۳۰۰.

۵- ۵) المصدر

جاء فی الأـثر عن الإمـام الصـادق علیه السـلام : «أطب کسـبک تسـتجاب دعوتـک، فـإنّ الرجـل یرفع اللقمه الی فیه حرامـا فما تستجاب له أربعین یوما » (۱)

و روی عنه أنّه قـال:قـال رسول اللّه صـلی الله علیه و آله :«خمسه لا یسـتجاب لهم:رجل جعل اللّه بیـده طلاق امرأته فهی تؤذیه و عنـده مـا یعطیهـا و لم یخـلّ سبیلها،و رجل أبق مملوکه ثلاث مرّات و لم یبعه،و رجل مرّ بحائط مائل و هو یقبل إلیه و لم یسـرع المشـی حتی سـقط علیه،و رجـل أقرض رجلاـ مالاـ فلم یشـهد علیه،و رجل جلس فی بیته و قال:اللهم ارزقنی و لم یطلب » (۲)و العامل المشترک بین هؤلاء جمیعا:الاکتفاء بالدعاء عن السعی. (۳)

و کلمه أخیره:إنّ من الناس من یحجم عن الدعاء بمجرّد تباطؤ الإجابه عنه و هو لا یعلم:

أوّلاـ:أنّ توفیقه للـدعاء أعظم ممـا یطلبه،و أنّ أجره عنـد اللّه أکـبر بکـثیر من تحقیق رغبـاته العـاجله،حـتی أنّ المؤمن یتمنّی یوم القیامه أن لو کانت أدعیته جمیعا غیر مستجابه فی الدنیا لما یجد من الثواب العظیم لمن لم یستجب دعاؤه.

ثانیا:قد یدعو الإنسان بما یضره فیرحمه اللّه بعدم استجابته،و یبدله بما هو خیر له.

ثالثـا:بعض الـدعاء یسـتدعی تغییر سـنن اللّه التی لاـ تتبـدّل،کأن یـدعو المرء توقّف الأرض عن الحرکه أو ألاّ یموت أبـدا أو أن ینتهی الصراع القائم بین الناس أو

۱- ۱) المصدر/ص ۳۵۸.
۲- ۲) المصدر/ص ۳۵۶.
۳- ۳) للتفصیل فی الدعاء یمکن مراجعه کتاب المؤلّف عن الدعاء.

تتهاوی صروح الظالمین بلا جهاد و تضحیات،فإذا لم یستجب له یصیبه الیأس.

رابعا:أنّ تأخیر الاستجابه لا یعنی التعرّض للقنوط إذ أنّ اللّه قد جعل لکلّ شیء قدرا.

و لعل اللّه سبحانه قد أمر له بالاستجابه و لکن وفق سننه الجاریه مما یحتاج الی بعض الوقت،

و جاء فی رائعه دعاء الافتتاح ما یهدینا الی حکمه التباطئ فی الاستجابه :

«مدلاّ علیک فیما قصدت فیه إلیک،فإن أبطأ عنی عتبت بجهلی علیک، و لعلّ الذی أبطأ عنّی هو خیر لی،لعلمک بعاقبه الأمور،فلم أر مولی کریما أصبر علی عبد لئیم منک علیّ یا رب » [۶۱]حین تأوی الخلائق الی مساکنها عند هبوط الظلام،و تستریح الی السکون و الهدوء،و تعیش خلایا الجسم و الأنسجه فی سبات بعیدا عن آثار أشعه الشمس،تتجلّی نعمه اللیل التی جعلها اللّه سکنا،فلولاه لما تجلّت نعمه النهار للإنسان حین تستیقظ الطبیعه،نباتها و أحیاؤها،و تلبس الکائنات حلّه الضیاء حتی لکأنّ بعضها یبصر بعضا،إذ سبات اللیل و سکونه یمهّد لنشاط النهار و حرکته و ضیائه.

اَللّهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیْلَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إنّه اللّه الذی قدّر اللیل و النهار بهذه الدّقه المتناهیه،فلو لا حرکه الأرض حول نفسها فی مواجهه الشمس لما تعاقب اللیل و النهار،و لو دارت بسرعه أکبر مما علیها لتناثر ما علیها و تفکّکت و أصبحت کهشیم یذری فی الفضاء الأرحب،و لو دارت حول نفسها أبطأ ممّا علیها الآن لانعدمت الحیاه بالبرد الشدید حینا و بالحرّ الشدید

حينا،فسبحان الذى قدّر الليل و النهار و ما أعجب حال الذى يستريح فى كنف الليل و يتقلّب فى كفّ النهار ثم يتكبّر على ربه؟! إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَشْكُرُونَ إنّهم لا يتذكّرون عظيم نعم اللّه عليهم ليل نهار،و أنّه لا حقّ لهم فيها،إنّما هى فضل من اللّه عليهم و منّه،و حق عليهم أن يشكروا ربّهم الذى منّ عليهم بهذا الفضل،و أوفى الشكر أن يعرفوا بأنّه هو المنعم،فتخشع قلوبهم لذكره،ثم تسعى جوارحهم الى أوطان تعبّده.

[۶۲]أنظر الى ما حولك من الكائنات.أو لا ترى فى كلّ شىء آثار قدره اللّه، و لطيف صنعه،و واسع علمه و خبره،و بالغ حكمته،و حسن تدبيره؟ بلى.كلّ شىء يسبّح بحمد ربّنا العظيم،و كلّ شىء ينطق بأفصح لغه بأنّ اللّه خالقه و مدبّر أمره،فهل خلقت الأشياء بذاتها أم وجدت صدفه و بلا علّه و لا حكمه و لا تدبير؟! أىّ عقل يتقبّل ذلك أم أىّ وجدان؟! ثم أين ينحرف البشر عن خالق كلّ شىء؟!أ إله من دونه يتجهون إليه،أم يتيممون صوب الضلال البعيد؟! ذلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ أو يستقيم أن نقول:إنّ اللّه خالق كلّ شىء،و لكنّ من يهيمن على الأشياء هو غيره؟! فَأَنّى تُؤْفَكُونَ

ص:۱۲۱

و الإفک هو الانحراف،و إنّما سمّیت الریاح الهوج بالمؤتفکات لانحرافها،و انما جاءتها الکلمه بصیغه المجهول للدلاله علی أنّ العوامل الخفیّه التی تصرف البشر عن صراط اللّه تجری بخلاف مصالحه حتی لکأنها تجبره علی ذلک جبرا.

و انّه لو اعتصم الإنسان باللّه لما قدرت تلک العوامل علی إضلاله عن سبیل ربّه و ربّ الکائنات.

[۶۳]و إنّما تهیمن عوامل الإفک علی البشر،لأنّه لم یسلم لآیات اللّه بالرغم من وحی الفطره و دلاله العقل.

کَذٰلِکَ یُؤْفَکُ الَّذِینَ کٰانُوا بِآیٰاتِ اللّٰهِ یَجْحَدُونَ فلیس من سبیل هدی إلاّ فی آیات اللّه،فإذا جحدها الإنسان فإنّه ینحرف بفعل العوامل المضلّه.

و لا ریب أنّ من آیات اللّه کتاب اللّه و رسوله،فمن لم یسلم لهما لم یعتصم بحبل اللّه،و من لم یعتصم باللّه تقاذفته أمواج الفتن یمنه و یسارا،و حرّفته عوامل الضلاله الی التّیه البعید.

إنّ سبیل اللّه واحد،و هو الکتاب و الإمام،فمن جحدهما ألزمه اللّه التّیه الی یوم القیامه.

و إنّ سبیل اللّه شرعه العقل المنوّر بالوحی،فمن اتبع أهواءه،و ظنّ أنّ للّه طرقا بعدد أنفاس الخلائق،فقد افتری علی اللّه بهتانا عظیما.أ رأیت معالم الطریق و إشارات المرور لو لم تأبه بها فی سیرک،أین ینتهی بک المطاف؟کذلک الذی لا یهتدی بمعالم الحقّ التی وضعها اللّه لعباده،و لم یتبع رسالاته و رسله و أولیاءه الذین

يدعون الى رسالاته و يجسّدون هدى رسله.

و كلمه أخيره:تبيّن لنا خواتيم الآيات فى هذا السياق درجات المعرفه و هى العلم و التذكّر و الإيمان و التسليم و الشكر،كما تبيّن ما يخالفها من الإفك و الجحود، و هى فى ذات الوقت الذى تعالج حاله الكبر،تبيّن الموقف السليم من آيات اللّه، و هو موقف الانفتاح و التسليم،و تحذّر بشده من الجحود بها الذى ينتهى الى الانحراف،و هذا التحذير نجده بصفه مكرّره فى هذه السوره.

[۶۴]لا ينبغى لمن يتقلّب فى نعم اللّه أن يتكبر على ربّه أو يجحد بآياته،فاللّه هو الذى جعل الأرض للإنسان قرارا،فلو كانت جاذبيه الأرض أقلّ أو أكثر إذا لصعبت الحركه فيها أو استحالت،و لو كانت قشره الأرض أسمك ممّا هى بمقدار بضعه أقدام لامتصّ ثانى أو كسيد الكربون الأوكسجين،و لما أمكن وجود حياه النبات،و لو كان الهواء أرفع كثيرا ممّا هو فإنّ بعض الشهب التى تحترق الآن بالملايين فى الغلاف الجوى كانت تدمّر الأرض و لو كانت مادّه الأوكسجين بنسبه ۵۰٪أو أكثر فى الهواء بدلا من ۲۱٪فإنّ جميع المواد القابله للاحتراق فى العالم كانت عرضه للاشتعال،لدرجه أنّ أوّل شراره من البرق تصيب شجره كانت تلهب الغابه نارا،و لو أنّ نسبه الأوكسجين كانت أقل من ۱۰٪فإنّ مدنيّه الإنسان كانت غير موجوده (۱)هذه الأرض التى كيّفها اللّه حسب حاجات الإنسان،أو إن شئت قلت خلق الإنسان بحيث يعيش عليها بتناسق دقيق،إنّها قرار الإنسان.

أمّا البناء الذى يرتفع فوقه فهو السماء التى جعلها اللّه سقفا محفوظا و نحن عن آياتها معرضون،فلا علم لنا حتى اليوم بجميع أسرارها،بله المساهمه فى صنعها

۱- ۱) بتصرّف عن كتاب العلم يدعو للإيمان،ترجمه محمود صالح الفلكى،فى ظلال القرآن ص ۳۰۹۳.

إنّما هو فضل من اللّه و منّه.

اَللّٰهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ قَرٰاراً وَ السَّمٰاءَ بِنٰاءً ثم خلق الإنسان فی أحسن صوره و أفضل خلق،فما من شیء مخلوق من جماد أو نبات أو حیوان إلاّ و فضل اللّه الإنسان علیه تفضیلا فی قوّه بدنه و صلابه أعضائه و قدره احتماله للصعاب،و زّوده بالعقل و العلم و سائر الطاقات التی یسخّر بها الطبیعه.

لقد زوّد الإنسان بالحیاء لیکون وسیله تعایشه مع نظرائه و التصاقه بقیمه.أو لیس یقری الضیف بالحیاء،و یفی بالوعود بالحیاء،و یقضی الحوائج،و یتحرّی الفضائل،و ینشد الکمال،و یتنکّب الرذائل و القبائح بفضیله الحیاء التی خصّ بها دون سائر الخلیقه؟ (1)و زوّد بالنطق لیکون وسیله التفاهم،و نقل التجارب،و تواصل المعارف، و تنامی العلوم المختلفه.

فإنّه لو لم یکن له لسان مهیّأ للکلام،و ذهن یهتدی به للأمور،لم یکن لیتکلم أبدا،و لو لم یکن له کف مهیّأه،و أصابع للکتابه،لم یکن یکتب أبدا،و اعتبر بذلک من البهائم التی لا کلام لها و لا کتابه. (2)

و زوّد بالعلم عبر العقل و الوحی،و سخّرت به الطبیعه له حتی أصبح سیّدا مطاعا بین موجودات الأرض،هذا إلی جانب جمال الصوره،و حسن الوجه،و تناغم الأعضاء.

۱- ۱) اکتسبنا الأفکار من کلمات الإمام الصادق علیه السلام فی توحید المفضّل،من موسوعه البحار/ج ۳ ص ۸۱.

۲- ۲) المصدر/ص ۸۲.

وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبٰاتِ ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِينَ إنّ نظره الى الإنسان و إمكاناته و طبائعه و حاجاته،ثمّ الى السماء و الأرض و آياتهما و عطائهما،و الأنظمه الجاريه فيهما،تهدينا الى وحده الخالق.

و إنّه هو ربّنا،و هو ربّ العالمين،للتطابق الدقيق و التناغم التامّ بين تصميم الكائنات و تصوير الإنسان الذى خلقت له.

و لا تسعنا عند ما ننعم النظر إلاّ أن نسبّح بحمد اللّه،و نتذكّر أنّ خيره عظيم و ثابت،و أنّه قد تضاعفت بركته،و تكامل خلقه،و حسن تدبيره.

[۶۵]و لكن حاجه الكائنات الى بعضها،و حاجه الإنسان إليها،دليل عجز الخلائق و محدوديتها،و بالتالى إنّه يكشف وجود نسبه من الموت و من العدم فيها.

فهذا الإنسان حيّ بعشرات الملايين من السنن التى تحيط به و قائم بها و من دونها فهو ميّت،دعنا نأخذ الطعام مثلا.أو يعيش البشر من دونه؟و كذلك الهواء لو انعدم انعدمت حياته.أ فلا يدلّنا على أنّه ميّت لولا الطعام و الهواء؟من ذلك نهتدى الى حاجه كلّ الطبيعه الى حيّ يزوّدها بحاجاتها،و يدبّر أمورها،و هو اللّه الحى.

و لكن يتّجه البعض الى المخلوقين فى قضاء حوائجهم.أ فلا يرون أنّهم بدورهم محتاجون؟ هُوَ الْحَيُّ حياته بذاته،و حياه غيره به،حياته سبقت الموت،و وجوده سبق العدم.

لا إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ

فلا حياه إلاّ به،و إذا لا سلطان إلاّ سلطانه،فمن طلب حاجه أو أراد عزّا فليجأر إليه خالصا له الدّين.

فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ و سلّموا له،و احمدوه حتى يستجيب لكم.

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ

فقد جاء فی الحديث المروی عن الإمام علیّ بن الحسين عليه السلام :إذا قال أحدكم«لا إله إلاّ اللّه»فليقل« اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ » (۱)بلی.إذا عرفنا ربّنا بأسمائه الحسنی،و أخلصنا له النيّات،فإنّه يستجيب الدعاء بفضله،

جاء فی حديث قال قوم للإمام الصادق عليه السلام :ندعوه فلا يستجاب لنا؟قال:«لأنّكم تدعون من لا تعرفونه » (۲)[۶۶]لقد تدرّج السياق معنا فی مراتب الكمال خطوه فخطوه،فعالج الكبر الذی يحجب صاحبه من الاهتداء بالآيات،و يبعثه نحو الجدل فيها،و بسط القول فی آيات اللّه فی الآفاق و فی أنفسنا،ثمّ أمرنا بالتسليم للّه ربّ العالمين.

و ها هو الآن يأمرنا بمواجهه الأنداد،ذلك أنّ الإيمان الحقّ يتبيّن عند ما يحنف صاحبه عن البيئه الفاسده،و يتطهّر من دنس الشرك و الخضوع لغير اللّه،و يكون خالصا دينه للّه..و لن يكون ذلك مع مداهنه المشركين،بل يجب تحديهم.

قُلْ إِنِّی نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ

ص:۱۲۶

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۴ ص ۵۳۴.

۲- ۲) المصدر/ص ۵۳۵.

و رفضى للالهه المزيفه نابع من إيمانى الخالص باللّه و الذى هدانى إليه اللّه بالأدلّه البيّنه.

لَمّا جاءَنِی الْبَیِّناتُ مِنْ رَبِّی وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِینَ و إنّنا نجد تأكيدا مجددّا على أنّ اللّه هو ربّ العالمين لتصفيه ما تبقّى من آثار الكبر فى النفس،و هل يفكر عاقل بمنازعه ربّ هذه السموات الواسعه و الأرضين التى نشاهد عن قرب عجزنا عن مواجهه بعض قواها؟! [۶۷]و يستعرض السياق تدرّج الإنسان فى مراحل الخلق طورا بعد طور، و كيف أنّه يتقلّب فى كفّ السنن الربّانيه من لدن كان ترابا الى أن خلقه اللّه من نطفه ثم متقادما من ضعف الى ضعف حتى أضحى بشرا سويّا،ثم ينكّسه اللّه فى الخلق بعدئذ حتى يبلغ أرذل العمر،فهل يجوز لمثل هذا الإنسان أن يستكبر أو يتكبر؟! هُوَ الَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ عند ما خلقنا اللّه جميعا فى صوره ذرّ من تراب الأرض مع أبينا الأكبر آدم أبى البشر.

ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ أمشاج بين الذكر و الأنثى.و لو قدّر لنا أن نرى النطفه هذه لاحتقرناها، و استصغرنا قدرها،و لكنّها-بالتالى-طور من أطوار خلقنا.

ثُمَّ مِنْ عَلَقَهٍ حينما تجتمع الخلايا الى بعضها و تتنامى حتى تبدو فى صوره قطعه دم عالقه

ص:۱۲۷

بالرحم.

ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ناشئا بحاجه الى حنين الأمّ و حمايه الأبّ،و المحافظه من عشرات الأخطار التى تحيط به لضعف بنيته و صغر حجمه.

ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ و اللّه وحده يعلم كم هى السنن التى تساهم فى بلوغ ذلك الوليد الصغير مرحله الشباب و الفتوه! ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً و تمرّ بكم ألوف الأخطار التى ينقذكم اللّه منها حتى يضحى الإنسان شيخا، و لكنّ البعض يختطفهم ملك الموت قبلئذ ليكونوا عبره لمن نعى.

وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى فلا يموت الشخص حتى يستوفى أجله فى الدنيا.و كم من مريض دفن أو معارض للسلطات القويّه أو محارب فى ميادين القتال،يتطاول به العمر متجاوزا مئات العقبات،بينما يموت الشاب الصحيح الذى يحيط نفسه بكلّ الموانع،ليكونا معا دليلا على أنّ الأجل نعم الحارس.

وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ و تعلمون أنّ مراد ربكم من تطوّرات الحياه أن تتعرّفوا عليه،و أن تسلموا له، و ألاّ تشركوا به شيئا.

ص:١٢٨

[سوره غافر (۴۰): الآیات ۶۸ الی ۷۶]

اشاره

هُوَ اَلَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ فَإِذٰا قَضیٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۶۸) أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِ اَللّٰهِ أَنّٰی یُصْرَفُونَ
(۶۹) اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِالْکِتٰابِ وَ بِمٰا أَرْسَلْنٰا بِهِ رُسُلَنٰا فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (۷۰) إِذِ اَلْأَغْلاٰلُ فِی أَعْنٰاقِهِمْ وَ اَلسَّلاٰسِلُ یُسْحَبُونَ (۷۱) فِی
اَلْحَمِیمِ ثُمَّ فِی اَلنّٰارِ یُسْجَرُونَ (۷۲) ثُمَّ قِیلَ لَهُمْ أَیْنَ مٰا کُنْتُمْ تُشْرِکُونَ (۷۳) مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قٰالُوا ضَلُّوا عَنّٰا بَلْ لَمْ نَکُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ
شَیْئاً کَذٰلِکَ یُضِلُّ اَللّٰهُ اَلْکٰافِرِینَ (۷۴) ذٰلِکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ وَ بِمٰا کُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (۷۵) اُدْخُلُوا أَبْوٰابَ
جَهَنَّمَ خٰالِدِینَ فِیهٰا فَبِئْسَ مَثْوَی اَلْمُتَکَبِّرِینَ (۷۶)

ص:۱۲۹

كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ الْكٰافِرِينَ

هدى من الآيات:

فى إطار معالجه داء الكبر الذى يحجب الحقائق عن الإنسان،و يبعثه نحو المجادله فى آيات اللّه،يذكّرنا اللّه بأنّ الحياه و الممات بيده،و أنّ قدرته لا تحدّ،و أنّ عاقبه الكبر فى الآخره هى السوئى،إذ الأغلال فى أعناقهم،و السلاسل تحيط بهم، و يسحبون الى مأواهم الأخير عبر مياه حاميه، و يقذف بهم فى النيران كما يقذف بالوقود فى التنّور.

و خلال التعذيب الشديد يبكتون ليتمّ تعذيبهم نفسيا،و يقال لهم: أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ (و تظنون أنّهم ينقذونكم من نار جهنّم لو ارتكبتم السيئات)؟! قالوا:ضلّوا عنّا(فلا نرى لهم أثرا)ثم قالوا:إنّهم فى الواقع لم يكونوا سوى أوهام و تخيّلات،فيقال لهم:إذا ذوقوا عذاب اللّه جزاء فرحكم(النفسى)و مرحكم

ص:١٣٠

(العملی)فیدخلونهم(بعد أن یتمّ تعذیبهم فی القیامه)أبواب جهنم التی هی المثوی البئیس للمتکبرین.

و الملاحظ أنّ السیاق الذی یذکّرنا منذ الآیه(۳۵)عن الجدال فی آیات اللّه بیّن أوّلا جزاء المجادلین فی آیات اللّه جزاءهم فی الدنیا بالختم علی قلوبهم،ثم بیّن أنّ دافعهم الکبر فعالجه(۶۵)و ها هو یبیّن جزاءهم الأخروی (۱)

بینات من الآیات:

[۶۸]کلّما قضیت علی نسبه الکبر فی قلبک کلّما اقتربت من حقیقه نفسک و حقائق الکائنات من حولک،و اقتربت من معرفه ربّک و أسمائه الحسنی التی تتجلّی فی الخلائق،فهذه الحرکه النشیطه من الموت الی الحیاه و من الحیاه الی الموت التی تقرّبنا الی کشف جوانب من ذلک اللغز الکبیر فی الموجودات الذی نسمّیه بالحیاه، هی أعظم مدرسه لمن طلب الحقیقه.

إنّنا أقرب شیء الی الحیاه،فکلّنا و الحمد للّه أحیاء نعیش الحیاه بکلّ جوارحنا و جوانحنا و أحاسیسنا و معارفنا،و لکن-فی ذات الوقت-أبعد شیء عنها.ما هی الحیاه حقّا؟لعلّ هناک فروقا نتعرف علیها بین الحیّ و المیت،و لکن حقیقه الحیاه هل عرفنا عنها شیئا؟کلاّ..ثمّ ما هی القدره المطلقه لربّنا العظیم الذی یحیی و یمیت؟و کیف نتلمّس ید الغیب تحرّک هذه الکائنات بین الموت و الحیاه؟ عند ما تدبّ أیّام الربیع الحیاه فی أشجار الحدیقه القریبه منک،و فی نباتها،هل تدبّرت فیها لتقترب من لغز الحیاه؟ عند ما استقبلت لأوّل مرّه و لیدک الجدید و هو یحاول أن یتکیّف مع الدنیا

۱- ۱) اقتباسا من تفسیر نمونه/ج ۲۰ ص ۱۷۲.

الجدیـده،هل فكّرت فیمن أحیاه كما أحیاك من تراب ثم من نطفه؟ و أكثر من ذلك حین تقف علی جثمان فقید،هل تصوّرت المـوت بجلالـه و رهبتـه كیـف اختطفه من بینكم،و مـا الـذی جری علیه؟ إنّ بیننـا و بین حقـائق الخلـق حجبـا من كـبر أنفسـنا و غرورها،تعالوا نخرقها لنعرف جانبا ممّا حولنا،و لیعرّفنا الربّ نفسه.

هُوَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ كیف یحیی و یمیت؟إنّ قدرته لا تحدّ فاذا قضی شیئا یكفی أن یلقی بأمره إلیه فینفّذ فورا.

فَإِذٰا قَضیٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا یَقُولُ لَهُ كُنْ فَیَكُونُ و لعلّ هذه الخاتمه جاءت لبیان عظمه الإحیاء و الإماته،و أنّهما یتحقّقان بأمر غیبی.

[۶۹]إذا كان موقف الإنسان من آیات الحقیقه و شواهـدها سـلبیّا منذ البدء، لم یسـتطع بلوغ المعارف.أ رأیت الذی یجحد أصـلا بوجود المصـباح،كیف یستضـیء بنوره؟و هذه هی مشكله أكثر الناس،فهم یجادلون فی آیات اللّه،فلا یفتحون لها أفئدتهم،بل و لا أبصارهم،و ذلك بسـبب حواجز نفسیّه.تری كیف ینبغی ثنیهم عن هذا الموقف؟ الجواب نجده فی منهج القرآن عند ما یدعو إلی اللّه و عند ما یذكّرنا بآیات اللّه.

إنّه فی البدء یعالج هذا الموقف السلبی تجاه الآیات و الذی یسمّیه بالمجادله فیها،ثم یستعرض الآیات بعدئذ.

ففی هذا السیاق مثلا نجد القرآن قد بصّرنا فی الآیه(۳۵)بعاقبه الجدال فی آیات اللّه،و کیف أنّ اللّه یطبع علی کلّ قلب متکبر جبّار،و ضرب لنا مثلا من تکذیب فرعون،و کیف زیّن له سوء عمله،و صدّ عن السبیل،و فی الآیه(۵۶)عاد مرّه أخری إلی قضیه الجدل فی آیات اللّه،و بیّن کیف أنّه ینبعث من الکبر الذی لن یبلغه البشر،ثم نسف أساس هذا الکبر المزیّف ببیان عظمه الخلق،ثم عاد و للمرّه الثالثه الی ذات الموضوع فی هذه الآیه لیبیّن عاقبه الجدل و جزاءه فی الآخره.

و فی کلّ مرّه نری السیاق بعد أن یحذّر من مغبّه المجادله فی آیات اللّه،یبیّن طائفه منها لتعمر القلب-الذی طهّر من حجب المعادله و الموقف السلبی تجاه الآیات-بضیاء المعرفه.

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یُجٰادِلُونَ فِی آیٰاتِ اللّٰهِ أَنّٰی یُصْرَفُونَ إلی أیّ واد ضلال تسوقهم شهواتهم؟ و یبدو أنّ الآیات عامّه تشمل کلّ علامه تهدینا الی الحقیقه،إلاّ أنّها هنا جاءت بمناسبه الحدیث عن أدلّه النشور و شواهد الجزاء و المسؤولیه فهی تمهّد لذکر تلک الآیات.

[۷۰]أولئک الذین کذّبوا بالکتاب و بما أوحی اللّه إلی رسله من أحکام ینتظرهم جزاؤهم العادل.

اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِالْکِتٰابِ وَ بِمٰا أَرْسَلْنٰا بِهِ رُسُلَنٰا لعلّ ذکر الرسل هنا للدلاله علی ضروره التسلیم للحقّ،و أیضا للشخص الذی یمثّله و هو الرسول و الإمام،ذلک أنّ کلّ الوحی لیس مفصّلا فی الکتاب،بل منه ما

يبيّنه الرسول فى سنّته،و أنّ من كذّب رسولا واحدا أو بكتاب واحد فكأنّما كذّب بالكتاب كلّه و بالرسل جميعا.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ و يعرفون أيّ عذاب شديد يجزون به.

[71]إنّهم يسحبون بالأغلال التى فى أعناقهم و السلاسل التى قيّدوا بها.

إِذِ الْأَغْلاٰلُ فِي أَعْنٰاقِهِمْ وَ السَّلاٰسِلُ يُسْحَبُونَ يا للخزى!هكذا يقيّدهم اللّه بعد أن منحهم فى الدنيا الحريّه فلم ينتفعوا بها، بل قيّدوا أنفسهم بأغلال الشهوات و سلاسل الأنظمه الشركيه.

[72]و لكن..فى أيّ واد يسحبون؟ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النّٰارِ يُسْجَرُونَ يجرّون فى ماء حار محموم ثم إلى أن يبلغوا النار التى يلقون فيها حتى تلتهب بأجسادهم كما يسجر التنّور بالوقود.

[73-74]كلّ ذلك-كما يبدو-يجرى عليهم فى يوم القيامه،و قبل أن يقتحموا فى نار جهنم يقرأ عليهم الحكم الصادر بحقّهم،و الجرم الذى استحقّوا به ذلك الحكم.

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لقد آمنوا بالطاغوت،و خضعوا للمجتمع الفاسد،للمترفين و أدعياء العلم

و الدّين،و زعموا أنّ ركونهم الى تلك الآلهه المزيّفه تنجيهم من عذاب اللّه فسئلوا عنهم.

قٰالُوا ضَلُّوا عَنّٰا فلا نجد لهم أثرا.بلى.إنّهم ضلّوا عن الحقّ فى الدنيا اعتمادا عليهم،و لكنّهم اليوم قد ضلّوا عنهم.

بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً هل إنّهم شرعوا فى الكذب على ربّهم بعد أن وجدوا صرامه الجزاء،و عنف التبكيت،و خزى الشماته،أم أنّهم بيّنوا حقيقه طالما أخفوها فى الدنيا،و هى أنّ الكافرين لا يعبدون إلاّ أسماء،و إنّما الآلهه خيالات و أوهام.

كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ الْكٰافِرِينَ حتى يعبدوا مجرّد أوهام،لأنّهم كفروا بآيات اللّه،و كذلك يذهب سعيهم فى الحياه الدنيا سدى فلا يستفيدون منه فى الآخره.

[٧٥]لقد أذهبوا طيّباتهم فى الدنيا،و سعوا نحو اللّذات العاجله دون الأهداف الساميه.

ذٰلِكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ الذى لا يؤمن بالحساب يمتلئ غرورا،و يسعى فى الأرض بالباطل،دون كوابح أو ضوابط،و دون أن يأبه بمستقبل حياته أو عاقبه أفعاله،و لعلّ هذا هو معنى

و إذا فاض غرور المرء طفق يمرح،و ينشط فى اتباع الشهوات،و يسرف فى اللّهو و الطرب،و يبتدع وسائل جديده لقضاء الوقت (۱)[۷۶]و جزاء هذا الانسياق مع رياح الشهوات،و الترف فى الملذات،هو ذلك الحميم،و السجر بالنار،و التبكيت،و الخلود فى جهنم.

اُدْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها و لماذا لا يدخلون من باب واحد؟هل لكثره عددهم أم لتنوّع جرائمهم،حتى أدخل كلّ فريق من باب مختلف عن غيره؟كلّ ذلك جائز،و علينا أن نسعى جاهدين لإغلاق كلّ أبواب النار من دوننا،و ذلك بتجنّب كل طرق الضلال و سبل الفساد.

فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ و إنّ جذر سائر المفاسد هو الكبر الذى يتعالى به البشر عن سنن اللّه،و جزاء المتكبّرين الخلود أبدا فى جهنّم،و ساءت مصيرا.

ص:۱۳۶

۱- ۱) نقل عن اللغه:الفرح انشراح الصدر بلذه عاجله،و المرح شدّه الفرح و التوسّع فيه(تفسير نمونه/ج ۲ ص ۱۷۶).

[سوره غافر (۴۰): الآيات ۷۷ الى ۸۵]

اشاره

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ فَإِمّٰا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ اَلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنٰا يُرْجَعُونَ (۷۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ
قَصَصْنٰا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُ اَللّٰهِ قُضِىَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ
هُنٰالِكَ اَلْمُبْطِلُونَ (۷۸) اَللّٰهُ اَلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اَلْأَنْعٰامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهٰا وَ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ (۷۹) وَ لَكُمْ فِيهٰا مَنٰافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهٰا حٰاجَةً فِى
صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهٰا وَ عَلَى اَلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (۸۰) وَ يُرِيكُمْ آيٰاتِهِ فَأَىَّ آيٰاتِ اَللّٰهِ تُنْكِرُونَ (۸۱) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِى اَلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كٰانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثٰاراً فِى اَلْأَرْضِ فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَرِحُوا بِمٰا عِنْدَهُمْ مِنَ اَلْعِلْمِ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۸۳) فَلَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا قٰالُوا آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنٰا بِمٰا
كُنّٰا بِهِ مُشْرِكِينَ (۸۴) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمٰانُهُمْ لَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا سُنَّتَ اَللّٰهِ اَلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبٰادِهِ وَ خَسِرَ هُنٰالِكَ اَلْكٰافِرُونَ (۸۵)

وَ خَسِرَ هُنٰالِكَ الْمُبْطِلُونَ

هدى من الآيات:

ما هو موقف الرسول و الرساليين من هؤلاء المجادلين فى آيات اللّه الذين بيّن السياق فيما مضى من الآيات انغلاق قلوبهم،و كبر صدورهم،و عاقبه أمرهم؟ إنّ عليهم الصبر بانتظار وعد اللّه الحق،و سواء أراهم اللّه بعض الجزاء الذى وعد أعداءهم أو توفّاهم قبلئذ فإنّ الأمر بيده،و هذه سنّه الرسل الماضين،سواء منهم الذين قصّ علينا القرآن عنهم شيئا أو لم يقصص،فحتى الآيات التى تجلّت على أيديهم إنّما كانت بإذن اللّه،و لم ينزل العذاب على أممهم إلاّ بعد أن جاء أمر اللّه فقضى بينهم بالحق،فنجى المؤمنون،و خسر هنالك المبطلون.

و يذكّر السياق بآيات ربّنا،و كيف جعل فى الأنعام ألوانا من النعم،نركبها و نأكل منها،و نستفيد من أشعارها و أوبارها و نتزيّن بها،و نشبع عبرها حبّ التملّك و السيطره التى فى أنفسنا، و تحمل أثقالنا كما تحمل السفن..و أعظم نعمه أنّه يرينا

ص:١٣٩

بها آیاته حتی نحظی بمعرفه خالقنا العزیز،فما ذا ننکر من آیات ربّنا؟! و لکی یرفع القرآن حجاب الغرور الذی یمنع الاهتداء بآیات اللّه،یذکّرنا بعاقبه الکافرین بها،و یأمرنا بأن نسیر فی الأرض لننظر کیف کان عاقبه الذین من قبلنا.

أو لم یکونوا أکثر عددا منّا و أشدّ قوّه و أعظم آثارا فی الأرض،و لکنهم دمّروا شر تدمیر لما کذّبوا،و لم تشفع لهم مکتسباتهم المادیه؟!إنّهم أنذروا عبر الرسل، و لکنهم فرحوا بما لدیهم من علم ضئیل و اغترّوا به فلم یستجیبوا للنذر،فأحاط بهم ما کانوا به یستهزءون.

و استمرّوا فی غیّهم حتی رأوا بأس اللّه،هنالک قالوا:آمنا باللّه وحده،و کفرنا بالشرکاء من دونه..و لکن هل نفعهم إیمانهم؟کلا..جرت سنه اللّه بعدم ذلک، و خسر هنالک الکافرون.

أ فلا نعتبر بمصیرهم،و نستجیب لنذر اللّه،و نستمع إلی رسله؟!

بینات من الآیات:

[۷۷]حین شاء اللّه خلق السموات و الأرض لم یخلقهما فجأه بل قدّر لذلک سته أیّام،و هکذا کان عالمنا عجینا بالزمن،و هکذا جرت سنّه اللّه فی سائر ما یقضیه من شؤون الدنیا،و لو افترضنا جدلا أنّ کلّ شیء یتحقّق فورا لکانت ملامح عالمنا مختلفه جدا عن واقعنا الیوم،و لما تحقّقت حکمه الربّ فی الابتلاء،فهل کان مجرم یقترف ذنبا لو کان جزاؤه عاجلا،أم کان بشرا ینی من السعی نحو المکرمات لو جاء ثوابها فورا؟! لا بدّ-إذا-من الصبر حتی یمضی الأجل المحدّد،و یبلغ الکتاب نهایته، و هنالک لا یتأخّر الجزاء ساعه واحده،فلو تکاثفت و ترکزت جهود أهل الأرض

جميعا لتمديد حكم ظالم بلغ أجله لحظه واحده لما قدروا.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ سوف يدمّر الظالمون شر تدمير،و سوف تلاحقهم لعنه اللاعنين،و سوف ينتصر الربّ لرسالاته،و يمكّن المستضعفين فى الأرض،كل ذلك وعد من اللّه،و لن يخلف اللّه وعده،و لكنّه بحاجه الى الصبر.

فَإِمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ بما أنّ الرسول و من يتبع نهجه لا يبحث عن النصر لنفسه،بل لرسالته،فإنّ النتيجه عنده واحده سواء انتصرت مبادؤه فى حياته أو بعد وفاته.

إنّ الرسول و المؤمنين قد شروا أنفسهم ابتغاء مرضاه اللّه،و لا يبحثون عن تشفّى نفوسهم بالانتقام من أعدائهم،بل يفوّضون أمرهم الى ربّهم فسواء انتصروا أم توفوا،فإنّهم قد أدّوا واجبهم.

حقّا إنّه أعلى درجات الإيثار، يؤدّب اللّه بها من اصطفاهم من عباده الأكرمين! كم هى صعبه(و عظيمه فى ذات الوقت)أن يستخلص قلب الداعيه من كلّ رغبه خاصّه حتى و لو كانت رغبه الانتقام من أعداء اللّه.

و لكن هذا هو المطلوب فى حركه أتباع الأنبياء،و لولاه لكانت تزيغ عن الصراط المستقيم،و لا نعدم الاطمئنان إليها و إلى حملتها،و لم تقم الحجّه على عباد اللّه حيث أنّ طلاب المناصب كثيرون،و لو وضع هؤلاء أيضا المنصب نصب أعينهم لاشتبه الأمر على عامّه الناس،فلعلّ هؤلاء أيضا اتخذوا الدّين وسيله

للسلطه،کلا..إنّ هؤلاء من نمط آخر،فحتی لو سعت إلیهم السلطه سعیا ابتعدوا عن لذاتها و بهارجها،فهذا قدوتهم المثلی سید البشر محمد بن عبد اللّه و خاتم النبیین صلی الله علیه و آله سعت إلیه قریش یعرضون علیه أجمل نسائهم،و أصفی أموالهم، و الملک علیهم،فرفض إلاّ تبلیغ دعوته.

و لو خالط حبّ الدنیا قلب الداعیه أثّر من حیث یدری أو لا یدری علی قرارته الإستراتیجیّه،ذلک أنّ عمل الإنسان إنّما هو تجسید لنیّاته،و قد قال ربّنا: قُلْ کُلٌّ یَعْمَلُ عَلیٰ شٰاکِلَتِهِ ،فشخصیه الإنسان الداخلیه تبرز من خلال أعماله شاء أم أبی،و هکذا تنحرف الرساله عن مسیرها القویم،إذا لم یخلص حملتها نیّاتهم للّه.

و إنّ فریقا من المنتمین الی الحرکات الرسالیه یزعمون أنّها حرکات سیاسیه و لکن بصبغه إلهیه،فإذا زویت عنها المکاسب العاجله لمصلحه سائر السیاسیین اتّهموا قاده الحرکه بالسذاجه و الانطواء،و حین یطول انتظارهم للنصر تراهم یرتابون فی القیم رأسا،و ینسحبون عن الساحه،کلا..إنّها حرکات دینیه أوّلا،و سیاسیه ثانیا،ذلک أنّهم لا یصوغون استراتیجیتهم وفق المتغیّرات السیاسیه،بل حسب الواجبات الدینیه،و أعینهم مسمّره علی أجر اللّه و رضوانه قبل أن ترمق ملامح نصره،و لذلک تراهم لا یداهنون أعداءهم،و لا یتنازلون عن قیمهم،و لا یخادعون الناس،و لا یمالئون المترفین علی حساب دینهم،و لا یخشون قوه کبری،و لا یظلمون قوه صغری.

فهذا الإمام علی-علیه السلام -حین أشار علیه قومه ببعض الحیل السیاسیه نهرهم قائلا:«أ تأمرونی أن أطلب النصر بالجور فیمن ولّیت علیه؟! » (1)

۱- ۱) نهج البلاغه/خ ۱۲۶ ص ۱۸۳.

و الحكمه فی ذلک أنّ الهدف الأوّل لأنصار الرساله تکریس الحق و إنذار الناس به،و قد لا تکون السلطه أفضل وسیله لذلک،إذ قد یکون أثر حرکه معارضه فی توجیه الحاله الاجتماعیه أشدّ و أبقی من تأثیر السلطه الحاکمه.

و قد یکون المطلوب إیجاد قوه رسالیه ضاغطه باتجاه القیم فی مواجهه قوه کافره تضغط باتجاه الضلال،و فی هذا الوقت تکون السلطه غیر مناسبه لإیجاد تلک القوه.

و قد یخشی أن یولد الإنتصار فی غیر أوانه فیکون ناقصا،و یجهض سریعا،و بتعبیر آخر قد یمنع النصر العاجل المحدّد نصرا آجلا أرسخ جذورا و أوسع فروعا.

و قد تکون شهاده الرسالی أقوی حجّه لسلامه خطّه و صحه دعوته من انتصاره، فتکون هی الغایه السامیه له..

لذلک

نجد الإمام الحسین-علیه السلام-اندفع للشهاده قائلا:

«خطّ الموت علی ولد آدم مخطّ القلاده علی جید الفتاه،و ما أولهنی إلی أسلافی اشتیاق یعقوب إلی یوسف».

ثم ناضل أعداء الرساله،حتی إذا قدّم کلّ أنصاره و أهل بیته و حتی طفله الرضیع،و احتمل جسده عشرات الجراحات،و خرّ علی الأرض صریعا،قال:

«إلهی رضا برضاک،لا معبود سواک » [۷۸]تلک هی سنّه الأنبیاء جمیعا،إنّهم یتجرّدون لرسالات ربّهم،و یخلصون للّه نیّاتهم و أعمالهم،و حتی الآیات التی تنزل علیهم کانت بإذن اللّه.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلاً مِنْ قَبْلِکَ

ص:۱۴۳

و لأنّک فی خطّهم و علی السبیل الذی مضوا علیه فلا بدّ أن تهتدی بسیرتهم، و تنظر الی سنّه اللّه فیهم.

مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنٰا عَلَیْکَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَیْکَ

جاء فی حدیث مأثور عن الإمام الرضا-علیه السلام-عن الرسول-صلی اللّه علیه و آله -:«خلق اللّه عزّ و جلّ مأه ألف نبی و أربعه و عشرین ألف نبی،أنا أکرمهم علی اللّه،و لا فخر.و خلق اللّه عزّ و جلّ مأه ألف وصی و أربعه و عشرین ألف وصی،فعلی أکرمهم علی اللّه و أفضلهم » (۱)

و جاء فی حدیث مأثور عن الإمام أمیر المؤمنین-علیه السلام -:«بعث اللّه نبیّا أسود لم یقصّ علینا قصته » (۲)و کلّ أولئک الرسل مضوا علی هذه السنه،و هی:

وَ مٰا کٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ فحتی الآیات التی تشهد علی صدق نبوّته لیست بإذنه و إنّما بإذن اللّه سبحانه.

فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُ اللّٰهِ قُضِیَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنٰالِکَ الْمُبْطِلُونَ الذین أعرضوا عن رساله اللّه و خالفوا رسله،و هکذا حین فوّض الرسل أمورهم الی اللّه سبحانه أحسن اللّه تدبیره،و انتقم بشده ممّن خالفهم،بعد انقضاء أجلهم.

[۷۹]الآیات الخارقه التی کان المبطلون یزعمون أنّهم إنّما یؤمنون بالرساله إذا

۱- ۱) تفسیر نمونه نقلا عن موسوعه بحار الأنوار ج ۱۱-ص ۳۰.

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۴-ص ۵۳۷.

وقعت،ليست-فى الواقع-مختلفه عن آيات اللّه المبثوثه فيما حولهم،إلاّ أنّهم تعوّدوها فلم تعد تثر فيهم الإعجاب،و إنّهم لو شاؤوا الإيمان لكفتهم هذه الآيات شواهد على توحيد اللّه،و لكن قلوبهم كانت عليله،و هم بحاجه الى استيعاب عبره الأمم الذين خسروا حين جاءتهم الآيات التى طالبوا الرسل بها.

و هكذا نجد السياق ينذر-من طرف خفى-بمصير أولئك الغابرين كلّ من لا يفتح أبواب فؤاده لآيات اللّه فى الخليقه.

اَللّٰهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَنْعٰامَ لِتَرْکَبُوا مِنْهٰا فهى ذات الأنعام و لكنّ اللّه جعل فيها فوائد عظيمه للبشر فمنها ركوبكم.

وَ مِنْهٰا تَأْکُلُونَ و المسافه شاسعه بين حاجه الأكل و حاجه الركوب،فبينما الأكل طعام الإنسان لا بدّ أن يكون متناسبا مع متطلبات جسده وليّنا،و قابلا للقضم و الهضم، نجد مركبه ينبغى أن يكون قويّا و متناسبا و طبيعه الأرض سهلها و حزنها و جبلها و حرّتها! دعنا نقيس السيّارات التى اخترعناها لسيرنا،هل تتشابه و خلق اللّه؟إنّها بحاجه الى وقود لا يوجد فى كلّ أرض،بعكس طعام الأنعام النابت من كلّ أرض توجد فيها،و هى بحاجه الى مصانع،بينما الأنعام تتوالد،و هى ليست قابله للأكل بعكس الأنعام..و أخيرا فهى بحاجه الى طرق معبّده،بينما تسير الأنعام فى أشدّ السبل و عوره.أو لا يدلّ ذلك على حسن تدبير اللّه لحياه الإنسان؟! و بالرغم من أنّ مكاسب الحضاره الحديثه بدورها شاهده على عظمه اللّه،لأنّها

بالتالی تهدینا الی عظیم خلق الإنسان الذی سخّر اللّه له الطبیعه بالعلم و القدره،إلاّ أنّها تکشف أیضا عن خبایا الطبیعه المحیطه بنا،و التی هی خلیقه اللّه،و من أحسن منه خلقا و تدبیرا.

[۸۰]و فی الأنعام منافع أخری فی جلودها و أوبارها و أشعارها و حتی فی فضلاتها،و الیوم حیث أغنی اللّه الإنسان بوسائل السیر السریعه عن الأنعام لا زلنا بحاجه ماسّه الی تلک المنافع.

وَ لَکُمْ فِیهٰا مَنٰافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَیْهٰا حٰاجَهً فِی صُدُورِکُمْ قالوا:تحمل أثقالکم الی بلاد بعیده،و تقضون بها حوائجکم،و یبدو لی أنّ فی الآیه إشاره الی الزینه التی جعلها اللّه للإنسان فی الأنعام،حیث قال ربّنا سبحانه:

وَ لَکُمْ فِیهٰا جَمٰالٌ حِینَ تُرِیحُونَ وَ حِینَ تَسْرَحُونَ .

و معروف العلاقه الحمیمه التی تنشأ بین الأنعام و مالکیها بسبب وجود هذه الحاجه فی الصدر.

وَ عَلَیْهٰا وَ عَلَی الْفُلْکِ تُحْمَلُونَ فاللّه الذی خلق الإبل لیطوی به الإنسان المفاوز البعیده،هو الذی أجری سننه فی البحر،و سخّر للإنسان الفلک لیحمله عبر المحیطات الی البلاد البعیده.

[۸۱]فهذه آیات اللّه یستعرضها ربّنا فی کتاب الخلیقه و فی ثنایا کتابه المرسل، لیعرّف نفسه إلینا من خلالها،حتی لا نکاد نقدر علی إنکارها لشدّه وضوحها و کثرتها و تنوّعها،فإذا ضلّ الإنسان فإنّما یضلّ علی نفسه،و بعد کمال النعمه و إتمام الحجه.

ص:۱۴۶

وَ يُرِيكُمْ آيٰاتِهِ فَأَيَّ آيٰاتِ اللّٰهِ تُنْكِرُونَ [۸۲]و ماذا يغنى الإنكار-لو أنكرتم-عنكم شيئا؟!إنّ الحجه قد تمّت، و الإنذار قد كان بالغا،و الانتقام شديد،و لكم فى حياه الغابرين عبره لا ينبغى تجاوزها،أولئك أيضا أنكروا اعتمادا على قوّتهم و غرورا بما لديهم من علم، و استهزءوا بالحقائق إيغالا-فى اللهو و اللعب،فانظروا كيف كانت عاقبه أمرهم،فما راعهم إلاّ-و بأس اللّه على رؤوسهم،فأعلنوا الإيمان لعلّه يدفع عنهم قضاء اللّه، و لكن هيهات! أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ لينظروا مصارع عاد و ثمود و أصحاب الأيكه،و ليقرأوا على بقايا قلاع بعلبك، و أهرامات مصر،و أطلال مدينه بابل،و ما فى المدائن و..و..تاريخ الظالمين.

بلى.ساروا و قرءوا و حفظت كتب التاريخ،و متاحف البلاد،و روايات الناس كثيرا من هذه الحقائق،و لكنّ الإعتبار هو المهم.

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و هل أنّهم انتهوا لقلّه عددهم،أو ضعف عدّتهم،و محدوديه آثارهم بالقياس إليهم؟كلا..

كٰانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثٰاراً فِي الْأَرْضِ لقد عمّروا الأرض بإثاره التراب و تغيير ملامحه أكثر مما فعل هؤلاء فما أغنت عنهم القصور الشامخه،و القلاع المنيعه،و المنائر الضاربه فى السماء.

فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [۸۳]لقد اعتمدوا على منطق القوه فرفضوا المنطق السليم،و أرادوا دعم منطقهم بأموالهم و آثارهم فى الأرض،زاعمين أنّهم على حقّ لأنّهم الأقوى ظاهرا، و أنّ علمهم هو الأفضل لأنّهم أكثر عددا و عدّه.

فَلَمّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ و لعلّ معنى الفرح هنا:الاستغناء به عن العلوم الأخرى،كمن يعتزّ برأيه، و هذا يوجب الانغلاق دون الأفكار الجديده،و هذه-فى الواقع-عاده الظالمين حيث أنّهم يصابون بالتعصّب و التقليد حتى لكأنّ قلوبهم فى أكنّه،يخشون من كلّ جديد،و ينغلقون دون كلّ دعوه.

و هذا ليس من حكمه العلماء إنّما هى صفه أصحاب القوه،فالعلم بذاته يدعو إلى التواضع،و يهدى صاحبه الى آفاق جهله،و آماد المعارف التى يجب عليه السعى إليها،و قد شبّه بعضهم العلم بحلقه فى صحراء الجهل كلّما اتسعت حدودها كلّما لامست مساحات جديده من هذه الصحراء،لذلک ترى أحد العلماء يقول عند موته عند ما يسأل:ماذا علمت؟يقول:علمت بأنّى لا أعرف شيئا.

بلى.إنّنا نجد بعض الجهلاء اليوم يفتخرون بعلم العلماء(لا علمهم هم) و يرفضون رساله اللّه اعتمادا على تقدّمهم العلمى،بينما نجد علماءهم يزدادون تواضعا للحقائق كلّما ازدادوا علما.

وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ لقد استهزءوا بالحقائق فأهلكتهم،و اليوم حيث يستبدّ بالمستكبرين فى الأرض

ص:۱۴۸

غرور القوه،و يفرحون بما لديهم من العلم،و ينغلقون دون دعوات الإصلاح التى يحملها أنصار الرساله،و يستهزءون بالإنذار تلو الإنذار الذى يبلّغه أصحاب الرساله بأنّ عاقبه هذه الحضاره ليست بأفضل من عاقبه الحضارات الماديّه السابقه،و أنّ الجهل،و الأنانيه،و الظلم،و الترف،و الغفله،و سكر الغنى،و غرور القوه،و كلّ الصفات الرذيله التى انتشرت فى الأرض عاقبتها الدمار،إمّا بحرب ثالثه لا تبقى و لا تذر،أو بصاعقه منشأها ارتطام كوكب بكوكبنا،أو زلزال مدمّر كالذى يتنبّأ به بعض العلماء فيما يتعلّق بغرب أمريكا أو ما أشبه..

و إذا كان كلّ ذلك الإنذار يذهب سدى فإنّنا نخشى من مصير رهيب نسأل اللّه العلى القدير أن يرحم البشريه،و أن يهدينا و العالم الى نور الإسلام الحق.

[۸۴]هؤلاء يعرفون الحقائق،و لكنّهم ينكرونها غرورا،لذلك تراهم يؤمنون باللّه عند ما ينزل عليهم بأسه.

فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ من سلطان و مال و ضلال.

إنّ غرورهم بالقوه و الثروه،و تعصّبهم لضلالاتهم،يسمّى كلّ ذلك شركا فى هذه الآيه،و قد كفروا به و لكن بعد فوات الفرصه.

[۸۵]إنّ الكفر بالأنداد،و رفض الآلهه المزيّفه،كان ينبغى أن يسبق البلاء حتى يكون نافعا،لأنّ الدنيا دار ابتلاء،و وقت الابتلاء ينتهى عند رؤيه العذاب فَلَمْ يَکُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْکافِرُونَ إنّ الايمان ينفع قبل حلول البلاء،تلك سنه لا تتحوّل فيمن مضى و فيمن يأتى.

ص:۱۴۹

سوره فصّلت

اشاره

ص:۱۵۱

بسم اللّه الرحمن الرحیم

فضل السوره:

عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السلام قال :

«من قرأ حم السجده کانت له نورا یوم القیامه حدّ بصره،و سرورا،و عاش فی الدنیا محمودا مغبوطا» (تفسیر نور الثقلین/ج ۴/ص ۵۳۸)

عن أبی عبد اللّه علیه السلام :

إن العزائم أربع:« اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ »و النجم،و« الم تَنْزِیلُ » السجده،و« حم »السجده (المصدر)

ص:۱۵۳

الإطار العام

تفتتح السوره ببيان عن القرآن الذى فصّلت آياته ببلاغه نافذه تنفع العلماء الذين تبشّرهم بالحسنى،كما تنذر المعرضين الذين لا يسمعون آياته.

و تلخّص هذه الفاتحه المحاور التاليه للسوره:

المحور الأوّل:الجحود و الإعراض و الاستكبار الذى ابتلى به أكثر القوم حتى زعموا أنّ قلوبهم فى أكنّه فلن تهتدى أبدا،و يذكر السياق عوامل هذه الحاله الشاذه،و يعطى وصفه العلاج لها.

و يقارن الذكر بين هذه الحاله الموغله فى الضلاله،و ما عليه المؤمنون الذين استقاموا فنزلت عليهم الملائكه،و اشتغلوا بالحمد و التسبيح للّه بلا كلل و لا سأم.

و تكاد تكون هـذه المقارنه أبرز سـمات هـذه السوره المباركه،فإذا تلونا فى الآيه (۵)قول الجاحـدين فِى آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ متحدين بكل صلافه الرساله الإلهيه،فإننا نتلوا فى الآيه التاليه(۶)قوله:

ص:۱۵۵

فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ ليتحدى المؤمنون صلافه الجاحدين بما يفوق إصرارهم، و يهزم عنادهم! و حين نقرأ فى الآيه(۲۵): وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ حيث يبين القرآن مدى شقاء هذه الطائفه الجاحده حتى لزمتهم كلمه العذاب،فإنّنا نقرأ فى الآيه(۳۰): إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَهُ . فهناك قرناء السوء،و هنا أولياء الرحمه.

و أخيرا حين يبيّن السياق فى الآيه(۳۸)استكبار أولئك الجاحدين،يبيّن أن من عند اللّه لا يسأمون عن التسبيح.

و لمعالجه حاله الإعراض عن الذكر و الجحود فى آيات اللّه ينذرهم الربّ فى دنياهم بصاعقه مثل صاعقه عاد و ثمود(۱۸/۱۳)،كما ينذرهم فى عقباهم بنار السعير فى يوم تشهد عليهم جوارحهم(۲۲/۱۹).

و يشير السياق الى بعض عوامل الإعراض كالظن السيء باللّه،و قرناء السوء، و اللّغو فى القرآن(التضليل)،و يحذّر مرّه بعد مره من العذاب الشديد الذى ينتظر الجاحدين حتى أنّهم يبحثون هنالك عمّن أضلهم من الجن و الإنس ليجعلوهم تحت أقدامهم(۲۹/۲۳).

كما يبشّر الذين يذكرون و يستقيمون على الذكر بالسداد و النصر فى الدنيا، و الجنه و الرضوان فى الآخره.

المحور الثانى:التذكره بآيات اللّه فى الآفاق و فى أنفسهم،حيث يبيّن القرآن هنا قصه خلق الكائنات فى أيّام أو مراحل(۱۲/۹)و أنّ من آياته الشمس و القمر حيث يدعو الى نبذ السجود لها،و إنّما التوجه الى خالقها بالسجود و التسبيح،و أنّ من

آیاته إحیاء الأرض بعد موتها،و هو الذی یحیی الموتی(۳۹/۲۷)و یردّ إلیه علم الساعه،و ما تخرج من الثمرات من أکمامها(۴۷)..و یستعرض جانبا من أطوار النفس البشریه حیث تری الإنسان لا یسأم من دعاء الخیر،و لکنّه إذا مسّه الشر تراه یؤسا قنوطا،و حین یرزق نعمه یفقد من الفرح توازنه،و إذا أصابه السوء فهو ذو دعاء عریض(۵۱/۴۹).

و کما هو منهج القرآن البدیع فی سائر السور حیث یوصل الآیات الشاهده علی الحق بالإنذار من الإعراض عنها،ذلک أنّ بیان الآیات لا یجدی الجاحد نفعا، فلا بد إذا من استصلاح الأرض قبل أن یزرع فیها الحب،کذلک نجد فی هذه السوره کیف تتماوج الآیات بین إنذار المعرضین عن الآیات و بین بیان آیات اللّه فی الآفاق و الأنفس،مثلا بعد الآیه(۳۹)التی تلفت النظر الی خشوع الأرض قبل أن ینزل اللّه علیها الماء فتهتز و تربو و تحیی،و قبل الآیه(۴۷)التی تبیّن علم اللّه بالساعه و بالثمرات التی تخرج من أکمامها،نجد الآیات(۴۶/۴۰)تنذر الذین یلحدون فی آیات اللّه أنّهم لا یخفون علی اللّه،و أنّ الذین کفروا بالذکر لا یفلحون، لأنّه کتاب عزیز لا یأتیه الباطل من بین یدیه و لا من خلفه،ثم یذکر بعض أعذار الجاحدین من قبل و من بعد الرسول.

و تتمیّز السوره بقوّه الطرح،و شده نبرات السیاق،خصوصا فیما یتصل بالإعراض و الجحود فی آیات اللّه،کما تتمیّز بالمفارقه الحادّه بین طرفی الصراع،بین من یصرّ علی الجحود و من یستقیم علی الطریق.

[سوره فصلت (۴۱): الآيات ۱ الى ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . حم (۱) تَنْزِيلٌ مِنَ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ (۲) كِتٰابٌ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳) بَشِيراً وَ نَذِيراً
فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ (۴) وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا فِي أَكِنَّةٍ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَيْهِ وَ فِي آذٰانِنٰا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنٰا وَ بَيْنِكَ حِجٰابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنٰا
عٰامِلُونَ (۵) قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (۶) اَلَّذِينَ لاٰ
يُؤْتُونَ اَلزَّكٰاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ (۷) إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۸)

اللغه

۵[أكنّه]:أى أغطيه فإن أكنّه جمع كن و هو الغطاء.

[وقر]:أى ثقل عن استماع القرآن.

ص:۱۵۹

٨[غير ممنون]:أى غير مقطوع،فإنّ«ممنون»منّ بمعنى قطع أو من«المنّ»بمعنى الأذى الذى يكدّر الإحسان،أى غير مكدّر بالمن.

فاستقيموا إليه و استغفروه

هدى من الآيات:

يفتتح القرآن سوره«فصلت»بما يمهّد للحقائق التى تذكّر بها السوره..

أوّلا:تبصّير الناس بحقيقه القرآن،و أنّه كتاب فصّيلت آياته بإحكام،و قد أوحى بلغه عربيه تبيّن الحقائق للذين يعلمون،فهو كتاب علم و معرفه كما هو كتاب حكمه و تربيه تبشّر و تنذر،إلاّ أنّه هدى للذين يستمعون إليه أمّا الذين لا يهتدون إليه فقد أعرضوا عنه حتى قالوا:قلوبنا فى أغطيه،و آذاننا ثقيله،و على أبصارنا غشاوه،و إنّ المسافه بيننا و بينك قد سدّت بحجاب،ثم تحدّوا الرسول صلى الله عليه و آله بأنّهم عاملون حسب أفكارهم فليعمل حسب آدابه لينظروا لمن العاقبه.

هكذا ذكر السياق فى فاتحه السوره بالمنهج الحق للانتفاع بالقرآن، و هو منهج التسليم لا الإعراض و التحدّى.

ص:١٦١

ثانیا:تجرّد الرسل عما یتّصل بذاتهم من أجل الرساله شاهد صدق علیها،فهم یدعون إلی اللّه وحده(لا إلی أنفسهم أو قومیتهم أو إقلیمهم أو ما أشبه)و یأمرون بالاستقامه فی طریقه،و یعدون بالرحمه عبر الاستغفار،و ینذرون المشرکین(الذین یعبدون الطاغوت أو سائر الأنداد)بالویل و الثبور.

و المشرکون هم الذین یمنعون الزکاه و یکفرون بالآخره،و بإزاء هذا الإنذار تأتی البشاره للذین آمنوا و عملوا الصالحات بأنّ لهم أجرا لا ینقطع.

(و هکذا تتجلّی صفات القرآن و دعوته فی هذه الکلمات البلیغه).

بینات من الآیات:

بنور اللّه الذی یرشّه علی الأشیاء فیجعلها مخلوقات مدبّرات بأمره،بنور اللّه الذی یفیضه علی الإنسان فیجعله خلیفته فی أرضه،و یمنحه به العقل و الهدی و المعرفه و المشیئه،و بنوره الذی یوحیه الی أنبیائه فیجعلهم السرج المنیره فی دیجور الحیاه..

بذلک الاسم العظیم و النور الباهر یبتدأ الوحی رسالته،و به نتلوا تلک الرساله.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیمِ [۱] حم مره أخری تستقبل أفئدتنا هذه الکلمات المتقطّعه التی تستثیر عقولنا،فهل هی أسماء للسوره التی تبدأ بها؟أم هی إشارات إلی ذات القرآن و هی بمثابه هذه الأحرف أو هذه الکلمات أو هی رموز بین اللّه و الراسخین فی العلم من عباده؟ کلّ ذلک محتمل،و لا ضیر فی أن یکون کلّ ذلک مراد القرآن،لأنّ للقرآن تخوما

ص:۱۶۲

و على تخومه تخوم،و يبدو أنّ كلمه«حم»مبتدء أسند إليها قوله تعالى:«تنزيل»، فيكون المعنى:هذا تنزيل من اللّه.

[۲]تتجلّى فى كتاب اللّه الرحمه الإلهيه التى تتجلّى فى خلقه،تلك الرحمه التى تتّسم بالشمول و الاستمرار.

تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ هل استطاع العادّون إحصاء رحمات اللّه؟كلاّ..و إن تعدّوا نعمه اللّه لا تحصوها،فهو الرحمن الذى وسعت رحمته كلّ شىء و أحاطت بكلّ شىء،و رحماته مستمره منذ أن خلقنا من تراب،ثم من نطفه،و الى أن يوارينا الثرى،و هى تستمرّ بالنسبه الى المؤمنين إلى الجنه.

أ فلا ينبغى أن نسارع الى هذا الكتاب الذى أنزل من عند ذلكم الربّ الرحمن الرحيم؟بلى.أو لسنا بشرا و قد أودع اللّه فينا حبّ المحسن إلينا،و شكر من أنعم علينا؟أو لا نريد المزيد من الرحمه؟دعنا إذا نبادر الى قبول رسالته التى تتسم بالرحمه.

[۳]التنوّع و الاختلاف سمه بارزه للمخلوقات،و العلم الحقّ هو الإحاطه بمعرفه خصائص الأشياء و اختلافاتها و نسبه بعضها إلى البعض الآخر.

و حاجات الإنسان هى الأخرى شديده التنوّع و عظيمه الاختلاف، سواء منها النفسيه أو الجسميه،و لكلّ شىء حد إذا تجاوزه بطل،و هكذا حاجات البشر ذات مقدار فإذا أسرف فيها أفسد،و إذا قتر أفسد،فنحن إذا بحاجه الى خريطه مفصّله لوجود الكائنات و وجود الإنسان بينها،فأين نجدها؟أو ليس فى كتاب ربّنا الحكيم؟بلى.

ص:۱۶۳

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ إنّه كتاب(ثابت)،و إنّه مفصّل قد أحكمت آياته و تشابهت و تناسقت،لا تجد فيها عوجا و لا ثغره و لا اختلافا،و هذا بذاته شاهد على صدقه،فكلّ آياته تنبعث من التوحيد الخالص،و تدعوا الى الحق و العدل و الجزاء.

و الكتاب قرآن عربى جاء بهذه اللغه الفريده التى سمت على كل اللغات فى إعرابها عن نوايا المتحدّث بكلّ دقه و بلاغه.

قُرْآناً عَرَبِيًّا و إنّه لشرف عظيم لهذه اللغه و للناطقين بها عبر التاريخ أنّ وحى اللّه قد امتطى متنها،و لعلّنا نستوحى من هذه الإشاره:أنّ شرف العروبه باللغه،و لذلك فكلّ من تحدّث بها و اعتنق المبادئ الساميه التى جاء بها الذكر فهو عربى،و إنما تتفاوت عروبه الناس بمدى التزامهم بتلك المبادئ،و أكرم الناس جميعا أتقاهم.

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ القرآن كتاب علم و لا يبلغ آماده إلاّ العلماء،و إذا قصر عن وعيه إنسان فلنقص فى معارفه..

و كلّما تقدّم علم البشريه كلّما اقتربوا من محتوى القرآن و عرفوا عظمته،إلاّ أنّ ركب الإنسانيه يسير قدما نحو التكامل و يبقى القرآن أمامه أبدا،كالشمس ضوؤها قريب و الوصول إليها مستحيل.

و هذا الاستفتاح يتناسب و الحقائق العلميه التى تشير إليها هذه السوره لكى لا نـنكر بعضها عند ما نجهل أبعادها،فليس من خصائص الإنسان العاقل أن ينكر

ص:١۶۴

ما لا یعرفه،بل یسعی من أجل معرفته.

[۴]و الی جانب أنّه کتاب علم،فهو کتاب حکمه،تنفذ بصائره فی الفؤاد، و تستثیر عقل الإنسان من سباته،و تنهض إرادته،و تشحذ عزائمه،و تربّیه و تزکّیه، کلّ ذلک بما یحتوی من بشاره و إنذار.

بَشِیراً وَ نَذِیراً و لا یدع الکتاب نافذه علی القلب إلاّ و ینفذ منها،و لا وترا حساسا إلاّ و یغرب علیه.إنّه یرغّبهم فی ثواب الدنیا و حسن ثواب الآخره بألوان من الترغیب لا تکاد تحصی،کما و ینذرهم بألوان من عذاب الدنیا و عذاب الآخره.

و لکن هل یعنی ذلک أنّ القرآن یؤثّر فی کلّ الناس؟إذا بطلت حکمه الابتلاء.و لا یصبح الناس جمیعا علی هدی.

فَأَعْرَضَ أَکْثَرُهُمْ فَهُمْ لاٰ یَسْمَعُونَ لقد أعرضوا عن ذکرهم،و لم تشأ حکمه الربّ إکراههم،فهم لا یسمعون الموعظه و لو سمعوها حقّا لاهتدوا إذ لا نقص أبدا من جانب القرآن،بل قد وفّر اللّه وسائل الهدایه، و لکن ما ذنب الشمس لو کان الإنسان أعمی.

[۵]و کان من ملامح إعراضهم أنّهم زعموا أنّ قلوبهم موضوعه فی أوعیه مغلقه،فهی لا تستجیب للحقائق الجدیده،و أنّ بینهم و بین الرسول حجابا لا یمکنهم رؤیه الرسول من ورائه.

وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا فِی أَکِنَّهٍ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَیْهِ لقد عقدوا عزمات قلوبهم علی الکفر بما جاء به الرسول،و التعصّب الأعمی لما

کان علیه آباؤهم،فزعموا أنّ هناک سواتر و أغطیه عدیده تلفّ أفئدتهم عن الدعوه الجدیده،بلی.الغفله و الجهل و الکبر و العناد کلّها أکنّه علی قلوبهم،فکیف تخترقها الرساله؟! ثمّ قالوا:و حتی و لو کانت قلوبنا سلیمه فإنّ آذاننا لا تسمع لما فیها من ثقل، و أبصارنا لا تری و جوارحنا لا تحس لأنّ المسافه التی بیننا و بینک قد سدّت بالحجاب.

وَ فِی آذٰانِنٰا وَقْرٌ وَ مِنْ بَیْنِنٰا وَ بَیْنِکَ حِجٰابٌ فمن أعرض قلبه ثقل سمعه عن استقبال الدعوه،کما علت عینه غشاوه.

ثم کشفوا عن غایه تعصّبهم و شده جمودهم إذ قالوا:

فَاعْمَلْ إِنَّنٰا عٰامِلُونَ فلم یطیقوا الحوار فقطعوه،و قالوا:اعمل أنت بما تری،و نعمل بما نعتقد، و المستقبل یحکم بیننا و بینک،و إذا کنت تخطّط للمواجهه فنحن مستعدون!! هکذا أعرضوا عن الذکر،فهل یلام علی ضلالتهم غیرهم؟ [۶]فی مواجهه الدعوات الصادقه یلتجئ المتعصّبون الی مکر شیطانی،و ذلک بأن یخلطوا بین الدعوه و بین صاحبها فیتهموه بحبّ السلطان أو الجاه و ما أشبه،و من هنا کان من أقوی الحجج التی اعتمدها الرسل-علیهم السلام-التجرّد للرساله عن شخصیّاتهم،و أنّهم لا یطالبون الناس بأجر(اللّهمّ إلاّ ما یکون لهم)و أنّهم لا یبحثون عن جاه أو سلطه أو ثروه،و أنّهم لا یدّعون التمیّز علیهم إلاّ بالوحی.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكَمْ يُوحَى إِلَيَّ و أنّ دعوتهم خالصه للّه،و أنّهم يسلّمون أمرهم لذلك الربّ الواحد الذى يدعون الناس للتسليم له..

أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ و هذه هى الميزه الأساسيه لرسالات اللّه عن كلّ دعوات الباطل،أنّ تلك الدعوات تسعى لإخراج الناس من ظلام الى ظلام،و من عبوديه الى عبوديه،و من غلّ الى غلّ آخر،بينما رسالات اللّه تدعو الى النور،الى الحريه،الى فكّ الأغلال جميعا.

و لولا حجاب الجهل و العصبيه و العناد فإنّ نور الصدق يتجلّى فى دعوات الأنبياء و من اتبع نهجهم.

فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ و هذه ميزه أساسيه ثانيه:إنّ دعوات الباطل تجرّ أصحابها من انحراف الى انحراف و من ظلم الى ظلم و من إسراف الى تقتير و من إفراط الى تفريط،بينما رسالات اللّه تدعو الإنسان الى الحكمه و الاعتدال و الاستقامه،فى طريق اللّه.

و بما أنّ الاستقامه الى اللّه تعنى مقاومه شهوات النفس، و ضغط المجتمع، و سلبيات الماضى،و إرهاب الطغاه،فإنّ البقاء عليها يشبه المستحيل،أو لم يقل رسول اللّه صلى الله عليه و آله شيّبتنى سوره هود،لأنّ فيها آيه الاستقامه،و لذلك أمرنا اللّه بعد الاستقامه بالاستغفار،كما أشار فى سوره هود الى مثل ذلك حيث قال: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ .

وَ اسْتَغْفِرُوهُ فكلّما دفعتك أعاصير الضغوط ذات اليمين و ذات الشمال عد الى طريقك المستقيم،فإنّ على أطراف طريق الجنه حفر النيران فلا تسترسل مع الرياح الى نهايتها المريعه.

وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ و هم الذين انحرفوا مع رياح الضغط حتى وقعوا فى حفر الشرك فلحقهم الويل، و نستوحى من الآيه أنّ من لم يستغفر ربّه بعد الانحراف عن خطّ الإستقامه ينتهى به المطاف الى الشرك و الكفر،كما قال ربّنا فى آيه أخرى: ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ .

[٧]و قد يكون الإنسان مشركا دون أن يعرف،لاعتقاد أكثر الناس أنّ مجرّد الشهاده بالتوحيد لفظيّا تكفى علامه على الإيمان،بلى.إنّه كاف فى مجال التعامل الاجتماعى إذ يحسب من المسلمين ظاهرا،و تحلّ ذبيحته،و يجوز مصاهرته،و لكن لا يكفى عند اللّه الذى يعلم خائنه الأعين و ما تخفى الصدور.

إنّ الإيمان وقر فى القلب،و أثر على السلوك و ممارسه للطقوس..و من أبر علائمه الزكاه و الإيمان بالآخره،فمن منع زكاه ماله و اعتبره مغرما و ارتاب فى الاخره فهو مشرك حتى و لو لهج لسانه بالتوحيد.

اَلَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاهَ أىّ زكاه هذه؟هل هى النصاب المعروف أم مطلق الإنفاق فى سبيل اللّه؟ يبدو أنّ الثانى أقرب باعتبار الآيه مكيه.

ص:١٦٨

وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ كٰافِرُونَ فلو لا كفرهم بالآخره لما منعوا زكاه أموالهم.

جاء فى الأثر المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبى صلى الله عليه و آله أوصى عليّا عليه السلام فقال ضمن وصيه:

«يا على كفر باللّه العظيم من هذه الأمه عشره(و عدّ منه مانع الزكاه،ثم قال:)من منع قيراطا من زكاه ماله فليس بمؤمن و لا مسلم و لا كرامه،يا على:

تارك الزكاه يسأل اللّه الرجعه الى الدنيا،و ذلك قوله عزّ و جلّ: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قٰالَ رَبِّ ارْجِعُونِ » (۱)[۸]أمّا المؤمنون الذين يعملون الصالحات فإنّهم ينفقون زكاه أموالهم طلبا لأجر اللّه الذى لا ينقطع.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ و يبقى سؤال أخير:ما هو صراط اللّه الذى يجب أن نستقيم عليه؟ إنّه يتمثّل فى كتاب اللّه الذى أوحى الى الرسول صلى الله عليه و آله فيكون الشرك هو مخالفه كتاب اللّه المتمثّله فى مخالفه الرسول.

و مخالفه الرسول تعنى اليوم مخالفه القياده الشرعيه التى تدعو الى اللّه و تنفّذ كتابه،هذا ما نقرأه فى تفسير أهل البيت لهذه الآيات. (۲)

ص:۱۶۹

۱- ۱) تفسير نمونه/ج(۲۰)ص(۲۱۹)نقلا عن وسائل الشيعه/ج(۶)ص(۱۸-۱۹)

۲- ۲) راجع نور الثقلين/ج(۴)ص(۵۳۹)نقلا عن الإمام الصادق عليه السلام فى حديث مفصّل.

[سوره فصلت (۴۱): الآیات ۹ الی ۱۰]

اشاره

قُلْ أَ إِنَّکُمْ لَتَکْفُرُونَ بِالَّذِی خَلَقَ اَلْأَرْضَ فِی یَوْمَیْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذٰلِکَ رَبُّ اَلْعالَمِینَ (۹) وَ جَعَلَ فِیها رَواسِیَ مِنْ فَوْقِها وَ
بارَکَ فِیها وَ قَدَّرَ فِیها أَقْواتَها فِی أَرْبَعَةِ أَیّامٍ سَواءً لِلسّائِلِینَ (۱۰)

ص:۱۷۰

وَ قَدَّرَ فِيهٰا أَقْوٰاتَهٰا فِی أَرْبَعَهِ أَيّٰامٍ

هدی من الآيات:

ربط حقائق الكون بعضها ببعض،ربطا متناسقا،و مؤثّرا فی قلب الإنسان، من الميزات التی يتّسم بها القرآن الحكيم فی منهجه التربوی و التعليمی، فبينما يحدّثنا فی هذا الدرس عن العالمين،عن الأرض كيف نظّم شؤونها،و قدّر فيها أقواتها،و عن السماء كيف استوی إليها،و وجّه لها و للأرض الأوامر،و كيف قضاهما سبعا،و كيف أوحی فی كلّ سماء أمرها،نجده يحدّثنا-فی ذات الوقت-عن التاريخ و دروسه و عبره،عن تلك المجتمعات المقتدره التی دمّرها اللّه شرّ تدمير،بسبب اغترارها بقوتها الماديه،ثم تحدّثنا الآيات الحكيمه-بصوره مباشره-عن ضروره معالجه الأمراض النفسيه التی تعتری الفرد هكذا توصل آيات الذكر آفاق السماء و أبعاد الأرض بأعماق التاريخ و أغوار النفس لتصنع منها جميعا منهجا تربويّا بديعا،كما أنّها تمهّد-فيما يبدو-فؤاد الإنسان لاستقبال الوحی الإلهی بالطريقه المناسبه.

ص:۱۷۱

فالـذی بسط الأرض و قـدّر فیها أقواتها،و الـذی سـمک السـموات و جعلهنّ سـبعا، و أوحی فی کل سـماء أمرها،هو الذی هدی الإنسـان الی القرآن الحکیم،برکه للإنسان و سـلاما و رحمه،و إنّ الأعراض عن منهاج القرآن خطیر،کما الإعراض عن سـنن اللّه فی السموات و الأرض،و کما الإعراض عن عبر التاریخ.

إنّ سـنّه اللّه فی القرآن کسـنّته فی الخلیقه..فهـل تسـتطیع أن تکفر بسـنه الجـاذبیه فتلقی بنفسـک من قمه جبل دون أن یصـیبک سوء،و هل تضرب رأسک بصخره و تنتظر السلامه،و هل تقدر علی الاستغناء عن الهواء،عن الغذاء؟کذلک لا یمکنک الاستغناء عن وحی اللّه بله الإعراض عنه.

و هـل یسـتطیع أن یقـول أحـد أنّی أریـد تنظیـم الکـون تنظیمـا جدیـدا،و سـلب الأـرض جاذبیتهـا،و الهـواء رطـوبته،و الغـازات خصائصـها؟ کلاّ..إنّ من یریـد أن یفعل ذلک لا بدّ أن یجد طریقه یوما الی دار المجانین!کذلک الذی یرید مخالفه وحی اللّه،و سنّته فی التربیه،فی الإقتصاد،و السیاسه،و الاجتماع.

بینات من الآیات:

[۹]قـد یـأتی علی إنسـان عشـرات السـنین ینشـغل فیها عن کبریات الحقائق التی تحیط به بأتفه الأشـیاء،فیری الأرض بما فیها من آیات عظیمه،و لکنه لا یتساءل:

کیف خلقت،و کیف سـطحت،کیف قدّر فیها أقواتها،و تهیّأت لاسـتقبال الحیاه هذه النعمه الکبیره و السرّ العظیم؟ و یأتی القرآن یذکّرنا بأمّنا الأرض،و یشیر الی سنن اللّه فیها،و أنّه خلقها فی یومین،لعلّنا نهتدی الی ربّ القدره.

قُلْ أَ إِنَّکُمْ لَتَکْفُرُونَ بِالَّذِی خَلَقَ الْأَرْضَ فِی یَوْمَیْنِ وَ تَجْعَلُونَ

لَهُ أَنْداداً ذٰلِکَ رَبُّ الْعٰالَمِینَ من خلال السیاق نستوحی عظمه الأرض لعلّنا نهتدی الی عظمه الخالق الذی خلقها فقط فی یومین،و هکذا نعرف مدی خطوره الکفر بربّنا العظیم!! و لکن تتوارد التساؤلات الواحد بعد الآخر حول هذه الآیه:کیف تمّ الخلق؟ و ما هما الیومان اللّذان خلقت الأرض فیهما؟و لماذا التأکید علیهما؟ أوّلا:تقول بعض النظریات الحدیثه:إنّ الأرض انفصلت عن الشمس قبل حوالی ألفی ملیون عام،فهل هذا هو معنی خلق الأرض فی یومین؟أم معنی خلقها تهیئتها بصورتها التی استعدّت لاستقبال شروط الحیاه، فقد مرّت مدّه طویله حتی بردت الأرض و تصلّب قشرها بعد أن کانت کره ملتهبه مثلما هی الیوم باطنها حیث لا زالت المواد تنصهر هناک فی حراره شدیده.

و جاء فی حدیث مأثور عن الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام فیما یتّصل بخلقه الأرض:

«کبس الأرض علی مور أمواج مستفحله،و لجج بحار زاخره،تلتطم أواذیّ أمواجها،و تصطفق متقاذفات أثباجها،و ترغو زبدا کالفحول عند هیاجها، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها،و سکن هیج ارتمائه إذ وطأته بکلکلها، و ذلّ مستخذیا إذ تمعّکت علیه بکواهلها،فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجیا مقهورا،و فی حکمه الذلّ منقادا أسیرا،و سکنت الأرض مدحوّه فی لجّه تیّاره، و ردّت من نخوه بأوه و اعتلائه،و شموخ أنفه،و سموّ غلوائه » (1)و یبدو أنّ حدیث الإمام یتصل بمرحله واحده من أطوار الأرض،و کیف هیّأها الربّ لسکن الأحیاء،حیث مرّت الأرض بأطوار عدیده تشیر إلیها سائر النصوص

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج(۵۷)ص(۱۱۱).

المأثوره كما توضّحها النظريّات الحديثه.

ثانيا:و ما هما اليومان اللذان مرت بهما الأرض؟لقد اختلف المفسرون فی ذلک اختلافا کبیرا حیث أنّهم قالوا:إذا کان تقدیر الیوم بحرکه الأرض فکیف نتصور الیوم قبل وجودها؟فقال البعض:إنّ المراد منها الأوقات،کما قال سبحانه: وَ مَنْ یُوَلِّهِمْ یَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ (۱)أی حینئذ أو وقتئذ،و قال بعضهم:إنّ المناط فی تقدیر الأیام إنّما هو بحرکه الأفلاک التی کانت قبل خلقه الأرض،و قال ثالث:ما یکون بقدر الأیام فی فرض وجودها،و قال الرازی:المراد بالأیّام الأحوال المختلفه.. (۲)

و یبدو هذا التفسیر أقرب،ذلک لأنّ أقرب المعانی للیوم هنا برهه من الوقت و حین من الدهر،و ما نتصوره من اختلاف وقت عن وقت و حین عن حین هو اختلاف الأحوال،فمثلا-نحن نمیّز بین الیوم الأول من الربیع عن الیوم الثانی منه،بفاصل الطلوع و الغروب بینهما،کذلک کانت هنالک فواصل معینه بین الوقت الأول و الوقت الثانی(أو إن شئت قلت الیوم الأوّل و الیوم الثانی)بتطوّر الأحوال.

و فی القرآن یصرّح بهذا التطوّر حیث خلق اللّه الکائنات بصوره ماء فکان عرشه علیه،ثم خلقها دخانا،ثم خلق السموات و الأرض،و لا-بدّ أن مرّت دهور متطاوله بین مرحله و مرحله حتی الیوم،کم مره هذه الدهور بقیاساتنا المحدوده؟حتی الآن لا نمتلک نظریّات حاسمه فی هذا الحقل،بالرغم من أنّ بعض العلماء یقدّر ذلک بخمسه عشر ملیار عام مرّت من بدایه ما یزعم انفجارا هائلا و موجّها حدث فی هذا الکون،و تمدّدت الماده الأولیه المخلوقه فی صوره مجرّات..

۱- ۱) الأنفال/(۱۶).

۲- ۲) نقلنا ذلک باختصار عن موسوعه البحار/ج(۵۴)ص(۶-۱۰).

و من أطرف ما قرأته حول هذه المده فی النصوص ما

جاء فی حدیث مأثور عن الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام بعد أن سأله رجل قائلا:فکم مقدار ما لبث اللّه عرشه علی الماء من قبل أن یخلق الأرض و السماء؟فأجاب:أ تحسن أن تحسب؟قال:نعم، قال:لعلّک لا تحسن!،قال:بلی،إنّی لأحسن أن أحسب،قال علی علیه السلام :

«أ فرأیت لو کان صبّ خردل فی الأرض[حتی]سدّ الهواء و ما بین الأرض و السماء،ثم أذن لمثلک علی ضعفک أن تنقله حبّه حبّه من مقدار المشرق الی المغرب،ثم مدّ فی عمرک،و أعطیت القوه علی ذلک حتی تنقله،و أحصیته،لکان ذلک أیسر من إحصاء عدد أعوام ما لبث عرشه علی الماء من قبل أن یخلق الأرض و السماء،و إنّما وصفت لک ببعض عشر عشیر العشیر من جزء مائه ألف جزء، و أستغفر اللّه من القلیل فی التحدید » (۱)و لعلّ أیّام خلق الأرض و السماء،و توفیر فرص الحیاه علی الأرض،هی التی أشارت إلیها آیات الذکر من:

۱-خلقه الماء،حیث کان عرش القدره مستویا علیه،و لعلّه کان أصل الکائنات مادّه تشبه الماء.

۲-خلقه الدخان،و لعلّه الحاله السدیمیه فی الکائنات.

۳-تکوّن المجرّات و الشموس و الکرات الأخری،و انفصال الأرض عن الشمس.

۴-حاله دحو الأرض و تصلّب قشرتها،حیث نجد إشاره الی ذلک فی آی الذکر کثیرا.

۱- ۱) المصدر/ص(۲۳۳).

۵-حاله توفّر عوامل الحياه عليها من ماء و هواء و مواد ضروريه أخرى.

ثالثا:و يبقى السؤال:ما هى الحكمه التى نستفيدها من بيان هذه الحقيقه؟ و الجواب:

ألف:بيان قـدره اللّه و عظمته المتجلّيه فى تكوين الخلائق و تطويرها مرحله بعد مرحله و تدبير أمورها فى كلّ مرحله،حتى انتهى المطاف بها الى صورتها الحاليه، و هى لا تزال تسير فى ركب التطوّر الى حيث يشاء اللّه،و هنا نجد إشاره الى هذه الحكمه حيث يذكّرنا الربّ بقدرته بعد بيان خلق السماء فى يومين.

حقّا،إنّنا حين نتصوّر الكائنات تتقلب فى كفّ القدره الالهيه تلك الدهور المتطاوله التى لا يعلمها الا اللّه سبحانه،و نتصور-مثلا- ذلـك الإنفجار المهيب الـذى يرى بعض العلماء أنّه وقع فى الكون قبل(۱۵)مليار عام و لا تزال أصـداؤه تدوّى فى جنبات العالم الرحيب بالرغم من هذه الدهور المتطاوله،لا بدّ أن تتضاءل نفوسـنا أمام قدره الرب،و ندع التكبر و الغرور و المعاصى،و جدير بنا أن نقرأ خطب الإمـام أمير المـؤمنين عليه السـلام الـتى تصف الكائنـات و تطوّراتهـا،و تعـظ النـاس بـالتواضع و اجتنـاب الكـبر و المعاصى.

بـاء:لعلّنـا نسـتوحى مـن خلقـه اللّه الخلائق فى الزمن أنّ انقضـاء الأجـل و تقـدّم المـده و صـيروره التكـوّن من حقيقه الكائنـات المحدثه،ذلك أنّ أول الشواهد و أبلغ الحجج على أوّليه الخالق زوال الكائنات و على قدمه حدوثها،و على حدوثها صيرورتها و تقلباتها،و اكتمالنا بعد النقص،و انتقاصها بعد الكمال.

جاء فى الحديث عن الإمام على عليه السلام :

«الحمد للّه الدال على وجوده بخلقه،و بحدث خلقه على أزليّته » (۱).

و بتعبير آخر:إنّ الزمن جزء من حقيقه الأشياء،و إنّ هذا آخر ما توصّل إليه علماء الفيزياء ابتداء من كبيرهم إنشتاين.

إنّ بركات اللّه و رحماته مستديمه على الكائنات فهى تنتقل من طور الى طور أفضل بفضل اللّه فتتكامل،و لكنّها قد تنتكس الى الأسفل إن هى تجبّرت و تكبّرت،و لعلّ هذه هى البصيره فى التكامل و التطوّر،و نستوحيها من قوله سبحانه فى سوره الأعراف: إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّامٍ ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهارَ یَطْلُبُهُ حَثِیثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَکَ اللّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ (۲).

فقد ختمت الآيه باسم«تبارك»بعد بيان خلقه الكائنات فى سته أيّام،ممّا بصّرنا بالتكامل الذى تفضّل اللّه به على الخلائق ببركته و خيره العميم المستمر.

و فى سياق هذه الآيات نجد قوله تعالى: وَ بارَکَ فِیها .

جيم:و إنّ علينا أن نعيش وعى الزمن فى تقييمنا لما فى الكون ليكون تقييما سليما،فمن لم يضع فى حساباته(الزمن)يتكاسل دون أن يعرف أنّ عمره هو هذا الزمن الذى يستهين به،و لا يرى إلاّ ما يجرى أمامه فيصاب بالعجله و الجزع، و لا تحرّكه النتائج البعيده،فهو يزداد نشاطا إذا أوتى جزاؤه الحسن عاجلا،و يخمل كلّما ابتعد زمن الجزاء.

و لعلّ وعى الزمن واحد من الغايات التربويه الساميه فى كثير من آى الذكر،

۱- ۱) موسوعه البحار/ج(۵۴)ص(۲۷).

۲- ۲) الأعراف/(۵۴).

و لقد ذكّرنا بذلك مكرّرا.

[۱۰]لقد وفّر اللّه شروط الحياه فی الأرض،و أوّلها استقرار الأرض بالجبال الراسيات،التی تتصل ببعضها و تمنع الميلان،الناشئ من الرياح الهوج أو الغازات المتجمّعه فی مركز الأرض و التی تسبّب الزلازل.

وَ جَعَلَ فِيهٰا رَوٰاسِيَ مِنْ فَوْقِهٰا يقول العلماء:إنّ كلّ حدث يحدث فی الأرض فی سطحها أو فيما دون سطحها يكون من أثره انتقال ماده من مكان الی مكان يؤثر فی سرعه دورانها، فليس المد و الجزر هو العامل الوحيد فی ذلك،حتی ما تنقله الأنهار من مائها من ناحيه الی ناحيه تؤثر فی سرعه الدوران،و ما ينتقل من رياح يؤثر فی سرعه الدوران، و سقوط فی قاع البحار،أو بروز فی سطح الأرض هنا أو هنا يؤثر فی سرعه الدوران، و مما يؤثر فی سرعه الدوران أن تتمدّد الأرض أو تنكمش بسبب ما،و لو انكماشا أو تمدّدا طفيفا لا يزيد فی قطرها أو ينقص منه إلاّ بضع أقدام. (۱)

و هذه الحسّاسيه البالغه بحاجه الی أثقال تحافظ علی الأرض،سواء من تأثير الهواء المحيط بها أو الغازات المحتبسه فيها لكی لا يختلّ توازنها.

و المعروف أنّ الجبال هی النتوءات الظاهره للقشره الصخريه التی تحيط بكره الأرض،و كأنّها درع حديدی برز بعض جوانبه بينما تبقی سائر جوانبه غائره فی الماء أو مدفونه بالتراب.

هكذا أشار الإمام علی عليه السلام إلی هذه الآيه الإلهيه حين قال:

ص:۱۷۸

۱- ۱) فی ظلال القرآن/ص(۳۱۱۳)نقلا عن كتاب«مع اللّه فی السماء».

«و عـدّل حركاتها بالراسـيات من جلاميـدها (۱)،و ذوات الشـناخيب الشـمّ (۲)،من صـياخيدها (۳)،فسـكنت من الميلان،برسوب الجبال فی قطع أديمها و تغلغلها،متسرّبه فی جوبات خياشيمها،و ركوبها أعناق سهول الأرض و جراثيمها » (۴).

وَ بٰارَکَ فِيهٰا لقد خلق اللّه الأرض طورا بعد طور،حتی تكاملت و تهيّأت لاسـتقبال الحياه، فبعد أن تصلّبت قشره الأرض خلق اللّه فيها الماء من اتحاد الأيدروجين بنسبه ۲ و الأكسجين بنسبه ۱ ثم تعاون الماء و الهواء فی تفتيت الصـخور و تشتيتها حتی صارت تربه صـالحه للزراعه و البنـاء،كما تعاونا علی نحر الجبال و النجاد و ملء الوهاد فلا تكاد تجـد فی شـیء كان علی الأرض أو هو كائن إلّا إثر الهدم و البناء. (۵)

و مرّت العصور المختلفه،و فی كلّ يوم بل كلّ لحظه تتطوّر الكره الأرضـيه أكثر فأكثر بإذن اللّه،و يبارک فيها،فحينا بالثلوج التی غطّت وجه البسـيطه،و حينا بالطوفان،و آخر بالأعاصـير،و رابع بالشـروق المستمر للشمس،و كذلک بتلقّی أشعه تنطلق من النجوم البعيده،و بألوان العوامل الأخری..و خلال ملايين السنين بارک اللّه فی الأرض.

وَ قَدَّرَ فِيهٰا أَقْوٰاتَهٰا و من مصاديق البركه الأقوات التی قدّرها الربّ فی الأرض،حيث أودع التربه

۱- ۱) الجلاميد:الصخور.

۲- ۲) الشناخيب الشمّ:القمم المرتفعه.

۳- ۳) الصياخيد:الصخور الشديده.

۴- ۴) موسوعه البحار ج(۵۴)ص(۱۱۲).

۵- ۵) نقلا عن كتاب«مع اللّه فی السماء».

المواد الكيماويه النافعه للزراعه،كما خزّن فى الجبال المعادن المختلفه من الحديد و الذهب و الفضه و أنواع الأحجار الكريمه و الصخور المفيده،كما خلق فى أعماق الأرض بحيرات النفط و الغاز،كما أودع فيما حول الأرض حاجتنا من الهواء الذى نتنفّس من أوكسيجينه،و يتغذّى النبات من كربونه،و من أكسيد كربونه، كما ضمّنه النتروجين الذى يخفّف من وطأه الأوكسجين،و أجرى فيه تيّارات رطبه لتلطيف الجو..و أرسل الرياح فى الجو مبشّرات برحمته،حيث تحتمل السحب المتراكمه الى الأراضى المتباعده ليسقيها الربّ حاجتها من الماء.

فِي أَرْبَعَةِ أَيّٰامٍ قالوا:معناه يومان لخلقه الأرض و يومان لتوفير الأقوات فيها،و يحتمل أن تكون خلقه الأرض قد تمّت فى يومين،و قد تمّت خلقه السماء و تهيئه الأرض فى يومين بالتزامن،ثم استمرت عمليه تمهيد الأرض ليومين آخرين،فيكون المجموع سته أيّام،حيث أنّ الآيات القرآنيه صريحه فى أنّ خلقه السموات و الأرض قد تمّت فى سته أيّام،و اللّه العالم.

و هنا وقفه اعتبار،لقد خلق الأرض على عظمتها فى يومين فقط،بينما قدّر فيها أقواتها فى أربعه أيّام.أ فلا يدلّ ذلك على أنّ نعمه تهيئه الأرض للحياه أعظم من نعمه خلقها،بلى.فقد اكتشف العلماء مزيدا من الأجرام السماويه،و لكن حتى هذه اللحظه لم يكتشفوا شيئا من آثار الحياه فيها،ممّا يهدينا الى عظمه النعم التى أسبغها الربّ لأهل الأرض حتى تهيّأت لحياتهم.أ فلا نشكره سبحانه؟! سَوٰاءً لِلسّٰائِلِينَ فكلّ المحتاجين الى الأقوات يتساوون فى الحصول عليها،لأنّها متوفّره فى كلّ

مکان،فلیس الهواء و الأرض و المعادن قلیله حتی یستأثر بها قوم دون آخرین،بل الناس فیها شرّع سواء.

کما أنّ معرفه هذه الحقیقه متوفره لکل السائلین.

و یحتمل أن یکون التساوی فی الأیّام التی هی الدورات التی مرّت بالأرض، و اللّه العالم.

ص:۱۸۱

[سوره فصلت (۴۱): الآیات ۱۱ الی ۱۲]

اشاره

ثُمَّ اِسْتَوىٰ إِلَى اَلسَّمٰاءِ وَ هِيَ دُخٰانٌ فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ اِئْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قٰالَتٰا أَتَيْنٰا طٰائِعِينَ (۱۱) فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِي يَوْمَيْنِ
وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا وَ زَيَّنَّا اَلسَّمٰاءَ اَلدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ وَ حِفْظاً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ اَلْعَزِيزِ اَلْعَلِيمِ (۱۲)

ص:۱۸۲

قالتا:أتينا طائعين

هدى من الآيات:

لا تزال الآيات الأولى من هذه السوره-التى تأمر الإنسان بالسجود لربّ العزه كما سجدت له السموات و الأرض-تستعرض خلق الكائنات،حيث قام ربّنا القدير بأمر الخلق بعلمه و مشيئته،فقال للسماء و هى دخان و للأرض التى خلقها من قبل ائتيا فأتتا طائعين،(و هكذا كلّ شىء مستجيب لمشيئته طوعا).

فخلقهنّ سبع سموات خلال يومين(أو دورتين)و أوحى فى كلّ سماء منها ما يتعلّق بها من شؤون،و زيّن السماء الدنيا و هى أقربهن الى الأرض بمصابيح هدى للناس فى ظلمات الليل و زينه،(و جعلها)حصنا للأرض.إنّ ذلك من تقدير الربّ ذى القدره الفاعله و العلم النافذ سبحانه.

بينات من الآيات:

[۱۱]بعد أن خلق ماده الأرض قبل دحوها أو بعدها قصد ربّنا المقتدر بمشيئته

ص:۱۸۳

النافذه الی السماء،و کانت آنئذ مجرّد دخان،و فرض علیها طاعته،فاستجابت.

ثُمَّ اسْتَویٰ إِلَی السَّمٰاءِ وَ هِیَ دُخٰانٌ أ/و تساءل المفسرون:لماذا استخدم حرف«ثم»و هو للتعقیب و التراخی،فهل تمّ خلق السماء بعد الأرض،بینما النظریات العلمیه تری العکس،و یقول ربّنا فی سوره النازعات: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمٰاءُ بَنٰاهٰا، رَفَعَ سَمْکَهٰا فَسَوّٰاهٰا، وَ أَغْطَشَ لَیْلَهٰا وَ أَخْرَجَ ضُحٰاهٰا، وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِکَ دَحٰاهٰا، أَخْرَجَ مِنْهٰا مٰاءَهٰا وَ مَرْعٰاهٰا . (۱)

أجاب البعض:إنّ ثمّ للتعقیب البیانی،أی ثم اسمع قصه السماء و هی کیت و کیت.

و قال البعض:إنّ اللّه خلق الأرض أوّلا-و خلق السماء ثانیا،و لکنه إنما دحا الأرض بعد خلق السماء،کما تدلّ الآیه فی سوره النازعات،و علی ذلک تدلّ أیضا بعض النصوص الإسلامیه.

و یبدو لی أنّ المراد من«السماء»هنا الهواء المحیط بالکوکب و لیست الأجرام الموجوده فی السماء..« وَ هِیَ دُخٰانٌ »ذات طبقات سبع،و لکلّ طبقه أمرها،و علی ذلک فیکون خلقها بعد خلق الأرض،و یکون معنی قوله سبحانه فی الآیه التالیه:

وَ زَیَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْیٰا بِمَصٰابِیحَ وَ حِفْظاً أنّ اللّه جعل السواد المحیط بالکره الأرضیه بطریقه نری النجوم التی خلقها فی صوره مصابیح،کما جعلها حفظا بما خلق فیها من غازات خاصه.

ص:۱۸۴

۱- ۱) النازعات/(۲۷-۳۱).

ب/و تساءلوا:ماذا یعنی«استوی»فقالوا:إنّ ربّنا قصد و توجّه الی السماء، و یبدو لی أنّ کلمه الإستواء تعنی معنی القیام و الاهتمام و القصد(بإضافه معنی إلی)و الهیمنه،و کلّها مراده فی هذه الجمله،و لکن بالطبع من ملاحظه استخدام الکلمه فی مقام الربوبیه المقدّس عن أیّه همهمه أو تجوال فکره أو حرکه،سبحانه.

ج/ثم تساءلوا عن الدخان فقالوا:إنّه غازات،و إذا قلنا بأنّ المراد من الآیه کلّ ما فی السماء،فإنّ الآیه تشیر الی المرحله السدیمیه السابقه لتکوّن الأجرام الفضائیه، حیث تجمّعت و ترکّزت بعد ذلک فی صوره نجوم،و لا تزال کمیات کبیره منها منتشره فی الفضاء یقدّرها الخبراء بمثل الکمیه التی خلقت منها النجوم، و لا تزال النجوم تکنس الفضاء من هذه الجزئیات السدیمیه باجتذابها إلیها،و لکنّها أکثر بکثیر من قدرتها علی الجذب!! فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِیٰا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً قٰالَتٰا أَتَیْنٰا طٰائِعِینَ و لماذا لا تستجیب السماء و الأرض لمشیئه اللّه الذی خلقهما بفضله،و أودع فیهما آیاته،و جعلهما محلاّ لعباده المکرّمین من ملائکته و أرواح أولیائه،بلی..

إنّهما و سائر الکائنات تستجیب للرب طواعیه،سعیا وراء مرضاته،و امتنانا لرحماته،و شکرا لبرکاته،قبل أن تستجیب له خشیه غضبه،و مخافه سطواته،و قد تقول:تجلّی رحمه اللّه فی الخلائق أبهی من تجلّی عزّته،و قد سبقت رحمته غضبه، سبحان اللّه ربّ العالمین.

و لعلّ الآیه تشیر الی أنّ ربّنا کان یجری سننه فی الخلیقه شاءت أم رفضت، و لکنّها خشعت لأوامر اللّه طوعا لا کرها!!فجرت سننه فیها بلا إکراه..و یا لیتنا و عینا عبره هذه الحقیقه،و أجرینا أحکام اللّه علی أنفسنا طوعا و رغبه فی مرضاه اللّه.

و نتساءل:هل كان للسماء و الأرض شعور حتى يخاطبهما الربّ بهذه الصوره؟ينفى البعض ذلک بشده،و يأوّلون كلّ الآيات التى توحى بـذلک الى خطـاب الحـال،مثلا فى هـذه الآيه يقولون:المعنى:أمرهما بالتشـكّل فامتثلتا طائعتين،و يبقى سؤال:ماذا كان إذا الخيار الآخر أى أن تأتيا كرها؟أ فلا يدلّ التقسيم الى اختلاف طرفيه،فهناک حركه طوعيه و أخرى كرهيه،لم أجد من يجيب عن هـذا النقـاش،و لكنّ بـاب التأويـل لـديهم واسع،بيـد أنّ الأـقرب حمـل الآيـات الـتى توحى بإحسـاس الخلاـئق على ظاهرهـا أو صريحها،لأنّ ما يدعونا الى تأويلها مجرّد استبعاد،فلأننا لا نعرف كيف تمّ خطاب اللّه للأرض و السماء نقول لم يتم هذا الخطاب أبدا،و أمّا ذلک أسـلوب بلاغى فى القرآن،و لأنّنا لا نفهم كيف تسـبّح السـموات و الأرض،نقول:إنّ أهلها هم الذين يسـبّحون،و لأنّنـا لاـ نعى كيف عرض اللّه أمـانته على السـموات و الأـرض و الجبال فأبين أن يحملنها و أشـفقن منها،قلنا كلاّ..إنّه كان مجرّد افتراض.

إنّ عشـرات الآيـات القرآنيه و أضـعافا منهـا من الأحاديث المأثوره عن المعصومين -عليهم السـلام-ظاهره أو صـريحه فى وجود الشـعور-بقدر مّا-لسائر الخليقه، يتجلّى فى يوم القيامه عند ما يسـتنطقها اللّه،فهل يجوز أن نضرب بها عرض الجدار لمجرّد أنّنا لا نعرف كيف ذلک؟إنّ من الجهل أن ننكر شـيئا لأنّنا لم نحط علما بتفاصـيله،و من العقل أن نؤمن به ثم نبحث عن تفاصيله بروح إيجابيه.

بلى.إنّنا كبشر لا يمكننا بالوسائل المتاحه لنا أن ندرس الأحياء و الأشياء من باطنها،بل من خلال الظواهر التى تهدينا الى واقعها و حتى فيما بيننا كبشـر هل يسـتطيع زيد أن يدرس نفسـيه عمر كما يدرس هو نفسـيته؟كلاّ..إنّما الظواهر تدلّ عليها،و إذا اتبعنا هذا المنهج لعلّنا نبلغ الواقع..فما هو الشـعور؟و ما هى الظواهر التى تدلّ عليه؟يبدو أنّ الشـعور هو الجهاز المنسّق بين الشىء و المحيط الذى هو فيه،

فنحن نملک هذا الجهاز بفضل الحواس التی تنقل الی المخ الإشاره عبر الأعصاب، و هناک تقوم مجموعه أجهزه الدماغ بتحلیل الإشارات و إصدار الأوامر المناسبه بشأنها،و لا ریب من وجود مثل هذا الجهاز-و لو کان غیر متطوّر-عند سائر الأحیاء،بل و فی النباتات التی تنسّق وضعها-بصوره و بأخری-مع بیئتها بفضل نواتها المرکزیّه،بلی.نحن لم نکتشف مثل هذا الجهاز عند الجمادات،و لکن یحقّ لنا أن نتساءل عنه بعد علمنا بوجود قدر کاف من التنسیق بین جمیع الکائنات،و لو افترضنا قوه الجاذبیه-مثلا-إحدی ظواهر هذا الجهاز لم نجاف الحقیقه.

[۱۲]و یمضی السیاق یبیّن قدره اللّه المتجلّیه فی هذا الخلق العظیم،لقد خشعت له السموات و الأرض و جائتا الیه طائعتین،فقدّر و قضی أن تکون السموات سبعا بحکمته البالغه و بمشیئته التی لا ترد،فاستجابت السموات الهائله بلا تردّد، و أضحت سبعا خلال المده التی قرّرها الربّ لها،و هی یومان أو دورتان.

فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ ما هی هذه السموات السبع؟هل هی طبقات سبع حول أرضنا تشکّل السماء المحیطه بنا؟أم هی سبع مجامیع من المجرّات، و المجرّه الواحده کالتی نحن فیها المسمّاه بسکّه التبّان یبلغ قطرها مأه ألف ملیون سنه ضوئیه؟أم کل ما فی المجرّات التی نعرف عنها من شموس و أجرام تقع فی السماء الأولی،و إنّ للّه سماوات أخری غیرها فیها ما لا یعلمها إلاّ اللّه من کائنات عظیمه؟ و علی أیّ تفسیر فإنّ قضاء اللّه جری خلال یومین،أو حسب تفسیر سابق دورتین،لا أعرف عنهما شیئا.

فِی یَوْمَیْنِ وَ أَوْحیٰ فِی کُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا

يبدو أنّ أمر كلّ سماء قيادتها و نظامها و ما يتعلّق بها من شؤون التدبير أنّ كلّ تلك قائمه فيها كما لو كانت وحده إداريه،و لعل من أمرها ملائكه اللّه التى فيها.

وَ زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ ما هى هذه السماء الدنيا؟فإذا كانت السماء المحيطه بالأرض فإنّ زينتها بسبب طريقه تموّج النور فيها،حيث لا ترى النجوم خارج الفضاء المحيط بهذه الصوره الجميله،و لكن القول المعروف عند المفسّرين أنّ السماء الدنيا هى جانب من الفضاء الأرحب،و على ذلك نستوحى أنّ كل النجوم التى ترى تسبح ضمن السماء الدنيا،و أنّ هناك سماوات لا نرى أجرامها.

وَ حِفْظاً فالغازات المحيطه بالأرض تحفظ الأرض من ملايين الشهب التى تتساقط عليها كلّ يوم،كما أنّ اللّه يحفظ الأرض بالمصابيح من الشياطين.

ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ تعالوا لننظر الى لطف صنع اللّه،و حسن تدبيره،و جمال خلقه،و بديع تقديره.

أ فلا يهدينا كلّ ذلك الى عزّته و عظمه قدرته فى الخلق و التدبير؟!أ فلا يهدينا الى أنّه العليم الذى لا يعزب عن علمه شىء؟و أيّ قدره و أيّ علم لربّنا الذى سخّر الشمس التى هى أكبر من أرضنا بمليون مرّه فى مدارها المحدّد دون أن تفسق عن مسارها قيد شعره؟!و أيّ قدره و علم لربّنا الذى أجرى فى قلب الذرّه المتناهيه فى الصغر سننه النافذه التى لا تغيير فيها؟!!!

[سوره فصلت (۴۱): الآيات ۱۳ الی ۲۱]

اشاره

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ (۱۳) إِذْ جاءَتْهُمُ اَلرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۱۴) فَأَمّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِی اَلْأَرْضِ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّةً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اَللّهَ اَلَّذِی خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۱۵) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِی أَيّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ اَلْخِزْيِ فِی اَلْحَياةِ اَلدُّنْيا وَ لَعَذابُ اَلْآخِرَةِ أَخْزی وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ (۱۶) وَ أَمّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا اَلْعَمی عَلَی اَلْهُدی فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ اَلْعَذابِ اَلْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۷) وَ نَجَّيْنَا اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۱۸) وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اَللّهِ إِلَی اَلنّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۹) حَتّی إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۰) وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اَللّهُ اَلَّذِی أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۱)

اللغه

۱۶[ريحا صرصرا]:و هی الريح البارده،من الصّر بمعنی البرد،أو هی الريح العاصفه ذات الصوت الشديد،و اشتقاق الصرصر من الصرير،و ضوعف اللّفظ إشعارا بمضاعفه المعنی.

ص:۱۸۹

۱۹[یوزعون]:أی یحبس أوّلهم لیلحق بهم آخرهم،من وزع بمعنی حبس و منع،و المعنی إذا حشروا حبسوا هناک علی حافّه النّار قبل دخولها،و فیه زیاده إهانه و إرهاب.

ص:۱۹۰

وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ:لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا

هدى من الآيات:

بمستوى الاجرام الذی يبلغه الإنسان حين يكفر باللّه العظيم يكون مستوى الإنذار و العذاب،فليس هيّنا تمرّد البشر هذا المخلوق الضعيف المحدود على سنن اللّه التی استجابت لها السموات و الأرض طوعا! كذلک ليس هيّنا الصاعقه التی ينذر بها-إذ ذاک-فهی مثل الصاعقه التی أخذت قوم عاد و ثمود!! إنّها واحده من السنن التی أجراها اللّه فی الكائنات،و التی لا تغيير فيها و لا تبديل(كما تقدير العزيز العليم فی خلق السموات و الأرض).

لقد جاءتهم الرسل قبل و بعد انحرافهم و أنذروهم من عاقبه الشرک باللّه، فكفروا بالرساله زاعمين أنّ اللّه لو شاء لأرسل إليهم ملائكه،و استكبرت عاد فی الأرض بغير الحق اغترارا بقوتهم التی قهرت كلّ قوّه فی الأرض،و لكنّهم لم يروا

ص:۱۹۱

أنّ اللّه الذی خلقهم أشدّ منهم قوه،و هکذا جحدوا بآیات اللّه(اغترارا بقوتهم)..

فأرسل اللّه علیهم ریحا عاصفه،ذات صوت و صریر،فی أیّام سیئات نحسات، و عذّبهم بعذاب الخزی و الهوان فی الحیاه الدنیا،و کان ذلک بین یدی عذاب أخزی فی الآخره.

أمّا ثمود فقد هداهم اللّه حین جاءتهم الناقه مبصره،و لکنّهم استحبّوا العمی علی الهدی،و کان جزاؤهم الصاعقه التی تمثّلت فی العذاب المهین..کل ذلک بما کانوا یکسبون من جرائم و موبقات! (و لم تکن صدفه تلک الصواعق،بل تنفیذا لسنه إلهیّه جاریه،و أبسط الأدلّه علی ذلک)أنّ اللّه سبحانه أنقذ الذین آمنوا و کانوا یتّقون،فلم یرتکبوا تلک الموبقات.

بینات من الآیات:

[۱۳]إنّ ذلک العذاب الإلهی الذی نزل علی قوم عاد و ثمود فساء صباحهم یمکن أن ینزل علی أیّ قوم کافر،إذ لم ینزل علی الأمم صدفه بل ضمن سنّه إلهیّه، و کذلک کلّ ما یعتبره الناس صدفه.إنّ عثره الرجل فی الطریق،أو انتشار مکروب فی جسم أحد الأشخاص دون صاحبه،و حوادث السیر و الزلازل و البراکین و السیول و الحروب و ما الی ذلک،قد یتصور الإنسان أنّها مجرّد صدفه،بینما لیس فی هذا الکون بأکمله شیء بلا سبب،بلی.هناک حوادث نعرف أسبابها و قوانینها، و أخری لا نعرف فنرمیها بالصدفه.

و نحن بصفتنا مؤمنین نعتقد بأنّ کلّ حادثه کبیره أو صغیره،تجری ضمن سنّه إلهیّه،و لهذا نعتقد أنّ الصدقه تدفع البلاء،و أنّ الدعاء یردّ القضاء و قد أبرم إبراما،

و أنّ صله الرحم تزيد فى العمر،و أنّ الإحسان يرفع البلاء،كما و نعتقد أنّ من يمارس الأعمال الشرّيره يصاب بتلك الحوادث التى نسمّيها صدفا،و ما هى بصدف،و قد قال ربّنا: وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (١)لذلك أخبرنا الربّ بأنّ إعراض العرب-لو تمّ-يوم دعاهم الرسول الى القرآن لا يختلف عن إعراض عاد و ثمود،فإن العاقبه واحده لأنّ السنه الإلهيّه واحده.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صٰاعِقَةً مِثْلَ صٰاعِقَةِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ إنّ العرب ينقسمون الى ثلاث طوائف:العرب العرباء(عرب اليمن)و العرب المستعربه(العرب من نسل إسماعيل عليه السلام و العرب البائده(كقوم عاد و ثمود)، و السؤال:هل بادت عاد و ثمود صدفه أم لأسباب و مبرّرات،و هى تتجدّد(السنّه) فيما لو تجدّدت تلك الأسباب و المبررات؟ بلى.إنها بادت لأسباب و مبرّرات.

[١۴]و يجمع كلّ تلك الأسباب و المبرّرات الكفر،و فى الآيه الكريمه التاليه توضيح لذلك:

إِذْ جٰاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ كانت تلاحقهم من كلّ جانب،و تأتيهم بكلّ طريقه،و تحاول هدايتهم بكلّ كلمه بليغه،و بكلّ أسلوب سليم،كانت تأتيهم« مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ »أى تقول لهم قبل الانحراف:لا تنحرفوا،« وَ مِنْ خَلْفِهِمْ »أى تقول لهم بعد الانحراف:لماذا انحرفتهم؟دعوا الانحراف.

١- ١) الفرقان/(٢).

لقد جاءوهم و دعوهم الى تلك الحقيقه الهامه التى هى خلاصه رسالات الأنبياء جميعا،و هى:

أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ و لكن،ماذا كان جوابهم؟ لقد زعموا أنّ اللّه ينبغى أن يبعث ملكا رسولا،أمّا أن يكون رسولهم واحدا منهم يأكل الطعام،و يمشى فى الأسواق،و لا يملك خزائن الأرض فلا..

قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ فكفروا بالرساله لاعتمادهم على منهج مادى بحت لمعرفه الحق،فهم كفروا بما أرسل به الأنبياء قبل أن ينظروا فيه،بل لمجرّد أنّ المبعوث به ليس ملكا.

[۱۵]ماذا كانت عاقبه كفر أولئك الناس من أسلاف العرب؟ فَأَمّا عادٌ تلك الحضاره القويه،التى هلكت فى عزّ شبابها،و عنفوان قوّتها.

فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ كانوا يستكبرون،أى يحسبون أنفسهم كبارا فيظلمون الناس،و يغصبون حقوقهم لمجرّد أنّهم أوتوا قدرا من القوه.

وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّةً و لكن من لا يستطيع أن يمنع عن نفسه عاديات الطبيعه،كعاديه الريح

ص:۱۹۴

و البركان،كيف يسمح لنفسه بأن يتعالى على اللّه ربّ الريح و البركان؟!كيف يستطيع أن يتكبر على النظام الذى يسيّر كلّ جزء جزء من كيانه،شاء أم أبى؟! أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً أو لم يعرفوا هذه الحقيقه الواضحه؟بلى.و لكنّهم جحدوا بها برغم توافر الآيات عليها.

وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ و هذا الجحود كان نتيجه للاستكبار،لأنّ الاستكبار يصبح حجابا سميكا بين الإنسان و بين الحقيقه.

[۱۶]و لكن هذا الجحود،و ذلك الاستكبار،سبّبا فى إرسال العذاب المهين عليهم،متمثلا فى ريح عاصفه ذات صوت و صرير..

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً و تلك هى المعادله الحاكمه فى الخلق،من لم يستجب طوعا لرسول الرحمه و الإنذار،يستجيب كرها لرسل العذاب و العاصفه..

فِى أَيّامٍ نَحِساتٍ لم يكن فيها ذرّه من السعد..

لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِى الْحَياهِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَهِ أَخْزى وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ

ص:۱۹۵

هكذا كان العذاب فى الدنيا مخزيا مهينا،لأنّهم كانوا يستكبرون و يتجبّرون، و أمّا العذاب فى الآخره فهو أعظم خزيا،و أبقى ألما.

و إنّ شده عذاب اللّه فى الدنيا،و هول وقعه على الكافرين،تهدينا إلى أمرين:

أوّلا:هول عذاب اللّه فى الآخره،و تناهى شدّته بما لا يمكننا تصوّره،ثانيا:صرامه سنن اللّه و كيف تدمّر الذين يكفرون باللّه شرّ تدمير،بلى.لقد جاءت السماء و الأرض لربّها طوعا قبل أن يؤتى بهما كرها،فهلاّ نأتى ربّنا طائعين من قبل أن تذهب بنا ريح صرصر عاتيه؟! [۱۷] وَ أَمّٰا ثَمُودُ فقد بعث اللّه إليهم الأنبياء،و زوّدهم بالآيات المبصره،و منّ عليهم بالهدايه..

فَهَدَيْنٰاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمىٰ عَلَى الْهُدىٰ لقد بعث اللّه إليهم صالحا فآمنوا به،و لكنّهم انحرفوا بعدئذ عن طريق الرشاد.

بلى.إنّ الطريق كان واضحا أمامهم،و الحقيقه ظاهره كالشمس فى كبد السماء،و لكنّهم أغمضوا أعينهم،و قالوا:نحن لا نرى،فما ذا كان مصير كفرهم بعد الإيمان؟ فَأَخَذَتْهُمْ صٰاعِقَةُ الْعَذٰابِ الْهُونِ نزلت عليهم-كما نزلت على عاد-صاعقه العذاب،المشبعه بالخزى و الإهانه،و السبب واضح:

بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ

لا ـ لضآله فی مغفره اللّه،لأنّها أعظم من ذنوبهم،و لا لضیق فی رحمته،لأنّها وسعت کلّ شیء،و لکن لأنّهم أبعدوا أنفسهم عن الربّ الرؤوف الرحیم بما اجترحوه من سیئات.

و نستوحی من هذه الآیه أنّ کفر ثمود یختلف عن کفر عاد،فعاد کفروا بکلّ شیء،رأسا،و أمّا ثمود فآمنوا بالرسول و الرساله، و لکنهم فعلوا ما یتناسب و الکفر، من عقر الناقه،و مخالفه أوامر الرسول فیما یتعلق بها،فما کسبوه کان خاطئا.

و لهذا یقول اللّه سبحانه:«فهدیناهم»أی اهتدوا فکریا و نظریا« فَاسْتَحَبُّوا الْعَمیٰ »أی انحرفوا عملیا و سلوکیا،و هذا یعتبر عمی،کالذی زوده اللّه بالبصر، و لکنه لا ینتفع به فیقع فی الحفره.

و من هنا نعرف أنّ عذاب اللّه یقصم ظهر من یخالف سننه فی الخلیقه و التی نکشفها أحکامه فی الشریعه،سواء آمن بها و خالفها،أم کفر بها رأسا،فالذی یناطح الصخره ینفلق رأسه سواء آمن بهذه الحقیقه أو کفر بها.

و فی ذلک تحذیر لأمه النبی محمد صلی الله علیه و آله أنّ مخالفتهم لرسالته نظریا أو عملیا تجرّ إلیهم الویلات.

[۱۸]و بین هؤلاء المنحرفین-الکافرین عملیا-کانت هناک مجموعه من المؤمنین الصادقین،أنجاهم الربّ،و کان سبب نجاتهم هو تقواهم و اجتنابهم ما ارتکبه الآخرون من الجریمه و الفحشاء.

وَ نَجَّیْنَا الَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ

و یذکر الرواه فی تفسیر هذه الآیه قصه مفیده هی مثلما أخرج ابن إسحاق و ابن

المنذر و البيهقى فى الدلائل و ابن عساكر قال :حدث أنّ عتبه بن ربيعه و كان أشد قريش حلما قال ذات يوم و هو جالس فى نادى قريش،و رسول اللّه صلى الله عليه و آله جالس وحده فى المسجد:يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأكلّمه فأعرض عليه أمورا لعلّه أن يقبل منها بعضه و يكفّ عنا،قالوا:بلى يا أبا الوليد،فقام عتبه حتى جلس الى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فذكر الحديث،فيما قال له عتبه،و فيما عرض عليه من المال و الملك و غير ذلك،حتى إذا فرغ عتبه قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :أفرغت يا أبا الوليد؟ قال:نعم،قال:فاسمع منى،قال:أفعل،فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله : بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ كِتٰابٌ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ،فلمّا سمعها عتبه أنصت لها،و ألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يستمع منه،حتى انتهى رسول اللّه صلى الله عليه و آله الى المسجد فسجد فيها،ثم قال:سمعت يا أبا الوليد؟قال:سمعت،قال:أنت و ذاك،فقام عتبه إلى أصحابه،فقال بعضهم لبعض:نحلف باللّه لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به،فلمّا جلس إليهم قالوا:ما وراؤك يا أبا الوليد؟قال:و اللّه إنّى قد سمعت قولا ما سمعت بمثله قط،و اللّه ما هو بالشعر،و لا بالسحر،و لا بالكهانه،و اللّه ليكوننّ لقوله الذى سمعت نبأ. (۱)

[۱۹]و أمّا العذاب فى الآخره فهو الأكبر و الآلم،و الأشدّ و الأبقى،و ما أصاب الكافرين من عذاب فى الدنيا،لا يقاس بذره من عذاب الآخره إطلاقا،لأنّها تحمل عنصرى الشده و البقاء، وَ لَعَذٰابُ الْآخِرَهِ أَشَدُّ وَ أَبْقىٰ . (۲)

من تطوّف فى المستشفيات و بالذات التى تأوى الحالات الصعبه،أو زار ساحات القتال و شاهد المناظر الرهيبه،ثم دار على المناطق المنكوبه ببركان تفجّر

ص:۱۹۸

۱- ۱) الدر المنثور للسيوطى/ج(۵)ص(۳۶۴).

۲- ۲) سوره طه/(۱۲۷).

فسال لعابه النحيس على القرى المحيطه فأذابها،أو بسيول عارمه اقتلعت فى طريقها الأشجار و دمّرت القرى..أقول مثل هذا الإنسان يعى-بعض الشيء-معنى العذاب فى الدنيا،و فظاعته،و بشاعه مناظره..

و لكن كلّ ذلك العذاب،و كلّ تلك الويلات و المآسى،تعتبر تافهه إذا ما قيست بعذاب الآخره،و هول ما يجرى فيها،و دوامه.

بلى.إنّ عذاب الدنيا يهدينا الى وجود العذاب الأخروى،و جانبا من حقيقته..

الحمّى و آلامها التى قد تعترى الجسم فتحوّله الى خرقه باليه!ليست سوى لفحه من نار جهنم.

و هذه النار التى تذيب الحديد،صوره مخفّضه سبعين مره عن نار جهنم.

و لعلّه حتى الحراره التى يولّدها تفجير قنبله ذريه هائله فتحوّل الصخور دخانا خلال أقل من ثانيه ليست سوى لهيب من نار جهنم،التى هى أشدّ حرّا مما نتصوره فى الدنيا..و حتى الحراره الموجوده فى مركز الشمس المتناهيه الشده لا تقاس بنار جهنم.أو لا نقرأ فى النصوص أنّ الشمس تلقى فى جهنّم فتصرخ من حرّها؟! فهل تتحمّل العظام الناعمه،و الأجسام الترفه،و الجلود الرقيقه،و الأعصاب الحسّاسه،ذلك العذاب الرهيب الذى يحول ساكنيه الى شعله متقده؟!! نعم هكذا يفعل العذاب بالكافرين،فهم لا يموتون فيها و لا يحيون،يقول تعالى:

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاٰ يَمُوتُ فِيهٰا وَ لاٰ يَحْيىٰ كما و أنّه لا يغمى عليهم،كما يحدث للمعذّب أو المصاب بآلام فى الدنيا،و لا يعطون إجازات

يتخلّصون فيها من عسر البلاء،و لا تجرى لهم عمليات جراحيه ليتماثلوا للشفاء من أمراض العذاب،و لا تقدّم لهم مهدّئات لتسكن نفوسهم و يكفّوا عن الصراخ.

وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدٰاءُ اللّٰهِ إِلَى النّٰارِ آنئذ سيلاقون العذاب الأكبر.

فَهُمْ يُوزَعُونَ يتقسّمون،و يلقى كلّ واحد منهم فى سجنه المخصّص له.

[۲۰]كلّ ذلك العذاب الغليظ المهين ينتظر أولئك الذين عادوا ربّهم،فلم يتبعوا رسله،و خالفوا أوامره و سننه،و تجاوزوا حدوده،فى الوقت الذى أطاعت الكائنات جميعا ربّها،و اتبعت سننه التى قدّرها فيها.

و حتى أعضاء جسد الإنسان تتبع سنن ربه،لو لا أنّه قد سخّرت له بعض الأيام فى الدنيا لينظر كيف يعمل بها،و فى يوم القيامه حيث يسلب منه هذه الحريه المحدوده تنقلب عليه أعضاء جسده فتكون شاهده عليه على شفير جهنم.

حَتّٰى إِذٰا مٰا جٰاؤُهٰا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصٰارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ إنّ من الذنوب ما ترتكب بالأذن،كسماع الغيبه و الغناء،و ما ترتكب بالعين، كالنظر الى المحرمات،و قراءه كتب الضلال،و ما ترتكب عن طريق الجلد، كالزنا،و هذه الجوارح ستشهد على الإنسان يوم القيامه.

[۲۱]يا لهول المفاجئه،و يا لصدق الشاهد!

ص:۲۰۰

وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا كيف تشهدون علينا؟!كيف و نحن حملناكم مدى حياتنا؟!كيف و نحن نلبس الملابس الناعمه من أجلكم؟!كيف و نحن كنا نحميكم من شده البرد فى الليالى القارصه؟!كيف و نحن كنا نقيكم الحر؟! قالُوا أَنْطَقَنَا اللّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ و من هذا المقطع فى الآيه يتّضح أنّ لكلّ شىء شعورا-كما قلنا-و إذا شاء اللّه أعطاه القدره على النطق بلغه الإنسان حتى يفهم،و الا فهو يملك شعورا.

وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

[سوره فصلت (۴۱): الآيات ۲۲ الى ۲۹]

اشاره

وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُكُمْ وَ لاٰ جُلُودُكُمْ وَ لٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّٰا تَعْمَلُونَ (۲۲) وَ ذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ اَلَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدٰاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (۲۳) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنّٰارُ مَثْوىً لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمٰا هُمْ مِنَ اَلْمُعْتَبِينَ (۲۴) وَ قَيَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ اَلْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ إِنَّهُمْ كٰانُوا خٰاسِرِينَ (۲۵) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَسْمَعُوا لِهٰذَا اَلْقُرْآنِ وَ اِلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (۲۶) فَلَنُذِيقَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا عَذٰاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ اَلَّذِى كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۲۷) ذٰلِكَ جَزٰاءُ أَعْدٰاءِ اَللّٰهِ اَلنّٰارُ لَهُمْ فِيهٰا دٰارُ اَلْخُلْدِ جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَجْحَدُونَ (۲۸) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنٰا أَرِنَا اَلَّذَيْنِ أَضَلاّٰنٰا مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ نَجْعَلْهُمٰا تَحْتَ أَقْدٰامِنٰا لِيَكُونٰا مِنَ اَلْأَسْفَلِينَ (۲۹)

اللغه

۲۳[أرداكم]:أهلككم.

۲۴[يستعتبوا]:يطلبوا العتبى«رضا اللّه»،و الإعتاب الإرضاء، و أصل الإعتاب عند العرب استصلاح الجلد بإعادته فى الدباغ، ثمّ أستعير فيما يستعطف به البعض بعضا لإعادته ما كان من الألفه.

ص:۲۰۲

وَ قَيَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ

هدى من الآيات:

أفضل باعث للإنسان الى التقوى تحسّسه بأنّ اللّه يسمعه و يراه،و أنّه أقرب إليه من حبل الوريد،ثم رؤيته بحقيقه الإيمان،و الحضور فى مقام قربه،و مقعد الصدق عنده،و بالتالى تلمّس شهوده و شهادته على كلّ شيء،و أنه بحوله يكون كلّ حول، و بقوّته تقوم كلّ قوّه،و بحياته كلّ شيء حي.

و لقد ذكّرتنا فاتحه هذا الدرس بهذه البصيره،و أنّ الردى الذى هوى إليه أولئك الخاسرون كان بسبب ظنّهم السيء بربّهم فلم يقدّروه حق قدره،و لم يعرفوه كما ينبغى،و أنّه يعلم خائنه الأعين و ما تخفى الصدور،و أنّه غفّار لمن تاب و آمن ثم اهتدى.

و الآن لا يجديهم الصبر راحه،و لا العقاب خلاصا،بل النار مثواهم أبدا.

و بذلك الظن قيّض اللّه لهم قرناء السوء من الشياطين،من الأمام و الخلف

يزينون لهم سوء أعمالهم،حتى لا يهتدوا أبدا.

ذلک لأنّهم ترکوا الاعتصام بحبل اللّه المتين،و قالوا لبعضهم:لا تسمعوا لهذا القرآن، و الغوا فيه(بإحداث أصوات مزعجه)لکی لا يسمعه الآخرون فتغلبون الرساله.

(و حين يفرغ القلب من ذکر اللّه تهجم عليه الشياطين)،و هکذا يذيق اللّه الذين کفروا عذابا شديدا،و يجزيهم أسوء عمل عملوه(حين تتمثّل السيئات بألوان من العذاب)و ذلک جزاؤهم بما عادوا ربّهم أنّهم يدخلون النار خالدين فيها،لأنّهم جحدوا بآيات اللّه(بعد أن استيقنتها أنفسهم).

و فی الدنيا تراهم يطيعون قرناء السوء من الجن و الإنس،بينما هم فی الآخره يبحثون عنهم ليجعلوهم تحت أقدامهم ليکونوا من الأسفلين(لشده غضبهم عليهم و برائتهم منهم).

بينات من الآيات:

[۲۲]لم يکن الکافرون يخافون-حين عصيانهم-من شهاده سمعهم و أبصارهم و جلودهم عليهم،بل إنّهم لم يکونوا يتصوّرون شهادتها عليهم،إذ کيف تشهد عليهم هذه العين المطيعه لأوامرهم،و تلک الأذن و الجلود التی راعوها و حافظوا عليها؟! بلی.إنّها لن تسمع أوامرهم فی الآخره،بل و ستشهد عليهم شهاده الحق.

ثم إنّهم حتی و لو عرفوا فی الدنيا بشهاده الجوارح عليهم لا يقدرون علی التخلّص من رقابتها،لأنّ الإنسان يتمکن من ستر أعماله و حجب تصرفاته حتی عن أمّه و أبيه،و لکن کيف يسترها عن عينه أو يده أو جلده؟

من هنا:إذا كانت شهود اللّه على الإنسان أعضاؤه،فلا بد أن يخاف مقامه، و يتّقيه على نفسه.

وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُكُمْ وَ لاٰ جُلُودُكُمْ يبدو أنّ معناه:إنكم لم تستتروا،و لا كنتم قادرين على أن تستتروا.

و لنفترض جدلا:أنّ الأعين و الآذان و الجلود لن تشهد على الإنسان أثناء الحساب،فهل يعقل أن لا يكون اللّه شهيدا؟! كلاّ..فاللّه محيط علما بالبشر،و مطّلع على خفيّاته التي ليس لأحد سبيل الى معرفتها سواه سبحانه.

إنّ اللّه سميع بصير،عليم خبير..و لو شعرنا بذلك،و أنّه يحصي أنفاسنا،و يعلم خطرات قلوبنا،و أنّ كلّ كبير و صغير مستطر،لما ارتكبنا السيئات..و إنّما فلت من شرك الفاحشه ذلك المخلص الصّدّيق يوسف بن يعقوب-عليهما السلام- حينما تحسّس رقابه اللّه عليه،و علم يقينا أنّه عزّ و جل أقرب إليه من حبل الوريد،

فعن أبي عبد اللّه صلى الله عليه و آله قال :

«لما همّت به و همّ بها،قالت:كما أنت،قال:و لم؟قالت:حتى أغطّي وجه الصنم لا يرانا،فذكر اللّه عند ذلك،و قد علم أنّ اللّه يراه ففرّ منها » (1)ينبغي أن نتذكّر شهاده اللّه حتى نفوز برقابه ذاتيه على أنفسنا فلا تنحرف.

و أمّا الكافرون فهم بعيدون عن هذه الحقيقه،فهم يظنّون بربّهم ظنّ السوء،

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۱۲)ص(۳۰۰).

فمثلا قد يظنّون أنّ اللّه يعلم فقط ظاهرا من أقوالهم و أعمالهم فيزعمون أنّهم قادرون على تبرير سيئات أفعالهم و فاحش أقوالهم أمام ربّهم،بأن يقول الواحد منهم:إنّنى كنت مجبورا،أو مضطّرا الى السيئه،أو عملتها من دون وعيى و إرادتى.

كـذلك يبرّر المجرمون قبـل ارتكـاب الموبقـات سـيئاتهم لأنفسـهم،و يختلقون الأعـذار التى يزعمون أنّها تغنيهم عن العقاب أو الجزاء،و لو عرفوا أنّ الناقد بصير، و أنّه لا تخفى عليه خافيه،لارتدعوا.

و مـا دام الإنسـان يعلم أنّ تبرير عمله للناس ليس بحق لأنّ اللّه يعلم به،فهو يرجى صـلاحه،لأنّ فى قلبه لا تزال مسافه بين الحق و الباطـل،و أمّا إذا وصل الى مسـتوى يختلط فى قلبه الحق و الباطل،و أنّ التبرير الـذى يختلقه للناس يسـتطيع أن يخـدع به ربّه،فقد هوى و لا أمل فى نجاته.

و مثـل هـذا الصـنف كثير،و إنّهم ليـأتون يوم القيـامه ربّهم،فيوقفهم للحسـاب، فيشـرعون فى طرح أعـذارهم التى تشـبّثوا بهـا فى الدنيا،بعضـهم يقول:كنت مكرها، و يقول الآخر:كنت مستضعفا،و يقول ثالث:لم أرد إلاّ الخير،و هكذا،و من الناس من ينكر كلّ أفعاله السيئه،و يحلف على ذلك بالأيمان،يقول الرب: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّ أَنْ قالُوا وَ اللّهِ رَبِّنا ما كُنّا مُشْرِكِينَ (١)و عن المبرّرين يقول: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً (٢)

١- ١) الانعام/(٢٢-٢٣).

٢- ٢) النساء/(٩٧).

وَ لٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللّٰهَ لاٰ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّٰا تَعْمَلُونَ لعلّ مرادهم أنّ اللّه لا يعلم السرّ و الخفيّات،و إنّما يرى ظاهر أعمالهم،و قد ذكر المفسّرون أنّ فريقا من الكفّار اجتمعوا عند الكعبه،فقال بعضهم:أ تظنّون أنّ اللّه يسمعنا؟فقال الآخر:بلى.إذا رفعتم أصواتكم سمعكم،و قال الثالث:إنّ من يسمع النداء يسمع النجوى،فنزلت الآيه.

و تحتمل الآيه تفسيرا آخر هو عدم اهتمام أولئك القوم بشهاده اللّه عليهم،فمن لا يأبه بشىء كان كمن لا يؤمن به.

[۲۳]و لكن تلك الظنون أمطرت عليهم الويلات،و دفعت بهم إلى أسفل الهاويه.

وَ ذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدٰاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخٰاسِرِينَ شخصيه الإنسان تصاغ حسب ظنّه بربه،فمن أحسن به ظنّا حسنت سريرته، و طاب سلوكه،و صلح عمله،و من أساء بربّه الظن ساءت سريرته،و خبث سلوكه،و فسد عمله..

و هكذا ينبغى أن يحسن العبد ظنّه بربه ما استطاع،

فقد روى عن الإمام الصادق-عليه السلام-أنّه قال:قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :

«إنّ آخر عبد يؤمر به الى النار فإذا أمر به التفت،فيقول الجبّار جلّ جلاله:

ردّوه،فيردّونه،فيقول له:لم التفت اليّ؟فيقول:يا ربّ لم يكن ظنّى بك هذا،فيقول:و ما كان ظنّك بى؟فيقول:كان ظنّى بك أن تغفر لى خطيئتى، و تسكننى جنتك!

قال:فیقول الجبّار:یا ملائکتی لا و عزتی و جلالی و آلائی و علوّی و ارتفاع مکانی ما ظن بی عبدی هذا ساعه من خیر قط،و لو ظن بی ساعه من خیر ما روّعته بالنار،أجیزوا له کذبه،و أدخلوه الجنه »

ثم قال:قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله :

«لیس من عبد یظنّ باللّه عزّ و جلّ خیرا إلاّ کان عند ظنّه » (1)[24] فَإِنْ یَصْبِرُوا فَالنّٰارُ مَثْویً لَهُمْ إنّ صبرهم فی الآخره یختلف عن صبرهم فی الدنیا،فصبرهم فی الدنیا علی الطاعات و عن المعاصی یعقبه الفرج و الجزاء الحسن،و لکن حتی و إن صبروا فی الآخره فإنّ النار هی مثواهم للأبد.

وَ إِنْ یَسْتَعْتِبُوا فَمٰا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِینَ و إن یتوبوا الی اللّه لا تقبل توبتهم،بعکس الدنیا حیث توفّرت لهم فرصه التوبه.

[25]عوامل الانحراف عدیده،و تختلف من إنسان لآخر،و فی حیاه الشخص الواحد تختلف من مرحله لأخری،ففی مرحله الطفوله یستهوی الإنسان عامل واحد اللعب،أمّا فی مرحله الشباب فإنّ أصدقاء السوء من أشدّ عوامل الانحراف تأثیرا علی النفس،بینما فی مرحله الرجوله یتدرّج البشر عبر عوامل المال و البنین و التفاخر.

و هنا یشیر القرآن الی أصدقاء السوء الذین یحیطون بمن ابتعد عن هدی ربه

1- 1) نور الثقلین/ج(4)-ص(543).

فیزیّنون له سوء عمله،حتی لا یکاد یجد سبیلا للهدایه.

إنّ الضـلاله-کمـا الهـدایه-تبـدأ من اختیار الإنسان نفسه،و لکنها تخرج تقریبا عن حـدود سـیطره الإنسان بعـد ذلک،إذ تتکاثف حوله عوامـل الاـنحراف و أغلاـل الضـلال حـتی یکـاد یصـبح عـاجزا عن الانفلاـت منهـا،فـتری قلبه یقسو مع اسـتمرار ارتکـاب الفواحش،و محیطه الاجتماعی یخلو من الصالحین الـذین کانوا ینصـحونه،و یتمحض فی قرناء السوء،و یکون مثله مثل دوده القز یختنق فی شرنقته التی صنعها لنفسه! و قرناء السوء نوعان:

نوع ظـاهر،و هو الصـدیق السـیء الـذی یصاحب الإنسان و یرافقه،و حین ینحرف الإنسان یجـد نفسه فی جماعه المنحرفین،و إنّ الطیور علی أشکالها تقع.

نوع باطن،و هو الشیطان الذی یزیّن له السیئات.

وَ قَیَّضْنا لَهُمْ قُرَنٰاءَ قـالوا:أصل کلمه«القیض»بمعنی القشـره المحیطه بالبیضه،و أنّ ایحاء «قیّض»التسـلط الکامل،و الإحاطه التامه،و لکن یبـدو لی أنّ معنی قیّض انتخـاب الشـیء المنـاسب،فإنّ حجم قشـره البیض مناسـبه لـذات البیضه،کـذلک یتم اختیار القرین المتناسب للشخص.

فَزَیَّنُوا لَهُمْ مٰا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ من أعمال الفساد التی لم یرتکبوها.

وَ مٰا خَلْفَهُمْ

ص:۲۱۰

من الأعمال التى ارتكبوها.و قالوا:ما بين أيديهم الدنيا،و ما خلفهم الآخره، و قيل العكس.

و لكن يبقى سؤال:لماذا يقيّض اللّه قرناء السوء لهؤلاء؟الجواب:لأنّ اللّه قد غضب عليهم،و فرض عليهم الضلاله بسوء اختيارهم أوّلا،كما فعل بأسلافهم من الأمم السابقه،و يا لسوء العاقبه إنّ الربّ الرحمن الرحيم الذى هو السبب الوحيد للهدايه يريد إضلالهم و تعذيبهم! وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كٰانُوا خٰاسِرِينَ و لعلّ المراد من الجن هنا الشياطين الذين يقيّض اللّه منهم قرناء للخاسرين.

[۲۶] وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ و الغوا فيه:أى أثيروا اللغو حينما يقرأ القرآن لصرف النظر عن أفكاره الحقه.

و فى كلّ عصر و مصر هناك محاولات خاصّه للغو فى القرآن،ففى بدء الدعوه الإسلاميه كانوا يحضرون القصّاص بجانب الرسول ليرووا للناس القصص التاريخيه الخياليه،و كان هناك من لا يفرّق بين القرآن و تلك القصص التافهه،فيجلس عند القصّاص ليستمع إليها،و يدع الرسول صلى الله عليه و آله و رسالته الحضاريه،و فى بعض الأحيان كان يقوم أحدهم بالتصفيق عند تلاوته أو التصفير..و كلّ ذلك بهدف جذب انتباه الناس لكى لا يفهموا حقائق الرساله،و أمّا فى هذا العصر فقد تطوّرت أساليب اللغو الذى يثيره الكفّار فى القرآن،إذ أنّ عشرات الألوف من الصحف المأجوره،و الإذاعات،و محطّات التلفاز،و مراكز صناعه الأفلام،تمثّل اليوم ظاهره اللغو الذى يثيره الكفّار بين الناس لمنعهم من الاستماع الى القرآن.

و الهدف من كل ذلك اللغو الجاهلى الأول و هذا اللغو الجاهلى العريض هو التغلّب على الساحه،و الاستكبار فى الأرض بغير الحق،ممّا يعنى أنّ بناء الكفّار الثقافى قائم على أساس اللغو و التشويش على بصائر الحق.

و نستوحى من الآيه عدّه حقائق:

أولا:إنّ كلّ ما يبثّه الطغاه من خلال أجهزتهم الدعائيه ضلاله و لغو،و إنّما الحق ما يبيّنه الوحى الإلهى.

ثانيا:إنّ البناء الثقافى للطغاه قائم على أساس مواجهه الحق،و التشويش عليه،أو ليست الضلاله هى الانحراف عن الهدى،فهى ليست أصلا أو محورا أو بناء متكاملا،و هكذا فضح القرآن أهم استراتيجيّات الدعايه الكافره،و هى معاكسه الاعلام الحق،و إثاره الضوضاء و الصخب من أجل صرف الانظار عنه.

ثالثا:من خلال الهدف الذى يتوخّاه الفرد نعرف طبيعه عمله،أو ليست الأعمال بالنيات؟و إنّ هدف أجهزه الدعايه الكافره هو الاستكبار فى الأرض، و الغلبه فى الصراع مع الحق،و من كان هذا هدفه كيف يستطيع أن يهدى الناس الى الحق؟!إنّ الهدف هو الذى يحدّد مسيره العمل،و استراتيجيه التحرك،بل كيف يهدى الى الحق من لم يهتد بنفسه اليه.

و حين يكون هذا هدف مجمل التحرك الدعائى عند الكافرين،فإنّه ينعكس على أدوات هذا التحرك،و الأفراد المشاركين فيه،فكلّ فرد من العاملين فى هذا الجهاز يسعى نحو هدف مصلحىّ خاص به،فترى الواحد يحلم فى الشهره،و الثانى يبحث عن الثروه،و الثالث يتمنّى ان يكون ذا حظوه عند السلطان،و كيف تهدى أقلام هذه الشراذم الى الحق؟!

ص:٢١٢

[٢٧]بلى.إنّهم يضلّون الناس عن الحق،و يمنعونهم عن بلوغ الحقائق، و يحجبون عنهم النور الإلهى،و بحجم الخساره التى يلحقونها بالناس يكون حجم العذاب الذى ينتظرهم.

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً و لعلّ هذا هو عذابهم فى الدنيا.

وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ لعلّ جزاءهم أسوء من أعمالهم باعتبار تحدّيهم لربّ العزه،أو تحمّلهم لعذر الآخرين.و لعلّ المعنى أنّهم يجازون بأسوء أعمالهم فيكون بالطبع جزاء سيئا،و اللّه العالم.

[٢٨]لماذا هذا الجزاء الشديد؟لأنهم أعداء اللّه،و ليس هيّنا عداوه هذا المخلوق الضعيف لخالقه القوى العزيز.

ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللّهِ النّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ يا له من عذاب عظيم،النار أبدا ساءت مستقرا و مقاما!و نتساءل:كيف أنّهم أضحوا أعداء اللّه؟بلى.حين عادوا رسالاته،و ألغوا فى القرآن،فقد عادوا اللّه عزّ و جل.

جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ إنّ الكفر بالرساله بعد أن استيقنتها أنفسهم يدل على عداوتهم لربّهم.

[٢٩]و فى نهايه المطاف يكفر هؤلاء بقرناء السوء الذين أضلّوهم عن سبيل اللّه،

ص:٢١٣

سواء كانوا من الإنس الظاهرين (كأصدقاء السوء) أو الجن (كالشياطين و الذين زيّنوا لهم سوء أعمالهم).

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ و لكن ماذا ينفعهم لو جعلوهما تحت أقدامهم فى ذلك اليوم بينما جعلوهما قدوه لهم فى الدنيا؟!

ص:۲۱۴

[سوره فصلت (۴۱): الآيات ۳۰ الی ۳۶]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اَللّٰهُ ثُمَّ اِسْتَقٰامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ اَلْمَلاٰئِكَةُ أَلاّٰ تَخٰافُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ اَلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۳۰) نَحْنُ
أَوْلِيٰاؤُكُمْ فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ فِي اَلْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهٰا مٰا تَدَّعُونَ (۳۱) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (۳۲) وَ مَنْ
أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعٰا إِلَى اَللّٰهِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً وَ قٰالَ إِنَّنِي مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ (۳۳) وَ لاٰ تَسْتَوِي اَلْحَسَنَةُ وَ لاَ اَلسَّيِّئَةُ اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
فَإِذَا اَلَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدٰاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (۳۴) وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاَّ اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاّٰ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (۳۵) وَ إِمّٰا يَنْزَغَنَّكَ
مِنَ اَلشَّيْطٰانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۳۶)

ص:۲۱۵

اللغه

۳۷[نزغ]:النزغ هو النخس بما يدعو إلى الفساد،فإنّ الشيطان ينخس الإنسان و يهيّجه للباطل خصوصا عند الخصام و فى المعركه.

ص:۲۱۶

قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا

هدى من الآيات:

فى آيات مضت بيّن القرآن نموذجا من الناس تحدّوا سلطان الرب،فقيّض لهم قرناء السوء،و اختار لهم أسوء المصير.و هنا يبيّن النموذج المعاكس له تماما،و هم الرجال الذين تحدّوا القوى الاجتماعيه و أعلنوا إيمانهم باللّه(و دعوا الناس الى ذلك) ثم استقاموا،حيث ينزل اللّه عليهم الملائكه تنزيلا-يزيلون عنهم الخوف و الحزن، و يبشّرونهم بالجنه،و يطمأنونهم بأنّهم أولياؤهم،يؤيدونهم فى الدنيا، و يسعدونهم فى الآخره،هنالك حيث يتوفر ما يشتهونه أو يتمنونه،فى تلك الدار التى يستضيفهم الربّ الغفور الرحيم.

بلى.إنّ أحسن القول هو الدعوه الى اللّه المقرونه بالعمل الصالح و التسليم، و المقرونه كذلك بالخلق العظيم الذى يختار صاحبه أحسن السبل فإذا بالعدو يصبح وليّا حميما.

ص:۲۱۷

و إنّها لذروه الفضيله لا- يبلغها إلّا الصابرون من ذوى الحظوظ العظيمه!و قد يدفع الشيطان أحدهم الى الوراء قليلا،و لكنّهم يستعيذون باللّه من شرّه فيستجيب اللّه دعاءهم.

بينات من الآيات:

[۳۰]كما يمكن أن يتسافل الإنسان الى الحضيض حيث يقيّض له اللّه سبحانه قرناء يزينون له سوء عمله فلا يهتدى أبدا الى السبيل،كذلك يستطيع أن يسمو و يسمو حتى يصبح فؤاده مأوى لملائكه اللّه،فئه تهبط و فئه تعرج متى؟حين يكفر بالطاغوت،و يعلن توحيده على الملأ،و يقول:ربى اللّه،لا الأصنام لا الأنداد لا المجتمع الفاسد لا السلطه الطاغيه.

إنّه لا يكتفى بالإيمان فى قلبه بربّه،بل يعلنه متحدّيا القوى الماديه،و بذلك يشقّ للنّاس طريق التوحيد بين أوغال الشرك.

إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ إنّهم قالوا ذلك،و القول بذاته تحدى،و التحدى بدوره دعوه.إنّه دعوه بكسر حاجز الصمت،و الخوف،و مقاومه حاله اليأس و السلبيه.

إنّنا أمرنا بأن نعلن البراءه من المشركين،و ممّا يشركون به،أ فلا نتلوا سوره الإخلاص: قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ ؟!إنّ المطلوب منّا أن نقول كلمه التوحيد بما تحمل من مخاطر الرفض و التمرّد و الثوره،و هى حقّا أعظم كلمه فى عالم الإنسان،لأنّها مفترق الطريق بين العبوديه و التحرّر،بين الذلّه و العزّه،بين النار و الجنه.

ثُمَّ اسْتَقٰامُوا

ص:۲۱۸

و ماذا تعنى كلمه التوحيد من دون الاستقامه؟أو ليس التوحيد بمعنى رفض الأنداد،رفض سلطه الطغاه،و المترفين،و حمير الأسفار،فإذا عاد الإنسان و خضع لهؤلاء الأنداد فإنّه ينفى أصل التوحيد.

و يبدو أنّ اللّه سبحانه يهدى العبد الى معرفته،و يدلّه على ذاته بذاته،ثم يبتليه بألوان الفتن،تاره فى ماله،و أخرى فى جسده،و ثالثه بتسليط الجبابره عليه، و هكذا ليمتحن إيمانه،فإذا أنهار وكّله الى نفسه،و أمّا إذا استقام نزّل عليه ملائكته ليثبّتوه.

و هكذا تتركّز صعوبات الاستقامه فى أيّامها الأولى،حيث لا تتنزّل الملائكه، و حيث يتساوى الناس فى درجه الضغط الذى يتعرضون له لامتحان قوه إيمانهم،أمّا فى المرحله التاليه فإنّ من استقام تهون عليه الضغوط لنزول الملائكه عليه بالسكينه و التأييد.

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةُ أَلاّٰ تَخٰافُوا من المستقبل و ما يحمله لكم من آلام،و هكذا يزيل الملائكه عن قلب المستقيم أثر أمضى سلاح تستخدمه قوى الشرك و هو سلاح الإرهاب.و حين نسير فى الأرض نرى الخوف أعظم دعامه لحكم الطغاه و المستكبرين،فإذا تجاوز إنسان أو شعب حاجز الخوف استعاد حقوقه و حرّيته و استقلاله.

وَ لاٰ تَحْزَنُوا على ما مضى من الخسار،فلا تدع الملائكه قلوب أولى الاستقامه عرضه لأمواج التشكيك التى يبثّها الشياطين فيها،قائلين:إلى متى نقدّم التضحيات؟ألا ترى سائر الشعوب كيف تنعم بالهدوء؟أو لا تنظر إلى صاحبك قد أضحى غنيّا،

و زمیلک بالدراسه أضحی الیوم أکبر خبیر،و جارک أصبح وزیرا؟أ فلا یکفی؟إلی متی تعیش الغربه و الهجره و الحرمان؟إنّ هذا النوع من الکلام یولّد الحزن، و بالتالی یسبّب تراکم السلبیات،و یوهن عزائم العاملین،لو لا تدخّل الملائکه لإزالته،و لکن کیف؟ إنّ الملائکه یزیلون أثر الخوف و الحزن من أفئده المستقیمین بأن یبشّروهم بالجنه و نعیمها.

وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّهِ الَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ و لأنّ المؤمنین یتعرّضون لضغوط مختلفه،حیث یجرّب الطاغوت و أعوانه من المترفین و المضلّلین کلّ وسائل الضغط علیهم،فإنّ الملائکه لا تزال تتنزّل علیهم (و لا تنزل مرّه واحده)فکلّما تعرّضوا لنوع من الضغط بشّرهم الملائکه بما یقابله من النعمه عند اللّه،حتی یزول أثر الضغط و لعلّ

الإمام أمیر المؤمنین-علیه السلام- یشیر إلی ذلک حین یقول :

«و من اشتاق إلی الجنّه سلا عن الشهوات،و من أشفق من النار رجع عن الحرمات،و من زهد فی الدنیا هانت علیه المصیبات، و من ارتقب الموت سارع الی الخیرات » (1)فکلّ إغراء أو ضغط أو إرهاب فی الدنیا یقابله من شؤون الآخره ما یعاکسه، و یزیل أثره النفسی،حتی یستقیم المؤمن تماما.

و جاء فی الحدیث عن النبی(صلّی اللّه علیه و آله) و هو یأمر بالاستقامه،و یفسّر

۱- ۱) تحف العقول/ص(۱۱۰)فی حدیث مفصّل حول الإیمان و دعائمه،فی أثناء الحدیث عن دعائم الصبر.

الآیه الکریمه:

«قد قالها ناس ثم کفر أکثرهم،فمن قالها حتی یموت فهو ممّن استقام علیها » (۱)و أبرز مظاهر الاستقامه الولایه،و اتباع الخط السیاسی المستقیم فی ظلّ القیاده الشرعیه،ذلک لأنّ أعظم ما یتصارع علیه أبناء آدم هو قیاده المجتمع السیاسیه، و للمؤمنین خطهم السیاسی الواضح الذی یدعون إلیه،و المتمثّل فی قیاده الصالحین، و الاستقامه علی هذا الخط تعنی محاربه کلّ قوی الشرک و الجهل و النفاق فی المجتمع،و التی تترکّز عاده فی اتباع نهج أئمه الکفر و الضلال،و کذلک

حین یأتی أحد المجاهدین من أتباع أهل بیت الرسول إلی الإمام الرضا-علیه السلام- و یسأله عن الآیه یقول له الإمام:

«هی و اللّه ما أنتم علیه» کذلک یقول الإمام الباقر-علیه السلام-لرجل من شیعته الأبرار. (۲)

[۳۱]من ارتقی ذروه الإیمان عاش هنالک وحده،و یخشی علیه وحشه الانفراد،فها هم أصدقاؤه یتفرّقون عنه لأنّه یستقیم علی الحق،و هم یتساقطون تحت وطأه الضغوط،حتی یقول مثلما

قال إمام المتقین :

«ما ترک الحقّ لی من صدیق » و ها هم أسرته یتخلّون عنه،و یقولون له لا تحمّلنا ما لا طاقه لنا به..

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)-ص(۵۴۷).

۲- ۲) المصدر.

و ها هو المجتمع الفاسد أو اللاّمسئول يواجهه،أو لا أقل يتخلّى عنه فى ساعه المواجهه،حتى لتكاد الدنيا تضيق به على رحبها..

هنالك تتنزّل عليه ملائكه اللّه ليعلنوا ولاءهم له و مساندتهم إيّاه.

و من عاش مع الملائكه الموكّلين بشؤون الكائنات لا يبقى غريبا.إنّه يمشى فى الاتجاه الصحيح مع كلّ الخليقه،إنّما أعداء الحق هم الغرباء،لأنّهم يعيشون ضد سنن اللّه فى خلقه،و فى الاتجاه المضاد لحركه الكائنات.

نَحْنُ أَوْلِيٰاؤُكُمْ فِى الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا لقد عاش إبراهيم عليه السلام وحده فى ذروه التوحيد،فهل كان غريبا؟و كيف يكون غريبا يتنزّل عليه جبرائيل و ميكائيل و إسرافيل؟ و حين وضع فى المنجنيق ليرمى به فى النار،هرعت إليه سائر الملائكه الموكّلين بشؤون الطبيعه،و عرضوا عليه دعمهم له،فلم يقبل،إنّما سلّم أمره الى اللّه،فجعل اللّه النار بردا و سلاما عليه.

وَ فِى الْآخِرَهِ عند ما تبلغ النفس التراقى،و تهبط على ابن آدم كربه الموت،و يقف أحبّاؤه حياله عاجزين عن تقديم أىّ عون له،هنالك تهبط ملائكه السلام على من استقام من المؤمنين فيبشّرونه بالجنه.اللّه أكبر،ما أحلاها من بشاره،و ما أعظمها من نعمه.

و عند ما يوضع الإنسان فى لحده،و يتفرّق عنه أبناؤه و أحبّاؤه،و قد تركوه تحت التراب وحيدا غريبا،تهبط ملائكه اللّه بالبشرى على المؤمن،و يزيلون وحشته،

و یرافقونه حتی النشور،و عند ما یبعث الناس الی ربهم فی صحراء المحشر یَوْمَ یَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِیهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِیهِ وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِیهِ ، یَوْمَ تَأْتِی کُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها ، لِکُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ یَوْمَئِذٍ شَأْنٌ یُغْنِیهِ ،هنالک یتقدم ملائکه الرحمه لمرافقه المؤمنین الی ربّهم.

وَ لَکُمْ فِیها ما تَشْتَهِی أَنْفُسُکُمْ لقد زهدوا فی الدنیا و شهواتها،فعوّضهم اللّه بنعیم الآخره،و إذا کانت شهوات الدنیا مشوبه بالآلام،و مشحونه بالمصائب و النکبات،و هی سریعه الزوال،فإنّ نعیم الآخره التی تشتهیها نفوسهم صافیه لا زوال لها.

بلی.إنّ الدنیا و الآخره ضرّتان،فمن رغب فی الآخره زهد فی الدنیا،و من أذهب طیّباته فی هذه الحیاه الزائله،فسوف لا یجد نعیما فی تلک الحیاه الأبدیّه.

لقد رئی علی إمام المتقین علیّ بن أبی طالب-علیه السلام-إزار خلق مرقّع، فقیل له فی ذلک،فقال:

«یخشع له القلب،و تذلّ به النفس،و یقتدی به المؤمنون، إنّ الدنیا و الآخره عدوّان متفاوتان،و سبیلان مختلفان،فمن أحبّ الدنیا و تولّاها،أبغض الآخره و عاداها،و هما بمنزله المشرق و المغرب و ماش بینهما،کلّما قرب من واحد بعد من الآخر و هما بعد ضرّتان » (1)وَ لَکُمْ فِیها ما تَدَّعُونَ الدنیا دار السعی،و الآخره دار الجزاء،و فی الدنیا لا یمکن أن تتحقّق کلّ أمانی

1- 1) نهج البلاغه/خطبه(۱۳۰).

البشر،و لا ـ يمكن أن يرضى أحد أحدا،لأنّ ادعاءات ابن آدم أكبر من حجم الدنيا نفسها،و تمنّياته أوسع من حياته على الأرض،فكيف تتحقّق جميعا؟بينما الآخره دار واسعه،أكبر من طموحات البشر و تطلّعاته،و هكذا تتحقّق أمانى المؤمنين بلا جهد أو سعى.

جاء فى حديث مأثور رواه الإمام الباقر-عليه السلام-عن رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله ٧۴-:

«و ليس من مؤمن فى الجنه إلاّ ـ و له جنات كثيره،معروشات و غير معروشات، و أنهار من خمر،و أنهار من ماء غير آسن،و أنهار من لبن،و أنهار من عسل،فإذا دعا ولىّ اللّه بغذائه أتى بما تشتهى نفسه عند طلبه الغذاء من غير أن يسمّى شهوته » (١)[٣٢]و أعظم النعم لأهل الجنه أنّهم فى ضيافه الرحمن ربّ السموات و الأرض ربّ العرش العظيم..

نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ [٣٣]و مثلما الإيمان باللّه ذروه الكمال و سبيل كلّ خير،فإن الدعوه إليه أحسن المقال،و طريق كلّ صلاح و إصلاح،و لأنّ الدعاءً الى اللّه خير الأعمال فقد اجتبى له الربّ خير خلقه،و هم الرسل ثمّ الأمثل فالأمثل من عباده الصالحين.

و حين يرفع الإنسان صوته بالدعوه تتساقط الأوهام التى يبثّها الشيطان فى روع البشر،كما تهتزّ الأصنام التى يصنعها فى المجتمع!!

ص:٢٢۴

١- ١) نور الثقلين/ج(۴)-ص(۵۴٨).

الدعاء إلی اللّه یعنی محاربه الجبت و عباده الذات،کما یعنی مواجهه الطاغوت و عباده أولی القوه و الثروه.

الدعاء إلی اللّه ینطوی علی تزییف الدعوات الکاذبه إلی القومیه و العنصریه و الإقلیمیه و ما إلیها من ضلالات الشرک.

الدعاء الی اللّه یستدعی زکاه النفس ألاّ تسترسل مع الشهوات،و لا تستفز بهمزات الغضب الشیطانیه.

وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعٰا إِلَی اللّٰهِ أحسن قولا:لأنّ محتوی قوله الدعوه الی الغفور الرحیم.

و أحسن قولا-لأنّ أسلوب دعوته سلیم،فلأنّها مجرده عن ذاته لا تتأثّر بالمصالح الشخصیه،أو بالظروف المتغیّره،فیختار أفضل السبل للدعوه،یتواضع للناس، و یحسن إلیهم،و لا یتجبّر علیهم و لا یبحث فی دعوته عن شهره أو سمعه،و لا یتأثّر بعصبیّه.

إنّ دعوته بذاتها خیر عظیم حظی به فهو یحمد اللّه أبدا علی هذا التوفیق،فلا یطلب علی دعوته أجرا من الناس أو شکرا، و إذا واجه إعراضا أو کفورا لا یلویه ذلک عن سبیل الدعوه،لأنّ دعوته مدفوعه الثمن سلفا من عند ربّه.

ثم إنّ دعوته لیست مجرّده عن سلوکه.إنّه یسارع إلی تنفیذ شرائع اللّه،و العمل الصالح،و التسلیم للقیاده الشرعیه،و الرضا بها،ممّا یشهد بصدقه فی دعوته،کما یشهد علی صدق دعوته،فمن دعا الی اللّه حقّا فقد عرف ربّه،و من عرف ربّه صلحت أفعاله،و لم یطلب علوّا فی الأرض و لا فسادا،بل سلّم الأمر للّه و لأولی

الناس برسول اللّه.

وَ عَمِلَ صٰالِحاً وَ قٰالَ إِنَّنِی مِنَ الْمُسْلِمِینَ فهو أوّل من یسلم وجهه لربّه،و یعلن عن ذلک،و یتحدّی-بدعوته-الطغاه و الجبابره،کما و یجابه بها شیطان نفسه النزّاعه الی الرئاسه و السلطه.

و هکذا تبصّرنا الآیه-بکلمات وجیزه بلیغه-بشواهد الصدق فی الدعاه، و کیف أنّهم الأحسن قولا،و الأسبق إلی تهذیب النفس من شوائب الهوی فی الدعوه،و تهذیب أسلوب الدعوه من الرعونه و الخشونه و الکلمات النابیه..

إنّ من الناس من یدعو الی اللّه،و یختار وسیله معیّنه لهذه الدعوه،مثلا ینتمی الی تنظیم رسالی،أو ینخرط فی سلک العلماء و الخطباء،أو یصدر صحیفه،أو یفتح دارا للنشر..و یقف الشیطان له بالمرصاد فیضلّه عن السبیل فیحرف اهتمامه من اللّه إلی تلک الوسیله التی اختارها،فإذا به یجعل تنظیمه أو جماعته أو مؤسسته محور دعوته،و یصارع من أجلها سائر الدعاه الی اللّه،و بدل أن یذوّب نفسه فی بوتقه الدعوه تراه یذوّب دعوته فی بوتقه نفسه،و یضلّ ضلالا بعیدا.

و لعلّ خاتمه الآیه تعالج هذه الحاله،إذ الإسلام هو التسلیم،و التسلیم یتنافی و الصراعات المصلحیه عند الدعاه

یقول أمیر المؤمنین الامام علی-علیه السلام -:

«لأنسبنّ الإسلام نسبه لم ینسبها أحد قبلی،الإسلام هو التسلیم،و التسلیم هو الیقین،و الیقین هو التصدیق،و التصدیق هو الإقرار،و الإقرار هو الأداء، و الأداء هو العمل » (۱)

۱- ۱) نهج البلاغه/الخطبه(۱۲۵).

[۳۴]الذی یدعو إلی اللّه یختار أحسن القول،فما هو الأحسن؟هناک الحسنه و السیئه و الفارق بینهما کبیر،و لکن للحسنه درجات متصاعده،کما أنّ للسیئه درکات متسافله،و الداعی الی اللّه یختار الأحسن بین درجات الحسنه..

وَ لاٰ تَسْتَوِی الْحَسَنَهُ وَ لاَ السَّیِّئَهُ قال الشیخ الطبرسی:و المعنی:أنّ الحسنه و السیئه متفاوتتان فی أنفسهما،فلا تستوی الأعمال الحسنه و الأعمال السیئه،فخذ بالحسنه التی هی أحسن من أختها إذا اعترضتک حسنتان. (۱)

اِدْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ و حسب هذا التفسیر،معناه:اختر من الحسنات أفضلها،و من الوسائل أبلغها أثرا.

فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَدٰاوَهٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ إنّ الداعی إلی اللّه یدلّ الناس إلی ذروه الکمال،و لا یوفّق لهدفه إلاّ إذا اکتملت نفسه أوّلا،و استطاع أن یتعالی علی غضبه و مصالحه،فإذا کانت بینه و بین أحد من الناس عداوه لا یستغل مرکزه لتحطیمه،بل یسعی إلیه لیهدیه حبّا له،و حبّا لدعوته،إذ أنّ وجود حزازات بین الناس و صاحب الدعوه تؤثّر سلبیّا علی الدعوه،و لکن ماذا یملک الداعیه فی هذا السبیل؟إنّه یملک نفسه فیسخو بها لربّه و لدعوته،فإذا به یتنازل عن حقوقه،و عمّا یسمّی عند الناس بالکرامه الشخصیه، و یطفق بالإحسان الی أعدائه.

ص:۲۲۷

۱- ۱) جوامع الجامع/ج(۲)-ص(۴۸۲).

ثم يستخدم حكمته فى اختيار السبيل الأحسن،ذلك أنّ التدبير و حسن الإداره فى الدعوه إلى اللّه ذوا أهميه كبيره،بالرغم من صعوبتهما البالغه،إذ أنّ حسن الإداره بحاجه إلى علم غزير،و تفكّر مستمر،و مقدره فائقه فى تنفيذ المهام،مثلا يستدعى التدبير-عاده-الكتمان،و اتباع السبل الخفيّه فى العمل على ما نحمل من مشاق كبيره،و لكن أنّى كانت الصعاب فإنّ الكتمان وسيله هامّه لإنجاح مهام الدعوه.

أو لم يقل الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-:

«استعينوا فى أعمالكم بالصبر و الكتمان»؟ و هنا نعرف عمق تفسير أهل البيت-عليهم السّلام-حيث

جاء فى الحديث المأثور عن الإمام الصادق-عليه السّلام -:

«إنّ الحسنه التقيّه،و السيئه الإذاعه » (1) ثم إنّ طموح الداعيه عال حيث لا يسعى الى تجنّب أذى العدو،بل إلى جعله وليّا حميما له.إنّه يسعى أبدا لكسب الناس لدعوته.

[35]إنّها القمّه السامقه فى الخلق الرفيع،لن يبلغها إلاّ من تميّز بأمرين:

الصبر و الحلم.

وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا فمن تجرّع مراره الصبر أوتى الخلق الرفيع.و الصبر فى جمله معانيه التطلّع الى المستقبل،و معايشه أحداثه،بتجاوز اللحظه الراهنه.

و هناك علاقه قريبه بين الصبر و العلم،فمن أحاط معرفه بالمستقبل،و طبيعه سير

1- 1) مجمع البيان/ج(5)-ص(13).

الأحداث،لم يستبدّ به الحدث الحاضر و مؤثّراته،و لعلّه لذلك قال ربّنا سبحانه:

وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاّٰ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ فمن كان حظّه عظيما من اليقين و الحكمه حسن خلقه،و صبر على المكاره.

و الآيه تشير إلى أنّ من يردّ الإساءه بالإحسان يكون مجمل حظّه عظيما(حيث جاءت الكلمه مطلقه)ممّا يعنى أنّه ينتصر فى صراعه مع منافسيه و أعدائه،و يتمتّع بالتقدم و الرقى فى كافّه الحقول.

[۳۶]لأنّ الاستقامه،و ردّ الإسائه بالإحسان،و الصبر،صعب مستصعب، فإنّ الإنسان الذى خلق من ضعف قد يسقط تحت الضغوط،فلا ينبغى اليأس و الاسترسال فى الهبوط،بل لا بدّ من تجديد العزم،و تجاوز حاله الضعف، و الاعتصام بحبل اللّه، و الاستعاذه به.

وَ إِمّٰا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطٰانِ نَزْغٌ أى دفعك الشيطان دفعا إلى الانحراف فى حاله من حالات الضعف الذى يعترى البشر عاده..

فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ذلك أنّ ضعف البشر لا يجبره سوى قوّه الرب،فحين تذكر ربّك،و تتّجه إليه بقلبك،يصلك المدد من الملائكه الذين يثبّت اللّه بهم أقدام المؤمنين عند مظنّه الزلل.

إنّ الشيطان الغوى يجنّد لمحاربتك جنوده،و يوسوس إليك بأمانيه و غروره،

و الریب و الیأس،و لکن إذا أقبلت إلی ربّک،و ذکرته فی سرّک،هرب إبلیس و جنوده،و خرجت منتصرا.

و کلمه أخیره:

إنّ سیاق الآیات فی هذا الدرس یهدی إلی أنّها تعالج وضع الدعاه فی أشدّ الظروف،حیث یحتاجون الی الاستقامه،و ردّ الإسائه بالإحسان و الصبر، و لا ریب أنّ الدرع الحصین لهم هو التقیه،و هی بحاجه الی أناه و حکمه،و صبر عظیم،و إنّ کثیرا من الحرکات الرسالیه فشلت فی صراعها ضد الطغاه بسبب فقدان بند أو أکثر من هذا البرنامج فی حیاتهم،و ذهبت تضحیاتهم الکبیره سدی، فعلینا ألاّ نستهین و لا بواحده من هذه الوصایا،بل نتمسّک بها جمیعا و بقوه حتی یأذن اللّه لنا بالنصر.

[سوره فصلت (۴۱): الآيات ۳۷ الى ۴۵]

اشاره

وَ مِنْ آيَاتِهِ اَللَّيْلُ وَ اَلنَّهَارُ وَ اَلشَّمْسُ وَ اَلْقَمَرُ لاٰ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لاٰ لِلْقَمَرِ وَ اُسْجُدُوا لِلّٰهِ اَلَّذِی خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ (۳۷)
فَإِنِ اِسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ اَلنَّهَارِ وَ هُمْ لاٰ يَسْأَمُونَ (۳۸) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى اَلْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا
عَلَيْهَا اَلْمَاءَ اِهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ اَلَّذِی أَحْيَاهَا لَمُحْيِ اَلْمَوْتىٰ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۹) إِنَّ اَلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِی آيَاتِنَا لاٰ يَخْفَوْنَ
عَلَيْنَا أَ فَمَنْ يُلْقىٰ فِی اَلنَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِی آمِناً يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴۰) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمّٰا
جٰاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (۴۱) لاٰ يَأْتِيهِ اَلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (۴۲) مٰا يُقَالُ لَكَ إِلاّٰ مٰا قَدْ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (۴۳) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لاٰ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ
قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفَاءٌ وَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ فِی آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (۴۴) وَ لَقَدْ
آتَيْنَا مُوسَى اَلْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِی شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۴۵)

اللغه

۳۸[لا يسئمون]:من سأم بمعنى تعب،أى لا يتعبون عن التسبيح و العباده.

۳۹[اهتزّت]:تحرّكت،فإنّ الماء ينشّ الأرض و يحرّكها بالانتفاخ و تعليه الأملاح.

[و ربت]:ارتفعت لدخول الماء و الهواء خلالها.

ص:۲۳۱

لاٰ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

اشاره

وَ لاٰ لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلّٰهِ

هدی من الآیات:

من المحاور الرئیسیه لسوره فصّلت بیان الصله السلیمه بین البشر و الخلیقه من حوله،المتمثّله فی أنّهما جمیعا خلق اللّه،و خاضعان طوعا أو کرها لمشیئته،فلا ینبغی أن یتخذ الإنسان آیات اللّه أندادا من دون اللّه،فیسجد للشمس أو للقمر، إنّما السجود(و التعبّد)للّه وحده.ألیس هو الخالق للکائنات جمیعا،و هکذا تسبّح ملائکه اللّه و من هم عند اللّه لربّ العالمین لیلا و نهارا بلا سأم أو ملل.

کذلک الأرض تراها خاشعه(کأنّها فی حاله تعبّد لربّها و انتظار لبرکاته المتمثّله فی الغیث)فإذا أنزل اللّه علیها الماء اهتزّت و ربت،و کان فی إحیائها بعد موتها شهاده حق علی إحیاء الموتی للنشور،و أنّ ربّنا علی کل شیء قدیر.

(کلّ ذلک من آیات اللّه،و لکن ماذا عمّن یلحد فیها؟).

إنّ الملحدین لا یخفون علی اللّه(و هم لا یستوون مع من یستجیب لها بالتصدیق

و العمـل) أَ فَمَنْ يُلْقى فِی النّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِی آمِناً يَوْمَ الْقِيامَهِ (و لا يعنى تأخير العقوبه جهلا و تهاونا،كلّا)فليعملوا ما شاؤوا فإنّ اللّه بصير بهم.

(من هم الملحدون فى آيات اللّه؟)إنّهم الذين يكفرون بذكرهم(المتمثّل فى القرآن)لمّا جاءهم،بينما هو كتاب عزيز يستمدّ قوته من ربّه،و إنّه كتـاب حقّ لا- يأتيه الباطل من بين يـديه و لا من خلفه.أو ليس قـد أنزله الحكيم الحميـد،فكيف يأتيه الباطل؟ (و ما يجادلون به حول آيات اللّه و ذكره باطل).

و لا يقال للرسول إلّا ما قد قيل للرسل السابقين..

(فاخذهم اللّه بأليم عقابه،بعد أن أمهلهم بمغفرته).

إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَهٍ وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ .

(و كـان بين مـا قـالوا أنّ من يعلّم الرسول صـلى الله عليه و آله أعجمى،بينما القرآن عربىّ مبين)و لو جعله اللّه أعجميّا لطالبوا بأن يكون عربيّا مبينا قـد فصّـلت آياته تفصـيلا، و لكن هل هذا هو مقياس الحق و الباطل،و الهدى و الضـلال؟(كلّا..إنّ المقياس هو الإيمـان)فمن آمن بـالقرآن كـان له هـدى و شـفاء،بينما الـذين لا يؤمنون كان فى آذانهم وقر،و هو عليهم عمى،كمن ينادى من بعيد.

(و اللّه سـبحانه لا يعاجلهم بالعقوبه،كما لم يفعل بالأمم السالفه)فقـد آتى موسـى الكتاب فاختلف فيه فمنهم من آمن و منهم من كفر(و لكنّ اللّه أمهلهم ليبتليهم)و لو لا أنّه قدّر الابتلاء فى الدنيا لقضى بينهم.

(إلّا أنّ تأجيل القضاء لا يدلّ على إلغائه بل الإنسان مسئول عن أفعاله) مَنْ

عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ،وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَيْهٰا .

بينات من الآيات:

[۳۷]بين البشر و سائر الخليقه أكثر من صله،و حين يكتشف الإنسان آماد هذه الصله لا يزداد وعيا بما حوله فقط،و لا يزداد قدره على تسخير الطبيعه فحسب، بل و يزداد إيمانا بربّه،و معرفه بأسمائه الحسنى التى تتجلّى فى السموات و الأرض.

فإذا نظرنا إلى الليل و النهار و الشمس و القمر راعتنا عظمتها و كبر حجمها و دقّه نظمها،و لكن حين نجد أنّها مسخّرات بأمر اللّه،و خاشعه لمشيئته،محاطه بعلمه و قدرته،هنالك يهتدى المؤمنون الى ربّهم،و يعرفون شيئا من عظمته،فيخرّون ساجدين للّه وحده الذى له الحمد و المجد و الكبرياء و العظمه.

وَ مِنْ آيٰاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهٰارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ اختلاف الليل و النهار بما فيه من دقّه التدبير و حسن النظم شاهد على عظمه مقدّرهما و مدبّرهما،كما أنّ حركه الشمس ذات الأبعاد الثلاث المتناهيه فى الدقه،و دورات القمر المتصله ذات الأثر البالغ فى مقدّرات الأرض،كل ذلك آيه من آيات قدره اللّه،فمن الضلاله تقديس الشمس و القمر من دون بارئهما! لاٰ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لاٰ لِلْقَمَرِ و كانت من عادات الجاهليه،و التى لا تزال شائعه عند بعض الأمم،و لعلّها ناشئه من النظره السطحيه الى آيات الخليقه التى لا تنفذ الى ما ورائها من حقائق الغيب.

وَ اسْجُدُوا لِلّٰهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ

و كان بعضهم يزعم أنّ السجود للشمس و القمر و للأصنام التى تنحت كرمز لهما و لغيرهما من مظاهر القوه و الجمال فى الخلق يعتبر عباده للّه أو ليس كلّ أولئك من خلق اللّه،و من مظاهر قوّته و جماله؟فنهرهم الربّ بأنّ عباده اللّه لا تتمّ إلاّ بالسجود له وحده،فإن كانوا يريدون اللّه فليعبدوه وحده،ذلك أنّ السجود للشمس و للقمر و لكلّ مظهر من مظاهر القدره و الجمال يبهر البشر و بالتالى الاستسلام للسلطه و الثروه،و ما إليهما من زينه الحياه الدنيا. كلّ ذلك أصل الفساد فى حياه الإنسان،و إنّ من عباده اللّه تحصين البشر من هذا الفساد الكبير.

و بعضهم أخذ يفلسف هذا الفساد،و يزعم أنّ آيات اللّه هى عين ذاته،و أنّ الوجود و الموجود واحد،و أنّ الخالق و المخلوق واحد،و أنّ الطرق الى اللّه بعدد أنفاس الخلائق.

كلاّ..لا تعايش عند اللّه بين عباده اللّه و السجود للشمس و القمر،فمن سجد لهما خرج عن إطار عباده اللّه.

[٣٨]و لكن لماذا يترك الإنسان عباده اللّه إلى عباده مخلوقاته؟ لأنّ فى عباده الخالق استشعار الذلّه و الصغار،و التحسّس بالمخلوقيه و العبوديه، و بالتالى الالتزام برسالات اللّه و ما فيها من قيم و شرائع،و اتقاء شحّ النفس، و مخالفه أهوائها،و التحلّق فى سماء العقل،و العبور من واقع الشهود الى حقائق الغيب،و ما إلى ذلك من الكمال الرفيع الذى يستصعب على البشر فتراه يتكبر، فكيف يشافى المنهج القرآنى حاله الاستكبار؟بتذكير البشر بأنّ الملائكه و هم أفضل منه،و أقرب الى ربّهم،و أعظم قوّه و سلطانا،يتعبّدون اللّه وحده،و يقدّسونه من الشركاء الموهومين،و أنّ المقرّبين من عباد اللّه الصالحين الذين يحظون بقرب اللّه يسبّحونه،و أنّ طريق التعالى هو الخضوع،و أنه لا يتسامى البشر من دون كسر حاجز

الاستكبار فى نفسه.

فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا و أخذوا يشركون باللّه خلقه،و يسجدون للشمس و القمر،و يخضعون لزينه الحياه الدنيا،و يزعمون أنّ ذلك طريق الكمال،تكريسا للأنانيّه،و إبقاء للجهل و الجهاله،فليعلموا أنّهم لم يهتدوا الى سبيل التقرّب الى اللّه.

فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ من الملائكه و المقرّبين،و لعلّ هناك خلق غيرهما لا نعلمه،هؤلاء الذين لاحظوا بمقام القرب من اللّه حتى صاروا عنده،و يحتمل أن يشمل المقرّبين و هم أحياء فى الدنيا،لأنّهم عند ربّهم بأرواحهم و قلوبهم،و ليس لربنا مكان محدّد،فالقرب منه قرب معنوى.

يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ فآيات اللّه لا تستبدّ بمشاعرهم،بل تذكّرهم بعظمه ربّهم.أو ليس الليل يزول،و اللّه دائم لا يزال؟أو ليس النهار ينسلخ،و اللّه حيّ قيوم؟فهم ينظرون الى الجوانب السلبيه فى الخليقه فينزّهون بارئها منها،كما أنّهم ينظرون الى الجوانب الإيجابيه فيزدادون حبّا لربّهم و شوقا،و هذا المنهج فى النظر الى الليل و النهار يلهمهم المزيد من معرفه اللّه باختلاف الليل و النهار،فلا يتعبون من تسبيحه،لأنّ النظر الإيمانى يعطيهم الطاقه و النشاط فى كلّ ساعه.

وَ هُمْ لاٰ يَسْأَمُونَ ترى المؤمنين يستقبلون يومهم بمثل هذا الدعاء الذى يعكس بصيرتهم التى

ص:٢٣٧

ينظرون من خلالها الى ظواهر الخليقه،يقولون:

«اللهم يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلّجه،و سرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه،و أتقن صنع الفلك الدوّار فى مقادير تبرّجه،و شعشع ضياء الشمس بنور تأجّجه» (۱)فالطبيعه تجلّيات لأسماء اللّه،و النظر إليها يهديهم الى تلك الأسماء.

و يعكس دعاء الإمام الحسين عليه السلام فى يوم عرفه هذه المنهجيه فى تفكير أولياء اللّه حين يقول:

«الهى علمت باختلاف الآثار،و تنقّلات الأطوار،أنّ مرادك منّى أن تتعرّف إلىّ فى كلّ شىء،حتى لا أجهلك فى شىء » (۲)و إذا أشرق نور معرفه اللّه على قلب مؤمن انسحب منه ظلام الأغيار،فلا شىء و لا شخص يشارك الربّ فى القلب.

يقول الإمام الحسين عليه السلام فى ذات الدعاء :

«أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك و وحّدوك،و أنت الذى أزلت الأغيار عن قلوب أحبّائك حتى لم يحبّوا سواك،و لم يلجئوا الى غيرك،أنت المونس لهم حيث أوحشتهم العوالم،و أنت الذى هديتهم حيث استبانت لهم المعالم،ماذا وجد من فقدك،و ما الذى فقد من وجدك » (۳)

۱- ۱) فاتحه دعاء الصباح المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام فى مفاتيح الجنان.

۲- ۲) المصدر/ص(۲۷۲).

۳- ۳) المصدر/ص(۲۷۳).

و کلمه أخیره:

اختلفت المذاهب فی موضع السجده فی هذا السیاق بعد اتفاقهم علی وجوبها، و أنّها من العزائم،فقال فقهاء الشافعیه و المالکیه:تجب السجده عند قوله تعالی:

وَ هُمْ لاٰ یَسْأَمُونَ ،بینما قال الحنفیّه و الحنابله:إنّ موضع السجود الواجب عند قوله: تَعْبُدُونَ ،و ذهب الشیعه الی هذا الرأی تبعا لروایات أهل البیت علیه السلام .

و لا یجب ذکر مخصوص فی السجود،و لکن یستحبّ أن یقول ما

ذکر فی راویه «من لا یحضره الفقیه»قال:

و روی أنّه یقول فی سجده العزائم:

«لا إله إلاّ اللّه حقّا حقّا،لا إله إلاّ اللّه إیمانا و تصدیقا،لا إله إلاّ اللّه عبودیه و رقّا،سجدت لک یا ربّ تعبّدا و رقّا،لا مستنکفا و لا مستکبرا،بل أنا عبد ذلیل خائف مستجیر » (1)[۳۹]القرآن بصیره لا بصر،و رؤیه لا نظر.إنّه منهج تفکیر لمن یعقل،و هدی و عبره لمن یعی و یعتبر.إنّه یقول لک کیف تصبح متعلّما فی مدرسه الحیاه و فیها من معارف الرب،و معالم الحق،و مشاهد النفس ما یکفیک حکمه و علما.

و لو اتخذنا آیات القرآن بصیره للنظر الی ما حولنا لنطقت الطبیعه بألف درس و درس،و بأکثر من لغه،لغه العواطف و الأحاسیس،لغه العلم و الحکمه،لغه الضمیر و الوجدان،و فوق کل ذلک لغه الشهود و الإیمان.

أنظر الی الأرض.أو لا تری خشوعها لربّها،و کیف تتعطّش حبّات التراب

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)ص(۵۵۱).

للغيث،و كأنها تناجى ربّها طالبه إحياءها؟! وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خٰاشِعَةً لا مستكبره و لا متجبّره،و حقّ لها أن تخشع لربها الجبّار،و من دون خشوعها لا يمكن أن تنتفع ببركات ربّها،و كذلك القلب الخاشع يهبط عليه نور ربّه العظيم فيحييه بالمعرفه و الإيمان.

فَإِذٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْهَا الْمٰاءَ اهْتَزَّتْ و كذلك القلوب الطاهره تهتزّ لآيات ربّها.

وَ رَبَتْ لقد تنامى عليها الزرع و الورق و الثمر فإذا بالأرض قد علت عن مستواها الأوّل،و كذلك كلّ من تواضع للّه يعلو،و من يخشع يربو،و من تزكّى ينمو.

إِنَّ الَّذِى أَحْيٰاهٰا لَمُحْيِ الْمَوْتىٰ و هكذا بهذه البساطه يحلّ القرآن أعقد لغز حيّر البشر أو ليست العقول تقف على شاطئ الحياه متسائله:ما هى؟كيف وجدت؟و كيف تعود حين تذهب؟ بلى.إنّك إن سمحت لنظراتك أن تعبر حاجز الظاهر الى حقيقه السنن فإنّها تغور فى ألغاز الخليقه.

لا بد أن تلامس رافد الحقيقه عن كثب،أمّا إذا وقفت على الشاطئ باسطا كفّيك إليه ليبلغ فاك فلن يبلغه،خض البحر حتى تحظى بالجوهر،ألق الحجاب عن عينك ترى قدره اللّه تتجلّى فى البساط الأخضر الذى يفرشه الربيع-بإذن اللّه-

ص:۲۴۰

على الأرض من ملايين النباتات المفعمه بأسرار الحياه.

إنّ تنوّع النباتات،و سرعه التهاب الحياه فى جنباتها،و انسياب القدره من أطرافها،يهدينا كلّ ذلك الى أنّ إحياء الموتى على اللّه يسير،و البشر بدوره كنبته واحده بين ملايين النباتات.

بل يهدينا ذلك الى أنّ القدره الإلهيه لا تحد،لأنّ شدّ التنوّع،و كثافه الخلق، و عظمه التدبير،و سرعه التطوير،لا يدع كلّ ذلك مجالا للشك فى أنّ اللّه واسع القدره،و لا شىء يعجزه أبدا.

إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

جاء على بن فضّال إلى الإمام الرضا عليه السلام يسأله:لم خلق اللّه الخلق على أنواع شتّى،و لم يخلقه نوعا واحدا؟ فأجابه قائلا:

«لئلاّ يقع فى الأوهام أنّه عاجز،فلا تقع صوره فى وهم ملحد إلاّ و قد خلق اللّه عزّ و جلّ عليها خلقا،و لا يقول قائل:هل يقدر اللّه أن يخلق على صوره كذا و كذا،إلاّ وجد ذلك فى خلقه تبارك و تعالى،فيعلم بالنظر الى أنواع خلقه أنّه على كلّ شىء قدير » (۱)[۴۰]قلب البشر كالأرض،إذا خشع لربّه و استجاب لآيات اللّه أحياه اللّه بالإيمان أمّا إذا استكبر و لم يستجب لآيات اللّه كان كالصخره الصمّاء التى لا تهتز للغيث.

ص:۲۴۱

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)ص(۵۵۱).

و بما أنّ الخليقه تفيض بآيات اللّه فإنّ الكفّار يسعون جاهدين التخلص من آثارها على نفوسهم،فتراهم يلحدون فيها،و يحرّفونها عن مواضعها،و يبحثون لأنفسهم عن تبريرات لكى لا يؤمنوا بها،و لكن هل تنطلى تبريراتهم و خدعهم على ربّهم؟كيف و هو الذى خلقهم و أحاط بهم علما؟ إنّهم سوف يلقون فى نار جهنّم يوم القيامه،لقد فرّوا من مسئوليات الإيمان الى ظلّ الإلحاد(التبرير)زاعمين أنّه ينجيهم من العقاب،بينما النجاه كانت فى التسليم لآيات اللّه،و تقبّل مسئولياتهم.

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا جاءت هذه الآيه بعد ذكر الآيات،لأنّ كثره الآيات لا تنفع من يتهرّب من التأثّر بها،و قال فريق من المفسّرين:إنّ معنى الإلحاد هو ما كانوا يفعلونه من المكاء و التصديه،و كأنّهم نظروا الى ظاهر كلمه الإلحاد الذى يدلّ على الفعل المتعدّى الى الغير،و يعنى حرف الآخرين عن الإيمان كمن يحرّف آيات اللّه، و قالوا:إنّ الآيه نزلت فى أبى جهل،بينما ذهب مفسّرون آخرون أنّ المعنى:الذين يميلون عن آياتنا،و يبدو هذا المعنى أقرب الى السياق.

لاٰ يَخْفَوْنَ عَلَيْنٰا بالرغم من أنّ الملحد يتشبّث بالتمحّلات البعيده،و يحاول إخفاء رفضه للآيات بابتداع نظريّات و فلسفات و أفكار باطله و تخرّصات واهيه،إلا أنّ كلّ ذلك قد يخدع الناس،و قد يخدعهم أنفسهم،و لكنّه لا يخفى على اللّه،لأنّ اللّه محيط علما بنيّاتهم الخبيثه،و يجازيهم عليها بالنار.

أَ فَمَنْ يُلْقىٰ فِي النّٰارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيٰامَهِ

ميزه الإنسان عن سائر الأحياء تطلّعه الى مستقبل أفضل.ألاـ ترى كيف تبحث البشريه اليوم إلى التقدّم الحضارى؟لماذا؟لأنّهم يريدون أمن المستقبل، و لكنّهم يغفلون عن أعظم أمن لا بد أن يسعوا إليه،و هو أمنهم يوم القيامه،الذى لا يتوفّر إلاّ لمن ألقى السمع إلى آيات ربّه،و استجاب لها بخشوع.

و لأنّ الاستجابه لآيات اللّه تتمّ بوعى و شدّه عزم من قبل المؤمنين فإنّهم يأتون بأنفسهم الى ساحه المحشر آمنين،بينما الإلحاد يتمّ استسلاما للهوى فإنّ الملحدين يلقى بهم فى نار جهنّم إلقاء.

اِعْمَلُوا مٰا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لقد سمح اللّه لعباده بقدر محدود من الحريه فى الدنيا ليتحمّلوا مسئولياتهم كامله يوم القيامه،و لكنّه حذّرهم من مغبّه الإلحاد،و الالتواء،و التبرير،و خداع الذات،لأنّه بصير بما يعملون،فيعلم فعلهم،و لماذا يفعلون.

[۴۱]الكتاب الذى أنزله اللّه لعباده يعكس آياته المبثوثه فى الخليقه،فمن أعرض عنه فقد أعرض عن حظّه،لأنّ الكتاب ذكر يستثير ما نسيه البشر من حقائق هامه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمّٰا جٰاءَهُمْ إنّهم هم الملحدون فى آيات اللّه،و إنّ مصيرهم الدمار،لأنّهم أعرضوا عن كتاب مقتدر.

وَ إِنَّهُ لَكِتٰابٌ عَزِيزٌ و كيف لا يكون عزيزا و قد وعد ربّ العزّه أن يحفظه،و ينصر من ينصره،و إنّه

ليعكس سنن اللّه التى تنتقم ممّن خالفها بشده،

و قد أنبأ الرسول صلى الله عليه و آله عن عزّه الكتاب حيث قال عنه :

«من جعله أمامه قاده إلى الجنّه،و من جعله خلفه ساقه إلى النار » و قال المفسرون:إنّ خبر المبتدأ هنا محذوف لدلاله السياق،كما لو قلنا:إنّ من يعادى زيدا و إنّ زيدا لقوى،أى أنّه لا يفلح لأنّ من يعاديه قوى.

[۴۲]و عزّه القرآن تتجلّى أيضا فى أنّه حق،و الحقّ منتصر.

لاٰ يَأْتِيهِ اَلْبٰاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لاٰ مِنْ خَلْفِهِ فلا إخباره عمّا مضى يشوبه الباطل،و لا إنباؤه عمّا يأتى.إنّه كتاب العصور جميعا.أو ليس يبيّن محض السنن،و لباب الحقائق،و عبر القصص،و هى لا تختلف من عصر لعصر،كما

قال الإمام الرضا عليه السلام عنه :

«هو حبل اللّه المتين،و عروته الوثقى و طريقته المثلى،المؤدى الى الجنه، و المنجى من النار،لا يخلق على الأزمنه،و لا ينعت على الألسنه،لأنّه لم يجعل لزمان دون زمان،بل جعل دليل البرهان،و الحجه على كلّ إنسان » (۱)تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ اللّه الذى شهدت آفاق الخليقه بحكمته البالغه هو الذى نزّل الكتاب،فهو الناطق عن تلك الحكمه التى نراها فى خلقه سبحانه.

و هو الحميد الذى نشرت محامده على كلّ أفق مبين،لأنّ رحمته وسعت كلّ

۱- ۱) المصدر/ص(۵۵۴).

شیء،و قد بعث آخر الأنبیاء رحمه للعالمین،و أنزل معه کتاب رحمته.

[۴۳]إنّ طبیعه النفس البشریه واحده عبر التاریخ،و تبریرات الملحدین فی آیات اللّه و المعرضین عن ذکرهم الیوم هی ذاتها التی قالوها للرسل من قبل،کما أنّ سنه اللّه فی إمهالهم برحمته الی أجل ثم أخذهم إن لم یتوبوا بعقاب ألیم جاریه فیمن یأتی کما جرت فیمن مضی.

مَا یُقَالُ لَکَ إِلاَّ مَا قَدْ قِیلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِکَ فلا تحزن علیهم.إنّها عاده الملحدین الذین یعرضون عن الذکر،و یتقوّلون علی الرسل تبریرا لإلحادهم و إعراضهم.

إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَهٍ فعلی الرسول و من یتبعه أن یوسع صدره،و یتعامل مع خلق اللّه برفق.

وَ ذُو عِقَابٍ أَلِیمٍ فلو أعرضوا فإنّ لهم عذابا ألیما أعدّه اللّه لهم،فلا یستعجل الداعیه العذاب، و لا یحمل همّ إنکارهم.

[۴۴]القرآن ذکر،و قد توافرت فیه شروط الهدایه لو لا أنّهم أعرضوا عنه،و لو جعله اللّه أعجمیّا لبرّروا إعراضهم بأنّه غیر مفهوم،أو قالوا:کیف یتحدّث نبی عربیّ بقرآن أعجمی؟! وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِیًّا لَقَالُوا لَوْ لاَ فُصِّلَتْ آیَاتُهُ و یحتمل أن یکون المراد من الأعجمی الکتاب غیر المبین،کما لو کانت آیاته

کلّها فوق مستوى عقولهم فلم يستوعبوه،هنالك كانوا يطالبون بأن يكون واضحا قد بيّنت آياته.

و ينهرهم القرآن أنّ القضيه ليست فى أن يكون عربيّا أو أعجميّا،بل فى أن يكون القلب مستعدّا لتقبّله.

ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ و قال المفسرون:إنّ هذا الكلام تكميل لقوله« لَوْ لاٰ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ »،أى يكون الكتاب أعجميّا بينما الرسول عربى،أو يكون الكتاب مختلطا بين العربى و الأعجمى.

قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفٰاءٌ يهديهم الى الحق،و يشفى قلوبهم من أمراضها،أمّا المعرضون عنه فإنّهم لا ينتفعون بالكتاب.إنّ فى آذانهم وقرا من الأفكار الباطله،و المسبقات الذهنيه الخاطئه.

وَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ فِى آذٰانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى قالوا:معناه أنّهم محجوبون عنه حتى صاروا بالنسبه إليه كالأعمى،و لعلّ معناه أنّهم يزدادون به ضلالا و طغيانا كما قال ربّنا: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لاٰ يَزِيدُ الظّٰالِمِينَ إِلاّٰ خَسٰاراً .

أُولٰئِكَ يُنٰادَوْنَ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ ذلك أنّ المسافه واسعه بين القرآن و هداه و شفائه و قلوبهم المغلفه التى غلّفتها الشهوات و الكبر و الأحقاد.

ص:۲۴۶

[۴۵]و قصه الجحود طويله،فلقد أنزل اللّه التوراه على موسى فاختلف فيها الناس على الرغم من أنّها كانت هدى و نورا.

و أمهلهم اللّه حتى يمتحنهم،و لو لا أنّه قد قدّر امتحان البشر فى الدنيا لقضى بينهم،و أخذ الجاحدين أخذا شديدا،لأنّهم قد جاؤوا إفكا مبينا،و لا يزال البعض يشكّ فى التوراه شكّا مقلقا.

وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ فاختلافهم فى القرآن ليس دليلا على نقص فيه،حاشا للّه!إنّما هو بسبب وقر آذانهم،و عمى أبصارهم،و كما أنّ اللّه لم يعجّل على أولئك بالعذاب،بالرغم من عظيم إفكهم،كذلك لم يعجّل العذاب على هؤلاء.كلّ ذلك لأنّ اللّه قد قدّر الدنيا دارا للفتنه و البلاء.

وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ و نزل عليهم العذاب،و لكنّ اللّه قد سبقت كلمته أن يمهل الجاحدين الى أجل مسمّى فلا يغرّهم المهل،و لا يتّخذ البعض ذلك دليلا على أنّ اللّه لا يعزّ كتابه أو لا ينصر رسله.

وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ قالوا:المعنى أنّ العرب لا يزالون فى شك من القرآن،و قال البعض:بل اليهود لا يزالون فى شك من التوراه،و يبدو أنّ هذا أقرب الى السياق و الذى فيه تسليه للرسول ليتّسق المعنى،هكذا:لا يحزنك-يا رسول اللّه-شك قومك فى القرآن فبنوا إسرائيل لا يزالون فى شك من التوراه.

ص:۲۴۷

و قالوا:الریب هو أفظع الشک،فالمعنی-علی هذا-أنّهم فی شک فظیع.

و قالوا:الریب هو الشک المقرون بسوء الظن.

و یحتمل أن یکون معنی الریب هو الشک المفزع،فقد جاء فی اللغه:أراب خلافا أقلقه و أزعجه،

و فی حدیث فاطمه :«یریبنی ما یریبها » (۱).

و لعلّ الفارق بین الشک المریب و غیره:أنّ من یهتّم بأمر یشک فیه یریبه الشک و یزعجه،بینما الذی لا یهتم بأمر لا یزعجه الشک فیه.

۱- ۱) المعجم الوسیط/ج(۱)ص(۳۸۴).

[سوره فصلت (۴۱): الآيات ۴۶ الی ۵۴]

اشاره

مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَيْهٰا وَ مٰا رَبُّکَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ (۴۶) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ اَلسّٰاعَةِ وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ مِنْ أَكْمٰامِهٰا وَ
مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكٰائِی قٰالُوا آذَنّٰاکَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِيدٍ (۴۷) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَدْعُونَ
مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (۴۸) لاٰ يَسْأَمُ اَلْإِنْسٰانُ مِنْ دُعٰاءِ اَلْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ اَلشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (۴۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَةً مِنّٰا
مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِی وَ مٰا أَظُنُّ اَلسّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلىٰ رَبِّی إِنَّ لِی عِنْدَهُ لَلْحُسْنىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِمٰا
عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ (۵۰) وَ إِذٰا أَنْعَمْنٰا عَلَى اَلْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَأىٰ بِجٰانِبِهِ وَ إِذٰا مَسَّهُ اَلشَّرُّ فَذُو دُعٰاءٍ عَرِيضٍ (۵۱) قُلْ
أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِی شِقٰاقٍ بَعِيدٍ (۵۲) سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِی اَلْآفٰاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ اَلْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّکَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَیْءٍ شَهِيدٌ (۵۳) أَلاٰ إِنَّهُمْ فِی مِرْيَةٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ أَلاٰ إِنَّهُ بِكُلِّ شَیْءٍ مُحِيطٌ
(۵۴)

اللغه

۴۷[أكمامها]:أكمام جمع كم و هو الغلاف،يقال تكمّم الرجل بثوبه إذا تلفّف به.

[آذنّاک]:أعلمناك،و المعنى نعلمك و نعترف لك.

ص:۲۴۹

۵۱[نثا]:بعد بجانبه عن الاعتراف باللّه و شكره.

هدى من الآيات:

إنّ المنهج القرآنی يربط بين ما فی الطبيعه و ما فی النفس البشريه،و الآيه ما قبل الأخيره من هذه السوره تؤكّد هذه العلاقه الوثيقه،و كلّما ازداد الإنسان وعيا بآفاق الطبيعه ازداد معرفه بأعماق النفس، أو ليست النفس عالم كبير فی حجم محدود، و سواء اهتدى الإنسان الى غيب الطبيعه الذی هو الحق،أو اهتدى الى غيب النفس الذی هو الحق أيضا،فإنّه سيهتدی بإذن اللّه إلى خالق الطبيعه و النفس معا،و هو اللّه عزّ و جل.

و فی الدرس تذكره بالغه للإنسان بنفسه التی هی الأقرب إليه،و لكنّه يغفل عن آمادها التی لو انتبه إليها أحسّ بعمق العبوديه التی اركزت فيها.أو لا ترى كيف تجزع إنّ مسّها شیء من السوء،و تفقد توازنها إن أصابها شیء من الخير؟أو لا ترى حرصها على النعم الذی يمنعها من العطاء،و شده يأسها و قنوطها؟إنّ أطوار النفس و تغيّراتها شاهده على أنّها مخلوقه مدبّره،و تلك آيه من آيات اللّه فی الخليقه.

بينات من الآيات:

[۴۶] مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَ مَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ تبيّن الآيه المسؤوليه الإنسانيه:أنّ من عمل صالحا فإنّما لنفسه يعمل،و يلقى جزاءه الحسن وافيا،و أنّ من عمل سيئا فإنّما على نفسه،و يجد جزاءه كاملا.

و كلمه ظلاّم تدل على المبالغه فى الظلم،و ربّنا ليس فقط لا يظلم كثيرا عبيده،بل أيضا لا يظلمهم قليلا،إذا فلما ذا ينفى الربّ ظلمه بصيغه المبالغه فيقول:« وَ مَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ »؟ و سبب هذا التساؤل هو التشابه الذى سيحدث بنفى المبالغه،فلو قلت:فلان لا يأكل،فهذا يعنى أنّه لا يأكل كثيرا و لا قليلا،و أمّا لو قلت:و ما فلان بأكول، فهذا يعنى أنّه لا يأكل كثيرا،و لكنّه قد يأكل قليلا،فنفى المبالغه نفى للكثره فقط.

و الجواب-فيما يبدو لى-لو لم يربط ربّنا سبحانه بين عمل الإنسان و بين واقعه،بين سعيه و بين جزائه لكان ظلاّما،أو ليس من الظلم أن يصبح شخص رئيسا تهدى إليه خيرات الأرض و بركاتها،و يصبح و يمسى شخص آخر و هو لا يجد ما يقتاته؟!بلى.إنّه ظلم،بل ظلم كبير.

و أىّ ظلم أكبر من أن يدع اللّه سبحانه و تعالى الشعب الألمانى-مثلا-تحت أقدام هتلر،أو الشعب الروسى تحت سلطه عتاه الشيوعيه،أو الشعب العربى تحت عنجهيه الصهاينه و الطغاه؟!

ص:۲۵۲

و حيث نعرف أنّ اللّه الذى خلق السماوات و الأرض و ما فيهنّ و ما بينهنّ بالحكمه البالغه،و التقدير العادل الموزون،و وضع كل شيء موضعه المناسب، ليس بظلام،نعرف يقينا أنّ درجات الإنسان فى الدنيا و الآخره مقدّره حسب حكمه بالغه،ترتبط باختياره و سعيه،و إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ (۱)إِنَّ اللّهَ لا يَظْلِمُ النّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۲) فربّنا لم يسلّط هتلر على الشعب الألمانى أبداً،و لكنّهم هم الذين سوّدوه على أنفسهم،بجهالتهم و بتركهم مسئولياتهم،و هكذا بالنسبه لسائر الشعوب.

[۴۷]و هناك تساؤل آخر تجيب عنه الآيه التاليه،هو:إنّنا فى كثير من الأوقات لا نكتشف الأسباب فى حدوث الأشياء،فنقول مثلا:من الذى جعل الطغاه يحكمون البلاد؟!ما الذى أمرض و لماذا عوّق هذا و قتل فى حادث السياره ذاك؟! بلى.إنّك تجهل العلاقه بين حدوث الأمر الفظيع و بين الفعل،و لكنّ العلاقه قائمه،و اللّه سبحانه هو الذى قدّرها،و هو الذى يجريها.

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّاعَهِ متى تقوم قيامه هذا الكون؟!لا أحد يدرى،فهذا غيب غائر فى المجهول، و حتى الأنبياء لا يعلمون ذلك،فعند اللّه علم الساعه يقرّرها متى يشاء،و كيف يشاء،و قد تقوم غدا،أو بعد غد،و فى بعض النصوص:أنّ اللّه لم يقدّر للساعه وقتا،و إنّما جعل لنفسه فيها البداء.

۱- ۱) الرعد/(۱۱).

۲- ۲) يونس/(۴۴).

وَ مٰا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰاتٍ مِنْ أَكْمٰامِهٰا فهو المحيط علما بما فى أكمام الثمرات من فواكه.

قف على شجره قبل ان تظهر ثمراتها،إنّك سترى زهورا كثيره،و لكن كم تحمل من ثمره؟و كم زهره منها ستسقط و تتلاشى؟و كم ثمره ستسقط قبل النضوج؟و كم ثمره ستواصل الرحله الى الأخير؟إنّك لا تعلم،و لا أحد يعلم، و يبقى اللّه هو العالم بخفايا الأمور،و خبايا الطبيعه،ممّا يشكل رزق البشر الأساسى.أمّا عن أبنائه فاللّه هو المحيط علما بهم.

وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ هل تحمل هذه الأنثى أم لا،و ماذا تحمل؟أنثى أم ذكر؟و هل يولد حمله سويّا،و ما هى انعكاسات الطبيعه على جسده و نفسه؟كل ذلك يردّ علمه الى اللّه.

إنّ الآيه السابقه بيّنت مسئوليه البشر عن أفعاله،و أنّ اللّه ليس بظلاّم لعبيده، و قد جاءت هذه الآيه لتأكيد المسؤوليه،أوّلا:بأنّ اللّه محيط علما بواقع البشر، فإليه يردّ علم الساعه عند ما يقوم للحساب،و هو عالم برزقه،و عالم بأبنائه،ثانيا:

بنفى الشركاء الذين يزعم البشر أنّ التوسّل بهم يبعده عن عذاب ربّه،فيؤكد القرآن أنّ الإنسان يضحى يوم القيامه متبرّأ من الشركاء لأنّهم لم يغنوا عنه شيئا.

وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكٰائِي قٰالُوا آذَنّٰاكَ مٰا مِنّٰا مِنْ شَهِيدٍ يقول لهم اللّه:أين الشركاء الذين كنتم تزعمون؟فيعلنون له إعلانا:و اللّه لا ندرى أين الشركاء،و لا ندرى أين ولّوا.

[۴۸] وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ

عرفوا أنّه ليس للشركاء المزعومين دخل فى الأمر.

وَ ظَنُّوا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ المحيص هى تلك الحفره الصغيره التى يحفرها الطير-كالقطا مثلا- بجوئجئته أى بصدره فى الأرض،و هؤلاء المشركون يظنّون أى يعلمون يقينا أنّهم لا يقدرون على التزحزح عن مسئولياتهم و لا بهذا المقدار،و لعل الظن بمعنى التصوّر،و هو هنا يقع معنى تجسّد الحقيقه أمام أعينهم.

[۴۹]فى أعماق نفس البشر آيات باهره تهديه الى ربه،و لو تدبّر الإنسان فى ذاته،و كيف تطرأ عليه الحالات المختلفه من طمع لا يحد،و يأس لا يوصف، لعرف حاجته الى الخالق،و أنّه قد أركس فى العجز و الفقر و المسكنه إركاسا.

إنّ البشر حين ينازع ربه رداء كبريائه يحتجب عن نور اللّه،لأنّه قد جهل نفسه،و لم يعرف آماد عجزها و ضعفها،و شده فقرها و فاقتها،أمّا حين يتصوّر حالاته المختلفه يعرف نفسه،و من ثمّ يعرف ربه.

و ربنا يرينا آياته فى أنفسنا فيقول:

لاٰ يَسْأَمُ الْإِنْسٰانُ مِنْ دُعٰاءِ الْخَيْرِ إنّه عميق الإحساس بالحاجه الى الخير من الغنى و العافيه و الأولاد،و سواء دعا ربّه أم دعا الشركاء فهو محتاج،و المحتاج فقير ذليل عاجز،و هو بالتالى ليس بإله و لا نصف إله.إنّه محض.عبد،صفر اليدين.إنّه يتوب الى ربه الغنى،و يعلم بفطرته أنّه غناه،و التقرّب اليه مناه حقّا،و أنّه قد ضلّ الطريق،و أنّ حرصه على الدنيا لا يشبع طموحه،و لا يشفى غليله،إنّما الأوبه الى ربه غايه تطلّعه،و نهايه

منيته.

يقول الإمام السجّاد عليه السلام و هو يناجى ربه :

«إليـک شوقى،و فى محبتـک ولهى،و إلى هواک صـبابتى،و رضـاک بغيتى، و رؤيتـک حـاجتى،و جوارک طلبى،و قربک غايه سؤلى،و فى مناجاتـک روحى و راحـتى،و عنـدک دواء علـتى،و شـفاء غلـتى،و برد لوعـتى،و کشف کربـتى(الى أن يقول:)و لا تبعـدنى عنک،يا نعيمى و جنتى،و يا دنياى و آخرتى » (۱)و هذه النفس الواسـعه التى تتطلّع الى امتلاک الدنيا و تزيد قد تضـيق بها الآفاق حتى يطبق عليها اليأس من أطرافها.أو ليس ذلک دليلا على فقر البشر،و شدّه حاجته،و سفاهه تكبّره على ربه.

وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ و لعـلّ اليـأس هو قطع الأمـل قلبيّا،بينمـا القنوط هو التوقّف عن السـعى بسـبب اليأس،و الكلمتان مثل لفظتى الليل و النهار إذا اجتمعتا تفرّقتا،و إن تفرّقتا اجتمعتا،فلو استخدمنا لفظه اليأس فقط أعطت معنى القنوط،و هكذا العكس، و لكن حينما نستخدمهما فإنّ لكل واحده منهما معنى.

و قال البعض:يئوس شده اليأس من الخير،و قنوط من الرحمه،و قال:اليؤوس من إجابه الدعاء،قنوط يسىء الظن بربه. ۲

[۵۰]و من تسوّلات النفس فى الهروب من المسؤوليه و الإعراض عن آيات اللّه هو الغرور بالنعم،ممّا يعالجه القرآن هنا..

۱- ۱،۲) مناجات المريدين /مفاتيح الجنان ص(۱۲۴).

وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ رَحْمَةً مِنّٰا مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذٰا لِي وَ مٰا أَظُنُّ السّٰاعَةَ قٰائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنىٰ من عـاده المخرجين للأفلام و مؤلفى الروايـات تصوير أبطـالهم فى حالات نفسـيه متناقضه،فيصوّرون مثلا:أحـد المجرمين فى لحظه جريمته،يعيش قمه الغرور،فيقع فجأه فى الفخ،أو يصوّرون:أحد المغرورين يتصوّر أنه يمتلك الشمس بيمينه و القمر بيساره،و إذا به يبصر،يرى شرطيّا أمامه فيصبح كالخرقه الباليه.

و هـذا التصوير يساعـد فى كشف خبايا النفس،و أبعاد الخـداع الـذاتى الذى يعيشه الإنسان،و إنّما يكتشف عبر الظروف المتغيّره التى يعيشها.

و القرآن-هنا-يصوّر لنا الحاله النفسـيه الأولى التى يعيشـها المفتون،حيث يتـذوّق رحمه الرب و نعمته بعد أن عاش ظرفا صـعبا،و ضيقا و شـده،و تعبيرا عن فرحته يبادر قائلا:«هـذا لى»كالطفل الـذى يشترى له والـده لعبه جديده،فيذهب مسـرعا الى أترابه قائلا:(عنـدى لعبه جديـده،هـذه لى،...)مأخوذا بنشوه الغرور،و هـذا ما تفعله جـده النعم بصاحبها،فهى هاويه يجب الحذر من السـقوط فيها،تسبب فى تغيّر حاله الإنسان النفسيه،و لهذا

كان الإمام الصادق عليه السلام ينبّه داود الرقىّ قائلا :

«يـا داود!لاـن تـدخل يـدك فى فم التّنين الى المرفق خير لک من طلب الحوائـج ممن لم يكن فكان » (1)ثم إنّ ذلک المغرور المفتون لا يقتصر على الزهو و الفخر الذى يغمره،بل و يتصوّر

١- ١) الإختصاص/ص(٢٣٢).

الحياه متلخّصه فی تلک اللحظه التی یعیشها،و فی ذلک المکان الذی یتنعّم فیه،ثم بعد ذلک یخطر علی باله أن لو کانت هناک ساعه و جزاؤه کان له عند ربه الحسنی، أو لیس اللّه قد أنعم علیه فی الدنیا،فهو لا بد أن ینعم علیه فی الآخره! و هکذا یزعم السلاطین و الأغنیاء و الرأسمالیون،إنّهم یتصوّرون أنّ اللّه إنّما فتح علیهم أبواب النعم الدنیا لحبّه إیاهم،أو لأنّهم عباده الذین اختارهم(و هذه هی العنصریه)فی حین أنّ اللّه إنّما أعطاهم تلک النعم لیمتحنهم،و یبلوهم أیّهم أحسن عملاً،أو حتی یستدرجهم،کما قال سبحانه: وَ لاٰ یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ خَیْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِینٌ (۱)فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِمٰا عَمِلُوا و أمّا ربّنا سبحانه فلا یحاسب الناس علی أساس فقرهم و غناهم،و کبرهم و صغرهم،و إنّما علی أساس کفرهم أو إیمانهم،کفرانهم أو شکرهم،و بالتالی أعمالهم،إن خیرا فخیر و إن شرّا فشر.

وَ لَنُذِیقَنَّهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِیظٍ و سوف یکون العذاب غلیظا بقدر التأثیرات السلبیه للنعمه فی نفسه و آثار تلک السیئه علی سلوکه.

[۵۱]تقدّم أطور نفس الإنسان دلیلاً وجدانیّا علی عجزه و حاجته الی الخالق و الی الرساله التی تربّیه و تزکّیه،و لو عاد الإنسان الی حرم نفسه لشاهد فیها من آیات اللّه ما یراها فی آفاق السماء و الأرض.و من تلک الأطوار مدی تأثّره بحاله الغنی و الفقر،و العافیه و المرض.

۱- ۱) آل عمران(۱۷۸).

وَ إِذٰا أَنْعَمْنٰا عَلَى الْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَأىٰ بِجٰانِبِهِ إنّه فى حاله الرخاء و النعمه يعرض عن ذكر اللّه،و يتجنّب الداعين الى اللّه، بجعل جانبه مواجها لهم،ثم يتولّى عنهم.

وَ إِذٰا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعٰاءٍ عَرِيضٍ و أمّا إذا أصابه شرّ فإنّه يعتكف فى المسجد ليبدأ مرحله التبتّل و الدعاء،و هذا التوجّه الى الدعاء العريض من بعد ذلك الإعراض دليل ضعفه عن مواجهه المشاكل،و معرفته بأنّ اللّه هو المتفضّل بالنعمه عليه،و لكنّه لضيق نفسه و محدوديه استيعابه تاه فى غرور النعمه،و فقد سيطرته عليها،و جعلها حجابا بينه و بين اللّه.

و هذا الإنسان الذى تتحدّث الآيه عنه قد يكون هو أنا و أنت و نحن،لذلك لا بد أن نعى و ننتبه،لا بد أن نعقل و نحذر.

[۵۲]بعد أن ألقى السياق الضوء على مدى العجز و الفاقه و المسكنه التى أركست فيها نفس الإنسان حتى تراها تتأثّر حتى التطرّف بالمؤثّرات الخارجيه، ممّا يهديه على سفاهه الكبر و يحسّسه بضروره العوده الى فطرته فى التسليم لربها، بعدئذ أخذ يذكّره بضروره أخذ الحيطه لنفسه،و قال:

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقٰاقٍ بَعِيدٍ أى لو كان القرآن حقّا ثم كفرتم به،و لم تقوموا بالاحتياط الكافى لأنفسكم، فإنّكم سوف تصبحون فى ضلال بعيد عن جادّه الحق.

إنّ الإنسان يبحث فطريّا عن الأمن،و لو لا الكبر الذى انطوت نفسه عليه

و الغرور و الحجب لاستمع الی إنذار الرسل،و قال فی نفسه:لو کان هذا الإنذار صحیحا لوجب أخذ الحیطه لنفسی بالاستماع الی شواهد المنذرین و آیات اللّه التی تتجلّی علی أیدیهم،و لو فعل ذلک و ألقی السمع من دون وقر الکبر و العجب اهتدی الی الحق.

ثم إنّ عقل الإنسان یهدیه بضروره أخذ الحیطه حتی بمجرد افتراض صحه ما یقوله الرسل،

بهذا ذکّر الإمام الصادق علیه السلام أحد الملحدین الذی طال جداله فی الدین،فبعد أن رأی عبد الکریم ابن أبی العوجاء الامام فی الحج،و طلب منه العوده الی النقاش،رفض الإمام قائلا:لا جدال فی الحج،ثم قال له:

«إن یکن الأمر کما تقول-و لیس کما تقول-نجونا و نجوت،و إن کان الأمر کما نقول-و هو کما نقول-نجونا و هلکت » و هبطت کلمه الإمام کالصاعقه علی قلبه،فقال لمن حوله:وجدت فی قلبی حزازه،فردّونی،فردوه،فمات (۱).

[۵۳]و أمّا الطریق الی الحقیقه فهو بدیع الخلق و حقائق النفس.

لقد حملنا السیاق القرآنی و منذ فاتحه السوره الی آفاق السموات و الأرض، و أرانا آیات اللّه فیها،من بدیع الصنع،و عظیم الخلق،و لطیف التدبیر،و حسن التقدیر،ثم ذکّرنا بأعماق النفس التی لو خضنا غمارها لرجعت النفس تائبه الی فطره العبودیه.أ رأیت جزعها حین یمسّها سوء؟هل وجدت یأسها و قنوطها بعد حرصها و طمعها؟إذا لم تکن هذه شواهد العبودیه فما هی إذا شواهدها؟! لقد أشار القرآن الی بعض هذه الشواهد التی یجدها کلّ واحد منّا فی نفسه

۱- ۱) تفسیر نمونه/ج(۲۰)ص(۳۲۶)نقلا عن الکافی/ج(۱)ص(۶۱).

وجدانا،ثم قال مشيرا إليها و الى آياته فى الآفاق التى ذكرت من قبل:

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ و من هذه الآيه نستوحى بأنّ اللّه سبحانه يتجلّى للإنسان فى آفاق الخلق حينا و حقائق النفس حينا بالرغم من الحجب السميكه التى يغلف بها قلبه،و لو فى لحظه من لحظات عمره،لكى تتمّ الحجه عليه،و حتى أئمه الكفر و الطغيان و الفساد فى الأرض يتمّ اللّه حجته عليهم،و يبيّن لهم الحق بشكل لا يسعهم الإنكار،فإذا كفروا بعد ذلك أخذهم بعذاب بئيس،إذ أنّ كفرهم ليس عن غفله،إنّما عن جحود.

أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ فاللّه سبحانه و تعالى لا يحتاج الى شهاده شيء،بل هو الشاهد على كلّ شيء.

فبنوره أشرقت السموات و الأرض،و بضيائه عرف الخلائق أنفسهم،و بذاته دلّ من يشاء على ذاته،سبحانك يا رب:

«كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟!أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك،حتى يكون هو المظهر لك؟متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدلّ عليك؟!و متى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟!اعميت عين لا تراك عليها رقيبا» (۱)[۵۴]و لكنّ العمى فى الكفّار هو الذى يجعلهم لا يرون اللّه عزّ و جل،و سبب

۱- ۱) من دعاء الإمام الحسين عليه السلام فى يوم عرفه،مفاتيح الجنان/ص(۲۷۲).

العمی هو الکفر بالبعث،و نکران النشور.

إنّ الریب فی یوم الآخره و بالتالی فی المسؤولیه یبرّر للنفس التهاون،و إذا استبدّ بها التهاون لم یهتم بالحق،و لم یستمع الی داعیه،و لم ینتفع بآیات اللّه التی تتجلّی فی الآفاق و الأنفس.

أَلاٰ إِنَّهُمْ فِی مِرْیَهٍ مِنْ لِقٰاءِ رَبِّهِمْ أَلاٰ إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطٌ إنّهم یشکّون فی یوم القیامه و ساعه الحساب،بینما الربّ یحیط بهم إحاطه کامله،و سوف لا یفلتون من قبضته،لأنّه لا منجی منه إلاّ إلیه،و لا مهرب من سطواته.

ص:۲۶۲

سوره الشّوری

اشاره

ص:۲۶۳

بسم اللّه الرحمن الرحيم

فضل السوره:

روى عن أبى عبد اللّه(الإمام الصادق عليه السلام)أنّه قال :

«من قرأ(حم عسق)بعثه اللّه يوم القيامه وجهه كالثلج أو كالشمس حتى يقف بين يدى اللّه عزّ و جل،فيقول:عبدى أدمنت قراءه(حم عسق)و لم تدر ما ثوابها،أما لو دريت ما هى و ما ثوابها لما مللت قراءتها،و لكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنّه،و له فيها قصر من ياقوته حمراء أبوابها و شرفها و درجها منها،يرى ظاهرها من باطنها،و باطنها من ظاهرها،و ألف غلام من الغلمان المخلّدين الذين وصفهم اللّه عزّ و جل» (1)

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)ص(۵۵۹).

الإطار العام

فی الوقت الـذی تختصّ کلّ سوره فی القرآن بمحور یفردها عن بقیه السور فإنّها کلّها تلتقی حول محور مشترک واحـد،لـذلک فإنّ من الصـعب علی المتـدبّر أن یمیّز بینها،لأنّها جمیعا تنطلق من قاعـده واحـده لتنتهی إلی هـدف واحد،تنطلق من معرفه اللّه،و تنتهی إلی الإیمـان به و عبـادته،فآیاتها متشابهه کما یصف القرآن نفسه بـذلک،إلاّ أنّ المتـدبّر یجـد لکلّ سوره محورا یتمیّز بما یلی:

أوّلا:إنّ کلّ القضایا المتعلقه واقعیّا بـذلک المحور تکون مبحوثه فی السوره، بالرغم من أنّها-و بالـذات فی السور الطویله-تبـدو مختلفه أو حتی متبـاینه إلاّ أنّها ما دامت تمتّ بـذلک المحور تبحث فی السوره،لأنّ المعالجه القرآنیه للمحاور هی معالجه شامله تسع جمیع جوانب القضیه.

ثانیا:إنّ القرآن لا یعالـج القضایا معالجه نظریه،بل یودع ضـمن آیاته الکریمه القوه التنفیـذیه اللازمه لعلاجها،فهو لا یکتفی ببیان القانون العلمی أو الحکم الشرعی للقضیه مجرّدا،بل یشفعه بتوجیه الإنسان و تذکرته،مستخدما من أجل

ذلـك شتّی الوسائـل،و من أبرزها التـذكره باللّه و بالآخره،و إثاره العقل، و الترهيب،و الترغيب،و حتّی التصوير الفنی،التی تـدعو قارئ القرآن الی تطبيق أوامره و تعاليمه.

و نجـد محور هذه السوره معالجه الخلافات البشـريه..لماذا يختلف الناس؟و ما هی حدود الاختلافات الطبيعيه بين البشـر؟و ما هو جـذور الخلافـ؟ثم مـا هو علاـج الخلاـف؟ و إنّمـا سـمّيت هـذه السوره بـالشوری،لأـنّ الشوری تعتبر بعـد الوحی أفضل علاج للاختلاف.

و القرآن لاـ يبـدأ السـوره بالحـديث عن الشوری،بـل يبـدأها بالحـديث عن الوحی، لأـنّ الوحی هو محور المجتمع الإسـلامی،و أساس وحدته،ذلک لأنّ أیّ مجتمع يقوم علی أساسين:

الأوّل:وجود شريعه،أو كتاب،أو منهج متكامل،و فی أمتنا الإسلاميه يجسّد القرآن هذا الأساس.

الثانی:وجود القياده الصالحه التی تحدّد معانی الكتاب،و تستنبط الأحكام منه،و ترسم المنهج السليم للحياه به.

و هـذا ما يفسّـِر ابتـداء السوره بـذكر القرآن و انتهائها الی ذكر الرسول،و بين هـذا المبتدأ و ذلک المنتهی تبصّـِرنا آياته بلطائف القيم المباركه فی الوحده،و فيما يلی نستوحی تفصيلا لهذا الموجز:

فاتحه السوره تذكّرنا بالوحی الذی يلقيه اللّه العزيز الحكيم مليک السموات

و الأرض العلیّ العظیم،و کفی بالوحی عظمه أنّ السموات و الأرض یکدن یتفطّرن من فوقهنّ(من عظمه ربّهن أو من کلماته).أمّا الملائکه فهم یسبّحون بحمد ربّهم،و یشفقون علی من فی الأرض(بالذات المؤمنین منهم)فیستغفرون لهم (لأنّهم یرون جانبا من عظمه ربّهم)و اللّه غفور رحیم(٧/١).

و هذه الفاتحه تنسجم مع خاتمه السوره التی تبیّن صفات الوحی حیث لا یتلقّاه البشر إلاّ إلهاما أو من وراء حجاب أو عبر رسول من عند اللّه،و أنّه قد هبط الی الرسول الروح و من قبل لم یکن النبیّ یدری ما الکتاب و لا الإیمان،أمّا الیوم فعنده نور یهدی به اللّه من یشاء الی صراط مستقیم،و هو صراط اللّه الذی إلیه ترجع الأمور (٥٣/٥١).

و بین هذه الفاتحه و تلک الخاتمه اللتین تتحدّثان عن محور المجتمع الإسلامی و صبغته الأساسیه و هو الوحی تجری آیات الذکر فی تبیین أسس الوحده فی الأمّه،بل و یرسی هذه الأسس ببصائره و نذره و بشائره.

کیف؟ ألف:تقسّم الآیه(٨)الناس فریقین:من هداه و أدخله فی رحمته،و الظالمین الذین ما لهم من ولیّ و لا نصیر.

و بعد أن یحدّد الصفه الرئیسیه للظالمین و هی الشرک باللّه(و الذی یعتبر جذر کلّ فساد)یثبت مبدأ التحاکم الی اللّه فی الاختلاف(و بالذات الی وحی اللّه و من نزل علیه الوحی أو استوعبه)و الإنابه إلیه،و التوکّل علیه(١٠/٩).

باء:و یذکّرنا السیاق-بعدئذ-بأنّ اللّه الذی فطر السموات و الأرض خلق الناس و الأحیاء أزواجا لیکون نسل الناس بذلک(فالاختلاف حقیقه واقعه،و هو فی

حدود التكامل مفيد).

كما أنّه سبحانه بسط الرزق بين الناس بقدر ما يشاء حسب حكمته(فلا يجوز أن نسعى للتساوى المطلق بينهم)(١٢/١١).

جيم:و الـدّين محـور الوحـده،و لكن بشـرط ألاّ تتفرّق فيه،و هـذه وصـيه النـبيّين أولى العزم نوح و محمـد و إبراهيم و موسـى و عيسى(عليهم السّلام).أمّا سبب الاختلاف فليس هو الدّين بل أهواؤهم التى تنزع نحو البغى(و ما أعظم جريمه تنزل نقمه الرب لو لا أنّه أخّرها الى أجل مسـمّى)و يبقى الرسول(و من بعده خلفاؤه) محورا للوحده،و عليه أن يسـتقيم على الحق بعيدا عن أهوائهم المختلفه،مؤمنا بكلّ الكتب،و عادلا فى الحكم بينهم،(و ألاّ يكرههم بل يلزمهم بما ألزموا أنفسهم به) (١٥/١٣).

دال: اَلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ (و يرفضون أحكامه)من بعـد ما اسـتجاب المؤمنون له(و أقاموا المجتمع المسـلم)فإنّ حجّتهم داحضه،و عليهم غضب من اللّه، و لهم عـذاب شديـد(و تطالهم العقوبات إذ رفضوا أحكام اللّه)أو ليس قـد رفضوا الكتاب الذى أنزله اللّه،و الميزان الـذى جعله سبيلا للعـداله(و هو الإمام أو أحكام القضاء أو قيم العقل أو هى جميعا)؟ و بعـد أن يحذّرهم اللّه الساعه التى يشـفق منها المؤمنون،و يقول:بأنّ الشاكّين فيها فى ضـلال مبين يـذكر بأنّ اللّه هو الرزّاق(و أنّ مخالفه الحق لا تجلب رزقـا)و أنّ من يترك الحرام من الـدنيا(و لا يثير الصـراع من أجـل لقمه الحرام)يعوّضه اللّه فى الآخره كما يرزقه فى الـدنيا،بينما الآخر لا نصيب له فى الآخره(و ربما يفقد الدنيا أيضا).

و هكذا عالج السياق جذرا أساسيا للخلاف الاجتماعى(٢٠/١٦).

ص:٢٧٠

هاء:(و لأنّ من الناس من يشرّع بأهوائه،و هو يسبّب الاختلاف الكبير)أنذر اللّه أولئك الذين اتخذوا من دون اللّه شركاء يزعمون أنّهم يشرّعون من الدّين ما لم يأذن به اللّه(و يسنّون القوانين الوضعيّه)بأنّه لو لا كلمه الفصل لقضى بينهم،و أنّ لهم بالتالى عذابا أليما يوم القيامه، حيث ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا دون أن تجديهم الشفقه نفعا،لأنّه واقع بهم،بينما ترى المؤمنين فى روضات الجنّات.

واو:و يرسم القرآن الخط المستقيم فى الأمّه بالأمر الناجز بمودّه أولى القربى التى هى الحسنه الكبرى(لأنّ بمودّتهم يتكرّس الخط القياديّ السليم).

(و لأنّ القضيه القياديّه أهمّ قضيه و أكثر قضيه إثاره للخلاف)اتهموا الرسول بالافتراء فى الوحى،و أدحض اللّه فريتهم بأنّ اللّه لو شاء لختم على قلب الرسول، و أنّه يمحو الباطل،و يحقّ الحق بكلماته..و بيّن أنّه سبحانه يقبل التوبه عن عباده (لأنّ الانحراف عن الخطّ القيادى كثيرا ما يقع فلو لا قبول التوبه هلك خلق كثير).

و بيّن السياق أخيرا بأنّ الذين آمنوا يستجيبون(لهذا الأمر)بينما الكفّار (الذين لا يستجيبون)لهم عذاب شديد(۲۶/۲۱).

زاء:(و لأنّ حبّ الدنيا و التكاثر من متعها يعدّ أحد الجذور الرئيسيه للاختلاف-بعد الاختلاف الطبيعى المشروع،و التفرّق فى الدين،و التشريع بغير إذن اللّه-فقد عالجته عدّه آيات بيّنت حكمه تحديد الرزق،فلو بسط اللّه الرزق بسطا لبغى الناس فى الأرض فقدره تقديرا حكيما يتناسب و مقدره الناس على الإستيعاب،و الرزق بيد اللّه(و لا يجوز الاختلاف عليه)فهو الذى ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا(و من أسباب التقتير فى الرزق الذنوب).

و ما أصاب الناس من مصيبه فبما كسبت أيديهم (و لعلّ من الذنوب

الاختلاف الذی یمنع الرزق)و إذا قدّر اللّه العذاب لأمّه لا یقدر أحد علی دفعه عنها.

(و مظهر آخر لرزق اللّه الریاح التی تنقل سفن التجاره)فهذه الجوار فی البحر کأنّهنّ الجبال إن یشأ اللّه یسکن الریح فیظللنّ رواکد أو یهلکهنّ بذنوبهم..کلّ ذلک لیعلم الذین یجادلون فی آیات اللّه(و ینکرون هیمنه اللّه أو عذابه)أنّه لا مفرّ لهم من عذابه.

و بعد کلّ ذلک،ما هی الدنیا؟!إنّ هی إلاّ متاع إذا قیست بما عند اللّه للمؤمنین فی الآخره الذی هو أفضل و أدوم(۳۶/۲۷).

حاء:(و فی هذا المنعطف یبلغ السیاق المحور الأساسی فی السوره المتمثّل فیما یبدو فی الشوری التی تکثّف التجارب البشریه،و یبیّنه القرآن ضمن صفات مختلفه للمؤمنین) اَلَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبٰائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوٰاحِشَ ،و یغفرون حین الغضب،و قد استجابوا لربّهم(بالتسلیم للقیاده الشرعیّه) وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰهَ،وَ أَمْرُهُمْ شُوریٰ بَیْنَهُمْ (یتبادلون بها خبراتهم)و مما رزقناهم ینفقون.

طاء:(تلک کانت طائفه من صفات المؤمنین تتعلّق بعلاقاتهم بینهم،و هناک طائفه أخری منها تتصل بمواقفهم من أعدائهم)فهم الذین إذا أصابهم البغی هم ینتصرون(و لا یخضعون للبغاه بل یحاربونهم)و لکنّهم لا یعتدون علی الناس بل جزاء سیئه سیئه مثلها عندهم.

(و یبیّن القرآن هنا فضیله التعافی عند ما لا یکون مضرّا،و یدحض اتهام مرضی القلوب و السلطات لمن ینتصر للحق بأنّهم مسئولون عن ویلات الحرب،و یقول:) لا سبیل علی من ینتصر بعد ما یظلم،إنّما السبیل علی الظالم.

ثم يأمر بالصبر و الغفر،و يقول بأنّه من عزم الأمور(الذى يستدعى عزيمه شديده)و يسوق الحديث فى عاقبه الظلم،و أوّلها:الضلاله،و يقول:و من يضلل اللّه فماله من ولى(و الثانيه:العذاب الشديد حيث)يقول الظالمون لمّا رأوا العذاب هل نستطيع أن نعود الى الدنيا(لنعمل صالحا)هنالك تراهم خاشعين من الذّل حين يعرضون على النار،و قد خسروا أنفسهم و أهليهم،و ليس لهم(من الذين أضلّوهم) أولياء ينصرونهم(۴۶/۳۸).

ياء:و فى خاتمه السوره يأمرنا القرآن مره أخرى بالمبادره بالاستجابه للّه (و التسليم للقياده)من قبل يوم القيامه حيث لا مردّ له من اللّه و لا ملجأ يومئذ و لا من ينكر.

و يبيّن أنّ مسئوليه البحث عن الإمام الحق تقع على عاتق الإنسان نفسه،و أنّهم إن أعرضوا فما أرسل اللّه نبيّه عليهم حفيظا إنّ عليه إلاّ البلاغ.

(ثم يبيّن مدى ضعف البشر و حاجته الى هدى ربّه و القياده الربّانيه،و يقول) إنّا إذا أذقنا الإنسان رحمه فرح بها(و خرج عن طوره،و أصابه الغرور)و إن تصبهم سيئه بذنوبهم يكفرون بنعمه اللّه،و إنّ للّه ملك السموات و الأرض(و هو الذى يهب أو يمنع حسب حكمته)فيرزق من يشاء ذكورا و من يشاء إناثا أو يهب الذكور و الإناث معا بينما يجعل البعض عقيما.إنّه عليم قدير.

ثم ينهى القرآن السوره بالحديث عن الوحى كما افتتح به.أو ليس الوحى أساس وجود الأمّه؟

سوره الشّوری

[سوره الشوری (۴۲): الآيات ۱ الی ۷]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . حم (۱) عسق (۲) كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اَللّٰهُ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۳) لَهُ مٰا فِي
اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْعَظِيمُ (۴) تَكٰادُ اَلسَّمٰاوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ
يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي اَلْأَرْضِ أَلاٰ إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (۵) وَ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ اَللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِوَكِيلٍ (۶) وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ اَلْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ تُنْذِرَ يَوْمَ اَلْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي اَلْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ
فِي اَلسَّعِيرِ (۷)

اللغه

۵[يتفطّرن]:يتشقّقن.

۷[أمّ القری]:مكّه.

ص:۲۷۵

وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا

هدی من الآیات:

تفتتح سوره الشوری-التی تنظّم العلاقه بین المسلمین لکی لا یخوضوا فی صراعات داخلیه عقیمه-بذکر القرآن الذی هو مرجع کلّ خلاف،فهو الوحی الذی یکمل الرسالات التی أوحی بها اللّه العزیز الحکیم(بعزته عزّه الوحی،و من حکمته أنّه الحق المبین).

إنّه المالک لما فی السموات و ما فی الأرض(فله الحاکمیه التی تتجلّی فی حاکمیه رسالاته و رسله)،و هو العلیّ العظیم،(و من آیات مجده،و شواهد عظمته)أنّ السموات تکاد تتفطّر من فوقهنّ.أمّا الملائکه(فهم لا یشارکونه فی الألوهیه بل) یسبّحون بحمده(أن یکون له شریک)و تراهم یستغفرون لمن فی الأرض(و بالذات المؤمنین منهم،دون أن یقدروا علی دفع الضر عنهم،بلی.استغفارهم ینفع الناس) فاللّه هو الغفور الرحیم.

أمّا الذين اتخذوا من دونه أولياء(و يحسبون أنّهم ينقذونهم من مسئوليه أعمالهم فهم فى ضلال مبين إذ)أنّ اللّه حفيظ عليهم(فهو يحفظ عليهم أعمالهم)و ما أنت عليهم بوكيل(فهم وحدهم يتحمّلون مسئوليه أعمالهم و ما عليك سوى إبلاغهم الرساله و إنذارهم بها).

و هكذا أوحى اللّه إليك القرآن العربى لإنذار أمّ القرى و من حولها(و من ثمّ العرب ثمّ العالمين)إنذارهم جميعا بيوم الجمع حيث الخلائق كلّهم قائمون عند ربّهم للحساب لا ريب فيه،و هنالك ينقسم الناس فريقين:أصحاب الجنه،و أصحاب النار.

كذلك بيّن القرآن فى فاتحه سوره الشورى عظمه الوحى و مقام الرساله،و تبعا لها مقام من يبلّغها و يجسّدها و يحكم باسمها لتكون الرساله محور المجتمع الذى إليه يردون خلافاتهم و منه ينطلقون نحو تطلّعاتهم.

بيّنات من الآيات:

[۱-۲] حم* عسق راجع تفسير الأحرف المقطّعه فى السور السابقه.و ممّا ذكر فيها أنّ الحروف هذه تشير إلى ذات السوره،أو أنّها إشاره إلى أسماء اللّه الحسنى،أو أنّها تشير الى مفاهيم معيّنه فى السوره و عموما تشير كلمه كذلك الى هذه الأحرف،و كأنّه يقال:هكذا الوحى من خلال هذه الأحرف،و ما تشير إليه من معانى عظيمه.

[۳] كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللّٰهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ مهما اختلفت الأمم الذين تتنزّل عليهم الرسالات الإلهيه أو تفاوتت سمات

الـذين يبلّغونها فإنّها تشترک فی منهجها و أهـدافها،کما تلتقی علی نقطه مرکزیه واحده و هی أنّها کلّها من عند اللّه،و لیست من صناعه البشر حتی تتأثّر بطبائعه أو میزات بیئته أو متغیّرات حیاته.

و الرساله الإسـلامیه تأتی ضـمن سلسله متکامله من الرسالات،فهی تکمل المسیره المتصاعده للبشریه المستجیبه لربها،و هی کأیّه سنّه إلهیّه لا بـد من التصـدیق بها حینما تتکرّر ضـمن إطار محـدّد،و هی بالتالی مفروضه علی الناس،لأنّ الـذی أوحی بها هو اللّه العزیز المطلق فی قوّته مما یجعل وحیه نافـذا شاء الناس أم رفضوا ذلک،و الحکیم الذی أتقن الرساله فجعلها مرآه أهداف الحیاه و سنن الخلیقه.

[۴]و یحـدّثنا ربّنـا عن نفسه،فی إطـار تـذکرته برسالته.لماذا؟لأنّ معرفته تعالی هی أساس کلّ معرفه،و تسـبق فی الأولویه الإیمان بکلّ الحقائق.

و من هذا المنهج یستوحی الإمام علی علیه السلام بصیرته حین یقول:

«أوّل الـدّین معرفته،و کمال معرفته التصـدیق به،و کمال التصـدیق به توحیده،و کمال توحیده الإخلاص له » (۱)فمن دون معرفه اللّه،و هیمنته علی کل شـیء و إحاطته به،و ملکه للـدنیا و الآخره،لا یسـتطیع الإنسان أن یؤمن بالوحی الذی هو سـنّه إلهیّه خارقه للمألوف عند البشر،و لیس تکاملا یبلغه الإنسان بعبقریّه.

و لقد أشارت الآیه السابقه الی اسـمی العزیز الحکیم لربّ العالمین،لأنّ العزّه تعنی القدره الفاعله أو انعکاس القدره علی الخلق،و هو یسـتدعی بعث الرسل لیکونوا مظاهر قدره اللّه و هیمنته و عزّته و حاکمیته،کما قال ربّنا عنهم: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ لِیُطٰاعَ بِإِذْنِ اللّٰهِ

ص:۲۷۹

۱- ۱) نهج البلاغه/خ(۱)ص(۳۹).

.أمّا الحكمه فهى انعكاس العلم على الفعل،و لأنّ ربّنا حكيم فهو لا يترك الناس سدى،و تتجلّى عزّه اللّه فى الوحى القرآنى الذى يهدينا الى أسباب القوه،كما تتجلّى حكمته فى مناهجه الرشيده.

ثم يشير ربّنا هنا الى حاكميه الربّ فى السموات و الأرض،مما تستوجب فطريّا حاكميته على الناس بالوحى،فيقول:

لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ و من يشك فى رساله النبى محمد صلى الله عليه و آله فهو لم يعرف ربّه حقّا،إذ أنّه لو عرف عزّته و حكمته و مالكيته التى يهيمن بها على الحياه لما شك فى وحيه و رسالته،ذلك أنّ خالق الكون هو نفسه الذى خلق المنهج الذى يهدينا الى تسخيره فى صالحنا.

و لأن السبب فى كفر الإنسان بالبعث و بكثير من الحقائق الأخرى التى يهتف بها الوحى،هو عدم إيمانه بقدره اللّه حيث يشك فى عوده رميم العظام بشرا سويّا، يؤكّد القرآن صفات اللّه الحسنى فور حديثه عن الوحى أو البعث أو..أو..،ذلك أنّنا إذا آمنا بقدره اللّه و حكمته و علمه فسوف نؤمن بكلّ ما يصدر عنه و ما يأمر به إيمانا واعيا،و نعمل به بلا تكلّف،لأنّنا آنئذ نعرف عظمته.أو ليس قد أوحى به العظيم،و إنّ فيه صلاحنا؟أو ليس قد أنزله ربّنا الحكيم و نزداد يقينا بصدق أنبائه،مما يبعث فينا العزيمه و الأمل،و نستعد للدفاع عنه بأموالنا و أنفسنا،لأنّه هبط من عند ربّنا القدّوس.؟ و هكذا ينبغى أن نسلك الى معرفه الوحى طريق معرفه الخالق حتى نجعله فى مقامه الأسمى،و لا نقيسه بسائر الكلام أبدا،و لا نرضى بأن يتخذ البعض مصدر تشريعاتهم من غيره،أو يتحاكموا الى قانون بشرى ناقص،كلاّ..إنّ ربّنا مليك

السموات و الأرض،و وحیه تجلّ لحاکمیته التامه علینا،و أیّ تنکّب عن ذلک شقاق و ضلال.

وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ ما معنی العلو؟و ما معنی العظمه؟ العلی المرتفع فی المکان،فهل اللّه موجود فی أعلی قمه فی الکون؟کلاّ..تعالی ربنا عن الحلول فی مکان،و هو شاهد حاضر وَ هُوَ مَعَکُمْ أَیْنَ مٰا کُنْتُمْ (۱)، و العظیم فی اللغه مشتقه من العظم،و صاحب العظم الغلیظ یسمّی عظیما،فهل للّه عظم سبحانه و تعالی؟! عند تفسیر هذه الألفاظ القرآنیه،و هکذا سائر أسماء اللّه یجب أن نأخذ الغایات و نترک المبادئ،ذلک أنّ لکل لفظه مبدأ یکسها مدلولا حسیّا مادیّا،و غایه تعطیها مدلولا معنویّا و قدسیّا بالنسبه الی اللّه،فإذا کانت کلمه العلی تدل علی علوّ المکان حسیّا،فهو یشیر الی السیطره و التمکّن،و ربّنا علیّ بهذا المعنی،کما أنّه عظیم بمعنی القوه و الشده و الهیبه.و إنّما نستخدم هذه الألفاظ عند الحدیث عن اللّه لسببین:

الأول:عدم وجود ألفاظ بدیله تدلّنا علی تلک الغایات،و حیث یرید القرآن تقریب تلک المعانی المطلقه لأذهاننا المحدوده التی عجزت حتی عن الإحاطه بالخلق استخدم هذه الألفاظ.

الثانی:لکی لا ننبهر بمخلوق حاز شیئا من القوه أو الهیبه أو..أو..فنعبده من دون اللّه،فإذا بنا نخضع لفلان لأنّه صاحب ثروه أو قوه أو جمال أو هیبه،بل

۱- ۱) سوره الحدید/(۴).

نتذکّر صاحب الملک و العظمه و..و..الحقیقی،و هو اللّه عزّ و جل الذی خلقه من بعد العدم فنسلم له أکثر فأکثر،و بتعبیر آخر لا بد أن ننطلق فی تقییمنا للحیاه من الإیمان باللّه،لأنّ کل ما فیها مخلوق له سبحانه،و إذا اشتمل علی شیء من الحسن فهو قبس صغیر من أسمائه الحسنی.

[۵] تَکٰادُ السَّمٰاوٰاتُ یَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ربما یتصوّر البشر أنّ أقوی و أکبر شیء فی الکون هو السموات بعلوّها و قصور علمه عنها،حتی أنّ علماء الفلک کلما أجهدوا أنفسهم فی اختراع أنواع المناظر ذات القوه الهائله اکتشفوا المزید من الکواکب و المجرّات حتی انتهی بعضهم الی النظریه القائله بتوسّع الکون المستمر..و القرآن هنا یهدینا الی أنّ هذه السماء التی هی أعظم شیء فی نظرنا تکاد تتفطّر من خشیه اللّه.

و مع أنّ السموات جمع مؤنث لغیر العاقل،و الذی یناسبها هو کلمه«تتفطّر»، نجد الآیه هنا تعبّر عنها کما لو کانت من ذوی العقول:«یتفطّرن»ذلک للدلاله علی أنّها فی مقام العبودیه للّه و الخضوع له شأنها شأن سائر العقلاء،فهی تخشاه.

و کیف لا تتفطر السموات إذا تجلّی الربّ لها أو اخترقها وحی اللّه،و هی مشفقه من الساعه،منتظره لأمر اللّه لطویها کطیّ السجلّ للکتب،و لا تزال زجرات ملائکه اللّه تلاحق الأجرام السابحه فیها ألاّ تحید عن أمر ربّها قید شعره.

أعرفتم ماذا یعنی وحی اللّه،و ما هی عظمه رسالات اللّه،و أیّ مقام کریم ینبغی أن نجعلها فیه؟ سبحانک اللهم افتق عقولنا بنورک حتی نعرف قدر وحیک،و لا نخسر الدنیا و الآخره بالإعراض عنه أو الاستهانه بأحکامه..

و قال المفسّرون:إنّ تفطّر السموات بسبب هبوط الوحی عبرها،کما قال ربنا: لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلیٰ جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خٰاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَهِ اللّٰهِ و قال بعضهم:بل بسبب صعود أنباء شرک الناس من خلالها،کما قال ربّنا:

تَکٰادُ السَّمٰاوٰاتُ یَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبٰالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً .

و یبدو لی أنّ الأهم من کلّ ذلک عظمه اللّه و خشیه عقابه،فهی التی تکاد السموات یتفطّرن منها،و تسبّح بحمده و تعبده،و إن کنّا لا نری ذلک أو نسمعه.

وَ الْمَلاٰئِکَهُ و هم القوی العاقله التی تشرف علی جمیع الأجرام السماویه و الأنظمه و السنن الکونیه تراهم یخشعون أمام جبروت اللّه و عزّته،و یقدّسونه و ینزّهونه عما لا یلیق به،و یتمّ التسبیح بما أعطاهم اللّه من نعمه الهدایه و من التوفیق للتسبیح،و لعلّ هذا أحد معانی«بحمده»فإنّ معرفه اللّه لا تکون إلاّ بذاته،و کمال معرفته تنزیهه عن الشریک و الشبیه،و هو معنی التسبیح الذی لا یبلغه العبد إلاّ بحمد اللّه،أی بما یوجب الحمد من نعم الرب،و توفیقه،و یعطی هذا الترکیب«بحمده»معنی المقارنه أیضا،لأنّ ربّنا تعالی هو کما

جاء فی الدعاء :

«یا من هو فی شرفه عزیز،یا من هو فی عزّه عظیم،یا من هو فی عظمته مجید، یا من هو فی مجده حمید » (۱)فهو فی عین علوّ مقامه و قدسه و مجده و غناه حمید له الحمد کلّه و المحامد جمیعا، لأنّه تعالی شأنه لم یترک الخلق و شأنهم بل تعهّدهم بفواضل نعمائه و سوابغ آلائه،

۱- ۱) مفاتیح الجنان/دعاء الجوشن الکبیر/ص(۹۱).

فكان له الحمد كما كان له المجد.

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ هذه علاقتهم باللّه،أمّا علاقتهم بمن فی الأرض فهی الاستغفار لهم عند الرب، حيث ترى الملائكه أنّ سكان الأرض لا يقدرون اللّه حقّ قدره بما يعصون و يذنبون.

وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِی الْأَرْضِ إيمانا منهم بسعه رحمه اللّه.

أَلاٰ إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ و لو لم يكن كذلك لما ترك على وجه الأرض من دابه بما عصوا اللّه،و لعل الآيه تبين حقيقه هامّه هی أنّ اللّه هو الذی يغفر و يرحم من يشاء و متى أراد،و خطأ الإعتقاد بألوهيّه الملائكه أو أنّها أنصاف آلهه،بينما لا يعدو دورها الاستغفار للمؤمنين عند ربّهم الذی يقرّر قبول توبه أولئك و شفاعه هؤلاء أو لا يقبل حسب مشيئته التی لا يسأل عنها و هم يسألون.

[۶]و عجيب أمر البشر.إنّهم لا يستفيدون من واسع رحمه اللّه،بل يتخذون الشركاء من دونه،و يزدادون بعدا عنه كلّما توالت نعمه عليهم!و ربنا يتوعّد هؤلاء بأنّه يكتب كل ما تعمله أيديهم و جوارحهم ليعاقبهم عليه عاجلا أو آجلا.

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ يعتقدون أنّهم هم الذين يرزقونهم،و يمنعون عنهم الأخطار،و يخطئون لأنّ اللّه هو الذی يرعاهم و يحفظهم.

ص:۲۸۴

اَللّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ يحفظهم برحمته الواسعه التى تشمل العاصى و المطيع،و يحفظ عليهم كلّ ما يصدر منهم،و هم وحدهم يتحمّلون مسئوليه أعمالهم.

وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ فما على الرسول إلاّ البلاغ.

[۷]إنّما تتلخّص مسئوليه الرسول و كل مصلح فى تبليغ رسالته للناس بإيصال صوت الوحى الى أكبر عدد ممكن منهم.

وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا و هذا من رحمه اللّه و رأفته أن يبعث للناس نذيرا بالوحى من أجل هدايتهم للحق.

و نقف قليلا عند لفظه«عربيّا»لنتساءل.لماذا يؤكّد القرآن فى كثير من المواضع على عربيته؟ و الجواب:إنّما يؤكّد اللّه على عربيه القرآن ليقيم الحجه على الذين كفروا به حينما جاءهم الرسول يتلوه عليهم،و ذلك ببيان أنّ كفرهم لم يكن لغموض فى الوحى فهو بلغتهم.و تعبير«عربيّا»لا يدلّ على لغه القرآن و حسب بل على وضوحه أيضا،كما تدل كلمه أعجمى فى البلاغه على الغموض.

ثانيا:لأنّ اللغه الوحيده التى يمكنها أن تتسع لمعانى القرآن أكثر من غيرها هى اللغه العربيه،بعمقها و مرونتها،و من هنا يجب أن نعلم بأنّ السبيل الأفضل

لإيصال معانى القرآن لغير العرب ليس ترجمه القرآن،لأنّها تضيق بمعانيها،و إنّما تعليمهم اللغه العربيه.

لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها و إنّما يختار اللّه عواصم البلدان محلاّ لتبليغ الرساله،لأنّها من الناحيه الإعلاميه أكثر و أشمل تأثيرا،حيث تعتبر المركز لسائر الناس،فأىّ حدث أو حديث يقع فيها يكون خبره أكثر شياعا مما لو وقع فى غيرها،ثم إنّها تحتل مركزا سياسيا و اجتماعيا هامّا بين القرى الأخرى،ففتح العاصمه يؤدّى فى الأغلب الى فتح سائر القرى و المواقع الأخرى،بالذات إذا كانت كمكّه فى عهد الرسول صلى الله عليه و آله مركزا لتجمّع القوى الدينيه و السياسيه و العسكريه و الاقتصاديه،التى تسيطر عليها آنذاك قريش،و تتحكّم من خلالها فى شبه الجزيره.

و تدل الآيه على أنّ الرساله الإلهيه كانت ذات أمواج متلاحقه،فقد افتتحت بأمر الرسول بالقراءه: اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ ،ثم أمرته بإنذار الأقربين:

وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَکَ الْأَقْرَبِينَ ،و توسّعت الى قومه-صلّى اللّه عليه و آله-بقوله سبحانه: وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ و تواصلت حتى شملت العالمين فقال ربنا سبحانه: تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَکُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً .

و مع أنّ الرساله كانت منذ البدء عالميه إلاّ أنّها كانت واقعيه أيضا تسعى نحو العالم عبر موجات متلاحقه بين الناس،الأقرب فالأقرب،و احقّ الناس بها و بحمل مسئولياتها الرسول و أهل بيته الذين نزلت فى بيوتهم.

وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ و فى الأثناء لا بد للرسالى أن يستوعب الحياه بواقعياتها،فلا ينتظر من الناس أن

يؤمنوا جمعيهم برسالته،فإذا ما كفروا بخع نفسه،و شـكّك فى جهوده و رسالته، فذلك من طبيعه البشر،إنّهم بالتالى ينقسمون الى مؤمنين و كافرين.

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّهِ و هم الذين يؤمنون بالرساله،و يعملون بمضامينها.

وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ و هم الكافرون و العاصون.

و فى هـذه الجمله« فَرِيـقٌ فِي الْجَنَّهِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ »إشـاره الى الخلاـف البشـرى الـذى يقسـمهم الى خطّين:خـط الحق،و خط الباطـل..و سوف تبيّن الآيـات القـادمه هـذه النقطه،و تميّزهـا عن الاختلاـف فى الرؤى و وجهات النظر بين أهل الحق أنفسـهم،و الذى يجب ألاّ يبلغ حدّ الصراع بينهم.

ص:٢٨٧

[سوره الشوری (۴۲): الآيات ۸ الی ۱۳]

اشاره

وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِی رَحْمَتِهِ وَ اَلظّٰالِمُونَ مٰا لَهُمْ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ (۸) أَمِ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
أَوْلِيٰاءَ فَاللّٰهُ هُوَ اَلْوَلِیُّ وَ هُوَ يُحْيِ اَلْمَوْتیٰ وَ هُوَ عَلیٰ كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ (۹) وَ مَا اِخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَیْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَی اَللّٰهِ ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبِّی
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۱۰) فٰاطِرُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً وَ مِنَ اَلْأَنْعٰامِ أَزْوٰاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ
كَمِثْلِهِ شَیْءٌ وَ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْبَصِيرُ (۱۱) لَهُ مَقٰالِيدُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَیْءٍ عَلِيمٌ (۱۲) شَرَعَ
لَكُمْ مِنَ اَلدِّينِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ اَلَّذِی أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ وَ مٰا وَصَّيْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسیٰ وَ عِيسیٰ أَنْ أَقِيمُوا اَلدِّينَ وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ
كَبُرَ عَلَی اَلْمُشْرِكِينَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اَللّٰهُ يَجْتَبِی إِلَيْهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِی إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (۱۳)

اللغه

۱۱[يـذرؤكم]:ذرء بمعنی أوجـد أی يخلقكم أنتم و الأنعـام «فيه»أی فی هـذا الجعـل،فـإنّ امتـداد نسل الإنسان و الحيوان إنّما هو بجعل الأزواج،و لذا ينقطع من لا زوج له.

ص:۲۸۸

أقيموا الدّين و لا تتفرّقوا فيه

هدى من الآيات:

ما هى علّه اختلاف الناس؟و كيف ينبغى أن نعالجه؟و من هو الولىّ حقّا يردّ اليه ما اختلف الناس فيه؟ هذه محاور الدرس من هذه السوره التى تعالج الخلافات الاجتماعيه.

كان من الممكن أن يخلق اللّه البشر بصوره واحده لا اختلاف بينهم،و أن يجعلهم كلّهم من أصحاب الجنه،و لكنّه تعالى ترك الإنسان يختار مصيره بإرادته بعد أن أوضح له سبيل الغى،و هداه الى سبيل الرشاد.

و هكذا يؤكّد القرآن مبدأ الحريه التكوينيه التى جعلها اللّه للبشر،و التى صبغت حياتهم بصبغه الصراع الأبدى بين الحق و الباطل.

فبينما يتبع فريق منهم ولايه اللّه،يتبع الفريق الآخر الظالم لنفسه ولايه الشركاء المزعومين،فالسبب الرئيسى لضلاله البشر و ما يثير بينهم الخلاف من

الحروب التی تنتهی الی الدمار و التخلف هو ترکهم ولایه اللّه،و تشبّثهم بالأولیاء من دونه.

أمّا الخلافات الخارجه عن إطار صراع الحق و الباطل-کالخلاف بین أهل الحق أنفسهم-فهی غیر مشروعه،إذ لا بد من حلّها بالعوده الی قیم الرساله و من یمثّل ولایه اللّه فی الأرض،و من الناس من یدّعی الإیمان و لکنّه یتولّی غیر اللّه، و إنّما آیه إیمان المرء أن یردّ ما تنازع فیه الی اللّه(و الی رسالته و رسله)ثم یتحدّی الضغوط،و یتوکّل علی اللّه،و یتضرّع إلیه(و یتعوذ بحوله و قوته من شیاطین الإنس و الجن الذین ینزغونه فی الاتجاه الخاطئ).

(و ولایه اللّه فی المجتمع تجلّ لولایته فی الکائنات)فهو الذی فطر السموات و الأرض،و خلق البشر أزواجا و کذلک الأنعام بهدف تکثیر الخلق و انتشارهم،و هو المحیط بهم علما!و بیده مفاتیح الرزق، فیبسط لمن یشاء،و یقدر علی من یشاء (إنّما بحکمته البالغه،لأنّه)بکلّ شیء علیم.

بینات من الآیات:

[۸]الاختلاف بین أهل الحق و أهل الباطل جزء من سنه اللّه فی الحیاه،لیس لأنّه تعالی یرید أن یکون بعضهم من أصحاب النار و البعض الآخر من أصحاب الجنه،بل لأنّه أعطاهم حریه الإختیار،و مقتضی هذه الحریه أن یتبع البشر أحد الخیارین.

وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً و هذا لا یتفق مع طبیعه الحیاه،و هدف الخلق.

وَ لٰکِنْ یُدْخِلُ مَنْ یَشٰاءُ فِی رَحْمَتِهِ

و هم المؤمنون الـذين يأخـذون بأسـباب الهـدايه فيوفّقهم اللّه لبلوغهـا،و الآيه تحـذّرنا من الاغترار بإيماننا،و ذلك بالتأكيـد على كونه من عند اللّه و بتوفيقه.

كمـا تبيّن لنـا الآـيه بـأنّ الآـخر الـذى يختار طريق النار،إنّما يـدخلها بإرادته، و بإيكال اللّه له الى نفسه حيث يمنع عنه توفيقه،فلا يحفظه من نوازع الشيطان،و لا من ضغوط الحياه،كما هو شأنه مع المؤمنين فإذا به ينقلب على عقبيه.

و هـذا الإنسـان قبل اختياره لطريق السـعير كأىّ بشـر فيه الخير و الشـر،و لكنه بهـذا الإختيار الخاسـر يسـلب منه عون اللّه و توفيقه فيتمحّض فى الشر،و لهذا ترى أولياء اللّه المخلصين يلحّون على اللّه بأن لا يكلهم الى أنفسهم،و لا يقطع عنهم توفيقاته.

يقول ابن أبى يعفور:سـمعت أبا عبـد اللّه(الإمام الصادق عليه السـلام يقول و هو رافع يـده الى السـماء:«رب لا تكلنى الى نفسـى طرفه عين أبـدا»لا أقلّ و لا أكثر، فما كان بأسـرع من أن تحدر الدموع من جوانب لحيته،ثم أقبل علىّ فقال:«يا ابن أبى يعفور!إنّ يونس ابن متّى وكله اللّه عزّ و جل الى نفسه أقـل من طرفه عين فأحـدث ذلـك الظن»قلت:فبلغ به كفرا أصـلحك اللّه؟قـال:لا و لكنّ الموت على تلك الحال هلاك (1) وَ الظّالِمُونَ مّا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ يشفع لهم،و يخلّصهم من العذاب..

وَ لا نَصِيرٍ يعينهم،و لعلّ فى هذا المقطع من الآيه إشاره الى حقيقه هامّه:أنّ الظالم

ص:۲۹۲

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج(۱۴)ص(۳۸۷).

لا يضرّ بنفسه فقط عند ما يتخذ من دون اللّه أولياء،و يتبع الجبابره،بل و يظلم الآخرين أيضا،ذلك لأنّه باتباعه الجبار(بل بمحض السكوت عنه)يساهم فى سيطرته على الآخرين.

و لعلّ الآيه تهدى أيضا-عند ما استخدم كلمه الظالمين-ألاّ عداله فى غير ولايه اللّه،و ألاّ نجاه من الظلم إلاّ بالعوده إليها،فما للظالمين من ولىّ و لا نصير..

فمن رضى بحكومه الظالمين اكتوى بنارهم،و لا يستجاب دعاؤه فى الخلاص منها.

و بالرغم من أنّ لفظه الظالم قد يتسع مدلولها ليشمل كلّ منحرف إلاّ أنّ انتخابها متناسب و السياق الذى يحدّثنا عن الولايه،و حسب تعبيرنا القياده و ما تتبعه من فضّ الصراعات إمّا بعداله أو بظلم.

[۹]بلى.إنّ الكافرين و المشركين اتخذوا أولياء من دون اللّه،و لم يدركوا بأنّه وحده الولىّ الحقيقى للإنسان،و صاحب القدره المطلقه.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِيُّ لأنّ إليه مصيرنا،و هو القاهر علينا.

وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتىٰ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أمّا الأولياء و الأنصار المزعومون فإنّهم لا يقدرون على شىء إلاّ بقدر ما يريده اللّه لهم،فهم محدودون،و الأولى بالعاقل أن ينتمى الى صاحب القدره المطلقه، فعنده تتحقّق طموحاته،و يصل الى أهدافه.

[۱۰]و يبيّن ربّنا معنى الانتماء الحقيقى لولايه اللّه،بأنّه ليس مجرّد الادّعاء، و التمنّى فى القلب،و حتى طاعه اللّه فى الأمور الاعتياديه التى لا تكلّف الإنسان

جهدا و لا مصلحه و لا تنازلا،إنّما التسليم لهذه الولايه فى كلّ شأن،و بالذات عند الصراع،حيث يتشبّث الواحد بفكرته و موقفه،و تثار فيه ذاتيّاته و عصبيّاته.

وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ أنّى كان هذا الشىء،و فى أىّ جانب من جوانب الحياه..

فَحُكْمُهُ إِلَى اللّهِ يستوحى من كتاب اللّه،و من أودع قلبه علمه من أئمه الهدى-عليهم السلام-و أتباعهم الفقهاء،العلماء باللّه الأمناء على حلاله و حرامه.

ثم يقول القرآن عن لسان الرسول و كل مؤمن يسلّم لآياته:

ذٰلِكُمُ اللّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ و هذا تأكيد لانتمائه الى ولايه اللّه فى مقابل اتخاذ أولئك الأولياء من دونه، إذن فهو على عكسهم يستجيب لحكم اللّه،و نتساءل:لماذا يؤكّد القرآن ضروره التوكّل على الربّ هنا؟ و الجواب:لأنّ الكثير من الناس يزعمون بأنّهم حينما يتنازلون للآخرين عند الاختلاف استجابه لحكم اللّه و أوليائه،فإنّهم يعرضون أنفسهم للمخاطر،لأن الطرف الآخر عندها سوف يتصرّف من موقع صاحب الحق،و يستغل انتهاء الخلاف فى صالحه لضربهم.إنّ هذا الشعور من وساوس الشيطان الذى يريد من خلالها تضخيم الاختلافات الاجتماعيه،و تفتيت الأمه الواحده،و كم من مظلوم أصبح أكثر جورا من ظالمه بسبب هذا الشعور الذى يثير فى الإنسان ذاتيّاته السلبيه!

و لکی یقاوم الإنسان هـذا الضـغط یحتاج الی قوه نفسـیه کبیره حتی لا یخشـی من المسـتقبل بتطبیق الحق،و هذه القوه یسـتمدّها المؤمن من التوکّل علی اللّه و العوده إلیه.

ثم إنّ التسلیم لولایه اللّه یقتضی مواجهه الحکومات الظالمه،و هی بدورها بحاجه الی استقامه عبر التوکّل علی اللّه.

[۱۱]و یعالـج القرآن الاختلاف من زاویه أخری حینمـا یـذکّرنا بـأنّه من طبیعه الحیـاه،التی تأبی اللون الواحـد،الأمر الـذی یجعل الإنسان غیر قادر علی صبغها کلّها لمزاجه و طبیعته الخاصه،و لکنّه عبثا یسعی لبلوغ هـذه الغایه،فتری البعض یرید التحدّث لکلّ الناس بلغته القومیه،أو أن یقلّدوا عاداته،فإذا لم یستجیبوا له أبغضـهم،فالرومان صاروا یسـمّون غیرهم بالبرابره أی المتوحشّـین، و الیهود اعتبروا أنفسـهم الشـعب القـارئ بینما اعتبروا الآخرین أمّیّین لا یفقهون شـیئا،أمّا مـدّعی الحضاره الحـدیثه فإنّهم یعتقـدون بوحشیه الشعوب غیر الآریّه.

هـذه من طبیعه الإنسـان فهو یریـد العـالم کلّه لونـا واحـدا هو لون شخصـیته و تطلّعاته،و القرآن یؤکّـد هنا الاختلاف الطبیعی فی الحیاه،و یذکّر الإنسان بعجزه عن رفع أقرب الاختلافات إلیه،و هو اختلافه مع زوجته.

و لکنّ القرآن الکریم یقرّر مبـدأ الاختلاف بین حقـائق الخلق،و علینـا الاعتراف به،و التعرّف علی حکمه اللّه فیه،و السـعی وراء تلک الحکمه،و حکمه الاختلاف التکامل،و لیس الصـراع،فلقـد جعل اللّه البشـر شـعوبا و قبائل بهدف التعارف(و لیس التدابر و التباغض)،و خلق الزوجین الذکر و الأنثی لیتکاملا، و لعلّ هذا أبرز أمثله الاختلافات الفطریه.

فَاطِرُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْوٰاجاً وَ مِنَ الْأَنْعٰامِ أَزْوٰاجاً

ص:۲۹۵

و هـذا فى صالـح الإنسان،و بيان القرآن لانشـطار الأنثى من نفس الذكر،جاء لضـرب الأفكار الجاهليه التى تزعم بأنّ الأنثى ذات روح حيوانيه، فبهـذا الاختلاـف يكون التنـامى و التناسل،و لكن لو تحوّل هـذا الاختلاف الى خلاف بين الطرفين،و انتهى بالتالى الى الطلاـق و العـداء.أ فلاـ تنقرض البشـريه من على وجه الأـرض؟! بلى.و هكـذا لو اختلفت القبائـل و الشـعوب،وسـعت لفرض عاداتهـا و طبائعهـا على الآـخرين،لأـنّ اللّه خلق كـلّ مجموعه بشـريه لتحقّق هـدفا خاصّـا فى الحيـاه،أمّا لو تصارع الجميع لفرض شخصيتهم على بعضهم فسوف ينتفى التعارف و التعاون و التكامل مما يجعل الحياه جحيما لا تطاق.

يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ أى يجعـل تكاثركم و انتشاركم بسـبب هـذا الاختلاف،و لعلّ من الحكم الأخرى للاختلاف إشـعار الإنسان بعجزه الذى تدل عليه حاجته للآخرين،و التى هى بدورها تدل على حاجته الى اللّه،لأنّه الصمد الذى لا كفو له و لا شريك و لا شبيه.

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ و نتساءل:لماذا أضيف كاف التشبيه على«مثل»،فى الوقت الذى كان يكفى أن يقال:ليس مثله شىء؟هل الكاف هنا زائده كما قال المفسّرون؟أم فى المعنى لطفا بديعا!نحن نميل ألاّ ننسب الزياده الى كلام ربّنا.اللهمّ إلاّ التى نكون للتأكيد،و لا معنى ظاهر للتأكيد هنا،فنعود و نتساءل:إذا ما معنى الكاف؟التفت بعض المفسـرين الى معنى المثل الذى يختلف ظلاله عن كلمه (ند)أو شبه و مساوى و شكل،حيث أنّ ظلال كلمه المثل توحى بجانب القيم

و الصـــفات و الأســـماء،بينمـــا ظلالـــ النـــد تـــوحى بالتشـــابه فى الجـــوهر،و ظلالـــ(الشـــبه) تـــوحى بالتماثـــل فى الكيفيـــه،أمّا كلمه(المساوى)فتوحى بالتشابه فى الكميّه، و إيحاء(الشكل)هو التماثل فى المساحه. (۱)

فإذا قلنا:«ليس كمثله»أى لا يشابه صفاته و أسماءه أحد،فالكاف بمعنى التشبيه،و المثل بمعنى مجمل الصفات و الأسماء،و اللّه العالم.

وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ فلا يزعم أحد أنّه ما دام ربّنا لا شبيه له و لا كفو فهو بعيد عنّا لا يسمع و لا يرى،كلّا..إنّ تعاليه لا يتنافى و قربه الى درجه أنّه يسمع ما نقول،و يبصر ما نفعل،فهو رفيع الدرجات و هو أقرب إلينا من حبل الوريد.

[۱۲]و هو الذى يرزق من يشاء ما يشاء،فيعطى لشعب الطاقات و المعادن، و لآخر العلم و الإراده،فإذا بالناس يختلف بعضهم عن بعض لتتعاون البشريه مع بعضها،كما أنّ ربّنا يفتح للبشريه أبوابا متعدّده من الرزق،و إذا ما نفذ شيء منه تلطّف عليهم بآخر يحلّ محلّه،فإذا بالآفاق الواسعه تتفتّح بقدره اللّه أمام البشريه لتجدّد الطاقات البديله عن النفط الذى بات مهدّدا بالانتهاء.و ما يدرينا لعلّهم يهتدون الى تحويل الماء الى طاقه محرّكه كما اهتدوا من قبل الى تفكيكه بقدرته تعالى! لَهُ مَقٰالِيدُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ فلما ذا يحسد الناس بعضهم،و يسعى كلّ واحد للتفرّد بالنعم،و ربّنا العليم ينزل من القدرات على من يشاء من البشر بقدر،حسب حكمته البالغه؟

۱- ۱) تفسير نمونه/ج(۲۰)ص(۳۷۲)،نقلا عن مفردات الراغب.

إِنَّهُ بِكَلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ و بالتالى فهو يبسط الرزق للناس،و يعلم ما يحتاجون ممّا يقوّم حياتهم.

و يختلف الرزق عن الكسب بأنّ الأوّل هو ما يتفضّل به اللّه على الإنسان،بينما الثانى هو ما يسعى إليه بنفسه،و هو تعالى يهب لكلّ واحد نوعا من الرزق،و على الإنسان أن يسعى(و يكسب)ليجلب رزقه،فالأرض و الأنهار و النشاط و العقل كلّها رزق من اللّه،أمّا الكسب فهو تسخير هذا الرزق ليتحوّل إلى حقول مزروعه.

و ما يتفاضل به الناس ليس الرزق بل الكسب،لأنّ اللّه رزقهم بصوره عادله فهو إذا سلب من أحد رزقا أعطاه رزقا آخر يتفضّل به على غيره،فشبه الجزيره العربيه التى جعلها الرب حارّه رطبه أودع فيها(٨٠٪)من احتياطى النفط فى العالم،بينما جعل استراليا الفاقده للنفط بلادا زراعيه فإذا بها تغطّى قدرا كبيرا من احتياجات العالم،و هكذا قسّم الموارد الزراعيه و الطبيعيه بين البشر،و عليهم أن يسعوا لتسخيرها لمصلحتهم! [١٣]و لكنّ الناس حوّلوا اختلافاتهم الى خلاف و صراع لا يكتسب شيئا من الشرعيه،لأنّ رسالات اللّه كلّها واحده،و جاءت لتحلّ مشاكل الناس،و من أهمّها مشكله الخلاف،و ربّنا إنّما بعث الأنبياء لتوحيد البشريه على أساس المبادئ.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِى أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ وَ مٰا وَصَّيْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ فى الأحاديث المأثوره بعض التفصيل فى شريعه اللّه التى نزلت على الرسل،و فى الدين الذى أمرنا بإقامته،و نختار منها حديثا مأثورا

عن السيد عبد العظيم الحسنى أنّه قال :

دخلت على سيدى على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب-عليهم السلام-فلمّا بصر بى قال لى:مرحبا بك يا أبا القاسم أنت وليّنا حقّا،قال:فقلت له:يا بن رسول اللّه إنى أريد أن أعرض عليك دينى،فإن كان مرضيّا ثبتّ عليه حتى ألقى اللّه عزّ و جلّ،فقال:

هاتها يا أبا القاسم،فقلت:إنّى أقول:إنّ اللّه تبارك و تعالى واحد ليس كمثله شيء،خارج من الحدّين حدّ الإبطال و حدّ التشبيه،و إنّه ليس بجسم و لا صوره و لا عرض و لا جوهر،بل هو مجسّم الأجسام،و مصوّر الصور،و خالق الأعراض و الجواهر،و ربّ كلّ شيء و مالكه،جاعله و محدثه،و إنّ محمدا عبده و رسوله، خاتم النبيين فلا نبيّ بعده الى يوم القيامه،و أقول:إنّ الإمام و الخليفه و وليّ الأمر بعده أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ثمّ الحسن ثمّ الحسين ثمّ على بن الحسين ثمّ محمّد بن على ثمّ جعفر بن محمد ثمّ موسى بن جعفر ثمّ على بن موسى ثمّ محمد بن على ثم أنت يا مولاى،فقال عليه السلام:و من بعدى الحسن ابنى، فكيف الناس بالخلف من بعده قال:فقلت:و كيف ذاك يا مولاى؟قال:لأنّه لا يرى شخصه، و لا يحلّ ذكره باسمه حتى يخرج،فيملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا،قال:فقلت:أقررت،و أقول:إنّ وليّهم وليّ اللّه، و عدوّهم عدوّ اللّه،و طاعتهم طاعه اللّه،و معصيتهم معصيه اللّه،و أقول:إنّ المعراج حق،و المسائله فى القبر حق،و إنّ الجنه حق،و الميزان حق،و إنّ الساعه آتيه لا ريب فيها،إنّ اللّه يبعث من فى القبور،و أقول:إنّ الفرائض الواجبه بعد الولايه الصلاه و الزكاه و الحج و الجهاد و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.فقال علىّ بن محمد-عليهما السلام-:يا أبا القاسم هذا و اللّه دين اللّه الذى ارتضاه لعباده،فاثبت عليه ثبّتك اللّه بالقول الثابت فى الحياه الدنيا و فى الآخره أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ

لأنّ إقامته بتطبيق أحكامه تماما كفيله بتنظيم حياه الناس و إسعادهم،ثم نهى ربّنا عن التفرّق فى الدين بسبب الأهواء و الشهوات فقال:

وَ لاٰ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ لأنّنا لو أقمنا الدين حقّا فلن يكون هناك مجال للتفرّق،فالدين كلّه واحد و إن اختلفت الرسالات فى صياغتها،و هذه من أعظم وصايا الأنبياء للأمم و للبشريه جمعاء.

جاء فى الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال :

قال اللّه جلّ جلاله:ما آمن بى من فسر برأيه كلامى،و ما عرفنى من شبهنى بخلقى،و ما على دينى من استعمل القياس فى دينى (۱) كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مٰا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ و لو تدبّرنا عميقا فى هذا المقطع لاكتشفنا مدى علاقته بالمقطع السابق من الآيه،فهو يبيّن لنا بأنّ اختلاف الديانات السماويه ناشئ من تسرّب ثقافات الشرك المحيطه بها إليها،فجوهر الدين واحد و لكنّ الرواسب و الأفكار الغريبه التى دخلت إليه هى التى أسست الخلاف بين رساله و أخرى،و هذه القاعده تنطبق حتى على الرساله الواحده،فالقرآن مثلا-واحد و كلّه حق،و لكن لماذا صار كل فريق من المسلمين يدّعى أنّه وحده يمثّل القرآن؟لأنّ بعضهم أضاف اليه إضافات من أفكاره و من الثقافات الغريبه عليه فلم يقم الدين،و لأنّ هذه الأفكار و الشهوات تختلف من فريق لفريق بل من شخص لآخر دبّ الخلاف بينهم،بل بدى القرآن نفسه مختلفا للناس.

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)ص(۵۶۵).

ثم إنّ التحدّی الکبیر الذی یعیشه المؤمنون فی مواجهتهم لقوی الشرک یدعوهم للوحده بینهم،لکی لا یجد الأعداء ثغره للتسلل الی صفوفهم،و الإفساد بینهم من الداخل.

و فی ظروف التحدی تحتاج الأمه إلی المزید من الاستقامه علی طریق الدین (و إقامه الدّین کلّه دون أن یختلفوا فیه)،و السبب هو أنّ الشیطان قد یوسوس إلیهم بأن یتنازلوا عن بعض بنود الدّین لکسب المزید من الأنصار،بناء علی سلّم الأولویات أو التدرّج فی تطبیق الشریعه،و قد یؤدّی ذلک الی الانحراف فی الدّین،مثلما حصل عند النصاری فی التاریخ حیث کانت الدیانه المسیحیه نقیه طاهره فلما رأی الأحبار قلّه المنتمین إلیها صمّموا علی الاقتباس من أفکار الفلسفه القدیمه الرائجه یوم ذاک لیؤمن الناس،و من بین ما أدخلوه علیها بعض الأفکار المقتبسه من الفلسفه المعروفه ب(النیوافلوطینیه)،فصارت الدیانه التی علیها کثیر من النصاری الیوم مشوبه بها.

و الیوم نجد الناس یضیفون الثقافه القومیه أو الوطنیه أو الاشتراکیه أو الرأسمالیه الی الفکر الإسلامی،و ما هی سوی ألوان من الشرک إذا عرفنا جوهرها المتمثل فی التسلیم لغیر اللّه.

إذا یجب علینا أن ندعو الی الدین الخالص بلا أیّ إضافه،فإن استجاب الناس و إلاّ فواجبنا بذل المزید من الجهد،و بدل أن ننزل دیننا الی مستوی الناس یجب أن نرفعهم الی مستواه،و لیس علینا بعد الدعوه و التبلیغ مسئولیه الهدایه،لأنّ الهدایه من عند اللّه.

اَللّٰهُ یَجْتَبِی إِلَیْهِ مَنْ یَشٰاءُ

من رسـله،كالذين سـبق ذكرهم من أولى العزم الذين فضّـلهم اللّه على سائر أنبيائه،و هم نوح شـيخ المرسـلين الذى قدّمه السياق لأنّه أوّل نبى عقد عزمات قلبه على إبلاغ رساله التوحيد،بتلك الصعوبات المعروفه و عبر(٩٥٠)عاما،و ذكر بعده نبيّنا محمد صلى الله عليه و آله لأـنّه الأـعظم من بين أولى العزم،ثم جـاء ذكر الأنبيـاء الثلاـثه بالترتيب الزمنى إبراهيم ثم موسـى ثم عيسـى(عليهم السلام).

وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ من سائر عباده.

ص:٣٠٢

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۱۴ الی ۱۸]

اشاره

وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ اَلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ اَلَّذِينَ أُورِثُوا اَلْكِتٰابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۴) فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ اِسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ مِنْ كِتٰابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اَللّٰهُ رَبُّنٰا وَ رَبُّكُمْ لَنٰا أَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ أَعْمٰالُكُمْ لاٰ حُجَّةَ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمُ اَللّٰهُ يَجْمَعُ بَيْنَنٰا وَ إِلَيْهِ اَلْمَصِيرُ (۱۵) وَ اَلَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اَللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا اُسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دٰاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ (۱۶) اَللّٰهُ اَلَّذِي أَنْزَلَ اَلْكِتٰابَ بِالْحَقِّ وَ اَلْمِيزٰانَ وَ مٰا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اَلسّٰاعَةَ قَرِيبٌ (۱۷) يَسْتَعْجِلُ بِهَا اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِهٰا وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهٰا وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا اَلْحَقُّ أَلاٰ إِنَّ اَلَّذِينَ يُمٰارُونَ فِي اَلسّٰاعَةِ لَفِي ضَلاٰلٍ بَعِيدٍ (۱۸)

اللغه

ص:۳۰۳

١٨[يمارون]:يجادلون،من المراء أي الجدال.

ص:٣٠٤

وَ اسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ

هدى من الآيات:

انطلاقا من محور الوحده يبيّن لنا هذا الدرس سبب الخلاف بين البشر،و هو ظلم الإنسان للآخرين ممّا يسمّيه القرآن بالبغى،حيث يبدأ بسلب حقوقهم الأمر الذى يجرّ الى تنامى الصراعات،و بالرغم من أنّ كلّ ظالم يغلّف بغيه بمختلف التبريرات،بل يصنع لنفسه ثقافه(و دينا)يزعم أنّه يدافع عنها و يذبّ عن قدسيتها،إلاّ أنّه كذّاب،لأنّ الاختلاف لا يكون من أجل القيم،فالقيم لا اختلاف فيها،و إنّما الاختلاف نتيجه للبغى و السعى وراء حطام الدنيا.

و عند ما يجد الإنسان الخلافات الاجتماعيه،يكاد ينكر هيمنه الخالق على الخلق،و يظنّ أنّه تعالى فوّض الأمور إليهم،و يتساءل:إذن لماذا لا يحكم الربّ بين عباده،و يفضّ الخلافات؟و لماذا لا ينصر أصحاب الحق؟ و ما هى إلاّ وسوسه شيطانيه لفصل الخلق عن هيمنه اللّه،إذ أنّها تدفع الإنسان

ص:٣٠٥

لاختيار وسائله الكفيله بتحقيق مصالحه،و لا يهمّه بعد ذلك لو ترك الدين جانبا، و الآيه الأولى من هذا الدرس تؤكّد أنّه قد سبقت كلمه تقضى بتأجيل الحسم فى الخلافات،و أنّ ذلك لا يدل على التفويض أو الإهمال،من قبل اللّه!بل مجرّد إعطاء فرصه للابتلاء،و لو لا ذلك لكان يأخذ الظالمين أخذ عزيز مقتدر.

و يعتمد الاختلاف على أرضيه الشك بالقيم الحقيقيه المتمثّله فى الكتاب، و لذلك لا تختلف الأمم حين تعتمد الكتاب محورا لوحدتها،و مرجعا لخلافاتها و صراعاتها،و لكنّها حينما تفقد الإيمان بالكتاب،و تبحث عن مصالحها على حساب الآخرين،تتنامى صراعاتها،لأنّ الضمانه التى تحجز عن دفع الصراعات نحو التطرّف هو الإيمان بالقيم و الاعتصام بحبل اللّه،و إلاّ فما أسرع تأثّر البشر بالأحداث الاجتماعيه و السياسيه من حوله،فهو و بسبب نفسه الأمّاره بالسوء يسعى للتطرّف فى الردّ على من يخطئ عليه أو يقصّر تجاهه،و فى قوله تعالى: وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَلاّٰ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ إشاره صريحه لهذه الطبيعه فى الإنسان،و إنّما يستطيع أن يتجاوزها باليقين و الاستقامه،فلا تدفعه الأهواء و لا الدعايات الضاله الى المواقف المتطرّفه تجاه الآخرين،و هذا أمر صعب أن يقول الإنسان الحق سواء كان معه أو ضدّه،و هذا ما أمر به اللّه نبيّه صلى الله عليه و آله أن يعدل بين الناس،لأنّ العدل ينتهى فى الأخير الى صالح الإنسان،ثم إنّ كلّ فرد مسئول أمام اللّه عن أعماله فى الحياه،فلا داعى إذن لفرض أحد آرائه على أحد، فالكل يتحمّل مسئوليه عمله،و يتلقّى جزاءه.

ثم يؤكّد القرآن بأنّ اللّه لا يهمل الصراعات الى الأبد،و إن كان سبحانه لا يتدخل فيها بصوره مباشره،فيد الغيب تتدخّل الى جانب الحق فى الوقت المناسب لتدحض حجه الباطل،و لكن متى يكون ذلك؟حينما تهبط الرساله يؤمن بها مجموعه من الناس،و يلتفّون حول صاحبها،بينما يخالفهم فريق آخر

و بحجج واهيه،فينصر اللّه المؤمنين على أعدائهم،و لا شك أنّ الرساله وحدها لا تنتصر،إنّما تنتصر الرساله التى يلتفّ حولها الناس و يدافعون عنها.

إنّ البعض يستعجل فضّ الخلافات،و يريد ذلك فى أسرع وقت،و لذلك يبيّن القرآن هنا فكره سبق أن بيّنها فى أكثر من موقع،و هى عدم استبعاد الساعه،و إنّما توقّعها فى كل حين.

بينات من الآيات:

[۱۴]إنّ العامل الأقوى فى اختلاف الناس و تفرّقهم ليس هو الجهل بالحق، لأنّ الحق غالبا ما يكون واضحا بيّنا،و إنّما يختلفون بسبب شهواتهم و أهوائهم التى تقودهم للبغى على بعضهم،فهم المسؤولون عن الخلافات التى بينهم.أو ليس قد جاءهم من اللّه العلم حتى يقضى عليها؟ وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ و ربّنا يمهل الناس فى تفرّقهم،و لكنّه لا يهملهم إذ سبقت منه كلمه أن يعطيهم الفرصه لاختبار إرادتهم،و لو لا ذلك لكان ينهى الصراعات الى صالح الحق فى أسرع وقت،و يهلك أهل الباطل بلا إمهال.

وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ و من أسباب تفرّق الناس أيضا:ابتعادهم عن القيم التى تمثّل ضمان الوحده..

وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتٰابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ فبينما كان الكتاب وسيله للوحده عند الأجيال الملتزمه التى آمنت به و عملت

بآياته،أصبح الشك فيه عاملا خطيرا فى التمزّق و التفرقه.

و هكذا أوصت الآيه بالعلاج الجذرى للخلافات البشريه التى تنبعث من اتباع الأهواء و الظلم على بعضهم(البغى)ذلك هو روح اليقين فى الكتاب،و الابتعاد عن حاله الشك و التردّد فيه،كما أشارت الى سنه التراخى عن اليقين بسبب طول الأمد،حيث يختلف الالتزام بالكتاب بين الجيل الذى هبط فيه الكتاب،و بين الذين أورثوا الكتاب،و الشك المريب هو الشك المتعلّق الذى يثير الاضطراب.

[١٥]و حيث قضى اللّه سبحانه فى كتابه بالحق،يجب على الرسول و على كلّ مؤمن أن يدعو إليه،و يستقيم على نهجه بالتحصّن ضد الأهواء و الصراعات،لأنّه لو زاغ المؤمن الى جانب من جوانب الصراع لانتهى دوره فى الهيمنه على الخلافات الاجتماعيه.

فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ إنّما اتبع الهدى الموحى إليك من ربّك،بعيدا عن الضغوط و الدعايات.

هنا يأمر القرآن الرسول و من خلاله كل من اتبعه أوّلا:بالدعوه،و إعلان الكلمه الصادقه(و من ثمّ إعلان المواجهه مع الكفر).

ثانيا:بالاستقامه،بالصبر على الأذى الذى يلحقه من جرّاء الدعوه.

ثالثا:بجعل القرآن منهاجا للعمل.

رابعا:عدم التنازل عن الدعوه تحت ضغوط الآخرين الذين يتبعون أهواءهم، لكى يبقى الدّين خالصا للّه.

ص:٣٠٨

وَ قُلْ آمَنْتُ بِمٰا أَنْزَلَ اللّهُ مِنْ كِتٰابٍ لأنّ الميزان هو الوحی،و كما أوحى اللّه الكتاب على نبيّه محمد صلى الله عليه و آله فقد أوحى الى موسى و عيسى عليهما السلام،و إعلان الرسول أنّه مؤمن بسائر الرسالات الإلهيّه شاهد على أنّ دعوته لا تشوبها ذرّه من الذاتيه،إنّما هى دعوه خالصه الى اللّه و الى كتبه و رسالاته جميعا،و هكذا ينبغى أن يكون محور الإنسان هو الحق، سواء كان متمثّلا فيما عنده أو عند الآخرين.

وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ على ضوء منهاج الكتاب،لأنّ العداله وحدها الكفيله برفع أنواع الخلافات فيه.أليس البغى جذر كلّ خلاف؟ كذلك العدل أرضيه الوحده،و حين لا يكون العدل يتهاوى عرش التجمّع على أطرافه!

يقول الإمام على عليه السلام :

«و إنّ أفضل قرّه عين الولاه استقامه العدل فى البلاد » (1)اَللّهُ رَبُّنٰا وَ رَبُّكُمْ و ما دمنا متساوون أمام اللّه لأنّنا خلقه و هو ربّنا،فإنّنا متساوون أمام القانون و هو كتابه عزّ و جل،و من هذا المنطلق ترتكز العداله على تحمّل كلّ إنسان جزاء عمله لا الآخرين.

لَنٰا أَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ أَعْمٰالُكُمْ فكلّ واحد يتحمّل تبعه عمله،دون أن يقدر على إلقائها على الآخرين بعذر أو بآخر.و هذه البصيره ذات أثر عظيم فى إثاره و تحريك الفكر،و وقف حاله

ص:٣٠٩

١- ١) نهج/كتاب(٥٣).

الاسترسال.

لاٰ حُجَّةَ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمُ لا جدال و لا خصومه فقد بان الحق و ظهر أمر اللّه،و لسنا نريد أن نكرهكم على قبول الحق،لأنّ قبول الحق ينفعكم قبل أن ينفعنا،و رفضه يضرّكم و لا يضرّنا.

و توحى الآيه بأنّه لا يمكن للإنسان إخضاع الآخرين بالجدل لأفكاره.

اَللّٰهُ يَجْمَعُ بَيْنَنٰا غدا عند الميزان الحق،و يفصل بين الخلافات.

وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ فيجازى المسىء،و يثيب المحسن.

فعلى المؤمن أن يبلّغ رسالته الى الناس دون جبر أو إكراه،فإن قبلوا اهتدوا، و إن رفضوا و كفروا فإنّهم جميعا سوف يحضرون يوم القيامه للحساب حيث يقرّر الربّ مصير الجميع.

[۱۶]و لكى لا يتصوّر البعض أنّ ترك الجدال الذى أمر به فى خاتمه الآيه السابقه يعنى أن الجميع على حق،بيّن السياق عاقبه المجادلين بالباطل، ليدحض هذه الفكره الفاسده التى وجد لها أنصار فى التاريخ،حيث زعموا صواب كلّ القضاه الذين يحكمون فى موضوع واحد بفتاوى مختلفه،

و قد فنّد الإمام على عليه السلام هذه الفكره حيث قال:

«ترد على أحدهم القضيه فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه،ثمّ ترد

تلك القضيه على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله،ثمّ يجتمع القضاه بذلك عند الإمام الذى استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعا،و إلههم واحد!و نبيّهم واحد! و كتابهم واحد!أ فأمرهم اللّه سبحانه بالاختلاف فأطاعوه!أم نهاهم عنه فعصوه؟! » (۱)إنّ للحق و الباطل مقاييس ثابته و واضحه،و اللّه عزّ و جل ينصر الحق عند ما يحين الأجل المسمّى عنده.

وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ أى يحاجّون الرسول صلى الله عليه و آله فى مناهجه و رسالاته الإلهيه و قد تبيّن لهم أنّه على الحق بعد استجابه اللّه له.

حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يدحضها بالمقاييس و السنن الثابته،و بإرادته المطلقه منطقيّا و عمليّا،حيث ينتقم منهم فى الدنيا و الآخره.

وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ لقد تجلّى الحق على يد الرسول بأظهر شواهده و أسنى آياته،و لقد بادر أصحاب القلوب الزكيه الى الاستجابه للرساله،و استجاب اللّه دعواته الخالصه بالنصر.ألم يعدهم بذلك حين قال: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .

فما بقى عذر لهؤلاء الذين يحاجّون فى اللّه،و لا يسلّمون أمرهم لرسوله،و حان

۱- ۱) نهج/خطبه(۱۸)ص(۶۰).

میعادهم،فحجتهم داحضه،لیس فقط لأنّها باطله،بل و أیضا لأنّ الاستجابه للرساله هیّأت أرضیه نصر اللّه لها..و سوف تتوالی علیهم الهزائم الفکریه(بدحض حجتهم)و الدنیویه و السیاسیه(بأنّ علیهم الغضب المتمثّل فی الفشل)و الأخرویه (بأنّ لهم العذاب الشدید).

و من هنا نعرف أنّه حین یستجیب فریق للرساله فإنّه یقترب میعاد نصرها من عند اللّه،و تکون حجه المعاندین داحضه،و سعیهم فی ضلال.

[۱۷]و من المقاییس التی یعرف الحق بها القرآن بآیاته البیّنه الواضحه ثمّ المیزان.

اَللّٰهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ جمله الحقائق،ابتداء من التذکره باللّه و أسمائه الحسنی و آیاته فی الأنفس و الآفاق،و استمرارا مع تبصره الإنسان بنفسه و شفاء أدوائه،و انتهاء بالأحکام التی تفصل بین الناس بالعدل.

وَ الْمِیزٰانَ و قد أنزله اللّه علینا حین هدانا الیه لنطبّق العدل بیننا.

و قد اختلف المفسرون فی معنی المیزان،فقال البعض:إنّه مجمل الأحکام الشرعیه التی جاءت بها الرسالات.أو لیست تفصل بین العباد،و تحدّد حقوق و واجبات کلّ واحد بالنسبه الی الآخرین،و إنّ المعنی إنّ اللّه أنزل المیزان فی الکتاب،الذی لیس فقط یشتمل علی الحق بل و یفصّله ضمن موازین أی أنظمه عادله.

ص:۳۱۲

و قال أكثر المفسّرين:إنّه العدل،و لكن لم يذكروا كيف أنزله اللّه.

و قال البعض:إنّه هذا الميزان الذى يقيس به الناس أشياءهم،و لم يحدّد هو الآخر كيف أنزله اللّه.

و لكن يبدو لى أنّ الميزان-هنا-شىء آخر أنزله اللّه الى جانب الكتاب، و يشهد على ذلك أنّه لم يعطف كلمه الميزان إلى الحق بأن يقول:أنزل الكتاب بالحق و بالميزان.

و قد قال ربّنا فى سوره الحديد: وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ (1)و قال سبحانه فى سوره الرحمن: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ أَلاّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (2)و قال تعالى فى سوره الأعراف: فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ (3)فالميزان-إذا-قيم الكتاب،و أوضح معانيه هذا الذى يتعارف الناس عليه فى قياس سلعهم،و فى تحديد حقوق بعضهم على البعض،و يبقى السؤال:كيف أنزله اللّه؟ الجواب:إنّ اللّه أنزل على الإنسان العقل،و ضمّنه مقاييس ثابته،و علّمه

١- ١) الحديد/(٢٥).

٢- ٢) الرحمن/(٧-٨).

٣- ٣) الأعراف/(٨٥).

کیف یعکس هذه المقاییس العقلیه علی أجهزه و أدوات و قوانین و تشریعات یقیس بها الأشیاء،و أمر فی کتابه الناس الی الالتزام بما تعارفوا علیه بعقولهم.

و إنّما بعث الرسل لیوقظوا العقل من سباته،و یفکّوه من أغلاله،و یفتحوا عن عقول الناس أقفالها،و یرفعوا حجبها.

و حین توافق الکتاب و المیزان،عرف الناس بما لدیهم من میزان إلهی(و هو العقل)صدق الرساله،و علموا بهدایه عقولهم أنّ دعوه الرسل صادقه،لأنّها تتناغم و ما یجدونه بنور عقولهم.

و الرسل علیهم السلام و أوصیاؤهم الصادقون یمثّلون بحق هذا المیزان فی الشؤون الحیاتیه،لأنّهم یهدون بالحق،و یسعون الی الخیر،و یأمرون بالمعروف،و ینهون عن المنکر،و یخالفون أهواءهم،و یلتزمون بدقه متناهیه بالأحکام التی یأمرون الناس بها،فهم المیزان الصادق بین الحق و الباطل،و هم القضاء العدول بین الناس،و هم القسطاس المستقیم فی المعارف الإلهیه.

و من هنا قال بعض المفسرین:إنّ المراد بالمیزان النبی محمد صلی الله علیه و آله (۱).

و لعلّ التفسیر الشائع بین المفسرین یعود الی هذا المعنی حیث قالوا أنّ المیزان هو العدل،إلاّ أنّهم لم یذکروا کیف یقام العدل.أو لیس بحاکم عادل یأمر اللّه باتّباعه،و التحاکم إلیه،و التسلیم لقضائه،کما قال سبحانه: فَلاَ وَ رَبِّکَ لاَ یُؤْمِنُونَ حَتّی یُحَکِّمُوکَ فِیمٰا شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ یَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَیْتَ وَ یُسَلِّمُوا تَسْلِیماً (۲)

۱- ۱) فتح القدیر/ج(۴)ص(۵۳۱).

۲- ۲) النساء/(۶۵).

كما أنّ ذكر الميزان فى سياق سوره الشورى التى تمحورت حول فضّ الخلافات يـدلّ على أهميّه القياده العادله فى القضاء على الصراعات الاجتماعيه.

و لا تتمّ معرفه اللّه إلّا بالعقل،

جاء فى الحديث المأثور عن الإمام الكاظم -عليه السلام -:

إن الله جـل و عز أكمـل للنـاس الحجـج بـالعقول،و أفضـى إليهم بالبيان، و دلهم على ربوبيته بالأدله (۱)كمـا لا تتمّ معرفه الإمام الصادق عليه السلام الناطق عن اللّه إلّا بالعقل أى بتلك الموازين الثابته التى أودعها اللّه فى ضمير كلّ واحد من أبناء البشر.

جاء فى الحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام :

«نصب الخلق لطـاعه اللّه،و لا نجاه إلّا بالطاعه،و الطاعه بالعلم،و العلم بالتعلّم،و التعلّم بالعقل يعتقـد،و لا علم إلّا من عالم ربّانى،و معرفه العالم بالعقل » (۲)إنّ الكتاب و الرسول حجه اللّه الظاهره،و لا يمكن الاهتداء إليها إلا بالعقل، الذى هو حجه اللّه الباطنه،و الى ذلك أشار

الحديث المروى عن الإمام الكاظم عليه السلام :

«إنّ للّه على الناس حجتين:حجه ظاهره،و حجه باطنه،فأمّا الظاهره فالرسل و الأنبياء و الأئمه،و أمّا الباطنه فالعقول » (۳)

ص:۳۱۵

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج(۱)ص(۱۳۲).

۲- ۲) المصدر/ص(۱۲۸).

۳- ۳) المصدر/ص(۱۳۷).

أنی ذهبت و أیّ شخص سألت فسوف تجد ذات المقاییس العقلیه عنده،و التی یؤمن بها جمیع البشر،و هی الحجه القائمه بینهم،الصدق و الشجاعه و الوفاء و الإیثار و العدل و العفو و الإحسان إنّها فضائل لا یختلف فیها الناس..و ذلک هو المیزان الذی أنزله اللّه للناس لیقوموا بالقسط،و بهذه المقاییس الثابته یختار الناس إمامهم العادل لیطبّق العداله بینهم،ففی حوار مفصّل بین ابن السکّیت(إمام اللغه المعروف)

و بین الإمام الرضا علیه السلام یسأل ابن السکّیت:فما الحجه علی الخلق الیوم؟ فقال الرضا علیه السلام :«العقل تعرف به الصادق علی اللّه فتصدقه،و الکاذب علی اللّه فتکذّبه»،فقال ابن السکّیت:هذا هو و اللّه الجواب (۱).

و لکن تبقی مشکله البشر الغفله و عصیان ما تأمر به العقول،و لعلاج هذه الحاله لا بد من إیقاظ العقل بالإنذار..و هکذا ذکّر السیاق بالساعه بعد ما بیّن المیزان، لأنّ تذکّر الساعه حیث یفصل اللّه بین عباده،و حیث أخّر اللّه الموازین القسط إلیها،یهزّ أعماق البشر.

و أعظم ما فی الساعه إخفاؤها.متی تقوم الساعه؟و متی تقوم قیامه کلّ واحد منّا بالموت الذی لا یفصله عن الساعه شیء؟ألا تری کیف یتساءل الناس فی یوم البعث:کم لبثتم؟فإذا بهم یقولون:یوما أو بعض یوم،و هم قد لبثوا الی یوم البعث؟! و ما دام یوم البعث خفیّا عنا فلا بد من الاجتهاد أبدا.

وَ مٰا یُدْرِیکَ لَعَلَّ اَلسّٰاعَةَ قَرِیبٌ و کفی بالموت الذی یزور البشر فی أیّه لحظه واعظا،و هذا من أهمّ أهداف ستر

۱- ۱) المصدر/ص(۱۰۵).

الأجل عن الإنسان،

و فی الحدیث قال الإمام علی علیه السلام :

«ما أنزل الموت حقّ منزلته من عدّ غدا من أجله » (۱)[۱۸]و لو تدبّر الإنسان فی الساعه أصلح نفسه،بینما لا تعنی شیئا بالنسبه للآخر الضّال،بل یزداد بسبب ذکر الآخره ضلالا،لأنّه لا یعی حقیقه الساعه.

یَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ بِهٰا وَ الَّذِینَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهٰا وَ یَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ فترتعد فرائصهم من خوف هولها،بینما تتعمّق عقیدتهم فی الحق و بصیرتهم فی الحیاه بذکرها،و الخشیه میزان العقل

ففی وصفه للمتقین یؤکّد الإمام علی علیه السلام علی عمق خوفهم من اللّه إذ یقول:

«و إذ مرّوا بآیه فیها تخویف أصغوا إلیها مسامع قلوبهم،و ظنّوا أنّ زفیر جهنّم و شهیقها فی أصول آذانهم،فهم حانون علی أوساطهم،مفترشون لجباههم و أکفّهم و رکبهم،و أطراف أقدامهم،یطلبون الی اللّه تعالی فی فکاک رقابهم » هذا عن بعض حالهم فی اللیل.

«و أمّا النهار فحلماء علماء،أبرار أتقیاء،قد براهم الخوف بری القداح، ینظر إلیهم الناظر فیحسبهم مرضی،و ما بالقوم من مرض،و یقول:لقد خولطوا » (۲)هذا هو حال المؤمنین،و هذا هو خوفهم من الساعه،و هو یکفی لنا مقیاسا لمعرفه

۱- ۱) المصدر/ج(۶)ص(۱۳۰).

۲- ۲) نهج/خطبه(۱۹۳)ص(۳۰۴).

مدی ضلال الکافرین و المشرکین و غیرهم ممن لا یتعظ بذکر القیامه،بل و یتخذ الحیاه لعبا و لهوا.

أَلاٰ إِنَّ الَّذِینَ یُمٰارُونَ فِی السّٰاعَهِ لَفِی ضَلاٰلٍ بَعِیدٍ و هذا بسبب شکّهم فی القیامه و الجزاء،و کلّ إنسان یشک فی جزاء أعماله لا یتحمّل المسؤولیه تجاهها،بل و یعیش متهاونا فی حیاته ممّا یعمّق الضلاله عنده، حتی یصل الی حدّ بعید فی الضلال لا یمکنه معه الاهتداء الی أدنی مراتب الحق.

ص:۳۱۸

[سوره الشوری (۴۲): الآيات ۱۹ الی ۲۲]

اشاره

اَللّٰهُ لَطِيفٌ بِعِبٰادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰاءُ وَ هُوَ اَلْقَوِيُّ اَلْعَزِيزُ (۱۹) مَنْ كٰانَ يُرِيدُ حَرْثَ اَلْآخِرَهِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كٰانَ يُرِيدُ حَرْثَ اَلدُّنْيٰا نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ مٰا لَهُ فِي اَلْآخِرَهِ مِنْ نَصِيبٍ (۲۰) أَمْ لَهُمْ شُرَكٰاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ اَلدِّينِ مٰا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اَللّٰهُ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَهُ اَلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ اَلظّٰالِمِينَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۲۱) تَرَى اَلظّٰالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّٰا كَسَبُوا وَ هُوَ وٰاقِعٌ بِهِمْ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فِي رَوْضٰاتِ اَلْجَنّٰاتِ لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ اَلْفَضْلُ اَلْكَبِيرُ (۲۲)

اللغه

۲۰[حرث الآخره]:أی زرعه،فكأنّ العمل بذر يعطی هناك ثماره.

ص:۳۱۹

أَمْ لَهُمْ شُرَكٰاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ

هدى من الآيات:

خشيه الإنسان من أن يفوته رزقه،و بالتالى سعيه من أجل الحصول عليه، و كذلك اتباعه الشرائع البشريه الضاله،هما من العوامل الأساسيه التى تفرّق المجتمعات عن الدين الحق،و إذ يبيّن القرآن خطورتهما يعالج مرض النفس ببعث الاطمئنان فيها عبر التأكيد على ضمان اللّه للرزق،كما أنّه يداوى مرض الحرص بالتحذير من أهوال الساعه،و الترغيب فى نعيم الآخره.

بينات من الآيات:

[۱۹]لقد تكفّل ربنا بالرزق لعباده بما وفّر لهم من وسائل العيش فى الحياه،و لو تدبّرنا فى رزق البشر لعرفنا لطف ربنا،و حسن تدبيره.

اَللّٰهُ لَطِيفٌ بِعِبٰادِهِ قالوا:اللطيف العالم بخفيّات الأمور و الغيوب،و المراد به هنا:الموصل المنافع

ص:۳۲۰

الی العباد من وجه یدقّ إدراکه،و ذلک فی الأرزاق التی قسّمها اللّه لعباده،و حرف الآفات عنهم،و إیصال السرور و الملاذّ إلیهم،و تمکینهم بالقدره و الآلات. (۱)

و یبدو لی أنّ معنی اللطیف أنّه تعالی یدبّر شؤون خلقه بدقّه و یسر و تنوّع حکیم الی حدّ قد یسیر الإنسان فی تطبیقها بدوافع لا تبدو واضحه له،کما أشار القرآن الی ذلک بقوله: وَ مٰا تَدْرِی نَفْسٌ مٰا ذٰا تَکْسِبُ غَداً وَ مٰا تَدْرِی نَفْسٌ بِأَیِّ أَرْضٍ تَمُوتُ (۲)و الکثیر من الناس یخططون لأنفسهم،و لکنهم عند تطبیق ما رسموه یکتشفون عقبات جدیده لم یحتسبوها،بینما یأتیهم ما تمنّوه سعیا من حیث لم یحتسبوا،مما یدلّ علی أنّ ما یدبّره الربّ من شؤونهم أکبر بکثیر مما خوّل إلیهم منها.

و هذا من آیات لطف اللّه فی تدبیر الأمر،

و إلیه أشار الإمام علی علیه السلام :

«عرفت اللّه سبحانه بفسخ العزائم،و حلّ العقود،و نقض الهمم » (۳) و من تدبّر حیاه الناس وجد الکثیر ممن یتمنّون مستقبلا معیّنا ینتهون الی غیره، فالذی قدّر أن یصبح مهندسا أضحی عالما بالدین أو تاجرا،لأنّ اللّه لم یجعل رزقه إلاّ فی هذه المهنه أو تلک،فلما ذا یختلف الناس إذن،و یشعلون نار الصراعات بینهم من أجل لقمه العیش التی یقدّرها اللّه؟! یَرْزُقُ مَنْ یَشٰاءُ و ما دام الرزق مضمونا من عند اللّه فلما ذا اکتساب الموبقات،و ابتداع المذاهب

۱- ۱) مجمع البیان/ج(۹)ص(۲۷).

۲- ۲) لقمان/(۳۴).

۳- ۳) نهج/حکمه(۲۵۰)ص(۵۱۱).

الباطله،و الشرک باللّه عبر تأیید السلطات الظالمه؟ إنّ دوافع الشرک کثیره،و لکن من أبرزها طلب الرزق،و الحدیث المأثور التالی یقصّ علینا حیاه واحد من الذین أشرکوا بربّهم طلبا للرزق الحرام،و کانت نهایتهم السوئی،و فیه عبره مؤثره:

قال الإمام الصادق علیه السلام :

«کان رجل فی الزمن الأوّل طلب الدنیا من حلال فلم یقدر علیها،و طلبها من حرام فلم یقدر علیها،فأتاه الشیطان فقال له:یا هذا إنّک قد طلبت الدنیا من حلال فلم تقدر علیها،و طلبتها من حرام فلم تقدر علیها،أ فلا أدلّک علی شیء تکثر به دنیاک،و یکثر به تبعک؟قال:بلی،قال:تبتدع دینا،و تدعو الیه الناس،ففعل،فاستجاب له الناس،و أطاعوه،و أصاب من الدنیا،ثم فکّر فقال:ما صنعت؟ابتدعت دینا،و دعوت الناس!ما أری لی توبه إلاّ أن آتی من دعوته الیه فأردّه عنه،فجعل یأتی أصحابه الذین أجابوه فیقول لهم:إنّ الذی دعوتکم إلیه باطل،و إنّما ابتدعته،فجعلوا یقولون:کذبت و هو الحق، و لکنّک شککت فی دینک فرجعت عنه،فلمّا رأی ذلک عمد الی سلسله فوتدها وتدا ثم جعلها فی عنقه،و قال:لا أحلّها حتی یتوب اللّه عزّ و جلّ علی،فأوحی اللّه عزّ و جلّ الی نبیّ من الأنبیاء:قل لفلان،و عزّتی لو دعوتنی حتی تنقطع أوصالک ما استجبت لک،حتی تردّ من مات الی ما دعوته الیه فیرجع عنه » (۱)و لو أنّ الإنسان اتبع منهاج الرساله لرزقه اللّه بصوره أو بأخری،قال اللّه:

وَ مَنْ یَتَّقِ اللّهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَحْتَسِبُ . (۲)

۱- ۱) بح/ج(۷۲)ص(۲۱۹).

۲- ۲) الطلاق/(۲-۳).

وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ العزيز هو المهيمن،و السلطان المقتدر الذی یفرض أمره علی الناس.

[۲۰]و لکی یهـذب القرآن دوافع الکسب عنـد الإنسان حتی لا یبعثه نحو الشـرک باللّه و الصـراع مع أقرانه،یقارن بین ما یکتسـبه الإنسان لدنیاه و ما یسعی الیه لآخرته،فیقول:

مَنْ کٰانَ یُرِیدُ حَرْثَ الْآخِرَهِ نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ حیث یبارک اللّه له فی سـعیه الأخروی،و یضاعف له الجزاء عند الحساب، فإذا بعمله یتنـامی من حین قیـامه به حتی یجزی علیه،أو لم یقل ربّنا: مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ کَمَثَلِ حَبَّهٍ أَنْبَتَتْ سَـبْعَ سَـنٰابِلَ فِی کُلِّ سُنْبُلَهٍ مِائَهُ حَبَّهٍ وَ اللّٰهُ یُضٰاعِفُ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِیمٌ . (۱)

و لکن الذی یرید الدنیا بسعیه فإنّه لا یحصل علی کلّ أمانیه و إنّما یحصل علی جزء منها،ثم إنّه یعدم أیّ نصیب له فی الآخره.

وَ مَنْ کٰانَ یُرِیـدُ حَرْثَ الـدُّنْیٰا نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ مٰا لَهُ فِی الْآخِرَهِ مِنْ نَصِـیبٍ إذن فعلیه أن یسـعی من أجل الآخره عبر القرآن الذی لیس فقط یهدی الی العلاج السـلیم بل و أیضا یتضـمّن العلاج بذاته،و هنا یعالج حرص النفس البشریه علی الدنیا بإیصال فکر الإنسان بالآخره من خلال التذکیر بها،و حثّه علی أن لا یجعلها همّه الأکبر فیختلف بسببها مع الآخرین،أو یتصوّرها محور الحیاه الذی

۱- ۱) البقره/(۲۶۱).

يؤوّل الأمور على ضوئه،كما فعل ماركس حين اعتبر الإقتصاد و الطبقيه أساس الصراع.

إنّه لا ـ يمكن علاج مشاكل الإنسان السياسيه و الاجتماعيه و غيرها إلّا إذا ترفّع عن التبعيه المطلقه للـدنيا و لشـهواتها،و لو تساءلنا عن علّه نموّ الرأسـماليه فى أىّ بلـد، الـذى ينتهى الى تسلّط الأغنيـاء على الأمم،لوجـدناه حبّ المال الـذى يجعل الناس عبيـدا و أصحاب الثروه آلهه مزيّفه.

و من جهه أخرى يمهّد للحكم الطاغوتى،فإذا بمجموعه من الناس يتسلّطون على الناس من خلال سيطرتهم على خيرات الشعوب و مواردها الاقتصاديه،الأمر الذى ينتهى الى الفساد السياسـى،و لو فكّرنا عميقا فى عوامل الفساد السياسى فى السياسه،لرأينا الطمع و الخوف و الجهل من أبرز هـذه العوامل.و لعلّ عامل الطمع الناشـئ من حبّ الـدنيا فى رأس القائمه،لا فرق فى ذلك بين النظام الرأسـمالى و الاـشتراكى،فبينما يـدير أصـحاب الثروه ك(روكفلر)من خلال شـركاتهم التى تحتكر الموارد الاقتصاديه الأمريكيه بصوره غير مباشـره،نجد الحزب فى أىّ بلد شـيوعى يدير السياسه من خلال سيطرته على الموارد الاقتصاديه أيضا،و بالتالى السيد الحقيقى هنا و هناك واحد و هو المال،بالرغم من اختلاف طريقه الحصول عليه،ففى النظام الرأسـمالى يحتكر أصـحاب الثروه(و هم فى الواقع أرباب السـلطه الحقيقيه)المال باسم الملكيه الفرديه،بينما نجد فى النظام الشـيوعى يحتكر أصـحاب السلطه الثروه(و هم فى الواقع الرأسماليّون الجدد)باسم الملكيه الجماعيه،و هنا و هناك المال.

و حتى سبب خضوع الشعب واحد و هو حبّه للمال،سواء كان هذا المال بيد الدوله أو كان بيد أصحاب الثروه.

ص:۳۲۴

فمن أجل تلافى معظم الصراعات البشريه لا بد من معالجه نقطه الضعف الرئيسيه عندهم و هى عباده الثروه لكى لا تصبح أداه السلطه الفاسده،و سببا للحروب التى أفنت لحدّ الآن أضعاف ما أفنته سائر أسباب الوفاه كالمجاعات و الأمراض،و الكوارث الطبيعيه،و لو حاولنا التقرّب الى هذه الفكره أكثر يجب أن نعرف بأنّ مصطلح المصالح الأمريكيه،أو المصالح الروسيه أو ما إلى ذلك هو التعبير الواضح عن اللهث وراء الدنيا،أو لم تدفع هذه المصالح الإداره الاميركيه لقتل الملايين فى فيتنام و كمبوديا و السلفادور و..و..؟أو لم تدعوا هذه المصالح الحزب الشيوعى الروسى لقتل الملايين فى أفغانستان و غيرها؟! [۲۱]ثم هل يكتفى الإنسان بخوض الصراعات،و إفساد البلاد و العباد، و حسب؟كلّا..بل يسعى لتبرير تصرفاته و مواقفه من خلال دين يصطنعه لنفسه، و لو درسنا الواقع الثقافى و الإعلامى فى عالم اليوم لانتهينا الى نتيجه واحده،هى أنّ أكثر الأيديلوجيات و الثقافات منتزعه من الواقع المصلحى للإنسان،فمن أجل حمايه مصالحهم تجد هذه الدوله أو ذلك الحزب يبتدعون الأفكار و النظريات المختلفه،فإذا بالصعاليك يؤسّسون نظريه الصراع الطبقى،بينما يبتدع المترفون إديولوجيه النخبه،و القرآن يستنكر هذا النهج و يعتبره صوره من صور الشرك.

أَمْ لَهُمْ شُرَكٰاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللّٰهُ إنّ الشريعه التى ينبغى للإنسان اتباعها و الخضوع لها هى الموحاه من اللّه وحده، أمّا الشرائع و القوانين التى يبتدعها البشر و لا يرتضيها الرب فإنّ اتباعها شرك به عزّ و جل،و التدبر العميق فى هذه الآيه يهدينا الى أنّ الذى يشرّع قانونا مخالفا لشرع اللّه إنّما ينصب نفسه إلها من دونه،و الذى يسمّى فى القرآن دينا ليس القوانين الفيزيائيه و الكيميائيه،إنّما القوانين السياسيه و الاجتماعيه و الاقتصاديه و..و..

التی تحکم الناس،و هذه لا یجوز لأحد أن یسنّ منها شیئا إلاّ علی ضوء شرع اللّه، و من خلال رسالته.

و بعد أن یهدّد القرآن-فی آیه سبقت-الذین یثیرون الصراعات السلبیه،أو یشرّعون القوانین،یتوعّدهم ربنا فی هذه الآیه بعذابه الألیم،محذرا لهم من أنّ تأجیل العذاب لیس دلیلا علی الإهمال،إنّما لأنّه وعدهم بإعطائهم الفرصه لبیان طبیعتهم،و التی لولاها لأخذهم بالعذاب فور المعصیه.

وَ لَوْ لاٰ کَلِمَهُ الْفَصْلِ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّ الظّٰالِمِینَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ و تکاد تتمیّز هذه الکلمات إنذارا،فلو لا عهد اللّه علی نفسه بإعطاء الفرصه لهم لکفت هذه الجریمه(ابتداع نظریه فی غیر إطار الشریعه)سببا للقضاء علیهم قضاء تاما،و لکنّ تلک الکلمه و ذلک العهد یؤجّل العذاب العظیم و لا یرفعه أبدا،و إنّ الشرک ظلم بذاته و هو ینتهی الی الظلم أیضا،إذ لا یمکن للنظام الشرکی أن یکون عادلا أبدا،و نستوحی هذه البصیره من تبدیل کلمه المشرکین بالظالمین.

[۲۲]و فی یوم القیامه حیث تنصب الموازین الحق للجزاء یخاف الظالمون من أعمالهم السیئه التی اجترحوها فی الدنیا،فهی حینئذ تصیر ألوانا من العذاب، و لکن هل یمنع هذا الخوف عنهم شیئا؟کلاّ..بلی.لو أنّهم خافوا من ارتکاب المعاصی فی الدنیا لنفعهم خوفهم لأنّه حینذاک یصیر سببا للتقوی،أمّا یوم القیامه فلا..

تَرَی الظّٰالِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمّٰا کَسَبُوا وَ هُوَ وٰاقِعٌ بِهِمْ أی ینزل علیهم سواء أشفقوا أم لم یشفقوا.

و يأخـذنا القرآن فى المقابل الى منظر مناقض آخر،هو منظر المؤمنين الـذين تحوّل إيمانهم و عملهم الصالـح الى جنه و رضوان من اللّه.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ و أىّ رياض هـذه التى يرزقها المؤمنون؟!دعنا هنا نقرأ شيئا من

كلام أمير المؤمنين عنها..

يقول عليه السلام :

«فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت نفسك عن بـدائع ما أخرج إلى الـدنيا من شـهواتها و لـذّاتها،و زخارف مناظرهـا،و لـذهلت بـالفكر فى اصـطفاق أشـجار،غيّبت عروقها فى كثبان المسك على سواحل أنهارها،و فى تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب فى عساليجهـا و أفنانهـا،و طلوع تلـك الثمـار مختلفه فى غلف أكمامهـا،تجنى من غير تكلّف فتـأتى على منيه مجتنيهـا،و يطاف على نزّالها فى أفنيه قصورها بالأعسال المصـفقّه،و الخمور المروّقه،قوم لم تزل الكرامه تتمادى بهم حتى حلّوا دار القرار،و أمنوا نقله الأسـفار،فلو شـغلت قلبـك أيّهـا المسـتمع بالوصول الى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقه،لزهقت نفسك شوقا إليهـا،و لتحمّلت من مجلسـى هـذا الى مجـاوره أهـل القبور اسـتعجالا بهـا،جعلنـا اللّه و إياكم ممّن يسـعى بقلبه الى منازل الأبرار برحمته » (۱)

ص:۳۲۷

۱- ۱) نهج/خطبه(۱۶۵)ص(۲۳۹).

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۲۳ الی ۲۶]

اشاره

ذٰلِکَ اَلَّذِی یُبَشِّرُ اَللّٰهُ عِبٰادَهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ اَلْمَوَدَّهَ فِی اَلْقُرْبیٰ وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَهً نَزِدْ لَهُ فِیهٰا حُسْناً إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ شَکُورٌ (۲۳) أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَریٰ عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً فَإِنْ یَشَإِ اَللّٰهُ یَخْتِمْ عَلیٰ قَلْبِکَ وَ یَمْحُ اَللّٰهُ اَلْبٰاطِلَ وَ یُحِقُّ اَلْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۲۴) وَ هُوَ اَلَّذِی یَقْبَلُ اَلتَّوْبَهَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ یَعْفُوا عَنِ اَلسَّیِّئٰاتِ وَ یَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ (۲۵) وَ یَسْتَجِیبُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اَلْکٰافِرُونَ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ (۲۶)

ص:۳۲۸

لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً

اشاره

إِلَّا الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ

هدی من الآیات:

فی إطار معالجه القرآن الحکیم للاختلاف معالجه شامله،و بعد أن یردع من اتباع الشرکاء الذین لم یأذن اللّه لهم بالتشریع،یأتی السیاق لیبین:

أوّلا:جزاء الصالحین الذین یجتنبون الطاغوت.

ثانیا:القیاده الشرعیه البدیله المتمثّله فی أقرب الناس الی الرسول نهجا و نسبا، و یبشّر الربّ الذین یقترفون حبّ آل الرسول بزیاده فی الأجر،و أن یشملهم بمغفرته الواسعه و شکره الجزیل.

ثم یبیّن القرآن الحکیم لنا بأنّ طاعه اللّه و موده القربی سوف تجلب للإنسان حسنات فی الدنیا و الآخره،و بعد أن یحدّثنا ربنا عن مقاله افتراها الکفّار فی شأن الرسول یبیّن بأنّ هذا الکلام فاشل و باطل،و السبب أنّ اللّه سبحانه و تعالی هو لذی بعث بالرساله،و لو شاء لمحی هذه الآیه و جاء بآیه أخری،فاللّه هو صاحب

لرساله و ليس الرسول.

ثم يبيّن طائفه من أسماء اللّه سبحانه و تعالى و صفاته الحسنى،منها:قبول التوبه،و العفو عن السيئات،و العلم بأعمال الناس و نواياهم القلبيه.

بينات من الآيات:

اشاره

[۲۳]من العوامل الأساسيه التى تؤدى الى الفرقه بين أبناء المجتمع،هو مرض الحرص على الدنيا الذى يعالجه القرآن فى هذه السوره الكريمه بطرق شتى..و منها أنّه يعظّم فى نفوس المؤمنين الآخره و ما فيها من نعم و خلود حتى يسلّون عن طعام الدنيا.

و نتساءل:لماذا القرآن الحكيم كلّما عالج انحرافا فى حياه الإنسان بيّن حقائق عن الآخره؟ يجيب عن ذلك حديث كريم

مروى عن الإمام زين العابدين عليه السلام يعكس العلاقه بين معالجه النفس و بين التذكره بالآخره،فيقول:

«حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئه » و بالمقابل يكون استصغار الدنيا و تهوينها رمزا لكلّ فضيله،و مدخلا لكل خير.

كما أنّ طريق السيطره على الدنيا و الهيمنه عليها و على ما فيها من خيرات،هو الاستهانه بها.إنّك مثلا لا تستطيع أن تسيطر على سياره تخشى منها،و كذلك إذا خفت من سلطان ظالم فإنّك لن تتمكّن من القضاء عليه،فالهيبه قرنت بالخيبه، و قرن الخوف بالفشل،و هكذا الدنيا حينما نخشاها،و ندور فى فلكها،فإنّنا لن نستطيع السيطره و الهيمنه عليها.

أمّا إذا عكسنا الأمر،و استهنا بالدنيا،و هوّناها فى أنفسنا،و عظّمنا فى المقابل

أنفسنا و أكرمناها،فآنئذ نستطيع أن نسيطر عليهما من دون إسراف أو طغيان.

ذٰلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللّٰهُ عِبٰادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ يبشّرنا اللّه بفضل كبير،و بجنات فيها كلّ ما نريد،و أكرم به وعدا صادقا، و فضلا كبيرا،و لكن هذا الفضل الكبير مقترن بعمل كبير هو الموده فى القربى التى جعلت بمثابه أجر على الرساله،فقال ربنا:

قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ و نتساءل:

۱-ما هو المفهوم من كلمه القربى؟ ۲-لماذا جاء هذا الموضوع فى سياق موضوعات الوحده فى القرآن الحكيم؟ ۳-لماذا لم يأمر القرآن بطاعه ذوى القربى بل بمودتهم؟

أولا:من هم القربى؟

و قد استفاضت الأحاديث حول هذه الآيه و تفسيرها و كيف نزلت،و بالرغم من أنّها تعالج قضيه القياده التى كانت و لا تزال محورا لخلافات المسلمين،إلاّ أنّ تفسير الآيه حظى بقدر كبير من الاتفاق بين علماء المسلمين حسب النصوص التاليه التى ننقلها من تفسير(الدرّ المنثور فى التفسير بالمأثور)للعلاّمه السيوطى،و لأهميتها البالغه نفيض فى بيانها مفصّلا:

أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طريق مقسّم عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال :«قالت الأنصار:فعلنا و فعلنا،و كأنهم فخروا،فقال ابن

عباس رضی اللّه عنهما:لنا الفضل علیکم،فبلغ ذلک رسول اللّه صلی الله علیه و آله فأتاهم فی مجالسهم فقال:یا معشر الأنصار!ألم تکونوا أذلّه فأعزّکم اللّه؟قالوا:بلی.

یـا رسول اللّه،قـال:أ فلاـ تجیبونی؟قـالوا:مـا نقول یـا رسول اللّه؟قـال:ألاـ تقولون ألم یخرجک قومک فآویناک.أو لم یکـذّبوک فصـدّقناک.أو لم یخـذلوک فنصـرناک؟ فما زال یقول حتی جثوا علی الرکب،و قالوا:أموالنا و ما فی أیدینا للّه و رسوله، فنزلت: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ .

و أخرج الطبرانی فی الأوسط و ابن مردویه بسند ضعیف من طریق سعید بن جبیر قال :«قالت الأنصار فیما بینهم لو لا جمعنا لرسول اللّه صلی الله علیه و آله مالاـ یبسط یـده لا یحول بینه و بینه أحـد،فقالوا:یا رسول اللّه إنّا أردنا أن نجمع لک من أموالنا، فأنزل اللّه: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ فخرجوا مختلفین، فقالوا:لمن ترون ما قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله ؟فقال بعضـهم:إنّما قال هذا لنقاتل عن أهل بیته و ننصرهم،فأنزل اللّه: أَمْ یَقُولُونَ افْتَریٰ عَلَی اللّهِ کَذِباً... الی قوله وَ هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَهَ عَنْ عِبٰادِهِ فعرض لهم بالتوبه الی قوله: وَ یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ یَزِیـدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ هم الذین قالوا هذا أن یتوبوا الی اللّه و یستغفرونه ».

و أخرج أبو نعیم و الدیلمی من طریق مجاهد عن ابن عباس رضی اللّه عنهما قال:قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله :

« لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ أن تحفظونی فی أهل بیتی و تودّوهم بی »

و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه بسند ضعیف من طریق سعید بن جبیر عن ابن عباس قال: لمّا نزلت هذه الآیه: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ

عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّـ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبیٰ قـالوا:یـا رسول اللّه من قرابتـک هؤلاء الـذین وجبت مودّتهم؟ قال:علی و فاطمه و ولـداها. » *و أخرج سعید بن منصور عن سعید بن جبیر إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبیٰ قال:قربی رسول اللّه صلی الله علیه و آله .

و أخرج ابن جریر عن أبی الدیلم قال :«لمّا جیء بعلیّ بن الحسین رضـی اللّه عنه أسیرا فأقیم علی درج دمشق،قام رجل من أهل الشام فقال:الحمد للّه الذی قتلکم و استأصلکم،فقال له علی ابن الحسین رضی اللّه عنه:أقرأت القرآن؟قال:

نعم.قال:أقرأت آل حم؟قال:لا.قال:أما قرأت: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبیٰ ؟قال:فإنّکم لأنتم هم؟قال:نعم ».

و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس:« وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَهً »قال:الموده لآل محمد صلی الله علیه و آله ،

و أخرج أحمـد و الترمذی و صـحه و النسائی و الحاکم عن المطلب بن ربیعه رضـی اللّه عنه قال :دخل العباس علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله فقـال:إنّا لنخرج فنری قریشا تحدّث فإذا رأونا سـکتوا،فغضب رسول اللّه صـلی الله علیه و آله و درّ عرق بین عینیه، ثم قال:

«و اللّه لا یدخل قلب امرئ مسلم إیمان حتی یحبکم للّه و لقرابتی »

و أخرج مسلم و الترمذی و النسائی عن زید بن أرقم:ان رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال:

«أذکرکم اللّه فی أهل بیتی »

و أخرج الترمذی و حسّنه و ابن الأنباری فی المصاحف عن زید بن أرقم رضی اللّه عنه قال:قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله :

ص:۳۳۳

«إنّى تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدى أحدهما أعظم من الآخر كتاب اللّه حبل ممدود من السماء الى الأرض،و عترتى أهل بيتى و لن يتفرّقا حتى يردا علىّ الحوض،فانظروا كيف تخلّفونى فيهما »

و أخرج الترمذى و حسّنه و الطبرانى و الحاكم و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس:قال:قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :

أحبّوا اللّه لما يغذوكم به من نعمه،و أحبّونى لحبّ اللّه،و أحبّوا أهل بيتى لحبى و أخرج البخارى عن أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه قال ارقبوا محمد صلى الله عليه و آله فى أهل بيته،و

اخرج ابن عدى عن أبى سعيد قال:قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :

«من أبغضنا أهل البيت فهو منافق »

و أخرج الطبرانى عن الحسن بن على قال:قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :

«لا يبغضنا أحد و لا يحسدنا أحد إلاّ ذيد يوم القيامه بسياط من نار »

و أخرج أحمد و ابن حبات و الحاكم عن أبى سعيد قال:قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله :

«و الذى نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلاّ أدخله اللّه النار »

و أخرج الطبرانى و الخطيب من طريق ابن الضحى عن ابن عباس قال :جاء العباس إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال:إنّك قد تركت فينا ضغائن منذ صنعت الذى صنعت،فقال النبى صلى الله عليه و آله :

«لا يبلغوا الخير أو الإيمان حتى يحبّوكم »

و أخرج الخطيب عن طريق أبی الضحی عن مسروق عن عائشه رضی اللّه عنها قالت :أتی العباس بن عبد المطلب رسول اللّه صلی الله علیه و آله فقال:یا رسول اللّه إنّا لنعرف الضغائن فی أناس من قومنا من وقائع أوقعناها،فقال:

«أما و اللّه إنّهم لن یبلغوا خیرا حتی یحبّوکم لقرابتی.ترجو سلیم شفاعتی و لا یرجوها بنو عبد المطلب؟! » (1)و یتساءل البعض:کیف طلب رسول اللّه علی رسالته أجرا،أ فلم تکن له أسوه بسائر الأنبیاء-علیهم السلام-الذین اتفقت کلمتهم علی ألاّ یطالبوا أممهم بأجر، قال اللّه سبحانه علی لسان أکثر من نبی: وَ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلیٰ رَبِّ الْعٰالَمِینَ . (2)

و قد حدی هذا الاعتراض ببعض الرواه الی تغییر التفسیر السابق الی تفاسیر أخری،بعضها بعیده عن قیم الرسالات الإلهیه.

و لکن إذا عرفنا أنّ الإسلام هو آخر تجلّ لنور الرساله،و أنّه کان بحاجه الی قیاده شرعیه نابعه من قیمه الربّانیه،تحافظ علیه من زیغ المترفین،و إلحاد الطغاه، و ضلاله الجاهلین،و أنّ اللّه الذی أحکم تدبیره فی خلقه قد اختار لرسالته من یحمل مشعلها من أهل بیت الرسول کما اجتبی من آل إبراهیم و آل یعقوب من یحمل مشعل الرساله من بعدهما..

إذا عرفنا کلّ ذلک فإنّنا نهتدی الی الحکمه البالغه وراء جعل الموده فی القربی أجرا للرساله،إذ أنّ الهدف منها ولاء القیاده الشرعیه التی تحمل مشعل الرساله، فمن أراد أن یشکر رسول اللّه علی الأذی الکبیر الذی یتحمّله من أجل تبلیغ الرساله

۱- ۱) الدر المنثور فی التفسیر بالمأثور/ج(۶)ص(۷).

۲- ۲) نجد ذات الآیه مکرّره فی سوره الشعراء،فی الآیات:(۱۸۰،۱۶۴،۱۴۵،۱۲۷،۱۴۹).

حتی

قال صلی الله علیه و آله :

«ما أوذی نبیّ مثل ما أوذیت » فلا شکر أفضل من محبه أهل بیته الذین یحملون ذات الرساله و یبلّغونها للناس..و هکذا یکون أجر الرساله فی مصلحه الناس أنفسهم،و لهذا قال ربّنا سبحانه: قُلْ مٰا سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ .

و لأنّ البعض لم یستوعبوا هذه الحکمه تکلّفوا فی تفسیر الآیه بما لا یتناسب و سیاقها،فقالوا:لأنّ نبیّنا صلی الله علیه و آله کان من أوسط قریش نسبا،و کانت له قرابه فی أکثر قبائلها،فقد سألهم أن یودّوه لأجل قرابته معهم،

و قد نقل هذا التفسیر عن ابن عباس فی الحدیث التالی :

«إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله کان واسط النسب فی قریش،لیس بطن من بطونهم إلاّ و قد ولدوه فقال اللّه: قُلْ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً علی ما أدعوکم الیه إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ تودّونی لقرابتی منکم،و تحفظونی بها » (1)و عندی أنّ هذه النصوص لا تصلح تفسیرا للقرآن للأسباب التالیه:

۱-إنّ الآیه من محکمات الذکر التی لا تدع شکّا فی معناها لمن تدبّر فیها و فی سیاقها من الآیات،و المحکم لا ریب فیه،و لا یجوز أن نتحوّل عنه اعتمادا علی الحدیث.

۲-إنّ دعوه الرسول کانت خالصه للّه و طاهره من کلّ قیمه مادیه و عصبیه عشائریه فکیف یدعو قومه لاتباعه باسم العصبیه و لأنّه ینتسب إلیهم،فهل تصلح

۱- ۱) المصدر/ص(۶).

لـداعيه من سائر الدعاه اليوم أن يدعو ابنه إلى اتباعه لأنّه أبوه مثلا،أو يدعو عشـيرته لقبول الإسـلام لأنّه قريب نسبيّا إليهم،و أكثر الأنبياء كانوا من بنى قومهم،فلما ذا لا نجـد مثل هـذا الكلام من أىّ واحد منهم،و إنّما نجد الجميع يؤكّدون بأنّهم لا يطالبون من قومهم أجرا.

۳-إنّ الجمله قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِي الْقُرْبىٰ حسب تلـك النصوص لاـ تبـدو متناسـقه،فمـا هى العلاقه بين أجر الرساله و بين قبول الدعوه بسبب الموده فى القربى،أليس هذا يشابه كلام من يأمر بالصلاه و يقول:

لا أسألكم أجرا إلّا أن تصلّوا لأنّى أخوكم؟! و لعـدم تناسق المعنى نجـد الـذين يـذهبون الى هذا الرأى يختارون فى كيفيه ربط معنى الأجر بفكره قرابه الرسول مع قريش.

۴-و أخيرا إنّ الأحاديث التى رويت فى تفسير الآيه بموده آل بيت الرسول أكثر عـددا،و أقوى سـندا،و أشـد تماسـكا،لو قسـناها بالروايـات الأخرى التى لاـ تماسک بينها،إذ أنّها مختلفه اختلافا كبيرا،بينما تفسّر الآيه بهـذا المعنى،أو بأنّ الرسول طالبهم بطاعه اللّه(علينا أن نبحث إذا عن كيفيه استفاده ذلک من كلمه الموده فى القربى) أو فسّرها بأن تودّوا اللّه،و أن تتقرّبوا إليه بطاعته. (۱)

و بتفصيل أكثر:

الروايات التى وردت عبر مختلف الفرق الإسـلاميه حول تفسـير هـذه الآيه بآل البيت تبلغ أكثر من(۴۴)حديثا،روى زهاء(۱۹)منها عن طريق أهل البيت عليه السلام و فى كتب شيعتهم (۲)و روى(۲۶)حديثا من سائر كتب الحديث.

ص:۳۳۷

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) راجع تفسير نور الثقلين/ج(۴)ص(۵۷۰-۵۷۶).

بینما یبلغ مجمل الروایات المعارضه لها(۶)أحادیث فقط،و فیها اختلاف کبیر،بل نجد فی روایه منها ینسب الی سعید بن جبیر الرأی المشهور المخالف لتلک النصوص.

فهل یجوز ضرب(۴۴)حدیثا موحّدا فی المعنی ب(۶)أحادیث مختلفه فیما بینها أشدّ الاختلاف؟علی أنّ کلمه«القربی»وردت فی(۱۵)موضعا من القرآن بمعنی أقارب الفرد،ممّا یؤیّد ذات المعنی هنا أیضا،علی أنّ هذه الأحادیث لیست نصوص شرعیه،لأنها لم ترو عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله ،و إنّما هی اجتهادات الجیل الأوّل من المفسّرین،بینما الطائفه الأولی من النصوص مرویه فی الأغلب عن شخص رسول اللّه،و من هنا نجد المفسّر المعروف الشوکانی یقول فی تقریر هذا المعنی:و لکنه یشدّ من عضد هذا.إنّه تفسیر مرفوع الی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و إسناده عند أحمد فی المسند هکذا:حدّثنا حسن بن موسی حدثنا قزعه بن سوید عن ابن أبی نجیح عن مجاهد عن ابن عباس:أنّ النبی صلی الله علیه و آله ..فذکره،و رواه ابن أبی حاتم عن أبیه عن مسلم بن إبراهیم عن قزعه به،و أخرج ابن المبارک و سعید بن منصور و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه و أبو نعیم فی الحلیه و البیهقی فی الشعب. (۱)

و تساءل الإمام الرازی کیف یجوز للرسول أن یطلب الأجر من أمّته علی تبلیغ الرساله،أ فلا اقتدی نهج إخوته من المرسلین؟فأجاب قائلا:

الجواب عنه من وجهین:(الأوّل):إنّ هذا من باب قوله:

و لا عیب فیهم غیر أنّ سیوفهم بها من قراع الدار عین فلول

المعنی أنا لا أطلب منکم إلاّ هذا،و هذا فی الحقیقه لیس أجرا لأنّ حصول

۱- ۱) تفسیر فتح القدیر/ج(۴)ص(۵۳۷).

الموده بین المسلمین أمر واجب،قال تعالی: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ

و قال صلی الله علیه و آله :

«المؤمنون کالبنیان یشدّ بعضهم بعضا ».

و الآیات و الأخبار فی هذا الباب کثیره،و إذا کان حصول الموده بین جمهور المسلمین واجبا فحصولها فی حقّ أشرف المسلمین و أکابرهم أولی،و قوله تعالی:

قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ تقدیره و الموده القربی لیست أجرا،فرجع الحاصل الی أنّه لا أجر البته(و الوجه الثانی)فی الجواب:أنّ هذا استثناء منقطع،و تمّ الکلام عند قوله: قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ثم قال:« إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ »أی لکن أذکّرکم قرابتی منکم،و کأنّه فی اللفظ أجر و لیس بأجر.

و مضی المفسّر المعروف قدما فی تقریر الجواب

و قال:نقل صاحب الکشّاف عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال :

«من مات علی حبّ آل محمد صلی الله علیه و آله مات شهیدا،ألا و من مات علی حبّ آل محمد صلی الله علیه و آله مات مغفورا له،ألا و من مات علی حبّ آل محمد صلی الله علیه و آله مات تائبا، ألا و من مات علی حبّ آل محمد مات مؤمنا مستکمل الإیمان،ألا و من مات علی حبّ آل محمد بشّره ملک الموت بالجنه ثم منکر و نکیر،ألا و من مات علی حبّ آل محمد یزف الی الجنه کما یزف العروس الی بیت زوجها،ألا و من مات علی حبّ آل محمد فتح له فی قبره بابان الی الجنه،ألا و من مات علی حبّ آل محمد جعل اللّه قبره مزار ملائکه الرحمه،ألا و من مات علی حبّ آل محمد مات علی السنّه و الجماعه،ألا و من مات علی بغض آل محمد جاء یوم القیامه مکتوبا بین عینیه آیس من رحمه اللّه،ألا و من مات علی بغض آل محمد مات کافرا،ألا و من مات

علی بغض آل محمـد لم یشم رائحه الجنه. » هـذا هو الـذی رواه صاحب الکشّاف،و أنا أقول آل محمد صـلی الله علیه و آله هم الذین یؤول أمرهم إلیه،فکلّ من کان أمرهم الیه أشدّ و أکمل کانوا هم الآل،و لا شک أنّ فاطمه و علیّا و الحسن و الحسین کان التعلّق بینهم و بین رسول اللّه صـلی الله علیه و آله أشـدّ التعلّقـات،و هـذا کـالمعلوم بالنقـل المتواتر فوجب أن یکونوا هم الآل،و أیضا اختلف الناس فی الآل فقیل هم الأقارب و قیل هم أمّته،فإن حملناه علی القرابه فهم الآل، و ان حملناه علی الامه الذین قبلوا دعوته فهم أیضا آل،فثبت أنّ علی جمیع التقدیرات هم الآل،و أمّا غیرهم فهل یدخلون تحت لفظ الآل؟فمختلف فیه،و

روی صـاحب الکشـاف: أنّه لمّا نزلت هـذه الآیه قیل:یا رسول اللّه من قرابتک هؤلاء الـذین وجبت علینا مودّتهم؟فقال:علی و فـاطمه و ابناهمـا،فثبت أنّ هؤلاء الأربعه أقارب النبی صـلی الله علیه و آله ، و إذا ثبت هـذا وجب أن یکونوا مخصوصـین بمزید التعظیم، و یدلّ علیه وجوه:(الأول):قوله تعالی: إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی ،و وجه الاستدلال به ما سبق،(الثانی):لا شک أنّ النبی صلی الله علیه و آله کان یحبّ فاطمه علیها السلام،

قال صلی الله علیه و آله :

«فاطمه بضعه منی یؤذینی ما یؤذیها ».

و ثبت بالنقـل المتواتر عن محمـد صـلی الله علیه و آله أنّه کـان یحبّ علیّا و الحسن و الحسـین،و إذا ثبت ذلک وجب علی کل الأمه مثله لقوله: وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ و لقوله تعالی:

فَلْیَحْذَرِ الَّذِینَ یُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ و لقوله: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللّهُ و لقوله سـبحانه: لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (الثانی) أنّ الدعاء للآل منصب عظیم،و لذلک جعل هذا الدعاء خاتمه التشـهد فی الصلاه، و هو قوله:اللهم صلّ علی محمـد و آل محمـد،و ارحم محمد و آل محمد،و هذا التعظیم لم یوجد فی حقّ غیر الآل،فکلّ ذلک یدل علی أنّ حبّ آل محمد واجب،و قال

الشافعی رضی اللّه عنه:

یا راکبا قف بالمحصب من منی و اهتف بساکن خیفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجیج الی منی فیضا کما نظم الفرات الفائض

إن کان رفضا حبّ آل محمد فلیشهد الثقلان أنّی رافضی (۱)

ثانیا:موده القربی فی سیاق الوحده:

لماذا أمرنا بموده القربی فی هذا السیاق الذی یحدّثنا عن نبذ الخلاف،و التمسّک بالوحده؟ حین نتدبر فی مجمل آیات الذکر نجد سیاقها لا یذکّرنا بالداء إلاّ و یشفعه ببیان الدواء،فإذا کان داء الاختلاف ناشئا من التشریع البشری،کما قال ربنا: أَمْ لَهُمْ شُرَکاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّینِ ما لَمْ یَأْذَنْ بِهِ اللّهُ فإنّ دواء الاختلاف هو مودّه القربی الذین هم امتداد قیاده الرسول،فأفضل الناس أقربهم الی الرسول منهجا و عملا(و هم أهل بیته ثم العلماء من أمته الأمثل فالأمثل)و هم البدیل الإلهی للشرکاء الذین یشرّعون بغیر إذن اللّه.

فمن اتبع القیاده الشرعیه التی أمر اللّه باتباعها کان کمن رکب سفینه نوح أمن و نجی،و من خالفها فقد تخلّف عن السفینه فغرق فی طوفان الشرک و الهوی.

و نجد هذا المنهج فی قول ربّنا سبحانه فی سوره آل عمران: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِیعاً وَ لاٰ تَفَرَّقُوا .

فلا بد إذا من حبل اللّه نعتصم به حتی نوحّد صفوفنا،و هو قیاده الرسل

۱- ۱) التفسیر الکبیر للإمام الفخر الرازی/ج(۲۷)ص(۱۶۵-۱۶۶).

و أوصيائهم،ثمّ الأمثل فالأمثل من شيعتهم و التابعين لنهجهم.

و من هنا نعرف أنّ الموده هنا هی ضمان الطاعه،فلو لا حبّ اللّه ما تیسّرت للعبد طاعته،و لو لا حبّ الرسول ما سهل علی المسلمین اتباعه،و لو لا حبّ آل الرسول ما تسنّی للمؤمنین التمسّک بهم،ذلک لأنّ الحب هو ذلک الانسجام النفسی الذی یحدث بین شخصین،و هو یقتضی الطاعه للحبیب بشوق و بلا تکلّف،یقول الشعر الحکیم:

تعصی الإله و أنت تزعم حبّه هذا لعمرک فی الفعال بدیع

لو کان حبّک صادقا لأطعته إنّ المحبّ لمن یحبّ مطیع

و جاء فی الحدیث المأثور عن الإمام الصادق علیه السلام :

«و هل الدین إلاّ الحب ».

و کثیره آیات الذکر و أحادیث الرسول التی تأمر بطاعه القیاده الشرعیه المتمثّله فی أهل البیت-علیهم السلام-کقوله تعالی: أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ ،و قوله سبحانه: وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَی الرَّسُولِ وَ إِلیٰ أُولِی الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِینَ یَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ .

و قول الرسول صلی الله علیه و آله :

«النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق،و أهل بیتی أمان لأمتی من الاختلاف فی الدین » (1).

۱- ۱) تفسیر نمونه نقلا عن الحاتم فی المستدرک ص(۱۴۹)حیث عقّب علیه هذا حدیث صحیح الإسناد،و لم یخرجاه(أی البخاری و مسلم).

و مثل

حديث الثقلين المجمع عليه:

«إنّى تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه،و عترتى أهل بيتى » إلاّ أنّ النصوص التى استفاضت بها كتب التفسير و الحديث و التاريخ هى التى تبيّن فضيله حبّ أهل البيت، لأنّ الحب أعظم درجه من الطاعه،فقد تطيع شخصا مكرها،و لكن إذا أحببته فإنّ طاعتك له تكون أيسر و أسمى،ألا ترى كيف أنّ اللّه يصف أفضل عباده(و هم حزبه المفلحون)بأنّهم يحبّون اللّه و يحبّهم اللّه فيقول:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكٰافِرِينَ .

بلى.حبّ اللّه أسمى درجات الإيمان،و حبّ الرسول و أهل بيته أسمى درجات التسليم للحق و التمسك بحبل اللّه،و بالتالى أفضل ضمان للوحده.

ثالثا:لماذا المودّه بالذات؟

و يستدرجنا السياق الى السؤال الثالث:لماذا أمرنا السياق هنا بالموده للقربى بينما كلمه الطاعه أكثر صراحه و أقرب الى حسم الخلاف؟و لعلّ الإجابه الصحيحه تلخّص فى أمرين:

أوّلا:لأنّ جذر الاختلاف بين الناس كامن فى القلب،و أعظم أسبابه الحب و البغض،فالكبر و الحسد و العصبيات القبليه و القوميه و السياسيه و الأحقاد المتوارثه و الجهالات العقيمه هى وراء أكثر الاختلافات،و إذا لم تزكّ القلوب من آثارها فإنّ الخلاف لا يقضى عليه حتى فى إطار الأهداف الواحده و المصالح المشتركه.

و ممّا يساهم فى تصفيه جزء كبير من أمراض القلب حبّ أولياء اللّه حيث يغمر نوره القلوب فيفيض حتى يشمل طائفه المحبّين جميعا.

ص:٣٤٣

إنّ حبّ الرسول يجعلنا نحب كلّ تابعيه،و حبّ أهل بيته يسرى الى محبّيهم حتى يصبحوا حزبا إلهيّا واحدا،و يتحابّوا فى اللّه،و يتزاوروا فى اللّه،و يتعارفوا فى سبيل اللّه.

هكذا شبّه الرسول حبّهم بسفينه نوح التى وحّدت بين راكبيها،كما حملتهم الى برّ الأمان.

إنّهم الحبل الذى يشدّ أزر المتمسّكين ببعضهم،إنّهم النجوم التى توحّد مسيره المهتدين بهم.

و لأنّ طاعه أهل البيت،و التمسّك بالقياده الشرعيه الرائده،تقتضى جهاد المشركين،و مقاومه الطغاه و المترفين،و تحدى تيّار الفساد و الضلال،و بالتالى تقتضى هذه الطاعه الجهاد و الإيثار و الشهاده،فقد جعل اللّه منطلقه الحب الذى به يسهل كلّ صعب،بل و يتلذّذ الحبيب بما يبذله فى سبيل من يحب.ألم تر كيف يصبر المجاهدون فى سجون الطغاه على أقسى ألوان التعذيب،ثم يقولون كما

قال حبيبهم محمد صلى الله عليه و آله :

«إلهى إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى » ألم يأتك نبأ أهل الإيثار فى سوح القتال،كيف استساغوا شراب الموت، و كان عندهم أشهى من العسل،لأنّهم اتبعوا نهج إمامهم الحسين عليه السلام الذى قال و هو يعالج سكرات الموت تحت ركام من السيوف و الخناجر و السهام و الحجاره، و قد اشتد به العطش،و وتر بأفضل أهل بيت و أبرّ أصحاب،

قال :

«إلهى رضا برضاك،لا معبود سواك » و قالوا على لسانه:

ص:۳۴۴

ترکت الخلق طرا فی هواک و أیتمت العیال لکی أراک

فلو قطّعتنی بالحبّ إربا لما مال الفؤاد إلی سواک

ثانیا:الطاعه الحقیقیه هی للّه و أمّا الموده ففی القربی،نحن لا نطیع القیاده لذاتها أنّی کانت،إنّما نطیعها لأنّها امتداد لولایه اللّه سبحانه و تعالی.

الطاعه لیست إلاّ للّه و لمن أمر اللّه،و هذا یتناسب و أجر الرساله،لأنّ أجر الرسول هو أن یستمر نهجه،حیث کان یتطلّع نحو بقاء خطّه الرسالی فی الأمّه، و هذا کان أهمّ أجر تقدّمه الأمه الإسلامیه لرسول اللّه الذی ما ونی لحظه عن تبلیغ رسالات ربه،و لا ادّخر وسعا حتی أمره اللّه بألاّ یهلک نفسه حزنا علیهم،و قال:

فَلَعَلَّکَ بٰاخِعٌ نَفْسَکَ عَلیٰ آثٰارِهِمْ إِنْ لَمْ یُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِیثِ أَسَفاً و قال: طه مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقیٰ .

و إنّی أعتقد بأنّ کثیرا من أبناء الأمّه الإسلامیه قد أقرّوا عینی رسول اللّه صلی الله علیه و آله ،فالذین استشهدوا فی صفّین مع الإمام علی علیه السلام ، و الذین استشهدوا فی کربلاء مع الإمام الحسین علیه السلام ،و الذین دافعوا عن خطّ الرساله علی امتداد التاریخ و خلال(۱۴)قرنا و حتی الیوم..و المعذّبون فی السجون،و شهداء الحق، و المجاهدون فی کل حقل،هم شهود علی ما أقول.إنّهم قدّموا لرسول اللّه الأجر، و لیس من الصحیح أن ننظر الی الجانب السلبی من التاریخ،فلیس من المنطقی أن نفتّش فی اللیل عن الظلام فکل العالم ظلام،و لکن یبهر أبصارنا فیه نور القمر، و یلفت انتباهنا ضیاء النجوم.

وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِیهٰا حُسْناً توجد فی هذه الجمله لفته فنیه بالغه اللطف و الدقّه تترکز فی کلمه«یقترف»،

فهذه الكلمه عاده ما تأتی مقارنه للسیئه و لیس للحسنه،حتی قالت العرب (الاعتراف یزیل الاقتراف)،فما هو السر فی استعمالها هنا؟ إنّ الاقتراف معناه السعی المکثّف للقیام بشیء صعب،و أصل الکلمه نزع لحی الأشجار أو الجلد الإضافی من الجسم،و لعلّها استخدمت هنا لأنّ السیاق یهدی الی طاعه أولی القربی و مودتهم و هی حسنه بالغه الصعوبه،فمن أجل تطبیق هذه الآیه الکریمه أریقت دماء،و أطیحت برؤوس،فلیس کلّ إنسان أهلا لأن یکون من أصحاب الموده.

إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ شَکُورٌ أی أنّ اللّه سوف یقدّر هذا العمل البطولی الشجاع،و یغفر لصاحبه ذنوبه.

و هکذا

روی عن الإمام الحسن المجتبی علیه السلام أنّه قال :

«فاقتراف الحسنه مودّتنا أهل البیت » (۱).

کما

روی عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال :

«إنّما نزلت فینا خاصّه أهل البیت فی علی و فاطمه و الحسن و الحسین و أصحاب الکساء علیهم السلام» (۲).

و روی مثل ذلک عن ابن عباس.

و کلمه أخیره:لماذا اختار اللّه أولی القربی لقیاده الأمه؟هل لأنّهم من صلب الرسول،و قد أراد ربّنا إکرام نبیّه العظیم بذلک،و إیتاء بعض أجره فی الدنیا،

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)ص(۵۷۳).

۲- ۲) المصدر/ص(۵۷۲).

ليبقى ذكره العطر فوّاحا فى كلّ عصر،و لكى يتحقّق بالتالى ما بشّر ربّنا به الرسول حين قال: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ،و نهر أعداءه حين قال: إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ،فهذه سلاله الرسول تزيّن مجالس المسلمين فى كلّ عصر.

بلى.و لكن ليس هذا سبب اختيارهم قاده،لأنّه ليس كلّ من انتسب الى الرسول صلى الله عليه و آله يصلح للإمامه،إنّما كان أشخاص معيّنون بالصفات و الأمثال اجتباهم اللّه لإمامه المسلمين،و أشارت إليهم الآيات،و ذكرتهم النصوص،و كانوا هم الأقربون الى رسول اللّه نهجا و سلوكا،قبل أن يكونوا الأقربين إليه نسبا و صهرا،و هم على و فاطمه و الحسن و الحسين عليهم السلام،و حين نستقرأ كتب التاريخ و الحديث لمختلف الفرق الإسلاميه نجدها تؤكّد بأنّ أقرب الناس خلقا و خلقا و علما و عملا الى رسول اللّه صلى الله عليه و آله هم أهل بيته الذين نزلت فيهم الآيه، و سمّاهم الرسول اسما اسما،كما سبق فى النصوص المتقدّمه،و ليس كل من انتسب الى رسول اللّه بنسب الدم و القرابه.

فإذا أكرمنا الصّدّيقه فاطمه الزهراء فليس فقط لأنّها بنت رسول اللّه(و للبنت كرامتها)و إنّما القيمه المثلى فيها هى أنّها الصّدّيقه الكبرى التى جسّدت رساله النبى فى حياتها،و كذلك الإمام على عليه السلام ،فنحن لا نكرم العباس عمّ النبى بقدر ما نكرم ابن عمّه علىّ بن أبى طالب لأنه الأقرب إليه نهجا و سلوكا.

و كذلك أولاد على عليه السلام،فله سبعه عشر ولدا نكرم بينهم الإمامين الحسن و الحسين ليس فقط لأنّهما سبطى رسول اللّه و ابنى فاطمه الزهراء،بل لأنّهما سيّدا شباب أهل الجنه بما قدّماه للإسلام من عطاء..و من هنا ننطلق الى الحلقه الثانيه و هم الأقرب الى خط الرسول صلى الله عليه و آله من أصحابه،و الأقرب الى خط الإمام على عليه السلام من أصحابه،و الأقرب الى خط الحسن و الحسين و فاطمه الزهراء و الأئمه

عليهم الصلاه و السلام من أصحابهم،ثم الأقرب الى خطّهم فى التاريخ،و من هنا

جاء فى الحديث المعروف :

«العلماء ورثه الأنبياء » من هم العلماء الذين يشير إليهم هذا الحديث؟إنّهم أولئك الذين يسيرون فى خط رسول اللّه و أهل بيته،لأنّ القرآن يقول: إِنَّ أَوْلَى النّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ،وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فأولى الناس بإبراهيم ليس أبناء إبراهيم،و إنّما هم الذين اتبعوا إبراهيم عليه الصلاه و السلام.

و كذلك أولى الناس بمحمّد و آله هم الذين اتبعوهم و اتخذوهم قدوه لهم،و من هنا

جاء فى الحديث المأثور عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام :

«ولايتى لمحمّد أحبّ إلىّ من ولادتى منه ».

بلى.حين يريد اللّه أن يجعل رسالته فى ذريّه طيّبه بعضها من بعض،يختار ذريّه الرسول أكرم الخلق عنده،و أفضلهم لديه،فيطّهرهم من الدنس،و يذهب عنهم الرجس،و يصطفيهم لدينه،كما اصطفى آل إبراهيم و آل عمران شخصا شخصا.

و هكذا اجتبى ربّنا أئمه هذه الأمّه من آل الرسول صلى الله عليه و آله .

[۲۴]كلّما ذكّرنا ربّنا بأمر عظيم نهر المكذّبين بالقرآن الذين اتهموا رسوله بالافتراء،لماذا؟لأنّ التبرير الشائع الذى يلتجئ إليه مرضى القلوب للهروب من مسئوليات قبول أوامر الرساله المستصعبه هو التكذيب بها،و هكذا حين جاء الأمر بأداء أجر الرساله فى المحافظه عليها عبر مودّه القربى ثارت عصبيه البعض،و قالوا:

إنّما قال هذا لنقاتل عن أهل بيته و ننصرهم،فأنزل اللّه: أَمْ يَقُولُونَ (۱).

۱- ۱) الدرّ المنثور/ج(۶)ص(۶).

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرىٰ عَلَى اللّهِ كَذِباً إنّه لقول عظيم،كيف ينسبون الى رسول اللّه الصادق الأمين الكذب، و بالذات حين يتمثّل فى الافتراء على اللّه،و هم يعرفون مدى تفانيه فى اللّه؟ ثم هل من المعقول أن يدع اللّه رسوله الذى اختاره بعلم،و أسبغ عليه نعمه الرساله،و أولاه بالنصر،و أظهر على يده الآيات،هل يدعه يتقوّل عليه؟!كلاّ..

إنّه إن يشأ يعاقبه،و أبسط العقاب هو سلب رسالته منه،بأن يختم على قلبه فلا يكاد يعرف شيئا.

فَإِنْ يَشَإِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلىٰ قَلْبِكَ و نستوحى من الايه:إنّ من يفترى على اللّه يعاقبه اللّه بالختم على قلبه،فيسلبه حلاوه مناجاته،و لذّه التقرّب إليه.

و من سنن اللّه فى الحياه إزهاق الباطل،و إحقاق الحق..و هذا دليل على أنّ رساله اللّه حق،و رسوله صادق أمين.

وَ يَمْحُ اللّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إنّ من أدلّه صحه الرساله أنّ كلمات اللّه فى القرآن ليست من أجل الرسول أو من أجل قومه و عشيرته أو مصالحه،أو مصالح فئه معيّنه،إنّما من أجل الحق، تتطابق مع السنن الجاريه فى الخلق،فهى باقيه،بينما الثقافات الأخرى تنتهى حينما تزول عوامل نشوئها،فإذا كانت ناشئه الطبقيه أو العنصريه أو القوميه زالت حين تتبدّل الدوله الحاكمه،و إذا كانت ناشئه الخرافات و الجهالات و العصبيّات زالت بزوالها،و هكذا ترى كلمات اللّه فى القرآن لا تؤثّر فيها المتغيّرات أنّى كانت،

ص:۳۴۹

لأنّها ناشئه الحق الذی لا یتغیّر،مما یدلّ علی أنّ هذا القرآن هو الصحیح،و أنّ تلک الثقافات هی الباطله.

إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ إنّ اللّه یعلم ما فی صدورنا لذلک فهو یعالج الجوانب السلبیه ممّا فی صدورنا بالجوانب الإیجابیه،یعالج شهواتنا و أهواءنا بما أرکزه فی قلوبنا من العقل و المعرفه.

[۲۵]مهما کان الإنسان حذرا فإنّه لا یمکنه اتقاء السقطات،و هذا دلیل علی أنّ الإنسان لیس بإله،و أنّ الضعف طبیعه فیه،لذلک فإنّ اللّه یقبل التوبه عن عباده.أو لیس هو الخالق و یعلم تکوین الإنسان الجسمی و النفسی،و أنّه ضعیف أمام أمواج الشهوات،و ضغوط الحیاه؟و لکنّ المؤمنین هم الذین یستعیدون إیمانهم بسرعه،و ینهضون من سقطتهم،بالتوبه الی اللّه،لما یعرفونه من عظیم مغفرته، و واسع رحمته.

وَ هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَهَ عَنْ عِبٰادِهِ فإذا عادوا إلیه استقبلهم بترحاب.

وَ یَعْفُوا عَنِ السَّیِّئٰاتِ فحینما تفعل سیئه بعد سیئه فإنّ السیئات تتراکم علی ذهنک،و یکون لها آثار سلبیه علی واقعک،و لکن رحمه اللّه الواسعه تأتی لتطهّر قلبک منها.

وَ یَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ فأنت بین التوبه الی ربک أو انتظار عقابه لأنّه یعلم ما تفعل فلا تستطیع کتمانه.

[۲۶] وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ماذا يستجيب لهم؟السياق يوحى بأنّ المؤمنين بولايه اللّه و المسلّمين لإمامه الحق يتعرّضون لضغوط هائله،فإذا انهاروا ثم تابوا قبل اللّه التوبه منهم،و عفى عن سيئاتهم،و إذا طلبوا من ربّهم النصر انتصر لهم،و زادهم من فضله.

و هذا أحد مصاديق الآيه،إلاّ أنّ الآيه تسع كلّ دعوات المؤمنين،و بالذات حين تكون لبعضهم البعض،و قد وردت روايه بذلك حيث فسّرت الآيه بالشفاعه فيما بين المؤمنين،و لا ريب أنّ دعاء المؤمنين لبعضهم نوع من الشفاعه،بل هو الشفاعه.

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال:قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى قوله:

وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ :

«الشفاعه لمن وجبت له النار ممّن أحسن إليهم فى الدنيا » (۱).

و يحفّزنا هذا التفسير على المزيد من التعاون بين بعضنا البعض،لأنّ آثار التعاون تمتدّ من الدنيا حتى الآخره،و لعل الواحد منا قد استحق النار بعمله إلاّ أنّ ربّنا يغفر له بدعاء إخوانه.

أمّا أولئك الذين لم يستجيبوا لنداء اللّه و دعوه الحق فليس لا يستجيب اللّه دعاءهم فحسب،و إنّما هم يعرّضون أنفسهم أيضا لعقاب اللّه و عذابه الأليم.

وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ

۱- ۱) مجمع البيان/ج(۹)ص(۳۰).

[سوره الشوری (۴۲): الآيات ۲۷ الی ۳۶]

اشاره

وَ لَوْ بَسَطَ اَللّٰهُ اَلرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِی اَلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا يَشٰاءُ إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (۲۷) وَ هُوَ اَلَّذِی يُنَزِّلُ اَلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ
مٰا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ اَلْوَلِيُّ اَلْحَمِيدُ (۲۸) وَ مِنْ آيٰاتِهِ خَلْقُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَثَّ فِيهِمٰا مِنْ دٰابَّةٍ وَ هُوَ عَلىٰ جَمْعِهِمْ
إِذٰا يَشٰاءُ قَدِيرٌ (۲۹) وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (۳۰) وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِی اَلْأَرْضِ وَ مٰا لَكُمْ
مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ (۳۱) وَ مِنْ آيٰاتِهِ اَلْجَوٰارِ فِی اَلْبَحْرِ كَالْأَعْلاٰمِ (۳۲) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ اَلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوٰاكِدَ عَلىٰ ظَهْرِهِ
إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ (۳۳) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمٰا كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (۳۴) وَ يَعْلَمَ اَلَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِی آيٰاتِنٰا مٰا لَهُمْ
مِنْ مَحِيصٍ (۳۵) فَمٰا أُوتِيتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَمَتٰاعُ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ مٰا عِنْدَ اَللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۳۶)

اللغه

۳۲[الجوار]:جمع جاريه و هی السفينه سمّيت بها لجريها فی الماء.

[كالأعلام]:جمع علم و هو الجبل الطويل.

ص:۳۵۲

۳۴[أو یوبقهنّ]:أی یهلک السفن بأن یجعل الریح عاصفه حتی تغرقها،و الإیباق الإتلاف و الإهلاک.

وَ لَوْ بَسَطَ اللّهُ الرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ

اشاره

لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ

هدی من الآیات:

لتطهیر القلب من درن الحرص و الکبر،و لاقتلاع جـذور البغی و الخلاف، یـذکّرنا ربّنا-فی هـذه الآیات-بأنّ اللّه إنّما ینزّل الرزق بقـدر لأنّ الناس یبغون علی بعضـهم لو بسط اللّه لهم الرزق،(فتقـدیر الرزق من اللّه،و لا داعی للحرص، و لا للصـراع من أجله،و تحدیده من أجل مصلحه البشر).

(و حریّ بالإنسان التوکّل علی اللّه.ألا یری کیف یرزقه؟).

و هو الذی ینزّل علیه الغیث فی أوقات المحنه حیث یستبدّ به القنوط،فهو الولیّ الحمید(و لا بدّ من النزوع عن الحرص،و تفویض الأمور الیه).

(و کلّمـا عظم الخـالق فی قلب الإنسان تضاءل ما سواه فی عینه،و تواضع للحق أکثر فأکثر.أنظر الی آثار عظمه ربّک)و هو الـذی خلق السموات و الأرض و نشر

فيهما أنواعا لا تحصى من المخلوقات المتحرّكه،و حين يشاء يجمعهم بقدرته.

(و رزق الإنسان كما سائر جوانب حياته يخضع لسعيه و نوعيه عمله)و ما أصاب أحدا من مصيبه فبما كسبته يداه،بينما يعفو عن كثير(فلو عاجلهم بذنوبهم لأفناهم جميعا).

و لا أحد يقدر على منع الكوارث عن نفسه إذا أراد اللّه أن يأخذه بذنوبه،و لا أحد يدافع عنه أو ينصره من دون اللّه.

و إنّ قدره اللّه محيطه بالبشر،فإذا ركبوا فى البحر و جرت الرياح بهم الى أعالى البحار أ رأيت لو شاء اللّه و أسكن الريح أليس تبقى سفنهم هنالك دون حراك؟! (إنّما يعى هذه الحقيقه الذى يتعالى عن ضغط النقمه و إغراء النعمه أى)الصبّار الشكور.

و اللّه قادر على أن يهلك الناس بسفنهم فى عرض البحر بسبب ذنوبهم،و لكنّه يعفو عن كثير من خطاياهم.

(إذا لماذا الجدال فى أمر اللّه و تحدّى أحكامه؟).

إنّ كلّ ذلك يكفى آيه لهؤلاء المجادلين فى آيات اللّه أنّهم لا يملكون عن ربّهم مهربا.

(ثم لماذا الحرص على الدنيا و الصراع من أجلها و هى لا تسوى شيئا؟!)فما أوتيتم من شىء ليس سوى متاع الحياه الدنيا التى لو قيست بالآخره لم تكن شيئا،لأنّ الآخره أفضل و أبقى للذين آمنوا و على ربّهم يتوكّلون(فينزعون جلباب الكبر،و يتعالون على الحرص،و لا يثيرون الخلاف من أجل الدنيا).

ص:٣٥٥

بينات من الآيات:

[۲۷]إذا كـان الربّ يحبّ عبـاده فلمـا ذا لاـ ينشـر رحمته عليهم أكثر فـأكثر؟لماذا لا يملأ الأرض رحمه و رخاء؟ ذلك لأنّه عالم بطبيعه البشـر،فلو أعطاهم أكثر من قـدرتهم على الإستيعاب لبغوا فى الأرض،و انحرفوا عن الحق،فمن رحمه اللّه على العباد أنّه لا يرزقهم دفعه واحده،و إنّما يرزقهم بقدر حاجتهم و استيعابهم..

وَ لَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ إنّ نفس الإنسان قبل ترويضها بالقيم الساميه جموحه،و قد كبح اللّه جماحها بالحاجه الى الرزق،و لولاهـا لـدفعها البغى الى الفسـاد و الشـقاء،كما نجـدها تطغى حين تحسّ بالاسـتغناء،حتى و ان كان هـذا الإحساس خاطئا،حسبما قال ربّنا:

إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَيَطْغىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنىٰ (۱).

وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَـدَرٍ مٰا يَشٰاءُ إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِيرٌ بَصِـيرٌ و من أخبر من اللّه بعباده،الـذين خلقهم حسـبما شاء،و أركز فى وجودهم الغرائز كيفما أراد،و هيمنته العلميه بالغه فهم على عينه و بصره سبحانه.

و كلّ فرد يجرى له الربّ الرزق بقدر لا يدعوه الى الطغيان،

و قد جاء عن أنس عن النبى صلى الله عليه و آله عن جبرئيل عن اللّه جلّ ذكره :

«إنّ من عبادى من لا يصـلحه إلاّ السـقم،و لو صـححته لأفسـده،و إنّ من عبادى من لا يصـلحه إلاّ الغنى،و لو أفقرته لأفسده،و إنّ من عبادى من

۱- ۱) العلق/(۶-۷).

لا يصلحه إلّا الفقر،و لو أغنيته لأفسده،و ذلك أنّى أدبّر عبادى لعلمى بقلوبهم » (۱)

و عن الإمام الحسن عليه السلام قال :

«أرزاق الخلائق فى السماء الرابعه تنزل بقدر،و تبسط بقدر » (۲)

و قال الإمام الصادق عليه السلام :

« وَ لَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ »:لو فعل(أى بسط رزقه) لفعلوا(أى لبغوا فى الأرض)و لكن جعلهم محتاجين بعضهم الى بعض، و استعبدهم بذلك،و لو جعلهم أغنياء لبغوا« وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا يَشٰاءُ »ممّا يعلم أنّه يصلحهم فى دينهم و دنياهم« إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ » (۳) [۲۸]و مظهر آخر لحكمه اللّه فى تدبير الحياه الغيث الذى يمنعه عن العباد أو يرسله إليهم حسب حاجتهم و استحقاقهم و استيعابهم،فبعد أن يجتاحهم القنوط، و تكبح صفه الكبر من أنفسهم،و تمنع عنهم صفه الطغيان،لأنّهم لم يقدروا على تحصيل الماء بطريقه أخرى،بعدئذ يرسل الغيث،و ينشر عليهم رحمته من خلال الغيث..و هذه آيه من آيات الهيمنه و الحكمه.

وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مٰا قَنَطُوا و ختم اليأس على أفئده الناس جميعا(و هنا تتجلّى بوضوح بلاغه القرآن حيث تتوازى فيه كلمه الغيث التى تعنى فيما تعنى الإغاثه مع كلمه القنوط الذى تثيره

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)ص(۵۷۹).

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) المصدر.

شدّه الحاجه.

وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الحاكم المطلق الذی یتولّی تدبیر الخلق..

اَلْحَمِیدُ لا یفعل إلاّ الفعل المحمود،و إنّما ینشر الرحمه بعد القنوط لکی یتنبّه الناس من غفلتهم و ضلالهم،و لو أنّهم عرفوا رحمه اللّه(و هو ولیّهم)بهم،و حکمته البالغه فی تدبیره لشؤون الخلق،لاکتشفوا أسباب انقطاع الغیث عنهم التی قد تکون بسبب ذنوبهم،بل و لعرفوا أیضا حکمه عودته إلیهم لیعرفوا قدر ربّهم فیعبدونه لا یشرکون به شیئا.

[۲۹]و لیست هذه الآیه الوحیده التی تهدینا الی اللّه،و إنّما هی آیه من بین الآیات التی لا تعدّ و لا تحصی..

وَ مِنْ آیاتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ علی سعتهما،و متانتهما،و عظمه خلقهما..

وَ ما بَثَّ فِیهِما مِنْ دابَّهٍ کالطیور و الحیوانات و مختلف الأحیاء المتناثره هنا و هناک.

وَ هُوَ عَلی جَمْعِهِمْ إِذا یَشاءُ قَدِیرٌ لا یعجزه شیء لأنّ له مطلق الإراده،و إنّ الاختلاف فی طبائعها و شرائع حیاتها

و انتشارها فی الکون لا یدلّ أبدا علی تحرّرها من إراده اللّه،و خروجها عن المنهج الذی عیّنه اللّه لها،أو السنن التی تحکم الخلیقه،فمتی ما شاء ربّنا جمعهم فی صفّ واحد للحساب.

[۳۰]و یؤکّد علی الصله بین سعی الإنسان و واقعه مرّتین،مرّه عن طریق العوامل المادیّه الظاهره التی تربط بین السعی و النتیجه،فهو إذا سعی و ناضل وصل إلی أهدافه،فالصحه بعد المرض و الغنی بعد الفقر،و الأمن بعد الخوف،کلّ ذلک رهین سعیه فی السبیل القویم الذی جعله اللّه..

و هذا ما یؤکّده القرآن فی آیات عدیده کقوله تعالی: وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلاّٰ مٰا سَعیٰ (۱)و قوله: فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ خَیْراً یَرَهُ، وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ شَرًّا یَرَهُ (۲)و مره عبر العوامل الغیبیه غیر الظاهره،حیث یؤکّد الإسلام أنّ أیّ عمل یقوم به الإنسان ینعکس علی واقعه شاء أم أبی،و لیس بالضروره أن یکتشف البشر کیفیه ذلک،بل کثیرا ما تکون العلاقه بین العمل و العاقبه غیر معروفه و مثیره للتساؤلات،فما هی العلاقه بین صله الرحم و طول العمر،و بین انتشار الزنا و انتشار موت الفجأه،و بین انحراف قوم لوط و الصاعقه التی دمّرتهم،و بین یقظه الإنسان بین الطلوعین و بین سعه رزقه،و بین قیام اللیل و طول العمر،و بین الصدقه و دفع البلاء،و بین الزکاه و النماء الاقتصادی،و بین الصدق و الأمانه و بین العزّه فی المجتمع؟ کلّ هذه العلاقات قد تبقی مجهوله لدی الإنسان،و لکنّها حقائق واقعه فی

۱- ۱) النجم/(۳۹).

۲- ۲) الزلزله/(۷-۸).

الحياه عرفناها أو جهلنا بها.

من هنا بدل أن يدفعنا الحرص الى الصراعات الاجتماعيه دعنا نطبّق المناهج الإلهيّه فهى كفيله بتحقيق طموحاتنا المشروعه،سواء عرفنا حكمتها و بالتالى علاقتها بتلك الطموحات أم لم نعرف،لأنّنا لا بدّ أن نعترف بعجزنا عن الإحاطه علما بدين اللّه،أليس دين اللّه آيه علمه،فهل يزعم أحد بأن يبلغ بعلمه مستوى علم ربّه؟و من هنا

جاء فى الحديث :

«إنّ دين اللّه لا يقاس بالعقول » و بهذه الرؤيه العميقه و الواقعيه للحياه يتقدّم الإسلام خطوه على الماديه، و خطوتين على القدريه،فالقدريه تعتقد بانعدام العلاقه بين سعى الإنسان و واقعه منكره بذلك عقلائيه الأنظمه الحاكمه على الكائنات،أمّا الماديه العمياء فتعتقد بأنّ نظام الكون عقلائى،و لكنها لا تعترف إلاّ بالعلاقات الظاهره فى هذا النظام، منكره العلاقات الخفيّه التى يكشفها الغيب.

بينما الإسلام بواقعيّته يؤمن بعلاقه أكيده بين سعى الإنسان و واقعه،مره عن طريق العوامل الماديه الظاهره،و أخرى عن طريق العوامل الغيبيه،و ذلك انطلاقا من الإعتقاد بأنّ كل ما يجرى على الإنسان،بل كل ما يجرى فى الحياه،إنّما هو بعلم اللّه و بإذنه،و هو لا يمنع أو يأذن إلاّ بحكمه بالغه يعلمها عزّ و جل،و هو القائل: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُغَيِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ (1)و تؤكّد آيات القرآن هذه الحقيقه ببيان هيمنه اللّه على نظام الكون،فالسحب التى تجمعها الأقدار،و المطر الذى يهطل على الأرض الجرداء فيبعث فيها الحياه من

١- ١) الرعد/(١١).

بعد ما يقنط الإنسان،كلّ ذلک لا يصير عبثا،إنّما بحكمه إلهيه دقيقه،فإذا قلّ الصدق بين الناس و تضاءل تعاطفهم على بعضهم،و إذا ساد الظلم و الضلاله،و إذا كثرت الذنوب و الفواحش،بعدت رحمه اللّه المتمثّله فى الغيث،كما أنّ لنجاه أصحاب السفينه التى تمخر عباب البحر أو غرقهم علاقه بركّابها،فإذا كانوا أهل صلاح و سعى،ساقتهم الريح الطيبه الى سبل السلام،أمّا إذا كانوا ظالمى أنفسهم و قد انتهى أجلهم ابتلعتهم العواصف الهوج.

هكذا يبيّن ربّنا العلاقه بين واقع الإنسان و عمله فيقول:

وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَهٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ أيّا كان نوع هذه المصيبه و طبيعتها.

وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ و لو لم يكن اللّه رحيما بعباده لانتهت بهم أعمالهم الى الهلاک،لأنّهم يكسبون كلّ يوم ما يستوجب غضبه سبحانه.

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام :

«ليس من عرق يضرب،و لا نكبه،و لا صداع،و لا مرض،إلاّ بذنب » (۱)

و جاء فى حديث آخر عنه عليه السلام :

«إنّ الذنب يحرم العبد الرزق » (۲)

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)ص(۵۸۱).

۲- ۲) المصدر/ص(۵۸۳).

و جاء فی روایه مأثوره عن أبی الحسن علیه السلام :

«حق علی اللّه ألاّ یعصی فی دار إلاّ أضحاها للشمس حتی تطهّرها » (۱)فلکی لا تصیبک ألوان العذاب تجنّب الذنوب،هکذا

أوصانا أمیر المؤمنین علیه السلام حین قال :«توقّوا الذنوب،فما من نکبه و لا نقص رزق إلاّ بذنب،حتی الخدش و الکبوه و المصیبه(ثم قرأ الآیه و قال:)و أوفوا بالعهد إذا عاهدتم فما زالت نعمه و لا نضاره عیش إلاّ بذنوب اجترحوها. أَنَّ اللّهَ لَیْسَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِیدِ ، و لو أنّهم استقبلوا ذلک بالدعاء و الإنابه لما نزلت،و لو أنّهم إذا نزلت بهم النقم، و زالت عنهم النعم، فزعوا الی اللّه عزّ و جلّ بصدق من نیّاتهم،و لم یهنوا و لم یسرفوا،لأصلح لهم کلّ فاسد،و لردّ علیهم کلّ صالح » (۲)

و فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام :

«تجنّبوا البوائق یمدّ لکم فی الأعمار » (۳)

و روی عن الإمام الباقر علیه السلام :

«إنّ العبد لیذنب الذنب فیزوی عنه الرزق » (۴)

و قال :

«إنّ العبد یسأل اللّه الحاجه فیکون من شأنه قضاؤها الی أجل قریب أو الی وقت بطیء،فیذنب العبد ذنبا فیقول اللّه تبارک و تعالی للملک:لا تقضی حاجته

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) المصدر/ص(۵۸۲).

۳- ۳) المصدر.

۴- ۴) المصدر/ص(۵۸۳).

و احرمه إيّاها فإنّه تعرّض لسخطى و استوجب الحرمان منّى » (۱)[۳۱-۳۲-۳۳]و يـذكّر اللّه الناس بأنّ عدم أخذه لهم على كثير من الذنوب ليس عن عجز،و إنّما هو رحمه منه بعباده..

وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ أى لو أراد أن يأخذهم على ما تكسب أيـديهم،لأنّه تعالى الولىّ الحقيقى للإنسان و لا ولىّ غيره و هو ذو القوّه المطلقه،فلا أحد يستطيع نصر نفسه أو الإنتصار للآخرين عليه سبحانه.و هذه هى الأخرى من آيات رحمه اللّه و قدرته:

وَ مِنْ آيٰاتِهِ الْجَوٰارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلاٰمِ و هى السفن الشراعيه التى تجرى فى البحار بدفع الرياح،و التى لو شاء اللّه لأوقفها فلا تتحرك.

إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوٰاكِدَ عَلىٰ ظَهْرِهِ أى على سطح البحر..

إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ عند البلاء،فلا ينحرف عن الحق و الطاعه للّه بسبب الضغوط السلبيه فى الحياه..

شَكُورٍ

۱- ۱) المصدر.

یـذکر اللّه و یحمـده عنـد النعمه،و علی کل حال،و هـذا یخالف طبیعه الإنسان الذی یجزع عند البلاء،و یکفر عند الرخاء،بسـبب علاقته الخاطئه بالحیاه،إذ یعیش لحظته الراهنه فقط و لا ینظر للمسـتقبل،و هـذا الأمر هو الذی یجعله ییأس و یستسـلم للواقع،بینما ینظر المؤمن ببصیره ربّانیّه ثاقبه الی خلفیّات الحوادث، و مستقبل الأمور،فلا تبطره النعمه،و لا یؤیسه البلاء.

[۳۴]و إذا أراد اللّه أن یبتلی أحـدا أو ینزل علیه العذاب فهو قادر علی ذلک و بطرق متعدّده،فهو تاره یوقف الریاح لتقف السـفن التی نسـتقلّها،أو ربما أرسلها بشدّه فإذا بها تهیج أمواج البحر فتبتلع سفننا،و إلی جانب هذه القدره الإلهیه توجد فی الطرف الآخر الأسباب و المقوّمات لإنزال النقمه،و هی ذنوبنا التی نکتسبها کلّ یوم..

أَوْ یُوبِقْهُنَّ یغرقها،و یهلک من فیها..

بِمٰا کَسَبُوا وَ یَعْفُ عَنْ کَثِیرٍ برحمته و لطفه،لذلک ینبغی المبادره الی الاستغفار لیل نهار حتی نأمن من سطوات الربّ الجبّار،

فقد روی عن الإمام الصادق علیه السلام :

«تعوّذوا باللّه من سـطوات اللّه باللیل و النهار،قال:قلت:و ما سـطوات اللّه؟ قال:الأخذ علی المعاصی » [۳۵]و لا بدّ أن یعلم أولئک الذین یکذبون بآیات اللّه،و یتشبّثون بثقافه الجدال و التبریر من أجل ردّها و التهرّب من مسئولیه الإیمان بها،أنّهم محاطون بعلم

اللّه و قدرته،و من ثمّ فإنّ جدالهم فيها لن يرفع عنهم المسؤوليه..

وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِي آيٰاتِنٰا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ أى مهرب و مفزع من اللّه.

قالوا:إنّ نصب«يعلم»جاء لأنّه عطف على تعليل محذوف،و كأنه قال:

ينتقم منهم و يعلم الذين يجادلون.

[۳۶]و كخاتمه لهذا الدرس الذى يحدّثنا عن دور الحرص فى الصراعات الاجتماعيه كفكره أساسيه،يصغّر القرآن الدنيا و يهوّنها فى أعيننا و أنفسنا،لكى لا تكون من المنزله عندنا بمكان تثيرنا نحو الصراع و البغى على بعضنا.

فَمٰا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتٰاعُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا مهما كان حجمه و قدره فإنّه لا يعدو كونه بسيطا و ضئيلا نسبه الى متعه الآخره و نعيمها..

وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ و أفضليه نعيم الآخره على متاع الدنيا من ناحيتين:فهو أفضل فى كيفيّته، و أدوم فى بقائه و متعه الإنسان به.

و لعلّ خاتمه الآيه تهدينا الى أنّ التوكل على اللّه هى الصفه المقابله للحرص على الدنيا،و إنّما لا يتسامى القلب عن الانجذاب الى الدنيا لضعفه،و الذى ينجبر بالتوكّل على اللّه سبحانه.

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۳۷ الی ۴۳]

اشاره

وَ اَلَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبٰائِرَ اَلْإِثْمِ وَ اَلْفَوٰاحِشَ وَ إِذٰا مٰا غَضِبُوا هُمْ یَغْفِرُونَ (۳۷) وَ اَلَّذِینَ اِسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰةَ وَ أَمْرُهُمْ شُوریٰ بَیْنَهُمْ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ یُنْفِقُونَ (۳۸) وَ اَلَّذِینَ إِذٰا أَصٰابَهُمُ اَلْبَغْیُ هُمْ یَنْتَصِرُونَ (۳۹) وَ جَزٰاءُ سَیِّئَةٍ سَیِّئَةٌ مِثْلُهٰا فَمَنْ عَفٰا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَی اَللّٰهِ إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ اَلظّٰالِمِینَ (۴۰) وَ لَمَنِ اِنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِکَ مٰا عَلَیْهِمْ مِنْ سَبِیلٍ (۴۱) إِنَّمَا اَلسَّبِیلُ عَلَی اَلَّذِینَ یَظْلِمُونَ اَلنّٰاسَ وَ یَبْغُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ أُولٰئِکَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۴۲) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِکَ لَمِنْ عَزْمِ اَلْأُمُورِ (۴۳)

ص:۳۶۶

و أمرهم شوری بينهم

هدی من الآيات:

يتكلّم القرآن فی هـذا الدرس عن المحور الذی سـمّيت السوره باسـمه و هو الشوری،و لكنّه بعد أن يجعله فی إطار الحديث عن أبعـاد الشخصـيه الإيمانيه.لماذا؟ لأنّ الصـفات خيرها و شـرها تنبع من حاله فی شخصـيه المجتمع،و تترادف مع بعضـها،فالصـدق يسـتتبع الإحسان،و الأمانه تسـتتبع الوفاء،و هكذا،لأنّ أصل صـفات الخير البصـيره و الإيمان،كما أنّ الصفات الرذيله يلحق بعضها بعضا،لأنّ جذرها واحد ألا و هو مرض القلب.

و صفه الشوری التی يتركّز حولها هذا الدرس تمثّل العلاقه الإيجابيه بين أفراد الأمه علی صعيد اتخاذ القرارات العامه.

و لا تتحقّق إلّا إذا كانت العلاقات الاجتماعيه عبر مختلف الأصـعده المتـدرجه طاهره و إيجابيه و بمسـتوی التبادل الفكری،إذ لا فائده للشوری فی مجتمع الظلم

و الطبقه و العنصريه،و لا ـ فى المجتمع الـذى لا ـ يعتقـد بالعقلائيه و المنهجيه العلميه فى حياته و لا يبحث عما يثير عقله و يزيـده علمـا،و الحـال إنّ الشورى أحوج مـا تكون لتؤتى أكلهـا الى مجتمع فاضـل يتحلّى بالصـفات النفسـيه التى تـدعم تطبيق المناهج العلميه التى تصدر على ضوئها.

و لعلّه لـذلك بـدأت هـذه الآيـات ببيان جانب من صـفات المؤمنين كاجتناب كبائر الإثم و التجاوز عن المسـىء قبل بيان صـفه الشورى،ثم بعد بيانها يذكّرنا القرآن بجانب آخر منها كالانتصار بعد الظلم،و الصبر الذى هو من عزم الأمور.

بينات من الآيات:

[۳۷]هناك بعض المجتمعات تحصـر الدين فى اتباع بعض الطقوس دون التوجّه الى القضايا المصـيريه الهامه التى تكلّفهم الإيثار و الجهاد و الشـهاده،ففى الوقت الـذى يبنون المساجـد و دور العلم تراهم لا يتورّعون عن ظلم بعضـهم،و لا يـدافعون عن أحكام اللّه،و إنّما يهتم القرآن ببيان صـفات المجتمع المسـلم فى كثير من سوره و بصوره مجتمعه لكى يعطينا صوره متكامله عنه نعيش بها مجتمعنا،و نعرف مدى قربه و بعده من المجتمع الذى يبشّر به القرآن.

و من أبرز صفات المجتمع الإسلامى السعى من أجل اجتناب كبائر الإثم و الفواحش،حيث يجب أن يتنظّف المجتمع المسلم من الجاهليه بكلّ أبعادها الثقافيه و الاقتصاديه و السياسيه و الاجتماعيه.

وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰائِرَ الْإِثْمِ و هى-كما يبدو-الذنوب الاجتماعيه و الاعتداء على حقوق الناس،و قيل بأنّها الشـرك،و لا ريب أنّ الشرك أفحش ظلم،و أعظم ذنب،و هذا التفسير نسب

الی ابن عبّاس،و قیل بأنّها البدع و الشبهات،و بالتالی الضلاله الثقافیه،و هی بدورها من الذنوب الاجتماعیه،و قال البعض بأنّها مطلق الذنوب التی أوعد اللّه علیها النار فی القرآن أو ثبت بحجه قویه أنّها من کبائر الذنوب.

وَ الْفَوٰاحِشَ و هی الذنوب الشخصیه،کالزنا،و اللواط،و شرب الخمر،و اجتنابها هذه من أهم الصفات التی یجب توفّرها فی مجتمع المؤمنین الفاضل.

وَ إِذٰا مٰا غَضِبُوا هُمْ یَغْفِرُونَ إنّهم حینما یختلفون مع بعضهم أو مع الآخرین،و حینما یسیء أحد إلیهم، یؤثّر ذلک فی نفوسهم،و لکنّهم لا یحوّلون تلک الآثار الی صراع،بل یعودون الی القرآن و الی سائر التعالیم،لیجعلوا ذلک حکما فاصلا بینهم،فتراهم بدل أن یختلفوا فیه یختلفون إلیه.

و لعلّ من العوامل الأساسیه التی تجعلهم یتجاوزون سوره الغضب الی سعه الصدر و سماحه الحلم أهدافهم السامیه،فهم یؤمنون بأنّ غضبهم و حدّتهم یجب أن یصرفا فی الصراع مع العدو،بینما الذین تتضاءل أهدافهم فی أعینهم تراهم یصبّون جام غضبهم علی أنفسهم،و یساهمون فی تحطیم مجتمعهم بأیدیهم.

و العفو صفه سامیه جدا لأنّ هناک من لا یملک نفسه عند الغضب فتراه یتجاوز حدود الشرع و العقل و الأعراف،و یهدم فی لحظه ما بناه فی عقد من الزمن.

و المؤمن لیس فقط لا یخرجه رضاه و غضبه عن حدود اللّه بل و یتجاوز غضبه الی العفو.

ص:۳۶۹

جاء فی الحدیث المروی عن الإمام الباقر علیه السلام :

«من کظم غیظا و هو یقدر علی إمضائه حشا اللّه قلبه أمنا و إیمانا یوم القیامه »

و قال :

«من ملک نفسه إذا رغب و إذا رهب و إذا غضب حرّم اللّه جسده علی النار » (۱)

و روی عن رسولنا الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال :

«ألا ـ أخبرکم بخیر خلائق الدنیا و الآخره:العفو عمن ظلمک،و تصل من قطعک،و الإحسان الی من أساء إلیک،و إعطاء من حرمک » (۲)[۳۸]و من صفات مجتمع الشوری إیمان أفراده بخطّ واحد،فلا یسمّی اجتماع خلیط من المذاهب المختلفه بمجلس شوری،إذ کیف یشترک من یکفر بإله الکون أو یشرک به مع من یؤمن بالتوحید و بالإسلام فی مجلس واحد؟! وَ الَّذِینَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ فهم یلتقون فی خطّ واحد هو خطّ الإمام المطاع بإذن اللّه.

وَ أَقامُوا الصَّلاهَ بطقوسها و قیمها..ثم یؤکّد ربّنا مباشره علی صفه التشاور کأبرز صفه للمؤمنین..

ص:۳۷۰

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)ص(۵۸۲).

۲- ۲) المصدر.

وَ أَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ و إنّما تقدّم ذكر الاستجابه للّه،و إقامه الصلاه بشروطها،لأنّهما ضرورتان لكى تكون الشورى ذات فاعليه إيجابيه فى المجتمع.

و هناك ثلاث نظريّات فى الشورى:

الأولى:تقول بأنّ الشورى«حق»،و الثانيه:ترى أنّها«واجب»،و تجمع الثالثه بين النظريتين،و بالذات فى المسائل العامه التى تتعلق بمصير الأمه و شؤونها، فعلى ضوء هذه النظريه لا يجوز لحاكم الشرع و لو كان الفقيه العادل أن يجرى الأمور فى إدارته للأمّه كما يريد،و إنّما يجب عليه أن يستشير الآخرين،و يجمع علمهم و عقلهم الى ما عنده،ثم يتخذ القرار على أساس هذه المشوره،كما يجب من جهه أخرى على الآخرين أن ينصحوه،و من أبرز الواجبات الإسلاميه النصيحه لولىّ الأمر..و هكذا

روى عن الرسول صلى الله عليه و آله :

«ما من رجل يشاور أحدا إلاّ هدى الى الرشد » و لأنّ الشورى انعكاس لروح الإيمان فهى تتسع لسائر مرافق حياه الجماعه المؤمنه،ابتداء من الأسره،و انتهاء بالدوله،و مرورا بالمرافق الاجتماعيه و الاقتصاديه،و الشؤون البلديه و القرويه.إنّها أكثر من مجرد نظام سياسى،بل تشكّل جوهر العلاقه بين المؤمن و أخيه المؤمن،لأنّها نابعه من احترام المؤمن و رأيه ثم التسليم للحق،و البحث عنه أنّى وجد.

و حين تكون الشورى صبغه المجتمع المسلم تضمن حريه الرأى،و حقّ الانتخاب،و واجب المساهمه فى صنع القرار السياسى،بل و تكون كلّ هذه المفاهيم ذات هدف مقدّس.

و لقد رسم الدين منهج الحكم فی قیاده أولی الناس بالنبی صلی الله علیه و آله ،و هم الأکثر علما و الأتقی عملا و الأکفاء إداره،و جعل علی الناس واجب التعرّف علی هذا القائد،و انتخابه حاکما علیهم،فإذا فعلوا وجبت طاعته ضمن إطار المشوره.

فجاء فی الحدیث الشریف :

«من کان من الفقهاء صائنا لنفسه،حافظا لدینه،مخالفا لهواه،مطیعا لأمر مولاه،فعلی العوام أن یقلّدوه» «أنظروا الی رجل منکم قد روی حدیثنا،و عرف حلالنا و حرامنا،فاجعلوه حکما فإنّی قد جعلته حاکما » و بهذا یتکفّل الإسلام حریه الرأی فی انتخاب أعلی قیاده فی الأمه(بالطبع ضمن الإطار الدینی للمجتمع)و لکن لا ینتهی دور الأمّه عند هذا الحد بل یجب علی الإمام آنئذ استشاره الأمّه،ثم العزم علی رأی و التوکّل علی اللّه فی تنفیذه،کما قال ربّنا: وَ شٰاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ فَإِذٰا عَزَمْتَ فَتَوَکَّلْ عَلَی اللّٰهِ (۱)و هکذا کان یفعل النبی صلی الله علیه و آله و الأئمه من أهل بیته حسبما

روی معمّر بن خلّاد عن الإمام الرضا علیه السلام قال :

«هلک مولی لأبی الحسن الرضا یقال له سعد فقال:أشر علیّ برجل له فضل و أمانه،فقلت:أنا أشیر علیک؟فقال شبه المغضب:إنّ رسول اللّه کان یستشیر أصحابه ثم یعزم علی ما یرید اللّه » (۲) إنّ الرأی الأخیر یکون للقائد المنتحب الذی یجتهد فی سبیل استنباطه من قیم

۱- ۱) آل عمران/(۱۵۹).

۲- ۲) موسوعه بحار الأنوار/ج(۷۲)ص(۱۰۱).

الدين،و لكن لا يتعجّله بل يسعى إليه عبر مشوره الرجال،

يروى فى ذلك على بن مهزيار عن الإمام الجواد و يقول :كتب إلىّ أبو جعفر أنّ:سل خلافا يشير على و يتخيّر لنفسه،فهو يعلم ما يجوز فى بلده،و كيف يعامل السلاطين،فإنّ المشوره مباركه،قال اللّه لنبيّه فى محكم كتابه: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ فإن كان ما يقول ممّا يجوز كنت أصوّب رأيه،و إن كان غير ذلك رجوت أن أضعه على الطريق الواضح إن شاء اللّه (1)و من خلال النصوص الإسلاميه التى تأمر بالاستشاره نتبيّن أنّ أفضل الأنظمه الاقتصاديه فى الإسلام هى التى تجمع أكبر قدر من صفه الشورى،و لعلّها التعاونيات الاقتصاديه التى نستوحى أهمّيتها أيضا من مجمل القيم الإيمانيه كالتعاون و الإحسان و الإيثار و حرمه الترف و حرمه سيطره الأغنياء على مقاليد السلطه.

و قد حدّدت النصوص معالم الشورى فى الحياه الاجتماعيه،

فقد روى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله :

«استرشدوا العاقل و لا تعصوه فتندموا » (2)

و روى عن الإمام الصادق عليه السلام :

«استشر فى أمرك الذين يخشون ربّهم » (3)

و قال رسول اللّه ،و هو يوصى أمير المؤمنين عليه السلام :

۱- ۱) المصدر/ص(۱۰۴).

۲- ۲) المصدر/ص(۱۰۰).

۳- ۳) المصدر/ص(۱۰۱).

«يا على لا ـ تشاور جبانا فإنّه يضيّق عليك المخرج،و لا تشاور البخيل فإنّه يقصد بك عن غايتك،و لا تشاور حريصا فإنّه يزيّن لك شرّهما،و اعلم يا على أنّ الجبن و البخل و الحرص غريزه واحده يجمعها سوء الظن » (۱)و مثلما أمر الإسلام بالمشوره أمر المستشار بالنصح،فحرام أن يمحضك أخوك المؤمن ثقته ثم تخونه بالرأى الباطل و الرأى الفطير..

قال الإمام الصادق عليه السلام فيما روى عنه :

«من استشار أخاه فلم ينصحه محض الرأى سلبه اللّه عزّ و جلّ رأيه » (۲)و بيّن الإسلام كيف ينبغى أن يشير من يطلب منه الرأى،

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام :

«لا تكوننّ أوّل مشير،و إيّاك و الرأى الفطير (۳)،و تجنّب ارتجال الكلام،و لا تشر على مستبد برأيه،و لا على وغد (۴)،و لا على متلوّن،و لا ـ على لجوج،و خف اللّه فى موافقه هدى المستشير فإنّ التماس موافقته لؤم،و سوء الاستماع منه خيانه » (۵)و كلمه أخيره:إنّنا نسعى جميعا نحو رحاب الحريه،و نطالب أولى الأمر بها.

أ فلا نبدأ بأنفسنا و نشبع أجواءنا بعبق الحريه،و نبادل الرأى فيما بيننا؟أ فليس أحقّ الناس بالخير الدعاه إليه؟

ص:۳۷۴

۱- ۱) المصدر/ص(۹۹).

۲- ۲) المصدر/ص(۱۰۲).

۳- ۳) قالوا:الرأى قبل التروّى و التعمّق.

۴- ۴) الدنى الضعيف رأيا و عقلا.

۵- ۵) المصدر/ص(۱۰۴).

أو ليس أقرب السبل الى الحريه جعلها واقعا يعيش بيننا؟أو ليست الحريه سلاحا نستخدمه ضد من يصادرها،و هى قوه تهاب،و جمال يستهوى اللباب؟ دعنا إذا نبدأ بأنفسنا و داخل أطر التحرك الدينى بالذات،فنتشاور فى سائر شؤوننا،ذلك لأنّ الحاجه الى المشوره تزداد عند ما تخوض الأمه صراعا حضاريا مع الكفّار و المنافقين..

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام :

«ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به أن يستشير رجلا عاقلا له دين و ورع؟ثمّ قال:أما إنّه إذا فعل ذلك لم يخذله اللّه،بل يرفعه اللّه و رماه بخير الأمور،و أقربها الى اللّه » (۱)

و قال الرسول صلى الله عليه و آله :

«الحزم أن تستشير ذا الرأى و تطيع أمره » (۲)

و قال الإمام على عليه السلام :

«الاستشاره عين الهدايه،و قد خاطر من استغنى برأيه » (۳)ثمّ و بعد التعرّض للشورى يسرد لنا القرآن مجموعه أخرى من صفات المؤمنين التى تتكامل و صفه الشورى فيقول:

وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ

ص:۳۷۵

۱- ۱) المصدر/ص(۱۰۲).

۲- ۲) المصدر/ص(۱۰۵).

۳- ۳) المصدر/ص(۱۰۴).

سواء كان رزقا ماديا كالمال و الثروه،أو معنويا كالحكمه و العلم،فإنّ المؤمنين ينفقون منه فی سبيل تقـدّمهم جميعا،و لا ريب أنّ المجتمع البخيـل الـذی ينحصـر أبنـاؤه فی حـدود أنفسـهم و مصالحهم لا يسـتفيد من الشوری،لأنّ تبادل الأفكار و المعلومات و الخبرات يستدعی تبادل المنافع،و دائما يكون وراء مبادله الخبرات التی تنفع اقتصاديا مبادله للأفكار،إذ لو لا وجود حاله العطاء و الكرم، و بالتـالی الخروج عن نطـاق الـذات،إذن لمـا أمكن الإنسـان الجلوس و التفـاوض مع الآـخرين،و لـذلک جـاء لنا التأكيد القرآنی علی الإنفاق بعد الحديث عن الشوری.

[۳۹]و هنـاک مسأله أخری تتصل بموضوع الشوری اتصالا متينا و هی قضـيه الكرامه فی حياه المجتمع و الفرد،و التی من خلالها يتحدّد مصير الحريه،ذلک أنّ تحسّس الإنسان بكرامته هو الذی يدعوه للتحرّر و رفض الضيم.

و المجتمع الـذی يبقی يـدور فی حـدود المطـالبه بـالحريه زاعمـا بأنّهـا سـتأتيه علی طبق من الـذهب لاـ يفلـح أبـدا،لأـنّه عنـد ما يسـتجديها ممّن سـلبها منه فإنّه يثبت له بأنّه ليس أهلا للحريه و لا للكرامه،و إنّما أهل الحريه هم الذين يأخذون حريتهم بالقوه،و يسـتعيدون كرامتهم بـدمائهم،و لذلک أكّد القرآن و فی هذا المقطع بالذات علی فكره هامه هی أنّ الشوری التی تعدّ تعبيرا عن الحريه و الكرامه لا تعطی للمجتمع،و إنّما يجب أن تؤخذ بالقوه،و هذا يهدينا الی ضروره الجهاد و التضحيه من أجلها.

وَ الَّذِينَ إِذٰا أَصٰابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ و الضـمير المنفصـل«هم»يـأتی هنـا للتأكيـد علی أنّ المؤمنين لاـ ينتظرون أحـدا لينتصـر لمظلمتهم،و إنّما يسعون بأنفسهم لرفع البغی عن أنفسهم،و فی الآيه فكرتان:الأولی:إنّ هؤلاء يقاومون البغی و يستعيدون حقوقهم بالقوه،و الثانيه:

إنّهم ينصر بعضهم بعضا فی هذه المقاومه،فإذا سعی الظالم للبغی علیهم و قهرهم وقفوا جمیعهم صفّا واحدا ضدّه..و یتساءل البعض:لماذا أمرنا اللّه-إذا-بالعفو فی آیات عدیده؟و الجواب:إنّ التعافی إنّما هو بین المؤمنین،أمّا إذا کان العفو سببا لتمادی الظالم فی ظلمه فإنّه لا یکون حسنا،

جاء فی الحدیث المأثور عن الإمام زین العابدین صلی الله علیه و آله :

«و حقّ من أساءک أن تعفو عنه،و إن علمت أنّ العفو یضر انتصرت،قال اللّه تعالی: وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِکَ مٰا عَلَیْهِمْ مِنْ سَبِیلٍ » (۱).

[۴۰]و حیث توجد بعض الجوانب السلبیه فی نفس الإنسان،فإذا به و هو یجاهد لمقاومه الظالم یصبح أظلم منه،أو ینشر الفساد و البغی تحت رایه المقاومه، أکدّ القرآن علی ضروره التقوی فی المقاومه،و أن لا یتعدّی المؤمنون حدود اللّه فی جهادهم للظلم و الظالمین،بل و یدعوهم للعفو و الإصلاح ما استطاعوا إلیه سبیلا.

وَ جَزٰاءُ سَیِّئَهٍ سَیِّئَهٌ مِثْلُهٰا فالمقابله مشروعه و لکنّها محدوده بالتماثل إذ قال ربّنا: فَمَنِ اعْتَدیٰ عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدیٰ عَلَیْکُمْ (۲)و هذا التأکید من قبل اللّه علی التماثل مهم جدا،لأنّ النفس البشریه تزلزلها ردّات الفعل و تخرجها من حدّ المعقول،فإذا بالضربه الواحده تقابل عندها بعشر ضربات مثلها تشفیا و انتقاما و علوّا و استکبارا،و هذه المعادله مرفوضه بتاتا فی کتاب اللّه.

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)ص(۵۸۵).

۲- ۲) البقره/(۱۹۴).

لـذلک ینبغی و من أجـل الاحتیاط و عـدم مخالفه قانون التماثل فی القصاص،أن یأخـذ الإنسان أقلّ من حقّه و لو بقلیل،و المثل الذی یقول:(نردّ الصاع بصاعین) لا یصلح قاعده للقصاص عند الإسلام،و إنّما الصاع ینبغی أن یقابل فقط بصاع، کما قال القرآن الحکیم فی معرض حدیثه عن بنی إسـرائیل: وَ کَتَبْنا عَلَیْهِمْ فِیها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَیْنَ بِالْعَیْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ (۱) و یرتفع الإسلام بأتباعه الی قمه الفضیله و الإحسان بدعوته للعفو.

فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَی اللّهِ إِنَّهُ لا یُحِبُّ الظّالِمِینَ و الـدعوه للعفو هنا لا تـدلّ علی أنّ ربّنا یأمر بغض النظر عن الظالمین،أو أنّه سـبحانه یـدافع عنهم،کلاّـ.فهو لاـ یحبّ الظالمین کما تشـیر الی ذلک خاتمه هـذه الآیه الکریمه،و لکنّ الإنسان لا یمکنه أن یحکم قطعیّا علی الآخرین بالظلم من خلال تعامله الیومی مع الناس،فبرغم أنّ فلانا ظالم استنادا الی بعض ممارساته فیقع فیما وقع فیه الظـالمون من البغی علی النـاس زعمـا بـأنّهم إنّمـا یسـتردّون منهم حقـوقهم المسـلوبه فینبغی له أن یعفو عن النـاس مـا أمکنه ذلک،و بالذات إنّ العفو فی کثیر من الأحیان یکون نفسه دافعا قویّا للمسیء نحو التوبه و الاعتذار،و بالتالی الإصلاح،و هذا الأمر هو الذی یجعل من العافی مصلحا،حسبما تشیر الآیه إلیه.

أمّا الذین یتسرّعون و یغضبون لأتفه الأسباب،أو لمجرّد بعض الأخبار التی ینقلها المغرضون،فیثیرون النزاع بین المؤمنین،فإنّهم لا یقـاومون الظلم فی الواقع، لأـنّهم لن یسـتأسدون علی الضـعفاء،بینمـا یستسـلمون للأقویـاء،فهم کمـا قـال الشـاعر:أسـد علیّ و فی الحروب نعامه،بینما المجتمع الفاضل هو الذی تسود

۱- ۱) المائده/(۴۵).

علاقاته الداخليه فضيله التعافی و الإیثار،و یدّخر قوّته و غضبه لمقاومه الظالمین و الجبابره.

و ما أحوجنا الیوم و نحن نعیش ظروف الصراع مع أعداء الدّین الی التعافی بیننا،و لو عرفنا ما فی العفو من ثواب عظیم لاستصغرت فی أعیننا المکاسب الجزئیه التی ترتجی من صراعنا الداخلی أو انتصارنا من بعضنا البعض،هکذا

جاء فی الحدیث المأثور عن الإمام الصادق علیه السلام قال:قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله :

«علیکم بالعفو،فإنّ العفو لا یزید العبد إلاّ عزّا،فتعافوا یعزّکم اللّه » (۱)و لعلّ العزّه تأتی عبر انتصارهم علی عدوّهم بما یوفّره التعافی عن بعضهم من التماسک الداخلی،و ربما تشیر الروایه التالیه الی هذه الحقیقه،إذ تقول(نقلا

عن الإمام أبی الحسن علیه السلام) :

«ما التقت فئتان قط إلاّ نصر اللّه أعظمهما عفوا » (۲)[۴۱]و ینقض القرآن جانبا من الأفکار السلبیه التی ینشرها البعض فی الأمّه،من قبیل أنّ مقاومه الظالمین و الثوره ضدّ الانحراف هی السبب فی اضطّراب الأوضاع و انحسار الأمن،بینما السبب هو ظلم السلطه الحاکمه و انحرافها، فالظلم هو السبب فی انعدام الأمن،و لیس ردّ الظلم من قبل المجاهدین.

وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِکَ مٰا عَلَیْهِمْ مِنْ سَبِیلٍ فلا یجوز إذن أن نلقی باللوم علیهم،لأنّهم یطالبون بحقوقهم المشروعه،و بهذا

ص:۳۷۹

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) موسوعه بحار الأنوار/ج(۶۸)ص(۴۲۴).

يقطع القرآن الكريم ألسنه ضعفاء النفوس و مرضى القلوب الذين يقفون دائما مع القوى ضد الضعيف.

[۴۲]إذن فعلى من يقع اللّوم؟و من هو المسؤول عن الواقع الفاسد؟إنّما المسؤول الأوّل عن مشاكل الصراع هم الحكّام الظلمه الذين يريدون السيطره على الناس و نشر الفساد.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّٰاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ فالقوى الاستكباريّه التى تسعى لبسط سلطانها الفاسد على الشعوب و أنظمتها العميله هى المسؤوله عن مشاكل الشعوب و مآسيها،أمّا دفاع الناس عن أنفسهم و عن مصالحهم فهو جهاد مشروع لاسترداد الحقوق الضائعه..و الإرهاب هو السياسه التى يقوم بتطبيقها المستكبرون و الأنظمه الرجعيّه العميله لهم،و ليس ما يضطرّ إليه المصلحون و المدافعون عن حقوقهم..و يتوعّد ربّنا الطغاه بأشدّ العذاب.

أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ قد يرونه فى الدنيا و ربما يتأخّر الى الآخره.

[۴۳]و إذا كنّا نريد الإنتصار على هؤلاء الظلمه فنحن بحاجه ماسّه الى الصبر..

أوّلا:الصبر و الاستقامه أمام إغراءات العدو،فالظالم يبثّ فى المجتمع ألوانا من الأحلام و الأمانى و كلّها كاذبه،ثانيا:الصبر لتحدى إرهاب العدو و قمعه، ثالثا:الصبر لمقاومه الاستعجال و الارتجاليه فى أنفسنا و عند أصدقائنا،فما أحوجنا

لذلک و نحن نسعی لتنظیم أنفسنا و أمورنا استعدادا لمحاربه العدو.

وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِکَ لَمِنْ عَزْمِ اَلْأُمُورِ و العزم فی الأمور هو أن لا یأخـذ الإنسان الأمور مأخذا هیّنا دون التخطیط الدقیق لها و السیطره علیهـا،بـل الحسم و الإراده القویه لتحقیق الأهـداف المنشوده، بعیـدا عن روح التشـفّی،و ذلـک لا یتأتّی إلاّ بالصبر و الحلم.

و یبـدو أنّ هـذه الآیات و بالـذات الأخیره منها تهـدف-فیما تهدف-تربیه نفوس المؤمنین علی مقاومه الترف و التعجّل و فورات الغضب التی تصیبهم فی لحظات الضعف فتـذهب بحلمهم و أنـاتهم و رفقهم و تلطّفهم،و ربما کشـفت عن واقعهم،و أفسـدت خططهم الرسالیه.

بینمـا حـاجه المؤمنین الی الصبر بانتظـار اللحظه المناسبه حـاجه مضـاعفه،من أجل ذلک أوصـی أئمه الهـدی المجاهـدین ضـد الطاغوت بکظمهم الغیظ،و اعتبروا ذلک من الحزم الذی یساهم فی نجاح المهمات الصعبه.

قال الإمام الصادق علیه السلام :

«کظـم الغیـظ مـن العـدو فی دولاـتهم تقیـه(تقـاه)حزم لمن أخـذ به،و تحرّز عن التعرّض للبلاـء فی الـدنیا،و معانـده الأعـداء فی دولاتهم،و مماظتهم (۱)فی غیر تقیه ترک لأـمر اللّه،فجـاملوا الناس یسـمن ذلک لکم عنـدهم (۲)و لاـ تعادوهم فتحملوهم علی رقابکم فتذلّوا » (۳)

ص:۳۸۱

۱- ۱) المماظه:شده الخلق و المنازعه.

۲- ۲) ای ینمی قدرکم عندهم.

۳- ۳) المصدر/ص(۴۹).

و يبلغ بالإمام زين العابدين التأكيد على كظم الغيظ تقيه درجه

يقول :

«وددت أنّى افتديت خصلتين فى الشيعه لنا ببعض ساعدى:النزق و قلّه الكتمان » (۱)و تزداد صفه العفو أهميه عند المقدره،و بالذات عند سيطره فريق على آخر،و ما أحوج حكّام المسلمين اليوم الى هذه الصفه الإيمانيه التى كانت رمز بقاء الإسلام و انتشار نوره،أ فلا تأسّوا برسولهم الكريم الذى عفى عن قريش بعد أن شنّت عليه (۱۷)حربا بكلمه واحده قائلا:

«اذهبوا فأنتم الطلقاء »و عفى عن قاتل حمزه عمّه الكريم،بالرغم من أنّ قتله أحدث فى فؤاده جرحا نازفا،بل و عفى عن تلك المرأه اليهوديه التى سمّته،و سبّبت-بالتالى-فى وفاته حسب بعض النصوص!

و يروى الإمام الباقر عليه السلام قصه عفوه عن اليهوديه هكذا :

«إنّ رسول اللّه أتى باليهوديه التى سمّت الشاه للنبى فقال لها:ما حملك على ما صنعت؟فقالت:قلت:إن كان نبيّا لم يضرّه،و إن كان ملكا أرحت الناس منه،قال:فعفا رسول اللّه عنها » (۲)إنّ خلق الرسول كان من أعظم أسباب انتشار نور الإسلام و عزّه المسلمين،

و قد قال صلى الله عليه و آله :

«ما أعزّ اللّه بجهل قط،و لا أذلّ بحلم قط » (۳)

۱- ۱) المصدر/ص(۴۱۶).

۲- ۲) المصدر/ص(۴۰۲).

۳- ۳) المصدر/ص(۴۰۴).

[سوره الشوری (۴۲): الآیات ۴۴ الی ۴۶]

اشاره

وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ وَلِیٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَی اَلظّٰالِمِینَ لَمّٰا رَأَوُا اَلْعَذٰابَ یَقُولُونَ هَلْ إِلیٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِیلٍ (۴۴) وَ تَرٰاهُمْ یُعْرَضُونَ عَلَیْهٰا خٰاشِعِینَ مِنَ اَلذُّلِّ یَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِیٍّ وَ قٰالَ اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ اَلْخٰاسِرِینَ اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِیهِمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ أَلاٰ إِنَّ اَلظّٰالِمِینَ فِی عَذٰابٍ مُقِیمٍ (۴۵) وَ مٰا کٰانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِیٰاءَ یَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ سَبِیلٍ (۴۶)

ص:۳۸۳

أَلاٰ إِنَّ الظّٰالِمِينَ فِی عَذٰابٍ مُقِيمٍ

هدی من الآیات:

فی إطار بیان مبدأ«الشوری»و الذی یتجلّی فی النظام السیاسی الکفیل باحترام الرأی،و التسلیم للحق،و إتماما لما ذکر فی الآیات السابقه من واجب مقاومه الظالمین و الإنتصار منهم،یبصرنا السیاق بالعاقبه السوئی للظلم.أو لیس الظلم أکبر عقبه فی طریق النظام الشوروی الصالح و التی لا بدّ للمؤمنین من تصفیتها؟ أولی السیئات التی تلحق الظالمین الضلاله« وَ اللّٰهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ ».

و الثانیه:الندم البالغ حینما یرون العذاب فاذا بهم یتساءلون بذلّ:هل الی رجوع سبیل؟ و الثالثه:خشوعهم الذلیل عند ما یعرضون علی النار،حتی أنّهم ینظرون إلیها من طرف خفی ذلّه و صغارا.

ص:۳۸۴

و الرابعه:التبكيت الذى يلاحقهم من عند المؤمنين حيث يذكّرونهم بأنّهم خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامه.

و الخامسه:خلودهم فى العذاب.

و لقد فقدوا أنصارهم الذين التفّوا حولهم فى الدنيا فلا أحد ينصرهم هنالك فى الآخره.

بينات من الآيات:

[۴۴]فى فاتحه الدرس و خاتمته نقرأ عن ضلاله اللّه،و أنّ من يضلّه اللّه لا ولىّ له و لا سبيل أمامه،و لا ريب أنّ فقد الهدايه أعظم مصيبه و أكبر خساره،و أنّ اللّه لا يضلّ أحدا إلاّ بسبب ارتكابه جريمه كبيره.أو ليس اللّه بأرحم الراحمين،فكيف يحجب نور هدايته عن البشر و هو لا يملك هاديا سواه؟ و هنا يطرح السؤال التالى:لماذا لا تكون الهدايه إلاّ عبر النهج الإلهى؟ إنّ للهدايه شروطا ثلاثه و هى:

أوّلا:وجود نور من عند اللّه يهدى الإنسان الى الطريق.

ثانيا:وجود إراده عند البشر يتغلّب بها على شهواته و سائر العقبات التى تمنعه من رؤيه النور.

ثالثا:انعدام الحجب التى تمنع النور،كما الرؤيه لا تتمّ إلاّ بضياء و بصر و ألاّ يكون بينهما حجاب ساتر.

و لا تتوفّر هذه الشروط لبشر إلاّ بإراده اللّه تعالى.دعنا نفصّل القول فى ذلك،

فعن الشرط الأوّل نقول:من الذی یهب لنا العقل و العلم؟من الواضح أنّ العلم بوسائله القدیمه و الحدیثه عجز عن إصلاح ألیاف المخ التی تتلف،فکیف یعطی الإنسان نورا؟کما لا یزال الجنون لغزا أمام الطلب و العلم البشری إلاّ بعض أنواعه البسیطه..

کما أنّنا نمرّ فی حیاتنا بعهود ثلاثه یتضح لنا من خلالها أنّ العقل و العلم من عند اللّه عزّ و جل،ففی عهد الطفوله یولد الإنسان و هو لا یعلم شیئا وَ اللّهُ أَخْرَجَکُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِکُمْ لا تَعْلَمُونَ شَیْئاً وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَهَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱)،و فی عهد القوه عند ما یکون المرء فی عزّ شبابه،و حیث قواه العقلیه و الجسمیه و النفسیه فی أوج قوتها،لا یکتشف إلاّ بعض الأمور،و قد یفقد علمه بالنسیان و عقله بغلبه الغضب،ثمّ یبدأ مسیرته المنتکسه علمیّا و جسمیّا و نفسیّا، فإذا به ینقص علمه وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَکِّسْهُ فِی الْخَلْقِ أَ فَلا یَعْقِلُونَ (۲)..و من الأمور التی تتکرّر لکلّ بشر فی جانب العلم من حیاته أنّه قد تبدو له بعض الأمور واضحه و لکنّ عقله یعجز عن استیعابها و إذا به یلهمها إلهاما،و إلی هذه الحقیقه یشیر أکثر المفکّرین و المبتکرین فی کلامهم عن کیفیه وصولهم الی المعرفه،و إن کانت مذاهبهم تختلف فی تفسیر ماهیّه الإلهام و مصدره.

و فی النصوص الإسلامیه نجد بیانا لحقیقه العلم،ففی سوره العقل نقرأ: اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ* الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ (۳)إذن فالقراءه و هی إحدی طرق العلم و المعرفه لا تکون إلاّ باللّه الذی یتکرّر ذکر اسمه فی أوّل کلّ سوره تذکیرا بذلک،

و الحدیث

۱- ۱) النحل/(۷۸).

۲- ۲) یونس/(۶۸).

۳- ۳) العلق/(۱-۵).

المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام يقول :

«ليس العلم بالتعلّم،إنّما هو نور يقع فى قلب من يريد اللّه تبارك و تعالى أن يهديه،فإن أردت العلم فاطلب أوّلا فى نفسک حقيقه العبوديّه،و اطلب العلم باستعماله،و استفهم اللّه يفهمک » (۱)و حينما نعود الى تجاربنا الشخصيه فى الحياه و الى وجداننا و فطرتنا نكتشف بأنّ العلم ليس من ذات أنفسنا،كما أنّه ليس من ذات الأشياء، و إنّما هو حاله فى قلوبنا مستجدّه،و بالرغم من وجود إثارات خارجيه له إلاّ أنّه غير تلك الإثارات، بل مثله مثل العين التى تثيرها الأشياء بما فيها من أنوار إلاّ أنّنا لو لم نملک عينا لم تنفعنا إثاره الأشياء أبدا،كذلک الإثارات التى تبدو عندنا أسبابا للعلم فمن دون حاله العلم لما نفعتنا شيئا.إذا العلم من عند اللّه.

الشرط الثانى:من الذى جعل لكلّ شىء علامه تدلّ عليه،أو ليس اللّه؟ كما العين تبصر و لكن بشرط وجود النور المنعكس من الأشياء عليها،كذلک العلم يكتشف الحقائق بشرط وجود دلاله منها عليها،و اللّه هو الذى جعل لكلّ شىء دلاله عليه.

و كلّ شىء يكشف عن نفسه من خلال أمارات و علامات ظاهره،فآبار النفط،و عيون الماء،و المناجم،جعل اللّه لها جميعا آيه تدلّ عليها،فمثلا قديما كانوا يكتشفون المياه بواسطه غصن أخضر يمشون به فى عرض الصحراء،فإذا مال الى جهه مّا تأكّدوا من وجوده فيها.من الذى جعل هذه العلاقه بين الغصن و الماء؟إنّه رَبُّنَا الَّذِی أَعْطیٰ كُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ (۲)و الإمارات و الآيات التى أودعها

۱- ۱) بح/ج(۱)ص(۲۲۵).

۲- ۲) طه/(۵۰).

اللّه فی الخلق بمثابه النور الذی یکشفها للإنسان،

و قد قال رسولنا الأکرم صلی الله علیه و آله :

«إنّ لکلّ حقّ حقیقه،و علی کلّ صواب نورا » و لو أخفی اللّه شیئا،و لم یجعل بینه و بین علم الإنسان علاقه،فمن الذی یمکنه أن یهدینا إلیه؟و فعلا أخفی اللّه عن علم الإنسان أکثر ممّا أظهر.

الشرط الثالث:و لأنّ الإنسان یفقد قدرته علی الرؤیه و التمییز فی بعض الحالات،کالغضب الشدید،أو الاهتمام بقضیه معینه،أو عند الشهوه،إذ ینعدم حینها شعوره الداخلی،فهو بحاجه الی إراده قویه یتغلّب بها علی تلک الحالات، و الإراده من اللّه وَ مٰا تَشٰاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ اللّٰهُ کما أنّ قوّه الإراده و ضعفها بید اللّه،و لو لا تأییده لخارت أمام الضغوط،و إذا لم یهتد أبدا.

وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ وَلِیٍّ مِنْ بَعْدِهِ یستطیع هدایته أو إنقاذه من مصیره الألیم.فإذا کان یستحقّ النجاه فإنّ اللّه أحقّ بنجاته،لأنّه خالقه و بارئه و أرحم به من کلّ شخص،فمن لا یرحمه أرحم الراحمین،و من لا یسعه حلم اللّه الواسع و کرمه العظیم،تری هل من رحمه تسعه أو حلم أو کرم؟! و نقرأ فی سوره الرعد: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ یَسْتَجِیبُونَ لَهُمْ بِشَیْءٍ إِلاّٰ کَبٰاسِطِ کَفَّیْهِ إِلَی الْمٰاءِ لِیَبْلُغَ فٰاهُ وَ مٰا هُوَ بِبٰالِغِهِ وَ مٰا دُعٰاءُ الْکٰافِرِینَ إِلاّٰ فِی ضَلاٰلٍ (1)و الذی یتبع السبل الأخری غیر سبیل اللّه المتمثّل فی رسالاته و أولیائه، فإنّه یکتشف خطأه و ضلاله البعید یوم القیامه،أو حتی فی الدنیا عند الجزاء.

۱- ۱) الرعد/(۱۴).

وَ تَرَى الظّالِمِينَ لَمّٰا رَأَوُا الْعَذٰابَ و قد انتهت الفرصه التی أعطيت لهم ليجرّبوا بها إرادتهم.

يَقُولُونَ هَلْ إِلىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ إنّهم و قد انتهى بهم الظلم الى نار جهنم يتمنّون الكرّه ليختاروا هدى اللّه على ضلالات الشيطان،و لكن هيهات،هل تعود عقارب الزمن الى الوراء،هل الشباب يردّ الى العجوزه المتهاويه،أم تعود نضاره الطفوله الى من عركته السنين، و بلغ من العمر عتيّا؟! حقّا تثير هذه الحقيقه النفس من أعماقها،فأيّ خساره كبرى تلحق بالظالمين، بل أيّ ثمن يسوى فی مقابل هذه الخساره التی لا تعوّض؟! [۴۵]و تتواصل الآيات فی بيان عاقبه الظالمين الذين لو تسنّى لهم لماتوا ملايين المرّات حسره على التفريط فی جنب اللّه،و هم يتعذّبون نفسيّا و جسديّا،نفسيّا لأنّهم يشعرون بالذلّه و المهانه بعد العلوّ و التكبّر فی الدنيا،و جسديّا لأنّهم سيصيرون حطبا لجهنم.

وَ تَرٰاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا خٰاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ إنّ أهمّ العقبات النفسيه التی تعترض طريق الإنسان الى الهدايه هو التكبّر، الذی أخرج إبليس من الجنه،و لا زال يخرج به إبليس أبناء آدم من رحمه اللّه الى غضبه و عذابه،و على الإنسان أن يقاوم جموح النفس المتكبّره،بتصوّر تلك اللحظه التی يعرض فيها المتكبّرون على النار،خاشعه نفوسهم من الذلّ.

و هذا الخشوع السلبی لا يتجاوزه الإنسان إلاّ بخشوع الإيمان الإيجابی،و لذلك

جاء فى الدعاء :

«اللهمّ ارزقنى خشوع الإيمان قبل خشوع الذلّ فى النار » و حيث تبلغ الذلّه بالظالمين ذروتها يوم القيامه فهم لا يستطيعون الالتفات الى من حولهم بكامل نظرهم و أعينهم،و بالذات أولئك الذين أظهروا أنفسهم مظهر المؤمنين،و خدعوا الناس فى الدنيا،و لذلك فإنّهم حينما يريدون الالتفات الى الناس،أو حتى مجرّد رفع طرفهم نحو الآفاق،يختلسون النظرات ذلّه و مهانه.

يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ بحيث لا يرون أحدا،و هذه من طبيعه المجرم،أو الإنسان حينما يصعد عنده الشعور بالذّل.

و قال البعض:إنّ شدّه العذاب تمنعهم من النظر إلى النار،و لكنّهم ينشدّون إليها خوفا منها و فرقا،و لذلك تراهم ينظرون إليها من طرف خفى،كالذى حكم عليه بالإعدام ينظر الى المشنقه نظرا خفيّا،بعكس الذى ينظر الى روضه غنّاء فإنّه يملأ منها عينيه.

أمّا الصالحون فإنّهم يستفيدون من هذا الموقف موعظه و عبره..

وَ قٰالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخٰاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ بسبب ظلمهم و ضلالهم.لقد وفّر اللّه سبحانه فرصه عظيمه للإنسان حيث أعطاه قوى نفسه،و متعه بأهليه،و الظالمون يفقدون هذه الفرصه،فلا يعملون بأنفسهم عملا صالحا حتى يستفيدوا من طاقاتهم يوم القيامه،و لا يربّون أهليهم

على العمل الصالح حتى يستفيدوا من حسنات ذريّتهم يومئذ،و هكذا تكون خسارتهم مضاعفه فى ذلك اليوم الرهيب.

أَلاٰ إِنَّ الظّٰالِمِينَ فِى عَذٰابٍ مُقِيمٍ أى دائم لا يخرجون منه.

[۴۶]كما أنّ الظالمين يخسرون أنصارهم و أعوانهم يوم القيامه،حيث تنقطع كلّ العلاقات و الروابط التى منعتهم فى الدنيا من الاستقامه على الطريق..

وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيٰاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ و هذا المعنى يتكرّر عشرات المرّات فى القرآن،و لكن لماذا تؤكد الآيات على أنّ الذين يعتمد عليهم الإنسان و يتوسّل بهم و يعبدهم،كالطواغيت،و أصحاب القوه و المال،و أصحاب العلم الضّال و الشهره لن ينفعوه؟لأنّ من أعظم عوامل الضلاله أصحاب السوء الذين يغترّ بهم الظالم فيتوغّل فى اغتصاب حقوق الناس اعتمادا عليهم.أ فلا يتفكّر أنّهم لا ينفعونه شيئا يوم القيامه؟! وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ إلى الهدايه،لأنّ السبيل الوحيد إليها هو سبيله.

و أخيرا:

نتساءل:ما هى علاقه هذه المجموعه من الآيات و الأفكار المستوحاه منها بموضوع الوحده و معالجه الاختلافات الاجتماعيّه؟ إنّ القرآن الحكيم يسعى لمعالجه جذور الفساد و الاختلاف،و من أهمّها

الضـلاله،ذلـك أنّ البعض يعرف الحقيقه بينمـا يجهلهـا البعض الآخر،الأمر الـذى ينتهى الى الخلاف فى أغلب الأحيان،و القرآن يعالج الضـلاله البشـريّه مؤكّدا بأنّ سببها الابتعاد عن منهج السماء،فإذا ما عاد الى اللّه و استجاب لدعوته اهتدى الى الحق،و ابتعد عن التكبر الذى يقف بصوره أو بأخرى خلف الصراعات الاجتماعيه.

ص:٣٩٢

[سوره الشوری (۴۲): الآيات ۴۷ الی ۵۳]

اشاره

اِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (۴۷) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ وَ إِنّٰا إِذٰا أَذَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَةً فَرِحَ بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ اَلْإِنْسٰانَ كَفُورٌ (۴۸) لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ إِنٰاثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ اَلذُّكُورَ (۴۹) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرٰاناً وَ إِنٰاثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشٰاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۵۰) وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اَللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مٰا يَشٰاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (۵۱) وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا كُنْتَ تَدْرِى مَا اَلْكِتٰابُ وَ لاَ اَلْإِيمٰانُ وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۲) صِرٰاطِ اَللّٰهِ اَلَّذِى لَهُ مٰا فِى اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى اَلْأَرْضِ أَلاٰ إِلَى اَللّٰهِ تَصِيرُ اَلْأُمُورُ (۵۳)

اللغه

۴۸[و ما لكم من نكير]:أی منكر ينصركم،أو إنكار:بمعنی إنكم لا تقدرون علی الاستنكار لشدّه الهول و الفزع أو لما ترون من عدم الفائده فی إنكاره.

ص:۳۹۳

جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشٰاءُ

هدی من الآیات:

تتواصل خاتمه آیات السوره لتطهیر الأفئده من غفلتها عن الرساله،و اتکالها علی الرسول،و غرورها بما تملک،و جزعها مما تفقد،کیف.؟ یهزّ مطلع الدرس القلب هزّا عنیفا بعد أن یأمره بالاستجابه للرساله فینذره بیوم عظیم لا یردّه شیء، هنالک حیث لا رکن یلجأون إلیه،و لا نصیر ینکر ما یفعل بهم.

ثم ینسف فکره الاتکال فی الهدایه،فحتی الرسول لا یتحمّل المسؤولیه إلاّ بقدر تبلیغ الرساله.

و یحطّم غرور الإنسان،و یعریه علی ضعفه،و کیف یهتزّ فرحا برحمته،و لا یلبث أن یتمیّز کفرا و یأسا إذا أصابته سیئه،أ فلا یهدیه ذلک الی أنّه لا یملک من أمره شیئا،و أنّ للّه ملک السموات و الأرض،و أنّه یخلق ما یشاء،و أنّه الذی یقسم

رحمته بين عباده كيفما يشاء،فيهب لهذا ذكرانا،و لذلك إناثا،و يجعل الثالث عقيما؟ و يكرم من يشاء بأعظم مكرمه و هى الوحى ثم يمضى السياق فى بيان حقائق عن الوحى،فتكتمل السوره التى تبيّن جوانب عن النظام السياسى فى المجتمع المسلم بالحديث عن الوحى.أو ليس هو محور هذا المجتمع،و قيمه نظامه السياسى؟

بينات من الآيات:

[۴۷]أعظم ما يعانى منه البشر الغفله،حيث تحيط بهم مشاكل يوميه تنسيهم قضاياهم الهامّه،و عاده تحجب الشجره الناس عن رؤيه الغابه المتراميه..و يعالج الذكر هذه الحاله بالإنذار الصاعق من يوم القيامه حيث لا يمكن الفرار من أهواله.

اِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ بالاستماع الى داعيه،و التسليم للحق الذى نزل معه،و الطاعه للقياده التى أمر بها.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ و هل يرد أحد ما يريده اللّه تعالى؟ مٰا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ فلا أحد ينصر أحدا.

وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ [۴۸]و يعالج القرآن-و فى أكثر من آيه-عقبه نفسيه أمام تحمل مسئوليه

ص:۳۹۶

الایمان،حیث تری الإنسان ینتظر من یحمّله الإیمان تحمیلا،و یزعم أنّه ما دام لا یوجد من یکرهه علی الإیمان فهو معفی عنه و عن التزاماته.

کلاّ..الإیمان مسئولیتک قبل أیّ شخص آخر.أو لیست فائدته لک، و خسارته-إن خسرته-علیک،فما ذا تنتظر؟إنّ الرسول لیس إلاّ مبلّغ،فإن شئت آمنت بحرّیّتک،و إن شئت اشتریت العذاب بما اخترته لنفسک من الکفر.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً إِنْ عَلَیْکَ إِلاَّ الْبَلاغُ و هذا دور کلّ قائد رسالی فی أیّ مجتمع و أیّ زمان،و کفی بذلک مسئولیه کبیره یتحمّلها.و إذا ما أعرض الناس عمّا یدعوهم إلیه فلا یدلّ ذلک علی قصور فی الرساله،و لا تقصیر فی القائد،بمقدار ما یدلّ علی ابتعادهم عن میزان العقل الثابت،و اتباعهم لطبائعهم المتقلّبه،و التی تتأثّر بالضغوط و العوامل الخارجیه، و التی یستعرضها السیاق هنا لیهدی الإنسان الی مراکز ضعفه،لکی لا یستبدّ به الغرور فیکفر.

إنّ ضعف الإنسان یتمثّل فی تقلّب حالته النفسیّه مع تقلّبات الظروف الخارجه عن إرادته،فهل تکون هذه الحاله میزانا صالحا لتقییم الحق و الباطل،أو منهجا سلیما للسلوک،أم لا بد من اتباع الرسول.

وَ إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَهً فَرِحَ بِهَا و توقّف عند حدود النعمه دون التفکیر فیما یترتّب علیها من مسئولیه،و قد نهی اللّه عن الفرح قائلا: إِنَّ اللّهَ لاٰ یُحِبُّ الْفَرِحِینَ (۱)و قال فی موضع آخر:

ص:۳۹۷

۱- ۱) القصص/(۷۶).

لاّ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمٰا أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمٰا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاٰ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفٰازَهٍ مِنَ الْعَذٰابِ (۱)و الفرح المنهیّ عنه هو حاله الإشباع التی تؤدّی الی الغرور أو نفی المسؤولیه و الوصول الی الکمال.و هذا الشعور یوقف مسیره التقدّم عند الإنسان، و علی العکس من ذلک لو أشعر نفسه بأنّ أمامه مسئولیّات أخری لم یؤدّها،فإنه یستشعر الحزن فی نفسه لاعتقاده بالتقصیر فی عمله.

و هکذا

أوصانا الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام حین قال:

«و اعلموا عباد اللّه!إنّ المؤمن لا یصبح و لا یمسی إلاّ و نفسه ظنون عنده،فلا یزال زاریا علیها،و مستزیدا لها،فکونوا کالسابقین قبلکم،و الماضین أمامکم، قوّضوا من الدنیا تقویض الراحل،و طووها طیّ المنازل » (۲)

و أوصی الإمام الکاظم بعض ولده بذلک قائلا:

«یا بنیّ علیک بالجد،لا تخرجنّ نفسک عن حدّ التقصیر فی عباده اللّه و طاعته فإنّ اللّه لا یعبد حقّ عبادته » (۳)و هناک جانب آخر من طبیعه البشر هو الیأس عند المصیبه و الابتلاء،حیث ینسی نعم اللّه علیه بسبب مصیبه یتعرّض لها فی حیاته،ممّا یدلّ علی مدی ضعفه.

و لماذا یکفر بالنعم؟لأنّه فقد بعض المال أو أصابه شیء من المرض،أ فلا فکّر فی سائر نعم اللّه التی لا یزال یتقلّب فیها،ألا تذکر أیّام الرخاء و الراحه عند ما کان یفرح بالنعم و یحسب أنّها دائمه لا تزول عنه أبدا؟! بلی.ینبغی أن یرکّز المبتلی نظره فی سائر نعم اللّه علیه،فیستعید شخصیّته،

۱- ۱) آل عمران/(۱۸۸).

۲- ۲) موسوعه بحار الأنوار/ج(۶۸)ص(۲۳۱).

۳- ۳) المصدر/ص(۲۳۵).

و يثق بربّه،و يسرع فى مقاومه البلاء بروح إيجابيه،كما ينبغى أن يتذكّر أبدا نعم اللّه السابقه عليه فيزداد باللّه أملا و له حمدا كثيرا،كما فعلت امرأه أيّوب حيث حاول إبليس إغواءها عند ما أحيط بها البلاء،فنهرته و استقامت على صبرها و تجلّدها حتى فرّج اللّه عنها..

جاء فى الحديث :إنّه جاءها ذات يوم فقال لها:

أ لست أخت يوسف الصديق عليه السلام !قالت:بلى.قال:فما هذا الجهد؟و ما هذه البليه التى أراكم فيها؟قالت:هو الذى فعل بنا ليؤجرنا بفضله علينا،لأنّه أعطاه بفضله منعما،ثمّ أخذه ليبتلينا،فهل رأيت منعما أفضل منه؟!فعلى إعطائه نشكره،و على ابتلائه نحمده،فقد جعل لنا الحسنيين كلتيهما،فابتلاه ليرى صبرنا،و لا نجد على الصبر قوه إلاّ بمعونته و توفيقه،فله الحمد و المنه ما أولانا و ابتلانا (1)هكذا يوجّه المؤمنون الابتلاء و المصيبه،و يقاومون وساوس الشيطان الذى يحاول تحريف مسيرتهم،بينما يكفر سائر الناس بسبب الابتلاءات التى يتعرّضون لها،و التى لو درسناها لوجدنا أكثرها تحلّ بهم لذنوبهم و ما قدّمته أيديهم من سيئات.

وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسٰانَ كَفُورٌ يكفر بالنعم القديمه كما يكفر بسائر النعم التى تحيط به الآن،فتظلم الدنيا فى عينيه،و يفقد القدره على مقاومه البلاء و التمتّع بالرخاء.

[۴۹]هذا ضعف الإنسان،و خور عزمه،أ فلا اتصل بالقوه التى لا تقهر، و بالملك الذى لا يحد،و بالعزّه التى لا تغلب،باللّه القوىّ العزيز؟ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ

ص:۳۹۹

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج(۱۲)ص(۳۵۲).

و من أوسع ملكا ممّن يملكهما،و من أنفذ ملكا ممّن خلقهما؟أو ليست السموات مطويّات بيمينه؟ثم إنّ ملكه لا يحدّ بالسموات و الأرض،لأنّه:

يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ دون أن يحقّ لأحد الاعتراض عليه أو السؤال.

و تتجلّى هذه المشيئه فى مختلف جوانب الحياه،و من بينها تصرّفه فى أعظم ما خوّله للإنسان من الملك و هو الولد.

يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ إِنٰاثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشٰاءُ الذُّكُورَ فلا الذى يريد اللّه أن يكون نسله كلّهم إناثا قادرا على إنجاب الذكور،و لا العكس.و لعلّ تقديم الإناث على الذكور كان للدلاله على أنّ البنت هى الأخرى هبه من اللّه عظيمه،أو لأنّ الجاهليين كانوا لا يحبّون الإناث، و لكن اللّه-بالرغم من ذلك-يهب الإناث،فهو الواهب لما يشاء،كيف يشاء،أ فلا يدلّ ذلك على سعه ملكه،و شدّه هيمنته؟ [۵۰] أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرٰاناً وَ إِنٰاثاً أى يجعل النسل من الجنسين الإناث و الذكور.

وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشٰاءُ عَقِيماً فلا يهب له شيئا،و هذه المشيئه ليست اعتباطيه،و إنّما تدخل ضمن حكمه اللّه و إرادته المطلقه.

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ

ص:۴۰۰

و لو أنّه يعطى الناس كيفما أرادوا لربما فسد العالم،فقد يتمنّى الجميع أو الأكثريّه الذكور أو العكس،بينما لا بد من التنوع و التوازن للحفاظ على الجنس البشرى،و من جانب آخر يجعل ربّنا البعض عقيما لحكمه يعلمها،فربما يفسد العقيم لو أعطى ذريّه.

و معرفه هذه الحقيقه تبعث السكينه فى النفس،فمن علم بأنّ اللّه هو الوهّاب لأفضل النعمه و أشدّها تأثيرا على النفس،و هى نعمه الذريه التى تهشّ لها نفس كلّ حى،لا يستبدّ به الفرح حتى يدخله فى الغرور،كما أنّه لو فقد شيئا من النعمه لا يستبدّ به اليأس حتى يدخله فى الكفر بالنعم،لأنّه يعلم بأنّ المقدّر لكلّ ذلك هو اللّه الذى لا يظلم و لا يجور سبحانه و تعالى.

[۵۱]و فى سياق الحديث عن آماد ضعف البشر،و أبعاد حاجته،و ضروره اتصاله بمعدن القوه،و ينبوع الغنى برحمه اللّه الذى له ملك السموات و الأرض يهدينا الربّ الى نعمه الرساله، و يتصل الحديث عن الرساله بالجوّ العام لسوره الشورى التى تختم بهذه الآيات اتصالا متينا،ذلك لأنّ الشورى-كما أسلفنا- متمّمه للنظام السياسى للأمّه،و محور هذا النظام بل و أساس الأمّه هو الوحى الذى يضفى على المجتمع المسلم صبغه اللّه،و يحييه بكلمه التقوى،و يوحّده حول محور القياده الرساليه المتمثّله فى الرسول صلى الله عليه و آله و ذوى القربى من أهل بيته المعصومين و من اتبع نهجهم من الفقهاء الصالحين! و لم يمنّ اللّه على عباده بنعمه أعظم و لا أروع و لا أنفع من الوحى.إنّه التجلّى الأعظم لرحمه اللّه التى وسعت كلّ شىء،و أىّ تقدير أو أىّ احترام أكبر من أن يتلقّى الإنسان كلمات جبّار السموات و الأرض.؟!و أىّ قلب عظيم هذا الذى يتلقّى هذا الأمر الثقيل فلا يتصدّع.؟!أىّ سماء تحلّق بها هذه النفس الكريمه

التی تستقبل کلمات اللّه التی لو ألقیت علی الجبال لتصدّعت و لو وجّهت الی الموتی لتکلّموا أو الی الأرض لسارت سیرا.؟! و لکن کیف ینزل اللّه کلماته علی البشر؟بواحده من السبل التالیه:

وَ مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُکَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْیاً ما هو الوحی؟حسب اللغه و موارد استخدام الکلمه أنّه قذف الحقیقه فی القلب قذفا.

قال الشیخ المفید:و أصل الوحی هو الکلام الخفی،ثم قد یطلق علی کلّ شیء قصد به إفهام المخاطب علی الستر له عن غیره و التخصیص له به دون من سواه، و إذا أضیف الی اللّه کان فیما یخصّ به الرسل(صلّی اللّه علیهم)خاصه دون سواهم علی عرف الإسلام و شریعه النبی. (۱)

و روی عن الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه قال فی معانی الوحی:

«و أمّا تفسیر وحی النبوه و الرساله فهو قوله تعالی: إِنّٰا أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ کَمٰا أَوْحَیْنٰا إِلیٰ نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ إِبْرٰاهِیمَ وَ إِسْمٰاعِیلَ و أمّا وحی الإلهام فهو قوله عزّ و جلّ: وَ أَوْحیٰ رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِی مِنَ الْجِبٰالِ بُیُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمّٰا یَعْرِشُونَ و مثله: وَ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ أُمِّ مُوسیٰ أَنْ أَرْضِعِیهِ فَإِذٰا خِفْتِ عَلَیْهِ فَأَلْقِیهِ فِی الْیَمِّ ،و أمّا وحی الإشاره فقوله عزّ و جل: فَخَرَجَ عَلیٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرٰابِ فَأَوْحیٰ إِلَیْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُکْرَةً وَ عَشِیًّا » (۲)و ما یجمع هذه المعانی و غیرها لکلمه الوحی هو الإلقاء إشاره و بنحو من

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج(۱۸)ص(۲۴۹).

۲- ۲) المصدر/ص(۲۵۵).

التخصيص و الستر.

و نتساءل:كيف يتمّ الوحى من اللّه للبشر؟قبل الإجابه لا بدّ أن نعرف أنّه لا ينبغى السؤال عن الكيفيه فى الجانب الالوهى،لأنّ علمه محجوب عنا،و قد ضلّ كثير من الناس حين تفكّروا فى الذات الالوهيه و ما يتصل به سبحانه من حقائق، بلى.يحقّ لنا أن نسأل عن الجانب الآخر حيث يتمّ التلقّى و الاستجابه و الأخذ، و القضيه هنا هيّنه إذ أنّ لها أمثله:فنحن البشر لم نعلم شيئا حين خلقنا اللّه من بطون الأمهات ثمّ قذف فى قلوبنا العلم،كما أنّ كثيرا من البشر يقذف اللّه فى أفئدتهم نور معرفته و روح الإيمان به،و كلّ ذلك نظائر للوحى.

و لكن حين يكلّم اللّه أحدا بالوحى فإنّ ذلك لا يعنى مجرّد قذف نور العلم بصوره مجمله،بل و أيضا بيان تفاصيل العلم،و بيّنات الهدى،لأنّ القضيه هنا قضيه التكلّم،و التكلّم يعنى وجود كلمات،و الكلمات تعنى المفصّلات من العلم.

و يبدو أنّ الوحى هو اتصال مباشر بين الربّ و عبده المنتجب،و لعلّه أسمى درجات التكلّم،و قد كان نبيّنا(صلّى اللّه عليه و آله)يعيش فى لحظات التجلّى وضعا خاصّا كان يسمّيه المسلمون(برحاء الوحى)..

سأل زراره من الإمام الصادق-عليه السلام-قائلا:جعلت فداك:الغشيه التى كانت تصيب رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا نزل عليه الوحى؟فقال:

ذلك إذا لم يكن بينه و بين الله أحد،ذاك إذا تجلى الله له (1)

و جاء فى حديث آخر :

ص:۴۰۳

۱- ۱) المصدر/ص(۲۵۶).

کان جبرئیل إذا أتی النبی قعد بین یدیه قعده العبد،و کان یدخل حتی یستأذنه (۱)من هنا فإنّ برحاء الوحی إنّما کانت تنتاب النبی عند ما یتمّ تجلّی اللّه له بالوحی المباشر،و لیس عند ما یبعث إلیه رسولا من عنده(و هو جبرئیل علیه السلام) الذی کان یتمثّل فی أجمل صوره و هو صوره دحیه الکلبی المعروف بصباحه وجهه، و لم ینزل علیه بصورته الأصلیّه إلاّ مرّتین،حسب بعض النصوص..ماذا کانت برحاء الوحی،و لماذا؟

روی أنّه کان إذا نزل علیه الوحی یسمع عند وجهه دویّ کدویّ النحل.

و

روی أنّه کان ینزل علیه الوحی فی الیوم الشدید البرد فیفصم عنه و انّ جبینه یتفصّد عرقا. (۲)

و

روی أنّه کان إذا نزل علیه کرب لذلک،و یربدّ وجهه،و نکس وجهه و نکس أصحابه رؤوسهم منه. (۳)

و

فی الحدیث أنّه أوحی الیه و هو علی ناقته،فبرکت و وضعت جرانها (۴)فما تستطیع أن تتحرّک،و أنّ عثمان کان یکتب للنبی لاٰ یَسْتَوِی الْقٰاعِدُونَ...

الآیه و فخذ النبی علی فخذ عثمان فجاء ابن أمّ مکتوم،فقال یا رسول اللّه:إنّ بی من العذر ما تری،فغشیه الوحی،فثقلت فخذه علی فخذ عثمان،حتی قال:

خشیت أن ترضّها فانزل اللّه سبحانه: غَیْرُ أُولِی الضَّرَرِ (۵)

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) أی إذا انتهی عنه الوحی تصبّب عرقا.

۳- ۳) المصدر/ص(۲۶۱).

۴- ۴) مقدّم العنق.

۵- ۵) المصدر/ص(۴۶۴).

و حقّ للنبی أن یتکأدّه ثقل الوحی،و لو لا توفیق اللّه لتصـدّع قلبه لتجلّیات ربّه.أو لیست السـموات یکدن یتفطّرن من خشـیه اللّه؟ ما أعظم هـذا القلب الذی یتحمّل کلمات اللّه،و یتلقّی أمره مباشـره!إنه حقّا آیه عظمی من آیات اللّه! و لعلّ توفیق اللّه و تسدیده للرسول و الـذی تکتمل مقدرته علی احتمال حاله الوحی و تجلّی اللّه العظیم ثم احتمال علم اللّه و کلماته،لعل هذا التوفیق یتمثّل فی روح القدس التی أنزلها اللّه علی نبیّه،

فقد روی عن الإمام الصادق علیه السلام قال مفسّرا قوله تعالی: یَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی :

«خلق أعظم من من جبرئیل و میکائیل کان مع رسول اللّه و هو مع الأئمه، و هو من الملکوت » (۱)

و قال فی تفسیر قوله تعالی: وَ کَذٰلِکَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتٰابُ وَ لاَ الْإِیمٰانُ :

«خلق من خلق اللّه أعظم من جبرئیـل و میکائیـل کـان مع رسول اللّه یخـبره و یسـدّده و هو مع الأـئمه من بعـده » (۲)أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ کمـا کلّم اللّه نبیّه موسـی بن عمران علیه السـلام تکلیما،و لکن دون أن یری شـیئا، و ماذا تحتمل العین من عظمه اللّه، أ رأیت کیف تتلف أنسجه العین،و تعطب أعصابها،لو تعرّضت لومضه شدیده من النور الذی خلقه اللّه،أو یزعم أحد بأنّ اللّه

۱- ۱) المصدر/ص(۲۱۵).

۲- ۲) المصدر.

أقلّ نورا من تلك الومضه و قد أشرقت السموات و الأرض بنور ربّها؟! لقد تجلّى ربّك للجبل فجعله دكّا،و خرّ موسى صعقا،فإذا لم يصبر موسى على تصدّع الجبل فهل كان يتحمّل تجلّى اللّه له مباشره؟! أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً كما كان ربّنا يبعث جبرئيل لرسله،و لكن كيف كان يتلقّى جبرئيل وحى ربه؟ حسب

روايه عن أمير المؤمنين-عليه السلام-عن النبى(صلّى اللّه عليه و آله) أنّه:

«سأل جبرئيل قائلا:يا جبرئيل:هل رأيت ربّك؟فقال جبرئيل:إنّ ربى لا يرى،فقال رسول اللّه:من أين تأخذ الوحى؟فقال:آخذه من إسرافيل، فقال:من أين يأخذه إسرافيل؟قال:يأخذه من ملك فوقه من الروحانيين، قال:فمن أين يأخذه ذلك الملك؟قال:يقذف فى قلبه قذفا » (1)فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مٰا يَشٰاءُ و لا يحقّ لأحد يتلقّى الوحى أن يتصرّف فيه كثيرا أو قليلا،بل لا بدّ أن يكون الوحى حسبما أمر اللّه،و فى الوقت الذى يأذن اللّه.

إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ و من علوّ مجده تساميه من القلوب المريضه،و النفوس المليئه بالأحقاد و الأغلال

۱- ۱) المصدر/ص(۲۵۷).

و آثار الذنوب،إنّما الذين يصطفيهم اللّه لوحيه من طهرت أنسابهم و أحسابهم، وصفت قلوبهم،و تسامت نفوسهم،فاللّه أعلم حيث يجعل رسالته يختار لها أكرم خلقه،و أشدهم تسليما و طاعه و إخلاصا.

من هنا لا- ينبغى للناس أن يختاروا لقيادتهم إلاّ الأعلم الأتقى.أو ليس اللّه هو المخصوص بالطاعه؟فلا بد أن يكون أقرب الناس اليه هو الذى يطاع بين الناس بإذن اللّه.

[۵۲]و هكذا عقد لواء القياده فى هذه الأمّه لرسولنا الأكرم لأنّه تلقّى الوحى من أمر اللّه..

وَ كَذٰلِكَ بمثل هذه السبل الثلاث:بالوحى المباشر،و بالتكلّم من وراء الحجاب، و ببعث الرسول،تلقّى الرسول كلمات ربّه.

أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا ما هو ذا الروح الذى أوحى اللّه الى الرسول؟قالوا:إنّه روح الحياه.أو ليس القرآن حياه القلوب،و فيه ما يضمن للبشر الحياه الأخرويه،و قد قال ربّنا سبحانه: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ . (۱)

و لكن يبدو أنّ الروح فى منطق الكتاب هو روح القدس،و قد قال ربّنا سبحانه:

۱- ۱) الأنفال/(۲۴).

۱) وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (۱)۲) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا (۲)۳) يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (۳)۴) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا (۴)و الروح-حسب الآيه الأخيره-غير الملائكه،و هو يلقى على الرسل حسب الآيه الثالثه،و هو يحمل الرساله حسب الآيه الثانيه،و يؤيّد به الرسل حسب الايه الأولى.

و فى النصوص أنّه خلق أعظم من الملائكه،و هو الذى ينزل فى ليله القدر، و يصعد مع الملائكه فى يوم القيامه كما ذكر فى الآيه الرابعه.

و هو بأمر اللّه و من أمره،فهو إذا من عالم الملكوت المهيمنه على المخلوقات، و بتعبير آخر:إنّه من عالم الأنوار المتعاليه عن عالم الأجسام اللطيفه كالملائكه أو الكثيفه كالبشر،إنّه فى أفق العلم و العقل و الحياه و القدره،و بذلك فهو من عالم الأمر،حيث ينزل منه القدر،و يكون به القضاء.

و يكفينا أن نعرف من الروح هذا القليل الذى يشير الى آياته و علائمه و مظاهر وجوده و ليس الى ذاته،كما فى سائر الأنوار العاليه التى لم نعرف علمها إلاّ بقدر معرفه آثارها،و قد قال ربّنا سبحانه: يَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً

ص:۴۰۸

۱- ۱) البقره/(۸۷).

۲- ۲) النحل/(۱۰۲).

۳- ۳) غافر/(۱۵).

۴- ۴) النبأ/(۳۸).

.

و هكذا يبدو أنّ الروح-كما العقل و الإراده-هو نور إلهى ينزله اللّه على قلب من يشاء من عباده،ليشبع فيه سكينه الإيمان،و نور اليقين،و سداد التوفيق، و كلمه التقوى و العصمه.

و قد أعطى ربّنا المؤمنين من عباده درجه من هذا الروح و هو روح الإيمان و التقوى،بينما أكمل لنبيّه محمد و آله عليه و عليهم السلام درجات هذا الروح، و أبلغهم درجه اليقين التامّ و العصمه.

و لو لا هذا الروح لم يكن يعرف الأنبياء أنّ ما ينقر فى آذانهم أو يقذف فى أفئدتهم أو تراه أبصارهم هو من عند اللّه و ليس من نزغات الشياطين أو أوهام النفس.

كما أنّه لو لا نور العقل لم يقدر الإنسان على التمييز بين الحق و الباطل،بين ما تراه عينه من ماء و ما يترائى له من سراب.

و لو لا روح القدس لم يهزم النبى الشيطان كليّا، كما أنّه لو لا روح الإيمان لم يتغلّب المؤمن على الشيطان فى الأغلب.

و بتعبير آخر:بروح القدس تتكامل نفس النبى حتى تستعد لتلقّى وحى اللّه، كما بالعقل تتكامل نفس سائر البشر لتلقّى المعارف و العلوم.إنّه إذا الجانب المتّصل بالنبى من الوحى،بينما الرساله هى الجانب المتصل بالحق الذى يوحى، و كلاهما من اللّه سبحانه،و لهذا جاءت كلمه الروح هنا بعد الوحى،و كأنّه أوحى به بينما هو من أمر اللّه،و به يسود النبى لتلقّى الوحى.

ص:۴۰۹

و نستوحی هذه الفکره من بعض الأحادیث التی ذکرنا طائفه منها سابقا، و التی تبیّن أنّ الروح خلق أعظم من الملائکه،و نتلوا معا الطائفه الثانیه:

روی عن زراره قال: قلت لأبی عبد اللّه(الإمام الصادق علیه السلام):

کیف لم یخف رسول اللّه فیما یأتیه من قبل اللّه أن یکون ذلک مما ینتزغ به الشیطان؟قال:

فقال:

«إنّ اللّه إذا اتخذ عبدا رسولا أنزل علیه السکینه و الوقار فکان یأتیه من قبل اللّه عزّ و جلّ مثل الذی یراه بعینه » (۱)

و روی عن محمد بن مسلم و محمد بن مروان عن أبی عبد اللّه الإمام الصادق علیه السلام) :

«ما علم رسول اللّه أنّ جبرئیل من قبل اللّه إلاّ بالتوفیق » (۲)و فی تفسیر هذه الآیه بالذات سبق و أن

روینا حدیثا عن الإمام الصادق علیه السلام أیضا أنّه قال(عن الروح فی هذه الآیه) :

«خلق من خلق اللّه أعظم من جبرئیل و میکائیل،کان مع رسول اللّه یخبره و یسدّده و هو مع الأئمه من بعده » (۳)

و جاء فی تفسیر الآیه یَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (۴)عن

۱- ۱) المصدر/ص(۲۶۲).

۲- ۲) المصدر/ص(۲۵۷).

۳- ۳) المصدر/ص(۲۶۴).

۴- ۴) الإسراء/(۸۵).

الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال :

«أعظم من جبرئیل و میکائیل،لم یکن مع أحد ممّن مضی غیر محمّد و هو مع الأئمه یسدّدهم،و لیس کلّ ما طلب وجد » (۱)و لکی یزداد الأنبیاء یقینا بأنّ اللّه یؤیّدهم بروح منه و یزدادوا قربا منه بالإنابه إلیه و التوبه فإنّ اللّه یکلهم الی أنفسهم لحظات فتهتزّ قناعاتهم أو یرتکبون ما لا یلیق بهم،کما همّ یوسف بها لولا أن رأی برهان ربّه،و کما دعا یونس علی قومه و کان الأولی أن یصبر علیهم،و کما سارع داود بالقضاء فذکّرته الملائکه فأناب الی اللّه.

و قد جاء فی حدیثین یکمل الثانی منهما الأوّل ما یلی:

عن أبی بصیر عن أبی عبد اللّه(الإمام الصادق علیه السلام) فی قول اللّه:

حَتّٰی إِذَا اسْتَیْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ کُذِبُوا مخفّفه قال:

«ظنّت الرسل أنّ الشیاطین تمثّل لهم علی صوره الملائکه » (۲)

و عن أبی شعیب عن أبی عبد اللّه(الإمام الصادق علیه السلام) :

«وکلهم اللّه الی أنفسهم أقلّ من طرفه عین » (۳)هکذا نعرف أنّ نعمه الروح الذی یسدّد به النبی و یعصم من أن ینطق بهوی لیست بأقلّ من نعمه الوحی إن لم یکن أعظم.

ص:۴۱۱

۱- ۱) المصدر/ص(۲۶۴).

۲- ۲) المصدر/ص(۲۶۱).

۳- ۳) المصدر/ص(۲۶۲).

مٰا كُنْتَ تَدْرِی مَا الْكِتٰابُ ذلك أن الكتاب ليس من عبقريه محمّد(صلّى اللّه عليه و آله)بل من وحى اللّه.

وَ لاَ الْإِيمٰانُ فلو لا الوحى لم يكن النبى يدرى شيئا من كتاب ربّه،و لولا روح القدس لم يبلغ درجه الإيمان،لأنّ الايمان يتمّ بروح منه.

و لا ريب أنّ الرسول كان مؤمنا قبل الرساله،و لكنّ هذا الإيمان كإيمان أىّ بشر آخر كان باللّه و بروح منه.ألم يقل ربّنا سبحانه: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰاكُمْ لِلْإِيمٰانِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (1)أمّا الرسول محمد صلى الله عليه و آله فقد سدّده اللّه منذ نعومه أظفاره بروح القدس،حسبما يبدو

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام :

«و قد قرن اللّه به-صلّى اللّه عليه و آله-من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته،يسلك به طريق المكارم،و محاسن أخلاق العالم،ليله و نهاره » (2)وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا إنّه من اللّه،و لأجل كلّ من يشاء اللّه هدايته،و ليس من الرسول أو خاصّا به فقط.

۱- ۱) الحجرات/(۱۷).

۲- ۲) عن نهج البلاغه/الخطبه(۱۹۲).

وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ [۵۳]فالنور الذی أوحی به اللّه یهدی الی السبیل المستقیم.

صِرٰاطِ اللّهِ الَّذِی لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ أَلاٰ إِلَی اللّهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ و هل صراط اللّه خالق الکون و مالکه أفضل،أم صراط الشیاطین و الطواغیت الذین یشرّعون مناهج منحرفه تتنافی مع القوانین الطبیعیه و السنن الکونیه فیضلّون و یضلّون؟! و هل من تصیر إلیه الأمور أحقّ بالطاعه و الإتباع أم من لا یملکون شیئا حتی من أمور أنفسهم؟! و قبل الختام نورد حدیثا فی فضل هذه الآیه

نقله جابر بن عبد اللّه علیه السلام عن الإمام الصادق علیه السلام ،قال:سمعته یقول :

«وقع مصحف فی البحر فوجدوه و قد ذهب ما فیه إلاّ هذه الآیه: أَلاٰ إِلَی اللّهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ » (۱)

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)ص(۵۹۱).

سوره الزّخرف

اشاره

ص:۴۱۵

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

فضل السوره:

عن أبى جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال :

«من أدمن قراءه(حم)الزخرف آمنه اللّه فى قبره من هوام الأرض، و ضغطه القبر،حتى يقف بين يدى اللّه عزّ و جل،ثم جاءت حتى تدخله الجنه بأمر اللّه تبارك و تعالى» (تفسير نور الثقلين/ج ۴ ص ۵۹۰)

ص:۴۱۷

الإطار العام

لکی تستقبل أفئدتنا ضیاء الایمان لا بدّ أن نطهّرها من طائفه من الأدران التی تترسّب علیها،و آیات الذکر تذکّرنا بها،و تشجّعنا علی تزکیه القلوب منها، و توصینا بکیفیه ذلک،و یبدو أنّ سوره الزخرف تجری فی هذا السبیل..کیف؟ إنّ هدف الکتاب المبین الذی جعله اللّه قرآنا عربیّا (بلغتهم،و یفصح جلیّا عن الحقائق)بلوغ العقل،و هو أسمی و أدق تعبیر عمّا فی أمّ الکتاب(۴/۱).

ثم تتری الآیات فی تبصیر الإنسان بالعقبات النفسیه التی لا بدّ من تجاوزها (أو الأقفال التی یجب فکّها،و الأمراض التی یجب معالجتها،و الأدران التی یجب تطهیر القلب منها لیستعدّ للإیمان)و هی:

أوّلا:الغرور بالمال،و هل یضرب القرآن الذکر صفحا لأنّهم قوم مسرفون؟ أ فلا ینذرون قبل أن یکسر غرورهم عذاب عقیم،کما أهلک أشدّ منهم بطشا، و ترکهم أحادیث لمن یعتبر بهم؟(۸/۵).

ثانیا:الفصل بین ربّ السماء و ربّ الأرض،و الإعتقاد بأنّ إله الحق لا شأن له بدنیاهم،و إذا سئلوا عمّن خلق السموات و الأرض فلا مناص لهم من الاعتراف بالخالق العزیز العلیم،و هکذا الأرض،فهو الذی جعلها مهدا،و سلک فیها سبلا، لعلّهم یهتدون الی مآربهم ثم الی ربّهم الذی أتقن صنعه،و حتی تدبیر رزقهم فهو بأمر اللّه.أو لیست حیاتهم تعتمد علی الماء،فمن ینزله من السماء بقدر حاجتهم؟ أ فلا یرون کیف یحیی به اللّه الأرض،فلما ذا لا یهتدون الی أنّه کذلک یحییهم بعد موتهم؟! و من آیات تدبیره خلق الأزواج،و توفیر وسائل النقل. أو لیس کلّ ذلک یدلّ علی أنّ إله السماء هو إله الأرض،و یدعوهم الی طاعته،و شکر نعمائه،فإذا استقروا علی ظهور الأنعام أو متن السفن سبّحوا اللّه علی تسخیرها لهم!و لم یکونوا بمستواها(۱۴/۹)و نقرأ فی ختام السوره تذکره بهذه الحقیقه أیضا(۸۴).

ثالثا:تقدیس الأشیاء و الأشخاص،فإذا بهم یجعلون للرحمن من عباده جزء (یعطونه صفه التقدیس)و بالغوا فی کفرهم حین زعموا أنّ اللّه اختار لنفسه البنات،و اصطفی لهم البنین.

و یتساءل:هل شهدوا خلقهم؟کلاّ..و یقول إنّ کلامهم الباطل شهاده علیهم،سوف تکتب و سوف یسألون عنها...و تراهم یبرّرون عباده الآلهه بالجبر الإلهی،بلا علم عندهم،بل بمجرد الخرص و التخمین،و لا بکتاب إلهی یستمسکون به،بل باتباع آبائهم.

و یعالج القرآن ابتاع الآباء بأنّ ذلک من عاده المترفین الذین ما أرسل اللّه الی قریه نذیرا إلاّ تشبّثوا بتقالیدهم البالیه متحدّین بها رسالات ربّهم،و لکن ألا ینظرون الی عاقبه أولئک المترفین الذین انتقم اللّه منهم؟!

و يضرب القرآن مثلاـ على ذلك بقصه إبراهيم(أوّلاـ:لأنّ أبرز ما فى رسالته تحدّيه لعادات السابقين،ابتداء من أبيه و انتهاء بقومه،و ثانيا:لأنّه من أولى العزم الذين يذكرون فى هذه السوره باستثناء واحد منهم و هو نوح عليه السلام).

و إذا كانت الجاهليه العربيه تعتمد على عقائد آبائها،فإنّ أعظمهم إبراهيم، رائد التوحيد و محطّم الأصنام.ألا يتبعونه و قد جعل رساله التوحيد كلمه باقيه فى عقبه؟كلّا..إنّهم يتبعون أهواءهم لا آباءهم،و قد غرّتهم متع الدنيا عن اتباع الحق حتى نسبوا الرسول صلى الله عليه و آله الى السحر(۲۰/۱۵).

رابعا:تقييم الحقائق بالمقاييس الماديه،فقد قالوا:لو لا أنزل الكتاب على واحد من العظيمين فى الطائف و مكه؟و نهرهم اللّه:هل هم الذين يقسمون نعم اللّه؟كلّا..اللّه هو الذى قسم بينهم معيشتهم،و جعلهم يتفاضلون فى الأمور الماديه،لا لقيمه لهذا عنده أو هوان لذاك،بل لتنتظم الحياه الاجتماعيه، و يحتاجون الى بعضهم،و يتعاونون فيما بينهم،أمّا النعمه الكبرى فهى رحمه اللّه، لا المال الذى يكدّسونه.

و ما أتفه الدنيا عند اللّه،فلو لا أن يصعب على المؤمنين لجعلها كلّها للكفّار، لأنّها بالتالى متاع.أمّا الآخره التى هى الحيوان فهى للمتقين وحدهم.

خامسا:قرناء السوء الذين يزيّنون للإنسان سوء عمله ليراه حسنا،و إنّما يقيّض اللّه قرين السوء من الجنّ و الإنس لمن يعش عن ذكر ربّه،(أمّا من يتذكّر فإنّه يبصر الحقائق،لأنّ الشيطان يتهرّب من ذكر اللّه)و يقوم الشيطان بصدّ التارك لذكر اللّه عن سبيل الهدى،و تزيين الضلاله له،و إنّما ينتبه لدور الشيطان فى إضلاله حين يأتى ربّه،فيقول له: يٰا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ .و ماذا ينفع التبرّى منه يومئذ،لأنّهما فى العذاب مشتركين بسبب ظلمهما.

(و هكذا يعالج القرآن وسوسه الشيطان بذكر اللّه).

و بعد أن ينذر القرآن أولئك الجاهلين بعذاب إمّا فى عهد الرسول أو بعده،و يأمر النبى(و الذين اتبعوه)بالتمسّك بالوحى الذى هو شرف له و لقومه(دون المال و الجاه)لأنّهم يسألون عنه،يأمره بأن يسأل السابقين من الرسل(و يستقرئ سيرتهم)هل كانوا يدعون قط الى غير اللّه(و يقدّسون آلهه المال و السلطه كلا) و يضرب مثلا من سيره موسى و عيسى عليهما السلام(و هما نبيّان من أولى العزم ذكرا فى هذه السوره مع إبراهيم و محمّد سلام اللّه عليهما).

فحين أرسل اللّه موسى بالبينات الى فرعون و ملئه إذا هم منه يضحكون،و كلّما أراهم ربّنا من آياته طلبوا من موسى أن يدعو ربّه،و عهدوا إليه بالإيمان،فلمّا كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم(و اعتمدوا على قيمه الثروه و السلطه الزائله).

و أثار فيهم فرعون نخوه العصبيه و شهوه المال و القوه،و استخفّهم فأطاعوه، فانتقم اللّه منهم و تركهم آيه لمن بعدهم.

(و كذلك كان موقف الجاهليين العرب من عيسى بن مريم عليهما السلام) و حينما ضربه اللّه مثلا صالحا جادل فيه قوم الرسول قائلين:أ آلهتنا خير أم هو؟ (و كانوا يعرفون الحق،و لكنّهم عاندوا ربما لأنّهم اعتمدوا على قيمه الثروه و السلطه، فقدّسوا آلهتهم رمز الثروه و السلطه، و استخفّوا بابن مريم الذى كان مثال الطهر و الزهد)بلى.إنّه عبد أنعم اللّه عليه،و جعله مثلا لبنى إسرائيل(و لم يأمرهم بعبادته أبدا)و بعد أن ينذر ربّنا أولئك المعاندين بأنّه قادر على أن يهلكهم،و يجعل مكانهم ملائكه فى الأرض يعبدونه،يبيّن بعض جوانب عظمه عيسى -عليه السلام-بأنّه من أشراط الساعه،و أنّه قد جاء بالبينات و الحكمه و القول الفصل فيما اختلف فيه بنوا إسرائيل،و أمرهم بتوحيد اللّه ربّه و ربّهم جميعا،بيد

أنّهم اختلفوا فيه(ظلما و بغيا)فويل للظالمين من عذاب يوم أليم(۶۵).

و يـذكّرنا الربّ بأنّ الأخلاّء أعداء بعضـهم فی يوم القيامه إلاّ المتقين(و هكذا ينبغی أن نختار من المتقين أصدقاءنا،و قد أشارت آيات سابقه الی مسأله القرين) و يصف نعيم اللّه فی يوم البعث لعباد اللّه الـذين تتلقّاهم الملائكه بالسـلام و البشـری، و تدعوهم الی الجنه التی فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذّ الأعين.كلّ ذلك جزاء لما عملوا(۷۳).

بينمـا المجرمون خالـدون فی جهنم،دون أن يخفّف عنهم عـذابها،و هم آيسون فيهـا من روح اللّه بمـا ظلموا،و حين ينادون كبير ملائكه العذاب(مالك)ليعدمهم اللّه يجيبهم بأنّهم ثمّه ماكثون،و يقول:لقد جئناكم بالحق،و أنتم كنتم تكرهون الحق.و قد عاندوا الحق فحكم اللّه عليهم بالعذاب الخالد(جزاء عنادهم)(۷۹).

و بهذه البصـيره يعالج السـياق حاله العناد الذی هو واحد من أبرز العقبات النفسـيه فی طريق الإيمان،ثم يعالج سائر الحالات التی تمنع المبـادره الی الإيمـان، مثل التوهّم بأنّ اللّه لا يسـمع سـرّهم و نجواهم،و يـذكّرنا اللّه بأنّه يسـمعهم،و قـد أحاط بهم ملائكته الكرام يسجّلون ما ينطقون به(۸۰).

(و يعود الی معـالجه حـاله الشـرك،حيث يلتجأ الإنسـان-عاده-الی ظلّ الشـرك فرارا من ثقل المسؤوليه)و يقول:النبی ليس ولد اللّه،بل هو أوّل العابدين للّه.

(و ينسف أساس الشـرك القائم علی الجهل بعظمه اللّه)و يقول:سبحان ربّ السموات و الأرض أن يكون له ولد مثلما يصفون.أو ليس هو ربّ العرش العظيم و الهيمنه التامه،فما ذا يفعل بالولد؟!

و یأمر الرسول(و الرساليين)بأن يتركهم فى خوضـهم يلتهون بباطلهم، و يلعبون من دون هدف معقول فى حياتهم حتى يلاقوا يوم الجزاء الذى يوعدون (و هكذا ينذر كلّ المشـركين باللّه بأنّهم يفرغون حياتهم من أىّ هدف سـليم،كما يفرغون عقولهم من أىّ بصيره حق).

و يبيّن أنّ إله السماء هو إله الأرض،و هو الحكيم العليم(فلا يجوز الفصل بين الدين و السياسه،بين عالم الخلق و واقع الحكم).

(و كيف نتخـذ من الثروه و السـلطه آلهه و اللّه عنـده كـلّ خير؟!)أو ليس هو المالـك للسـموات و الأرض و ما بينهما،فهو الـذى يبارك(أ فلا ينبغى أن نعبده ليعطينا من بركاته؟)و عنده علم الساعه(أ فلا نخشاه؟)و اليه ترجعون.

(أمّا شـركاء المـال و الجاه و..و..فهم لا يملكون أهمّ ما يحتاجه البشـر و هو الخلاص من النار) و لا يملكون الشـفاعه عنـد اللّه،و إنّمـا الشـفاعه للحق و لأهله،و فى الوقت الـذى يعترف الجميع بأنّ اللّه هو خالقهم تراهم يؤفكون عنه!(و لكن لا ينبغى أن يهلك المؤمن نفسه حسـره عليهم)و حين قال الرسول داعيا ربّه:إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون،أمره اللّه بالصـفح عنهم(و الإعراض)و أن يقول لهم:سلام (و لا يبادرهم بالحرب)لأنّهم سوف يعلمون أىّ منقلب ينقلبون.

ص:۴۲۴

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . حم (۱) وَ اَلْكِتٰابِ اَلْمُبِينِ (۲) إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۳) وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ اَلْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (۴) أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ اَلذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (۵) وَ كَمْ أَرْسَلْنٰا مِنْ نَبِيٍّ فِي اَلْأَوَّلِينَ (۶) وَ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاّٰ كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۷) فَأَهْلَكْنٰا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضىٰ مَثَلُ اَلْأَوَّلِينَ (۸) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ اَلْعَزِيزُ اَلْعَلِيمُ (۹) اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اَلْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهٰا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰) وَ اَلَّذِي نَزَّلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ (۱۱)

اللغه

۴[أمّ الكتاب]:هو اللوح المحفوظ،و إنّما سمّى بذلك لأنّه أصل الكتب السماويه و غيرها.

۵[أ فنضرب عنكم]:يقال ضربت عنه أضربت عنه أى تركته و أمسكت عنه.

[صفحا]:و أصله من ضرب الحيوان على صفحه وجهه ليميل عن طريقه إلى ما يراد به،ثمّ استعمل فى كلّ شيء للتحريف عن الطريق.

قرآنا عربيا لعلّكم تعقلون

هدی من الآیات:

فی هذا الدرس یمهّد الذکر الحدیث عن الموضوع الأساسی فی هذه السوره،و هو کما قلنا:التکیّف السلیم مع الحیاه الدنیا،و ذلک بالتذکره بحکمه الکتاب المبین الذی أنزله اللّه و جعله قرآنا عربیا،و التی تتلخّص فی إیقاظ العقل من سباته،و هو أعلی و أحکم نسخه لأمّ الکتاب الذی عند اللّه،و بعد بیان أنّ إسراف الجاهلیین لا یمنع رحمه اللّه عنهم بتذکیرهم یعالج السیاق واحده من أبرز عقبات الإیمان، و التی یهتم القرآن کثیرا بها،و هی حاله اللاّمبالاه و الاسترسال مع الواقع الفاسد، التی تنعکس فی صوره الاستهزاء بالرساله و السخریه من الرسول،و یبدو أنّ منشأ هذه الحاله الرضا بالواقع القائم،فما دام الباطل یحقّق أهدافی و مصالحی،و یشبع طموحی و رغبتی،لماذا الاستماع إذا الی داعی اللّه؟ ذلک لأنّ الباطل ضار زاهق،و إنّما الحق وحده باق نافع.أنظر مثلک السابقین،و اعتبر بعاقبتهم،فإنّک لا تملک حیاتین تجرّب فی أحدهما السبل الکفیله

ص:۴۲۷

لسعادتک،و تعمل فی الثانیه بتلک التجارب،إنّما للإنسان فرصه واحده،و إذا مرّت فلن تعود أبدا،و قد جرت سنه السابقین علی أنّ من یتّبع الحق یسعد فی الدنیا و الآخره،و أنّ من یتّبع الباطل تنتهی حیاته بالبأساء و الضرّاء،و یحیط به فی الآخره عذاب ألیم..و إنّ هذا یعطینا حافزا قویّا للبحث عن الحقیقه،و النزوع عن حاله الاسترسال.

بینات من الآیات:

[۱] حم من الحروف المقطعه التی سبق أن فسّرناها.

[۲] وَ الْکِتٰابِ الْمُبِینِ قسما بالکتاب الذی یحتوی علی الحقائق و یبیّنها.

[۳] إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لعلّ اللّه قد جعل کتابه المنبعث من اللوح المحفوظ عربیّا للأسباب التالیه:

أوّلا:إنّ لغه الضّاد أفضل لغات البشر إفصاحا عن الحقائق و الضمائر، و اسمها(العربیه)مشتق من الإعراب أی الإفصاح،و لذلک فهی اللغه الأم عند اللّه التی بها نزلت کتب اللّه أصلا إلاّ أنّها ترجمت عند الأنبیاء بقدره اللّه الی ألسنه أممهم،

و قد جاء فی الحدیث عن الإمام الباقر علیه السلام :

«ما أنزل اللّه تبارک و تعالی کتابا و لا وحیا إلاّ بالعربیه،فکان یقع فی مسامع الأنبیاء بألسنه قومهم،و کان یقع فی مسامع نبیّنا بالعربیه » (۱)

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج(۱۸)ص(۲۶۳).

ثانيا:لقد قدّر اللّه بحكمته البالغه أن يحمل العرب رسالته الى الأمم فأنزل الكتاب بلسانهم.

ثالثا:إنّ ربّنا يكرّر القول بأنّ الكتاب قد نزّله عربيّا ليدعو سائر الأمم-كما يبدو-لتعلّم هذه اللغه،حتى يستوعبوا لطائف كتاب ربّهم،و الإشارات البلاغيه التى تعجز الترجمات عن بيانها.

و قد ألّف أحد المستشرقين كتابا بالإنجليزيه عن الإسلام فقال:لا أستطيع أن أبيّن لكم-أنتم أيّها الإنجليز-عذوبه آيات القرآن،و لطافه معانيه،و كيف يؤثّر فى العربى..و يضيف قائلا:إنّه لن يفهم القرآن أحد حتى يتعلّم العربيّه.

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ هذا هدف رسالاته جميعا،و كلمه«لعلّ»تدلّ على معنى الرجاء و الهدفيه أى إنّما جعلنا القرآن عربيّا لكى تعقلوا،و العقل هو موهبه لا يختلف الناس فى أصلها، و لكنّهم يختلفون فى مدى استفادتهم منها،لذلك جاءت الكلمه بصيغه الفعل أى تستفيدون من العقل.

[۴]وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ إنّ هذا القرآن هو انعكاس للكتاب الذى عند اللّه سبحانه و هو أصل الكتاب.

و الأم بمعنى الأصل و الأساس،و الذى استوحيه من هذه الآيه أنّ عند اللّه كتابا مكنونا هو أمّ الكتاب،من نوره يفيض على البشر كتبه سبحانه،فمنه أنزل على نوح عليه السلام رسالته،و على إبراهيم عليه السلام كلماته،و بعث موسى عليه السلام و عيسى عليه السلام بالتوراه و الإنجيل،و منه أيضا أتى محمدا صلى الله عليه و آله القرآن.

و قياس كلّ كتاب إلهى يتمّ بميزان أمّ الكتاب الـذى يسـمّى-فيما يبدو- باللّوح المحفوظ،و حينما يقاس القرآن به يكون الأعلى رتبه،و الأحكم شريعه و دينا،فهو يعلو كلّ دين،و ينفع الناس بما فيه من حكمه و علم.

[۵]يزعم المسـرفون الـذين أترفوا فى الحيـاه الـدنيا أنّهم عباد اللّه المقرّبون.أو ليس قـد أنعم عليهم بالغنى،فهو إذا يحبّهم و يكرم مثواهم،و يقودهم هذا الزعم الشيطانى إلى وهم خطير حيث يحتسبون أنّهم فوق القانون،و أعلى من الذكر.

و من جهه أخرى:مـا دام الإسـراف ذنب عظيم يتوهّم البعض أنّه يمنع عن المترفين رحمه الرسـاله، كلاّ..فلا الإسـراف خير يجعل المترفين فوق الإنذار بالرساله،و لا هو مانع من منّه ابتعاث الرسل.

أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً نترككم بدون تذكره و بدون رسل يذكّرونكم ما نسيتموه؟و أصل الضرب صفحا كما قالوا ضرب وجه الدابه حتى تصرف وجهها جانبا.

أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ أى بسبب إسـرافكم؟ كلاّـ.و قـد جرت سنّه اللّه بإرسـال الرسل يـذكّرون الناس،و قـد بعث رسالاته الى المستهزئين رحمه بعباده.

و يبدو أنّ الإسـراف رأس سلسـله من الانحرافات،و هو بدوره ناشـئ من جهل الإنسان بحكمه الابتلاء فى الدنيا،و لماذا يحلم اللّه عن المذنبين،و من ضعف إرادته فى مقاومه الشهوات يسير فيها بلا حدود أو قيود.

و يتناسب ذكر الإسراف و المحور الرئيسى للسوره و هو الالتزام بحدود معينه فى الانتفاع بالحياه الدنيا.

[۶-۷]إنّ الرسول كالطبيب إنّما يزور المرضى،كذلك تزداد فرص ابتعاث الأنبياء بالرسالات عند انحراف الناس و اتخاذهم شريعه الإسراف سبيلا.

هكذا بعث اللّه الأنبياء الى الناس سابقا،و هكذا مضت سنته.

وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ إلاّ أنّهم كانوا يواجهون بالاستهزاء،و لعل الاستهزاء أسوء اعتادت موقف عليه الأمم،لأنه موغل فى الصلف.

وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ و الاستهزاء بالرسل عاده مضت فى الأوّلين،كما أنّ ابتعاث الرسل سنه إلهيّه.

[۸]و لكن منع هذا الاستهزاء جريان سنه اللّه فى بعث الرسل أو فى إهلاك المستهزئين؟كلاّ..لأنّ اللّه لا يضرّه كفر من كفر،كما لا ينفعه إيمان من آمن.

فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً فلقد أخذ اللّه من هو أشدّ جلدا و أكثر عددا من العرب المكذبين،و الآيه تشير إلى ضعه الجاهليين العرب و ضعفهم لعلّهم يستفيقون عن جنون كبرهم و غرورهم، و لا يستهزءون برسالات ربهم،و لا يسترسلون مع تقاليدهم العفنه فى الشرك و الفساد و الإسراف.

ص:۴۳۱

و قد تكرّرت الآيات التى تشير الى ذلك لأنّ علاج الغرور و الاسترسال و بالتالى الاستهزاء هو بيان نقاط ضعفهم،قال ربّنا فى سوره الأحقاف(٢۶):« وَ لَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ ».

و قد قالت الصّدّيقه فاطمه الزهراء عليه السلام تصف حال العرب قبل الإسلام :

«و كنتم على شفا حفره من النار،مذقّه الشارب،و نهزه الطامع،و قبسه العجلان،و موطئ الأقدام،تشربون الطرق،و تقتاتون القدّ،أذله خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم... » (۱)وَ مَضىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ قالوا:أى سبق القول فى تصريف الأمثال،و بيان عبره الأوّلين،كما قال ربّنا سبحانه: وَ سَكَنْتُمْ فِي مَسٰاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنٰا بِهِمْ وَ ضَرَبْنٰا لَكُمُ الْأَمْثٰالَ (۲).

و يحتمل أن يكون المعنى:أنّه قد تحقّق مثل الأوّلين،و انتشرت عبرتهم فى الآفاق مثلا،و اللّه العالم.

[٩]و يستمر استهزاؤهم بالحق فى الوقت الذى يعترفون بأنّ من خلق السموات و الأرض عزيز حكيم،حيث تتجلّى عزّته فى متانه الصنع،كما تتجلّى حكمته فى دقّه النظم.

ص:۴۳۲

۱- ۱) الإحتجاج/ج(۱)ص(۱۰۰).

۲- ۲) إبراهيم/(۴۵).

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ [۱۰]و من آيات عزّته و حكمته تذليل الأرض لتكون صالحه للمشى.

اَلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً مهد الأرض و هيّأها من أجل راحه الإنسان،فلا هى صلبه يستحيل زراعتها و بناؤها،و لا هى هشّه يغرق فيها من عليها.

وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً السبل هى الطرق السهله بالرغم من و عوره الأرض،كما جعل طرقا واضحه حتى فى البحار،و على الإنسان أن يكتشفها حتى يهتدى الى أقرب الطرق الموصله بين مكانين،فهناك مثلا-سلسله جبليّه تبدأ من المحيط الأطلسى غرب مراكش، و تتجه الى المغرب العربى،ثم تمرّ بالبحر المتوسط،و تصعد ثانيه الى جنوب أوربا، فشرقها،ثم تتجه جنوب تركيا،فجنوب روسيا،فشمال الهند،فشرق الصين، و أمثال هذه السلاسل الجبليّه كثيره،بالرغم من كل تلك السلاسل،فقد جعل اللّه بينهما فروجا كثيره يسير عبرها الناس،و لو كانت الجبال العاليه ذات انحدار شديد لعزلت أبناء البشر عن بعضهم.

و كما فى السهول كذلك فى السهوب خط اللّه سبلا لتواصل الناس مع بعضهم، و هكذا فى البحار و الفضاء..

من الذى جعل هذا السبل؟إنّه اللّه العزيز الحكيم،و لماذا؟ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

ص:۴۳۳

نهتدی بهذه السبل الی أهدافنا،و الی ربنا الذی خلق هذه السبل،فکلّما کانت آیات الصنع و التدبیر أکثر فی الطبیعه کانت أکبر شهاده علی الخالق، و أقرب هدی.

[۱۱]و کما خلق السموات و الأرض،و جعل الأرض مهدا هیّأ للإنسان رزقه فیها.

وَ الَّذِی نَزَّلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً بِقَدَرٍ بتقدیر منه،فقد یکون نزول الماء شدیدا فتصیر سیولا،و قد یکون شحیحا فلا یستفید منها الإنسان،و لکنّه سبحانه ینزل المطر بتقدیر منه علی حسب حاجه الإنسان و الأرض.

فَأَنْشَرْنٰا بِهِ بَلْدَهً مَیْتاً و کما یحیی اللّه الأرض المیته بالمطر،فینمو الزرع و الضرع..

کَذٰلِکَ تُخْرَجُونَ و قد استفاد بعض المفسرین من هذه المقارنه بأنّ الإنسان یخرج یوم البعث من الأرض کالزرع،

و قد جاء فی الحدیث :

«إذا أراد اللّه-عزّ و جلّ-أن یبعث الخلق أمطر السماء أربعین صباحا، فاجتمعت الأوصال،و نبتت اللحوم » فیکون القبر للإنسان فی یوم القیامه کرحم أمّه،أو کالأرض بالنسبه الی البذره.

ص:۴۳۴

[سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۱۲ الى ۱۴]

اشاره

وَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلْأَزْوٰاجَ کُلَّهٰا وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ اَلْفُلْکِ وَ اَلْأَنْعٰامِ مٰا تَرْکَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلیٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْکُرُوا نِعْمَهَ رَبِّکُمْ إِذَا اِسْتَوَیْتُمْ عَلَیْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحٰانَ اَلَّذِی سَخَّرَ لَنٰا هٰذٰا وَ مٰا کُنّٰا لَهُ مُقْرِنِینَ (۱۳) وَ إِنّٰا إِلیٰ رَبِّنٰا لَمُنْقَلِبُونَ (۱۴)

ص:۴۳۵

هدی من الآیات:

تسعی آیات هذه السوره الی ترشید العلاقه بین الإنسان و ما حوله،و إنّما یتمّ ترشیدها بالرؤیه السلیمه،ذلک أنّ بصیره الإنسان تجاه الطبیعه و ظواهرها هی التی تکیّف علاقته بها.

و یذکّرنا السیاق هنا بأنّ ما أوتینا من نعم الحیاه لا بدّ أن یهدینا الی معرفه ربنا و التقرب إلیه،فنعمه الزوجیه وسیله لمعرفه اللّه،کیف؟فلقد خلق ربّنا من کلّ شیء زوجین اثنین لیعرّف کلّ شیء بعجزه و حاجته،حتی لا یشعر أیّ مخلوق بالاستغناء فیطغی،و لیبیّن له أنّه مخلوق یحتاج الی قرین یکمّله،و کما حاجه الإنسان الی الزوج کذلک حاجه الإنسان الی الأشیاء و الأحیاء من دونه،فالإنسان بحاجه الی دابه و سفینه إذا أراد قطع الفیافی و البحار،و حاجته دلیل عجزه، و شاهده علی غنی ربّه،و لکن بدل أن یعطی اللّه للإنسان جناحین یطیر بهما،أو أرجل سریعه یسابق بهما الریح،أو أذنین حادّتین کما أذنی الحصان،بدل کل

ذلک زوّده بهبه العقل یستطیع أن یسخّر بها الأشیاء،فتراه یصنع السفینه،و یمتطی صهوه الطیاره و الصاروخ،بل و یسخّر حتی الأحیاء من حوله لخدمته،کالأنعام، و الکلاب،و الدلافین و..و..

و لو لا ـ هبه العقل هل کان یستطیع ذلک؟کلاّ..ألم تر کیف یقود طفل قطیعا من الإبل؟ لذلک عند ما یمتطی الإنسان صهوه فرسه،أو یستقلّ متن سفینه،علیه أن یذکر اللّه فیقول:

سبحان الله الذی سخر لنا هذا،و ما کان لنا أن نسخرها إلا بإذنه سبحانه.

إنّ المؤمن ینظر إلی الأرض باعتبارها أمّه،و ینظر الی النخل و الشجر معتبرا إیّاها عمّاته،و ینظر الی الشمس و القمر معتبرا إیّاهما خلقان للّه،و یجریان بأمره طائعین،و الإسلام ربطنا بالطبیعه من حولنا،فهناک دعاء لرکوب الدّابه،و دعاء لظهور الهلال،و دعاء إذا سمعت الرعود،و..و..،و قد کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله یتعبّد اللّه،و ینظر الی النجوم متفکرا فیها،و یتلو هذه الآیات: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ لَآیٰاتٍ لِأُولِی الْأَلْبٰابِ* الَّذِینَ یَذْکُرُونَ اللّٰهَ قِیٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلیٰ جُنُوبِهِمْ وَ یَتَفَکَّرُونَ فِی خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً سُبْحٰانَکَ فَقِنٰا عَذٰابَ النّٰارِ... (1).

بینات من الآیات:

[۱۲] وَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْوٰاجَ کُلَّهٰا

ص:۴۳۷

۱- ۱) آل عمران/(۱۹۰-۱۹۱).

لماذا خلق اللّه الأشياء أزواجا؟لأمرين-فيما يبدو لنا-:أولا:لتتجلّى قدرته المطلقه.أو ليس حسن الصنع و متانه الخلق فى إطار التنوّع دليل القدره؟ فإنّك ترى فى ذات الوقت الذى يختلف الزوجان عن بعضهما اختلافا واسعا، يخضعان لسنن واحده تسوقهما الى هدف واحد،أليس ذلك دليل قدره الرب؟ الثاني:لقد أركز اللّه فى كل زوج الحاجه الى الآخر،فهم محتاجون الى بعضهم،و ذلك أبرز دليل على حاجتهم الشديده الى اللّه خالقهم و مدبّر أمورهم.

وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعٰامِ مٰا تَرْكَبُونَ فالذى خلق للبحار الفلك نمتطى صهوته لنبلغ أقصى الأرض بتجارتنا الثقيله، هو الذى خلق للصحارى الأنعام و سخّرها لنا،ليس فقط لتوصلنا الى أهدافنا الماديه،بل و أيضا لتقرّبنا الى اللّه،أسمى غايات البشر و أعلى مراميه..

لماذا؟ [١٣] لِتَسْتَوُوا عَلىٰ ظُهُورِهِ كى نستقلّها،و نستوى على ظهورها،و نستوحى من كلمه الإستواء أولا:أنّ اللّه سخّر الفلك و الأنعام للإنسان حتى يستقرّ فى ظهورها دون و جل من تمرّدها عليه،ثانيا:أنّ علينا أن نجلس عليها باستقرار،و نتمكّن منها،و لا ندعها تجمح أو تضطرب.

كما نستوحى من الآيه ضروره تسخير الطبيعه و عدم إهمالها،

و قد ورد فى الحديث :«كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول:من وجد ماءا و ترابا ثم افتقر بأبعده اللّه » (١)

ص:٤٣٨

١- ١) بحار الأنوار/ج(١٠٣)ص(٦٥).

و الإستواء على ظهور الفلك و الأنعام هو الهدف المرحلى منها أمّا الهدف الأسمى لهذه النعمه و سائر نعم اللّه هو الاهتداء و التقرّب اليه.

ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ فالهدف من نعم اللّه الماديه هو السموّ الروحى.إنّها معراج الإنسان الى اللّه، فإذا شبعت فقل:الحمد للّه،و إذا ارتويت فقل:الحمد للّه،و إذا استغنيت فقل:

الحمد للّه،و إذا ركبت السياره فقل:سبحان اللّه..

و يذكّرنا القرآن الحكيم بالأهداف الماديه و المعنويه لنعم اللّه علينا،بالذّات فى هذه السوره التى تحوّرت حول علاقتنا بالطبيعه من حولنا،للأسباب التاليه:

أولا:لكى لا-نزيغ عن الغايات النبيله للنعم،فالزواج جعل ليبنى به البيت و السكينه و المحبه و الخلق الرفيع فلا ينبغى أن نجعل هدفنا منه مجرد قضاء وطر الشهوه،و جعلت الأنعام للاستواء على ظهورها و بلوغ الأهداف المشروعه،و ليس للهو بها أو للتجبر و البطش على الناس.

ثانيا:لكى لا تبطرنا النعم و نتخذها للتفاخر و التكبر و الفساد فى الأرض.

ثالثا:لتعطينا السكينه النفسيه و التى تساهم فى إصلاح نفوسنا من عقده الضعه،و تدعونا لشكر اللّه بعمل الصالحات.

لذلك أمرنا اللّه بهذا الدعاء عند ركوب الأنعام لكى ينقلنا امتطاؤها الى آفاق روحيه أبعد من تلك الآفاق الأرضيه التى نطويها عبرها.أ رأيت أىّ أفق بعيد يبلغه من يقطع المسافه بين الشهود و الغيب فى لحظه فينتقل من رؤيه النقص فى الطبيعه الى الكمال فى خالقها!

ص:۴۳۹

وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنا هٰذا و نتساءل:لماذا أمرنا اللّه هنا بالتسبیح و لیس بالحمد؟ ذلک لأنّ حاجتنا-نحن البشر-الی الدواب أو الفلک،و ضعفنا عن توفیرها لو لا تسخیر اللّه،شاهد علی تنزّه اللّه و غناه،فهو غنیّ عن عباده،غنیّ عن التوسّل بالآلات،غنیّ عن تسخیر شیء لنفسه،تعالی اللّه و تقدس ربّنا عن کلّ ذلک.

ثم تسخیر الأنعام و الفلک دلیل عجز الحیوانات و الطبیعه و حاجتهما الشدیده لمدبّر حکیم هو اللّه.

و یهدینا ذلک الی تسامی ربّنا عن الحاجه.أو لیس حاجه کلّ شیء دلیل مخلوقیته،فکیف یحتاج الخالق؟ و أساسا کلّ نقص و عجز و حاجه و ضعف فی الخلق شاهد علی ما یقابلها عند الخالق لدلاله العقل أنّ صفه الخالق غیر صفه المخلوق،

قال أمیر المؤمنین علیه السلام :

«مستشهد بحدوث الأشیاء علی أزلیّته،و بما وسمها به من العجز علی قدرته، و بما اضطّرها إلیه من الفناء علی دوامه » (1)وَ مٰا کُنّٰا لَهُ مُقْرِنِینَ أی لسنا بقرناء له،و لا مطیقین تسخیره،و لا بمستوی ضبطه،و أصل الکلمه من المقارنه بمعنی المشابهه فی القدره.

[۱۴] وَ إِنّٰا إِلیٰ رَبِّنٰا لَمُنْقَلِبُونَ

ص:۴۴۰

۱- ۱) نهج البلاغه/خ(۱۸۵)/ص(۲۶۹)-صبحی الصالح.

فـالنعمه التی أعطیناهـا لیست دائمه،و نحن مسـئولون عنهـا یوم القیـامه،لأنّ اللّه إنّما أعطاکها لهـدف مقـدّس سام،و هو أن تعمل بمنهجه و بمقتضی أوامره.

و فی الآیه ومضه أدبیّه فکما المسافر ینقلب ألی أهله کذلک الإنسان ینقلب ألی ربّه.

و حول هذا الموضوع جاءت طائفه من الأحادیث،

فعن أبی بصـیر قال :قلت لأبی عبـد اللّه علیه السـلام :هل للشـکر حـدّ إذا فعله العبد کان شاکرا؟قال:«نعم»، قلت:ما هو؟قال:یحمد اللّه علی کل نعمه[أنعمها]علیه فی أهل و مال،و إن کان فیما أنعم علیه من ماله حق أدّاه،و منه قوله عزّ و جل سُبْحانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنا هٰذا وَ ما کُنّا لَهُ مُقْرِنِینَ ،و منه قوله تعالی: رَبِّ أَنْزِلْنِی مُنْزَلاً مُبارَکاً وَ أَنْتَ خَیْرُ الْمُنْزِلِینَ ، و قوله: رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِی مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِی مِنْ لَدُنْکَ سُلْطاناً نَصِیراً (۱)

و عن أبی الحسن علیه السلام :«...و إن خرجت برّا فقل الذی قال اللّه عزّ و جل سُبْحانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنا هٰذا وَ ما کُنّا لَهُ مُقْرِنِینَ ،ف إنّه لیس من عبد یقولها عند رکوبه فیقع من بعیر أو دابّه فیصیبه شیء بإذن اللّه » (۲)

و روی عن معاویه بن عمّار عن أبی عبد اللّه علیه السـلام قال :«إذا استویت علی راحلتک،و استوی بک محملک،فقل:الحمد للّه الذی هدانا للإسلام،و منّ علینا بمحمد صلی الله علیه و آله ، سُبْحانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنا هٰذا وَ ما کُنّا لَهُ مُقْرِنِینَ وَ إِنّا إِلیٰ رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ و الحمد للّه ربّ العالمین.اللّهمّ أنت الحامل علی الظهر،و المستعان علی الأمر،اللّهمّ بلّغنا بلاغا یبلغ الی خیر،بلاغا الی مغفرتک و رضوانک،اللّهمّ لا طیر

۱- ۱) البرهان/ج /۴ص ۱۳۶

۲- ۲) المصدر/ص ۵۹۳

إلاّ طيرك-الطير هو التشاؤم و الفأل الردیء-و لا خير إلاّ خيرك،و لا حافظ غيرك » (١) و هكذا أمرنا الدّين الحنيف بأن نذكر اللّه عنـد ركوب ما سـخّره اللّه لنا مباشـره من الأنعام،و ما سـخّره بأيدينا من الفلك(و السـيّاره و الطياره و ما أشـبه)لكی نتذكّر ما لهـذه النعمه من أهداف معنويّه و ماديّه،كما أمرنا بأذكار و أدعيه عند كلّ نعمه عند الطعام و الشـراب و الزواج و زياره البيوت و النوم و اليقظه و الوضوء و الغسل، و حتی عند النظر فی المرآه..كلّ ذلك لكی نتذكّر هدف كلّ نعمه فلا نزيغ عنه، و نشـكر اللّه عليها فلا نصاب بالبطر و الكبر.

١- ١) نور الثقلين/ج(۴)ص(۵۹۳).

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۱۵ الی ۲۵]

اشاره

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبٰادِهِ جُزْءاً إِنَّ اَلْإِنْسٰانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (۱۵) أَمِ اِتَّخَذَ مِمّٰا يَخْلُقُ بَنٰاتٍ وَ أَصْفٰاكُمْ بِالْبَنِينَ (۱۶) وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمٰا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۱۷) أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي اَلْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي اَلْخِصٰامِ غَيْرُ مُبِينٍ (۱۸) وَ جَعَلُوا اَلْمَلاٰئِكَةَ اَلَّذِينَ هُمْ عِبٰادُ اَلرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهٰادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (۱۹) وَ قٰالُوا لَوْ شٰاءَ اَلرَّحْمٰنُ مٰا عَبَدْنٰاهُمْ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَخْرُصُونَ (۲۰) أَمْ آتَيْنٰاهُمْ كِتٰاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (۲۱) بَلْ قٰالُوا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُهْتَدُونَ (۲۲) وَ كَذٰلِكَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ (۲۳) قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمّٰا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبٰاءَكُمْ قٰالُوا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ (۲۴) فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُكَذِّبِينَ (۲۵)

اللغه

۱۸[أو من ينشّؤا فی الحليه]:الهمزه للاستفهام و الواو للعطف،أی هل هؤلاء الكفّار يجعلون للّه تلك البنت التی تكبر و تتربّی فی الزينه؟! ۲۰[يخرصون]:يكذبون.

ص:۴۴۳

۲۳[مترفوهـا]:أی المتنعّمون فیهـا،من أترف بمعنی تنعّم -و المراد به الرؤساء و الکبراء-لأنهم دائما یقابلون المصـلحین بالإنکار و التخاصم.

ص:۴۴۴

أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمّا وَجَدْتُمْ

اشاره

عَلَيْهِ آبٰاءَكُمْ

هدى من الآيات:

لكى تنفذ بصيره الإنسان الى واقع الخلق و تصلح بذلك علاقته به فلا يرفعه الى مقام الخالق،و لكى تخلص عباده الإنسان لخالقه من شوائب الشرك،و يعلم أنّ النعم من عنده فلا يكفر به بإشراك عباده فيها،و بالتالى لكى تكون علاقته بالنعم سليمه منبعثه من نور التوحيد،تسوق آيات الدرس حقائق التوحيد خالصه من زيغ المعتقدات الجاهليه،و التى منها نظريه الحلول التى يزعم أهلها أنّ للّه فى عباده جزء يتنزّل اللّه به عن مقام ربوبيته درجه،و يرتفع العبد به الى مقام الربوبيه بقدرها.

إنّه الكفر المبين بالنعم و بمن أنعم سبحانه،و هكذا الإنسان من طبعه الهبوط الى هذا الدرك من الكفر.

و يستنكر القرآن زعمهم بأنّ اللّه اختار البنات بينما اصطفى لهم البنين فى الوقت الذى تراهم يستاءون من الإناث حتى إذا بشّر أحدهم بها ظلّ وجهه مسودّا و هو كظيم.

ص:۴۴۵

و يتساءل السياق:كيف يختار البنات و هنّ ناشئات الحلى و الزينه،و لا يصلحن للجدال و المخاصمه؟! و هكذا جعلوا الملائكه إناثا بينما هم عباد الرحمن و العباد أمام معبودهم شرع سواء(و هكذا ينسف القرآن أساس التفاضل الذاتى بين الخلق و هو فى ذات الوقت الانحراف الكبير الذى يزيغ اليه ذووا الثروه و الجاه)و ينكر عليهم أن يقولوا ما ليس لهم به من علم و ينذرهم بأنّ كلامهم يعتبر شهاده،و أنّه مسجّل عليهم، و أنّهم يسألون عنه.

(و جعل الملائكه أو غيرهم أنصاف آلهه يساهم فى الإيمان بالقدر(الجبر)و أنّهم لا يملكون من أنفسهم شيئا)و أنّه لو شاء اللّه لما عبدوا الملائكه.

(و لكن انسياقهم وراء النظريه القدريه تمّ بدفع شهواتهم و نزوع الإنسان الى التملّص من المسؤوليه)و إنّه ما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يخرصون.

(و تراهم يعظّمون آباءهم الى درجه اتباعهم بغير هدى)و لا يجوز تقديس الآباء إلاّ بقدر ما كان عندهم من كتاب أو هدى،أما إنّهم يقولون إنّا مهتدون لأنّنا نتبع آباءنا فيما وجدناهم ماضين عليه من شرعه و منهاج.

و هذه عباده جرت فى كل الأمم،فما أرسل اللّه فى قريه من نذير يحذّرهم من الاسترسال مع المنكرات إلاّ قال المترفون فيها(الذين عبدوا الثروه و خشوا من الإصلاح) إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّةٍ ،و إنّنا ماضون عليها.. و حين دعاهم النذير بما هو أهدى من آثار آبائهم كفروا برسالته فانتقم اللّه منهم بسبب تكذيبهم،و أثبت الانتقام أنّهم مسئولون عن مواقفهم،اعترفوا بها أو لم يعترفوا(و هكذا بان كفران الإنسان و أصله الجهل بمقام اللّه و أنّه لا يتشبه بخلقه أبدا).

بينات من الآيات:

[۱۵]لقـد بيّن القرآن حقيقه الفصل الأبـدى بين الخالق و المخلوق حتى لا يضـفى على الخالق من صـفات المخلوقين شـىء،و لا ينعت المخلوق بصفه من صفات الخالق،لأنّ الخالق لا يشبهه شىء.

و ذكّرنا بسـفاهه كل المعتقدات الجاهليه التى تخلط بين صـفات الخالق و المخلوق،و التى تنبعث-فيما يبدو-من النظره الشـركيه الى المخلوق و إعطائه الذاتيه و القيمه من دون اللّه.

و كان من معتقداتهم السفيهه أن جعلوا للّه البنات،و زعموا أن فيها جزء من اللّه.

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبٰادِهِ جُزْءاً فقسّموا اللّه جزئين،أحـدهما من ذاته،و الآخر من عباده.أو ليس الولـد امتـدادا لوالده،حيث ينتقل جزء من الوالـد فيه حتى يصبح بضـعه منه،هكـذا زعم القـائلون بـالحلول أنّ جزء من اللّه ينتقـل الى بعض عبـاده فيصـبح نصف إله،و يكتسب قـداسه بين سـائر عبـاده،و ينتمى الى ذى العرش انتمـاء نسبيّا(كمـا زعم النصـارى أنّه ثـالث ثلاثه سبحانه و تعـالى عمّا يصـفون،و كمـا يزعم المترفون أنّهم يختلفون ذاتيّا عن سائر خلق اللّه)أو لم يفقهوا أنّ كلّ من خلقه اللّه هو عبـد للّه و نسـبته الى اللّه نسـبه المخلوق الى خالقه،و هم جميعا أمامه سواء(من حيث الذات)،و من السـفه أن يجعل له جزء من عباده دون جزء بل هم جميعا له،و لكن فى مستوى العبوديه و على صعيد المخلوقيه.

إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ

ص:۴۴۷

إنّه جحود متجاهر بجحده..

أولا:لأنّه يجحد بآيات ربه،و يتنكّر نعمه عليه،انطلاقا من كبر فی نفسه و بوعی منه و إصرار،لأنّه لا يريد أن يسلّم لأمره و يطيع أولياءه.

ثانيا:لأنّه يساوی بين من أنعم عليه كل هذه النعم السابغه و بين عباده العاجزين،فيقول إنّ بعض العباد شركاء للّه،و ينسب إليهم من دون اللّه النعم.

و يتصل موضوع نكران النعم بهذه الشده بمحور السوره-و هو علاقه الإنسان بنعم اللّه-اتصالا متينا إذ أنّ أهمّ ركائز العلاقه السليمه شكر اللّه،و تجاوز حاله الكفران الطبيعيه عند الإنسان الی حاله الشكر المنبعثه من الإيمان.

[۱۶]و هكذا زعموا بأنّ اللّه اصطفی لنفسه البنات و لهم البنين.

أَمِ اتَّخَذَ مِمّٰا يَخْلُقُ بَنٰاتٍ وَ أَصْفٰاكُمْ بِالْبَنِينَ و لكن كيف يجتمع الخلق و التبنّی،ثمّ لماذا يصطفی لنفسه الإناث و البنت فی نظر الجاهليين ليست المثلی،فكيف يضربوه للّه مثلا؟! [۱۷] وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمٰا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ مكفهرا من الغضب وجهه،كاظما غيظه يكاد يتميّز من الغيظ.

[۱۸] أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِی الْحِلْيَهِ وَ هُوَ فِی الْخِصٰامِ غَيْرُ مُبِينٍ فالبنت التی تكون نشأتها و نموّها فی الحليه-الزينه-و تعيش النعومه و الرقّه، هل هی قادره علی القيام بما تقوم به الملائكه؟كلاّ..و لو اتخذ اللّه بنات لجعلهم فی

ص:۴۴۸

ریـاض الجنـان یمرحن،و لم یجعلهنّ یمـارسن أمور الحیـاه،ثم إنّ النسـاء لـذلک لاـ یکونَنّ قادرات علی الخصام و الجـدال کما الرجال لأنهنّ عاده یفصحن عن کل ما تجیش به صدورهنّ لفرط عاطفتهن.

[۱۹]و لأنّهم جعلوا للّه جزء من عباده،و زعموا أنّه اتخذ البنات مما خلق و هم یکرهون البنات،تراهم یعتقدون بأنّ الملائکه إناث.

وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِکَهَ الَّذِینَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً لماذا؟لعلّه للأسباب التالیه:

أوّلاـ:إنّهم زعمـوا فی الملاـئکه مـا زعمته النصـاری فی المسـیح حیث جعلـوا للّه فیهم جزء،لعلّه لعقیـده الحلول..أو حسب نظریه الفیض و تنزّل وجود اللّه(تبـارک و تعـالی عما یقولون)الی مرتبه الملائکه،و هی عنـدهم أدنی من مقام الربوبیه و أعلی من مقام سائر الخلائق.

ثانیـا:لأـنّهم لم یحبّوا الملاـئکه نسـبوا إلیهم التـأنیث أو لیست الإناث أقلّ قـدرا من الـذکور عنـدهم؟! ثالثا:لأنّهم کانوا یتصوّرون الملائکه یمثّلون جانب الشهوات،بینما مقام ربّ العرش مقام العقل.

رابعا:قالوا إنّما أنثت العرب الملائکه فی لغتهم لأنّهم کانوا یؤنّثون کلّ مغیّب عنهم،محجوب عن أعینهم،و اللّه العالم.

أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ هل کانوا حاضرین عند ما خلقهم اللّه حتی یحکوا بأنّ الملائکه بنات؟!

سَتُكْتَبُ شَهٰادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ أى سنسجّل لهم قولهم بأنّ الملائكه إناث،و يسألون عنه يوم القيامه،و كفى بذلك رادعا عن أقوالهم اللاّمسئوله.

[۲۰]و يمضى السياق فى دحض تخرّصات الجاهليين الواحد بعد الآخر حتى يبلغ محورها الرئيسى المتمثّل فى النظريه القدريه،ذلك أنّ أساس زيغ البشر-كما يبدو و كما سبق القول آنفا-النظره الشيئيه التى تعطى للأشياء قيمه ذاتيه بعيده عن صلتها باللّه العظيم..فتضفى عليها هاله من القداسه،و الثبات و الحتميه.

إنّ الاعتقاد بوجود جزء من اللّه فى عباد اللّه هدفه تجريد الإنسان عن مسئوليه أعماله.ألا ترى كيف يتنصّل الطاغوت-أىّ طاغوت-عن الالتزام بالقانون باسم أنّه ظلّ اللّه فى الأرض،و أنّه لا يخطئ؟و يزعم بعض أدعياء التصوّف أنّه مظهر لتجلّى الحقيقه المحمّديه فهو لا يزيغ،و زعم بعض أدعياء الفقه بالتصويب، و أنّ ما يحكمون به عين ما حكم اللّه به من فوق عرشه،و هكذا الإنسان العادى يذهب الى تبرير أعماله بأنّ وراءها إراده اللّه.

كما أنّ الشرك بالملائكه ينبعث من نزوع الإنسان الى تبرير أعماله،و التهرّب عن المسؤوليه،حيث زعم بأنّ الملائكه يشفعون له.

و هكذا نجد السياق يواصل الحديث عن هذه الأفكار الشركيه حتى يبلغ جذورها المتمثله فى القدريه فيقول:

وَ قٰالُوا لَوْ شٰاءَ الرَّحْمٰنُ مٰا عَبَدْنٰاهُمْ فاللّه سبحانه حسب هذا الزعم مسئول عن ضلالتهم،لأنّه كان قادرا على

إنقـاذهم منهـا فلـم يشـأ،كلاّـ.إنّ اللّـه آتـاهم فرصـه الهـدايه،و وفّر لهـم عواملهـا، و شـاءت حكمته أن يلقى بمسـؤوليه الإختيـار عليهم،فإن اهتدوا بلغ بهم الكمال ذروته،و إن ضلّوا سقطوا فى قعر الهاويه،لأنّ تلك و هذه إنّما تتمّ بإرادتهم.

و قد قلنا فى بدايه هذا الدرس أنّ هذه فكره قدريّه جبريّه هدفها تبرير واقع الإنسان المتخلف،و تلقى بمسؤوليه الهدايه على اللّه.

و قد أشار السياق الى سفاهه مجمل تصوّراتهم،فهم جهلوا مقام الخالق فجعلوا له من عباده جزء،و لو عرفوا شيئا من معنى الخلق و الإنشاء و إحاطه الرب قدره بكلّ شىء،و أنّ أمره بين الكاف و النون من كلمه(كن)و فى لحظه إراده يبتدع ملايين المجرّات..

أقول:لو عرفوا شيئا من ذلك لسفّهوا أنفسهم،و لم يزعموا أنّ له مراتب وجوديّه يتنزّل عبرها ليكون جزء منه فى مخلوقاته،سبحان اللّه و تعالى عما يقولون علوّا كبيرا.

و لو عرفوا أنّ مهام الملائكه مهام صـعبه لا تليق بالنساء الناعمات،فمن مهامهم اقتلاع قرى لوط عن أعماقها ثم قلبها و تـدميرها،و من مهـامهم بيان أعظم الحقائق و أدقّها،و مخاصـمه المبطلين،فكيف تليق بمن ينشّأ فى الحليه،و لا يفصـح فى الجـدال؟! لو عرفوا ذلك لما زعموا أنّ اللّه اصطفى البنات على البنين.

و لو عرفوا قرب الملائكه من اللّه،و مـدى كرامتهم عنـده،لأنّهم لا يسـبقونه بالقول و هم بأمره يعملون،لما عادوهم و ضـربوا لهم المثل السىء الذى رفضوه لأنفسهم حين قالوا أنّهم إناث.

كلاّ..إنّهم عباد الرحمن الذى وسعت رحمته كلّ شىء،و ما داموا عبادا فهم

فوق ما ينسب إليهم من الأنوثه(و هى مرتبه أدنى فى زعمهم)و دون ما يتصوّر من أنّ فيهم جزء من الالوهيّه.

و لأنّهم عباد الرحمن فلا يجوز أن يتخذ منهم الرحمن بنات،و قد شملت رحمته كلّ خلقه،و كيف تتفاوت الخليقه تفاوتا ذاتيّا،و هى كلّها مخلوقه لربّ واحد، بلى.إنّما يتفاضل الخلق بينهم بما يهب اللّه لهم حسب حكمته البالغه.

و الآيه تنسف أساس النظره الشيئيه الى المخلوقات التى هى أساس الشرك و أساس كلّ الزيغ البشرى،ببيان جهلهم المطلق بذلك الغيب،فهم لم يشهدوا خلق الملائكه فكيف يحكمون بأنّهم بنات؟!و أساسا هل يجوز أن يتحدّث الإنسان عمّا لم يؤت علمه؟! مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ فهم يتكلّفون علم ما لا قبل لهم به،إنّهم أرادوا أن يعرفوا كيف آتاهم اللّه العقل و الإراده،و كيف يجوز لهذا الإنسان المحدود أن يختار بنفسه،و أن يتجاوز العوامل الضاغطه،فوقعوا فى ضلال بعيد.

إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَخْرُصُونَ أ رأيت كيف يخمّن الخرّاص وزن التمر على النخل؟إنّه يعتمد على معلومات غير كافيه،يضيف إليها من خياله الخصب ما لا يغنيه عن الحق شيئا.

و يوحى هذا التعبير بأنّهم بنوا على فكره صحيحه نظريه خاطئه،فالصحيح هو وجود دوافع ضاغطه،و الخطأ هو أنّها تسلب إراده الإنسان.

صحيح أنّ للاقتصاد أثرا كبيرا على قلب الإنسان،و أنّ الناس عبيد الدنيا،

ص:۴۵۲

و أنّهم يحوطون دينهم ما درّت معايشهم،و لكنّ الخطأ هو الحتميّه الاقتصاديه التى زعمت أنّ الإنسان محكوم كليّا بطرق الإنتاج كما قالت الماركسيه.

و هكذا للاجتماع جاذبيه هائله،و لكنّها لا تحتّم على الإنسان شيئا،و كذلك التاريخ يسوق البشر فى اتجاهه دون أن يكرهه على ذلك إكراها.

و لو لا قدره الإنسان على تحدّى العوامل الضاغطه لما بنى حضاره،و لا تقدّم شبرا،و لما استطاع الروّاد أن يخرقوا جدر التخلّف بسهام التجديد،و ما قدر الثوّار أن يغيّروا الواقع السياسى الفاسد،و لا انتصر الرسل على الجاهليين الذين كانوا يملكون وسائل الإنتاج،و أجهزه الاعلام،و جاذبيه المجتمع.

[۲۱]و من الحتميّات الموهومه الحتميّه التاريخيه،و لا يعترف الدين بالتاريخ و التراث و تقاليد الآباء إلاّ بقدر ما فيه من هدى اللّه الموحى به عبر رسالاته،و لذلك نجد الذكر الحكيم يذكّرنا بأنهم ما داموا لا يملكون كتابا يستمسكون به فلا قيمه لماضيهم.

أَمْ آتَيْنٰاهُمْ كِتٰاباً مِنْ قَبْلِهِ من قبل القرآن الذى يجادلون فيه.

فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ [۲۲]كلاّ..إنّ اعتمادهم ليس على العلم(لأنه ما لهم به من علم)و لا على كتاب،إنّما على تقاليد باليه.

بَلْ قٰالُوا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّهٍ

على طريقه يأتمّ بعضهم بالبعض فيها.

وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُهْتَدُونَ نحن سائرون على آثارهم فنحن إذا مهتدون.

كلاّ..إنّ الآباء لم يكونوا أنصاف آلهه،و لا شرعيه لعملهم،و لا هدى فى آثارهم من دون علم أو كتاب.

[۲۳]و هذه عاده باطله درج عليها المترفون حينما بعث اللّه إليهم الأنبياء.

وَ كَذٰلِكَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَهٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّهٍ وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ فلربما كانت عقيده الآباء منحرفه،و لربما كانت صحيحه و لكن فى وقتها،إذ أنّ« تِلْكَ أُمَّهٌ قَدْ خَلَتْ لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مٰا كَسَبْتُمْ وَ لاٰ تُسْئَلُونَ عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ »أو قد يكونوا صالحين و لكن مع تقادم الزمن حرّفت عقائدهم.

و هذه الآيه تبيّن لنا أنّ الناس انقسموا تجاه أنبيائهم الى قسمين:قسم اتبع الأنبياء،و هم المستضعفون،و قسم خالف هدى الأنبياء،و هم المترفون و من اتبعهم من عامّه الناس.

[۲۴]بلى.من السفاهه اتباع الآباء بلا تعقّل،كما لا ينبغى رميهم بالانحراف رأسا،إنّما يجب اتباع أهدى السبل سواء عرفه الآباء أم لا.

قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمّٰا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبٰاءَكُمْ و هذا طعن غير مباشر،و غير حاد لعقيده الآباء،فالرسول لم يطعن فى سيره

الآباء،بل دعاهم الى اتباع الأهدى،مشيرا الى أنّ الآباء لم يكونوا مهتدين،أو أنّ منهاجهم كان صالحا لذلك الوقت،و قد نسخه تقادم الزمن،و تطوّر الظروف، فما ذا كان ردّ أقوام الرسل لهذه الدعوه؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ كفروا بما أرسل الرسل،و تبيّن زيف ادعائهم بحتميه اتباعهم لآبائهم، كلاّ..ليس آباؤهم مسئولين عن كفرهم،بل هم المسؤولون.

[۲۵]و حين تمّت عليهم الحجه،و ثبتت لهم مسئوليتهم عن أعمالهم،جاءهم الانتقام.

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ و سواء اعترف الإنسان بجريمته أو لم يعترف فإنّ قضاء اللّه واقع به إذا تنكّب الطريق،و هكذا لا يغنيه إنكار المسؤوليه شيئا.

ص:۴۵۵

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۲۶ الی ۳۵]

اشاره

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِیمُ لِأَبِیهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِی بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (۲۶) إِلاَّ اَلَّذِی فَطَرَنِی فَإِنَّهُ سَیَهْدِینِ (۲۷) وَ جَعَلَهَا کَلِمَهً بَاقِیَهً فِی عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ
یَرْجِعُونَ (۲۸) بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلاٰءِ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰی جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِینٌ (۲۹) وَ لَمّٰا جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ وَ إِنّٰا بِهِ کٰافِرُونَ
(۳۰) وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا اَلْقُرْآنُ عَلیٰ رَجُلٍ مِنَ اَلْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ (۳۱) أَ هُمْ یَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ نَحْنُ قَسَمْنٰا بَیْنَهُمْ مَعِیشَتَهُمْ فِی
اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِیَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِیًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّکَ خَیْرٌ مِمّٰا یَجْمَعُونَ (۳۲) وَ لَوْ لاٰ أَنْ
یَکُونَ اَلنّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً لَجَعَلْنٰا لِمَنْ یَکْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُیُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّهٍ وَ مَعٰارِجَ عَلَیْهٰا یَظْهَرُونَ (۳۳) وَ لِبُیُوتِهِمْ أَبْوٰاباً وَ سُرُراً
عَلَیْهٰا یَتَّکِؤُنَ (۳۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ کُلُّ ذٰلِکَ لَمّٰا مَتٰاعُ اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ اَلْآخِرَهُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِینَ (۳۵)

اللغه

۳۲[سخریّا]:أی ینتفع أحدهم بعمل الآخر له فینتظم بذلک قوام أمر العالم.

ص:۴۵۶

۳۴[معارج]:جمع معراج و هو السّلم.

۳۶[زخرفا]:هو الذهب.

ص:۴۵۷

إِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمّٰا مَتٰاعُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا

هدى من الآيات:

يضرب القرآن مثلا على الصراع بين الحق الذی يحمله النذير الى قومه و الواقع الفاسد الذی يدافع عنه المترفون باعتباره تراث الآباء،بقصه إبراهيم -عليه السلام-الذی تحدّی أباه و قومه،و أعلن براءته مما يعبدون،و جعل الإمامه فی ذريته الطيبه لتكون منار هدی للأجيال المتعاقبه،كما و متّع طائفه من أبنائه (و هم أهل مكه و آباؤهم)دهرا طويلا-حتی جاءهم الحق و رسول مبين فكذّبوه و قالوا هذا سحر.

(و قد قاوموا الرساله الإلهيه بقيمهم الماديه)و قالوا:لو لا نزّل هذا القرآن علی واحد من العظيمين فی مكه و الطائف(الوليد بن المغيره من قريش مكه أو حبيب بن عمرو من ثقيف الطائف،حسب ابن عباس).

و يبيّن القرآن ضلاله هذا المقياس،أولا:بأنّ اللّه هو الذی يقسم رحماته كيف

ص:۴۵۸

يشاء لا المخلوقون و ثانيا:بأنّ اللّه قد قسم بينهم معايشهم حسب حكمته،و إنما رفع بعضهم على بعض لكى يتخذ بعضهم بعضا سخريّا(و ليس للغنى فى غناه كرامه، و لا على الفقير فى فقره هوان)و ثالثا:بأنّ رحمه اللّه(المتمثّله فى رسالاته و جزائه) خير مما يجمعون من مال و زخرف.

(و يمضى السياق قدما فى تهوين شأن الدنيا و ليقتلع من النفوس مقياس الغنى فى تقييم الحقائق،و يقول:)لولا أن يكون الناس على الضلاله جميعا بإغراء زخرف الدنيا لجمع الدنيا كلّها للكفار،فجعل لبيوتهم سقفا من فضه و سلالم يعرجون عليها(الى الطوابق العليا)و جعل أبواب بيوتهم و سررها من فضه،و أحسن تأثيث منازلهم بالزخرف.ثم ماذا بعد كلّ ذلك؟إنّما ذلك متاع زائل للحياه الدنيا-بينما تصفى الآخره لمن اتقى ربّه-.

بينات من الآيات:

[۲۶]ضمن سياق هذه السوره التى تتحدّث عن تصحيح العلاقه بين الإنسان و ما حوله من بشر و طبيعه،يبين لنا السياق القرآنى العلاقه المثلى بين الإنسان و بين آبائه،فعلاقته يجب أن تكون مع القيم قبل العلاقه بالماضى بما فيه من خير و شر..

لماذا؟لأنّ الإنسان لا يكتسب القدسيه بمجرد مرور الزمان عليه،و لأنّنا و هم أمام اللّه شرع سواء،و إنما قيمتنا جميعا باتباع ما أمرنا اللّه به.

و لولا هذه العلاقه المجرّده عن التقديس لما قدرنا الانتفاع بتجاربهم،و كيف نتقى الأخطار التى أحدقت بهم و أهلكتهم،و ما هى بدايات انحرافهم،و ما هى عاقبته؟ كما أنّ العلاقه السليمه الى التاريخ تجعلنا نعيش واقعنا بصوره أفضل،فمن الناس من تجده يهرب من حاضره الى ماضيه،و لا يرى إيجابيات عصره،و لا

إنجازات معاصريه،و لا يتنعّم بفوائده،و لا يقبل التطوير و التجديد..كلّ ذلک لأنّه قد ارتمی فی أحضان التاریخ،یحتمی بکهفه،و یتغنّی بأمجاده،و یجتر حوادثه، و یتفاعل معها کما الأسطوانه الجریحه التی تکرّر ذات النغمه أبدا،و هذه حقّا من أعظم علائم التخلّف،فمثلا-لم تکن قریش عند ما بزغ فجر النبوه تصدّق بأنّ الرسول واحد منهم،یعیش بین ظهرانیهم،یأکل مما یأکلون،و یشرب مما یشربون،یکون أفضل من إبراهیم و موسی و عیسی و من عظماء التاریخ (علیهم السلام)،بالرغم من أنّ القرآن الکریم عند عرضه لقصص أنبیاء اللّه الکرام تراه یعرضها بواقعیاتها الإیجابیه و السلبیه،و کیف کذّبهم الناس،و لکن مع ذلک یقدّسهم من یأتی من بعدهم.لماذا؟للتعویض عن الحاضر بالماضی،الذی یأتی بدوره من منطلق التهرّب من تحمّل مسئولیات الواقع الراهن،ذلک لأنّ الذی یقدّس واحدا من عظماء التاریخ لا یکلّفه ذلک شیئا کثیرا،أمّا الذی یحترم قائدا حیّا یعیش فی عصره فإنّ ذلک یعنی طاعته و التسلیم لأوامره.

و من هذا المنطلق یتحدّث القرآن عن قصه إبراهیم مع قومه،عند ما تبرّأ من عباده الأصنام،معتبرا أنّ عباده الآباء لها لیس دلیلا علی شرعیّتها،و ورّث هذا الفکر التحرّری أبناءه،و صارت تلک سنه یتوارثها المؤمنون الصادقون عبر التاریخ، أن یؤمنوا باللّه،و لا یخضعوا للفساد المستشری بین الناس،و الذی تعوّدوا علیه،و لا یخضعوا للشرعیّه المزیفه-شرعیّه الأمر الواقع-الذی یسمّیه عالمنا السیاسی الیوم، مهما کان هذا الواقع صعبا.

بعد ذلک تتحدّث الآیات عن النظره المادیه البحته الی القیم،فلو أنزل هذا القرآن علی رجل من القریتین عظیم،رجل من مکه أو آخر من الطائف.لماذا؟ لأنّ الدنیا مقبله علیهم،و النظره المادیه الی القیم نابعه من النظره المادیه للأشیاء، فالقیمه کلّ القیمه فی نظر بعض الناس للماده،أو کأنّ الماده هی القیمه الأساسیه

التی تعطی الشرعیه لسائر القیم.

وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِیمُ لِأَبِیهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِی بَرٰاءٌ مِمّٰا تَعْبُدُونَ کانت رساله إبراهیم-علیه و علی نبیّنا و آله السلام-موجهه ضد استمراریه الأمر الواقع،ضد عباده الآباء،و تقدیس شرعهم و معتقداتهم و تاریخهم، لذلک قال لأبیه:إنّنی براء مما تعبدون من دون اللّه.و یعتبر هذا من أهمّ ما یتمیّز به إبراهیم الخلیل من بین سائر الرسل.

[۲۷]و بتبرّء إبراهیم علیه السلام مما عبده آباؤه،قطع صلاته بهم،و اختط لنفسه و لآله من بعده خطّا جدیدا نظیفا هو التوحید.

إِلاَّ الَّذِی فَطَرَنِی فَإِنَّهُ سَیَهْدِینِ فولاؤه-علیه السلام-لربّه الذی فطره و خلقه،و لیس لآبائه،رغم کونه ولد منهم لأنّهم لم یکونوا سوی سبب،و إذا کان الأمر کذلک فإن فاطره أولی بهدایته منهم.

[۲۸] وَ جَعَلَهٰا کَلِمَهً بٰاقِیَهً فِی عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ أی جعل کلمه الرفض و البراءه مما یعبد الآباء باقیه فی عقبه لعلّهم یرجعون إلیها من الانحراف،و لم یجعل إبراهیم علیه السلام نفسه رمزا باقیا یتّبع و یطاع،لأنّ العصور تختلف،و إنّما کان إبراهیم نذیرا،و إنّه لا بد أن یکون لکلّ قوم هاد و لکلّ عصر إمام.

و هکذا نستوحی فکره من هذه الآیه و آیات أخری أنّ الأجیال التی تأتی بعد نهضه مبارکه ینبغی أن یستفیدوا منها تجربه النهوض دون أن یعطوها کلّ الشرعیه،

و يحوّلوها الى عقبه فى طريق التطوير و التجديد،أو يجعلوها كهف الهروب من الواقع و مسئولياته الثقيله،كلاّ.إنّ لكل جيل نهضته التى تأتى ضد وضع فاسد يختلف عن ذلك الوضع الذى نهض السابقون ضده.

و هكذا فسّرت هذه الآيه فى النصوص الدينيه بالإمامه،

فجاء فى حديث مأثور عن هشام عن الإمام الصادق-عليه السلام-أنّه قال :«إنّما هى جاريه فى عقب الحسين(عليه السلام)كما قال اللّه عزّ و جل: وَ جَعَلَهٰا كَلِمَةً بٰاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ثم هى جاريه فى الأعقاب و أعقاب الأعقاب الى يوم القيامه » (1)[۲۹-۳۰]و فى مقابل إبراهيم عليه السلام و ذريته من بعده الكفّار الذين يتقلّبون فى نعم اللّه مما دعاهم الى الكفر و هكذا انقسم أبناء إبراهيم فريقين:فريق منهم حمّله أمانه الرساله،و جعل فيه كلمه الإمامه،لعلّ الآخرين يجعلونهم مرجعا لهم فى شؤون دينهم و دنياهم،أمّا الفريق الآخر(و هم الأغلب)فقد ابتلاهم اللّه بالنعم فأترفوا فيها.

بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلاٰءِ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰى جٰاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ* وَ لَمّٰا جٰاءَهُمُ الْحَقُّ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ وَ إِنّٰا بِهِ كٰافِرُونَ لما ناموا على حرير النعم،و اطمأنّوا إليها رفضوا أىّ فكره جديده،و قالوا:هذا سحر،و نحن كافرون به.

كانوا يحسبون أنّ هذه المتع التى متّعهم ربّهم بها دليل صلاحهم،و لكن قد تكون المتع و النعم استدراجا منه سبحانه،قال تعالى:

ص:۴۶۲

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۴ ص ۵۹۶

وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ (۱)و قال عزّ و جل: وَ أَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (۲).

و ربما تعنى الآيه أنّ اللّه متّعهم حتى إذا جاءهم الحق و رسول مبين كذّبوا به اعتمادا على النعم،حيث يعزو القرآن فى آيات كثيره التكذيب بالرسل الى الإتراف،كما سبق فى الآيه(۲۳)حيث رأينا كيف قاد المترفون الناس الى التكذيب بالرسل،و من هذا المنطلق نستطيع أن نعرف الصله بين هذه الآيه و الآيات التاليه التى تتحدث عن المترفين.

و لكن هل النعم دليل صلاح أصحابها؟كلّا..بل قد يكون بلاء أو استدراجا،

جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام :

۱-«يا ابن آدم إذا رأيت ربّك سبحانه يتابع عليك نعمه و أنت تعصيه فاحذره».

۲-«كم من مستدرج بالإحسان إليه،و مغرور بالستر عليه،و مفتون بحسن القول فيه، و ما ابتلى اللّه أحدا بمثل الإملاء له».

۳-«أيّها الناس!ليراكم اللّه فى النعمه وجلين كما يراكم فى النقمه فرقين،إنّه من وسع عليه فى ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفا،و من ضيّق عليه فى ذات يده فلم ير ذلك اختبارا فقد ضيّع مأمولا» (۳)و لكن لماذا يتهم الكفّار الرسل بالسحر؟لأنّ الرسالات التى يأتى بها الرسل كانت قريبه من قلوبهم و عقولهم و عواطفهم،و كانوا ينجذبون إليها،و لكنّهم لم

۱- ۱) آل عمران۱۷۸/.

۲- ۲) الأعراف۱۸۳/.

۳- ۳) بحار الأنوار/ج ۷۳-ص ۳۸۳.

یریـدوا الإیمان بها،ففسّروها بالسـحر،لأنّه یجـذب الفرد من حیث لا یـدری،و لکن جهلوا الفرق الکبیر بین رساله الحق و السـحر الباطل،فأثر السـحر وقتی یزول بزوال المؤثّر،و هـذا لیس فی الرساله،کما أنّ الرساله تطلب منک موقفا و أنت فی کامل وعیک،و انطلاقا من عقلک،بعکس ما هو علیه السـحر فأنت مجبور علی سـلوک معیّن بتأثیر السحر،و لا یفلح الساحر بینما صاحب الرساله منصور من عند اللّه، و نتساءل:کیف قالوا بأنّ الرساله سـحر،و قد کانوا یتوسّلون بالسـحر فی بعض الأحیان؟یبدو أن السـحر کان مبغوضا عندهم،و إنّما یتوسّلون به أحیانا عند الحاجه.

[۳۱]لمـاذا یکفر بالرسالات الإلهیّه المترفون؟ لأنّهم اتبعوا مـا أترفوا فیه، و ضاعت عنهم الموازین الحق،و مسـخت شخصـیاتهم الإنسانیه،فلم یعودوا یملکون مقاییس سلیمه لمعرفه الحقائق،فقاسوا کلّ شیء بمیزان المادیات،و هکذا زعموا أنّ رساله اللّه لا بد أن تنزل علی کبار المترفین،أو لیس قد خصّهم اللّه بنعمه الغنی حبّا لهم و إکراما لمقامهم،إذا فهم أحقّ بنعمه الرساله.

وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلیٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ

جاء فی النصوص الدینیه عن تفسیر هذه الآیه عن الإمام العسکری علیه السلام عن أبیه قال :

إنّ رسول اللّه صـلی الله علیه و آله کـان قاعـدا ذات یوم بفنـاء الکعبه،إذ قال له عبـد اللّه بن أمیّه المخزومی:لو أراد اللّه أن یبعث إلینا رسولا لبعث أجلّ من فیما بیننا مالا،و أحسـنه حالا،فهلّا نزل هذا القرآن،الذی تزعم أنّ اللّه أنزله علیک، و ابتعثک به رسولا علی رجـل من القریتین عظیم:إمّا الولیـد بن المغیره بمکه،و إمّا عروه بن مسـعود الثقفی بالطـائف،فقـال(صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم):أمّا قولک:

لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ،الوليد بن المغيره بمكّه،أو عروه بالطائف،فإنّ اللّه ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظم أنت،و لا خطر له عنده كما له عندك،بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضه ما سقى كافرا به مخالفا شربه ماء،و ليس قسمه رحمه اللّه إليك،بل اللّه القاسم للرحمات، و الفاعل لما يشاء فى عبيده و إمائه،و ليس هو عزّ و جلّ ممّن يخاف أحدا كما تخافه أنت لماله و حاله، فعرفته بالنبوّه لذلك،و لا ممّن يحبّ أحدا محبّه اللهو كما تحب، فيقدّم من لا يستحقّ التقديم،و إنّما معاملته بالعدل،فلا يؤثر لا فضل مراتب الدين و جلاله إلاّ الأفضل فى طاعته و الأجدّ فى خدمته،و كذا لا يؤخّر فى مراتب الدين و جلاله إلاّ أشدّهم تباطؤا عن طاعته.

و إذا كان هذا صفته لم ينظر الى مال و لا الى حال،بل هذا المال و الحال من تفضّله،و ليس لأحد من عباده عليه ضريبه لازب-اللازب الشديد اللزوم-فلا يقال له:إذا تفضّلت بالمال على عبد فلا بدّ أن تتفضّل عليه بالنبوّه أيضا،لأنّه ليس لأحد إكراهه على خلاف مراده،و إلزامه تفضّلا،لأنّه تفضّل قبله بنعمه.

ألا ترى يا عبد اللّه كيف أغنى واحدا و قبّح صورته،و كيف حسّن صوره واحد و أفقره،و كيف شرّف واحدا و أفقره،و كيف أغنى واحدا و وضعه،ثم ليس لهذا الغنى أن يقول:هلاّ أضيف الى يسارى جمال فلان،و لا للجميل أن يقول:هلاّ أضيف الى جمالى مال فلان،و لا للشريف أن يقول:هلاّ أضيف الى شرفى مال فلان،و لا للوضيع أن يقول:هلاّ أضيف الى ضعتى شرف فلان، و لكن الحكم للّه،يقسم كيف يشاء،و هو حكيم فى أفعاله،محمود فى أعماله.

و ذلك قوله تعالى: وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ قال اللّه تعالى: أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنٰا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا فأحوجنا بعضهم الى بعض،أحوج هذا الى مال ذلك،و أحوج

ذلک الی سلعه هذا و الی خدمته.

فتری أجلّ الملوک،و أغنی الأغنیاء،محتاجا الی أفقر الفقراء فی ضرب من الضروب،إمّا سلعه معه لیست معه،و إمّا خدمه یصلح لها لا یتهیأ لذلک الملک أن یستغنی إلاّ به،و إمّا باب من العلوم و الحکم هو فقیر الی أن یستفیدها من هذا الفقیر،فهذا الفقیر یحتاج الی مال ذلک الملک الغنی،و ذلک الملک یحتاج الی علم هذا الفقیر أو رأیه أو معرفته،ثم لیس للملک أن یقول:هلاّ اجتمع الی مالی علم هذا الفقیر،و لا الفقیر أن یقول:هلاّ اجتمع علی رأیی و علمی و ما أتصرف فیه من فنون الحکمه مال هذا الملک الغنی،ثم قال صلی الله علیه و آله :« وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِیَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِیًّا »ثم قال:یا محمد!قل لهم: وَ رَحْمَتُ رَبِّکَ خَیْرٌ مِمّا یَجْمَعُونَ أی ما یجمعه هؤلاء (۱) و نستخلص من هذا النص:أنّ الجاهلیه تعطی القیمه للماده لا للمبادئ، و قد أشار القرآن الی هذه النظره الشاذّه عند ذکر قصه طالوت حینما اختاره ملکا لبنی إسرائیل فقالوا: أَنّی یَکُونُ لَهُ الْمُلْکُ عَلَیْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْکِ مِنْهُ وَ لَمْ یُؤْتَ سَعَهً مِنَ الْمالِ (۲)و عند ما حکی قصه صاحب الجنه و صاحبه،قال: فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ یُحاوِرُهُ أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً، وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِیدَ هٰذِهِ أَبَداً، وَ ما أَظُنُّ السّاعَهَ قائِمَهً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلی رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَیْراً مِنْها مُنْقَلَباً (۳)إذ زعم هذا أنّ أمواله دلیل علی حبّ اللّه له،و لهذا فهو لا یظنّ أنّ الساعه قائمه،لأنّ الدنیا أنسته الاخره،و لکن إن قامت الساعه فسیجد خیرا منها منقلبا.

ص:۴۶۶

۱- ۱) الإحتجاج/ج ۱/ص ۳۲.

۲- ۲) البقره۲۴۷/.

۳- ۳) الکهف ۳۲/-۳۶.

هکذا تمسّک بالمقاییس المادیه فی تقییم الآخره.

و هکذا زعم کفّار قریش أنّ ثروه أحد الرجلین فی مکّه أو الطائف ترشّح أحدهما للرساله.

[۳۲]و قد جاءت رسالات اللّه لتنقذ البشر من ویلات الماده و أصحابها، جاءت لتکون بصائرها منارا للفقراء فی کفاحهم ضد استغلال الأغنیاء، و للمستضعفین ضد إرهاب المستکبرین،جاءت لتبصیر الجاهلین بزیف قیم الماده التی یدعوا إلیها أدعیاء العلم و الدین من أصحاب الطغاه و المترفین من أجل تکریس طغیانهم و فسادهم،و تضلیل المحرومین حتی لا یطالبوا بحقوقهم.

و هکذا ردّ القرآن تلک المقوله الجاهلیّه ببیان بصیرتین:

الأولی:کما أنّ اللّه تفضّل علی الأغنیاء بالمال فلا یسأل عن ذلک،کذلک یتفضّل علی البعض بالرساله،و لا یجوز أن یعترض علیه فی ذلک.

الثانیه:أنّ المال لیس أساسا سلیما للتقییم،بل رحمه اللّه المتمثّله فی الرساله هی الأفضل،و هی-و لیس المال-دلیل حبّ اللّه لعبده،و تخصیصه بفضله.

أَ هُمْ یَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ إنّ النبوه رحمه اللّه فهل فوّض إلیهم أمر تقسیمها بین عباده؟کلاّ..فاللّه قسم المعیشه بینهم،فقد أعطی لکلّ شخص معیشته،حسب حکمته،و لا یحقّ لأحد الاعتراض علیه،و بالذات المترفون تراهم لا یعترضون علی اللّه فی تقدیر المعیشه لهم،فکیف یعترضون فیما هو أهمّ من المعیشه و هو رحمه اللّه المتمثّله فی النبوّه.

نَحْنُ قَسَمْنٰا بَیْنَهُمْ مَعِیشَتَهُمْ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا

إنّ اللّه لم يعط الكمالات لجميع الناس،بل أعطى المال و الولد،و جعل بعضهم شريفا،و أعطى لمن يشاء الملك، و منع عنه سائر النعم،فمثلا سليمان عليه السلام الذى سخّر اللّه له الجنّ و الطير و الريح لم يرزق ولدا على شدّه حبّه له.

و نستوحى من قوله سبحانه: نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ أنّ تقسيم المواهب و النعم كان بحيث تصلح حياتهم(و عيشهم)،فأعطى ربّنا كلّ واحد من الناس موهبه يحتاج الآخرون إليه فيها.

إذا عند ما أعطى ربّنا الوليد بن المغيره و عروه بن مسعود الثقفى المال و الغنى، فليس لأنّهما أقرب الناس إليه أو أنّه يحبّهما و يكره غيرهما،و إنّما لأنّ الحياه قامت على أساس الحاجه المتبادله بين الناس،و لا يستغنى أحد عن أحد،و لذلك

عند ما سمع الإمام زين العابدين عليه السلام رجلا- يدعو قائلا-:«اللّهمّ اغننى عن خلقك»نهره و قال له عليه السلام :«ليس هكذا:إنّما الناس بالناس،و لكن قل:

اللهم اغننى عن شرار خلقك » (۱)

و جاء فى الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال :«اللهم لا تجعل بى حاجه الى أحد من شرار خلقك،و ما جعلته بى من حاجه فاجعلها الى أحسنهم وجها، و أسخاهم بها نفسا،و أطلقهم بها لسانا،و أقلّهم علىّ بها منّا » (۲)و الحكمه من هذه الحاجه المتبادله انتفاع بعضهم من بعض،و هذا تفسير قوله تعالى:

وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا

ص:۴۶۸

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۷۸ ص ۱۳۵.

۲- ۲) المصدر/ص ۵۶

و السخره هو الاستخدام،فقد خصّ كلّ أناس بموهبه لتتكامل الحياه،إذ لو جعل اللّه كلّ الناس مكتفين فی كلّ شیء لكانوا يطغون و يتكبّرون،لأنّ بعض الناس و هم محتاجون بشدّه إلی الآخرين تراهم يقولون:« أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ »! فكيف إذا أحسّوا بالاستغناء و تحرّزوا من قيود الاحتياج الی الآخرين؟!!بل لو لم يتفاضل الناس بالمواهب لما بنيت حضاره،و لا تنامی مجتمع أو تجمع،و لعاش الناس كما سائر الأحياء فی صراع أبدی.

وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ لقد زعموا أنّ الرساله لا بدّ أن تهبط علی الأغنياء،فردّهم اللّه بأنّه هو الذی يقسم بينهم معايشهم،و أنّه خصّ كلّ فرد بموهبه،و أضاف:إنّ قيمه الرساله أعظم من قيمه المال،فلو كان ينبغی اجتماع الخير عند آخر فلا بدّ أن تجتمع عند صاحب الرساله،لأنّها أعظم قيمه عند اللّه.

[۳۳]و لكی يقتلع جذور هذا التقييم الخاطئ من قلوب البشر،مضی السياق فی بيان خساسه الدنيا و عدم احترامها عند اللّه،لأنّها زائله،فإذا قيست بالآخره لم تكن سوی متاع يسير.

وَ لَوْ لاٰ أَنْ يَكُونَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً أی علی دين واحد هو الكفر باللّه.

لَجَعَلْنٰا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ أی لو لا الخوف من تحوّل المؤمنين كافرين لأعطی اللّه الكفار كلّ ما يريدون، و لجعل سقوف بيوتهم من فضّه،و لجعل بيوتهم طبقات عديده يرتقون إليها عبر سلالم و درجات.

وَ مَعٰارِجَ عَلَيْهٰا يَظْهَرُونَ [۳۴] وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوٰاباً ربما سبب ذكر الأبواب لبيوت من يكفر بالرحمن هو أن تكون بيوتهم مركزا اجتماعيّا،أو يكون تعدّد الأبواب دليل سعه البيوت،أو المراد أن تكون تلك الأبواب كما السرر من فضه.

وَ سُرُراً عَلَيْهٰا يَتَّكِؤُنَ [۳۵] وَ زُخْرُفاً قال العلامه الطبرسى:الزخرف كمال حسن الشىء،و منه قيل للذهب زخرف،و يقال:زخرفه زخرفه إذا حسّنه و زيّنه،و منه قيل للنقوش و التصاوير زخرف. (۱)

و على هذا يكون المعنى أعطاهم ما يكمل حسنهم و حسن بيوتهم من الذهب و الفضه و الفرش و الأثاث،و ما إلى ذلك.

و لكنّ اللّه منع بحكمته هذه النعم عنهم لكى لا يبتلى المؤمنون بلاء عظيما،فلو فعل ذلك لم يتحمّل أحد منهم إغراء النعم المتوافره عند الكفّار فكانوا يكفرون باللّه جميعا.

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق(عليه السلام) :

«لو فعل اللّه ذلك لما آمن أحد،و لكنّه جعل فى المؤمنين أغنياء،و فى

۱- ۱) مجمع البيان-ج ۹/ص ۳۶

الکافرین فقراء،و جعل فی الکافرین أغنیاء،و فی المؤمنین فقراء،ثم امتحنهم بالأمر و النهی،و الصبر و الرضا » [(1)](#footnote-1)هب أنّ اللّه أعطی کلّ ذلک للکفار،فهل یعنی ذلک أنّ لهم عند ربّهم کرامه بذلک،و للمؤمنین علیه هوانا؟کلاّ..إنّ کلّ ذلک لیس-بعد کلّ ذلک-سوی متاع،لا یستفید منه صاحبه إلاّ قلیلا،و هی فی الحیاه الدنیا التی تأطّر کلّ شیء فیها بالدونیّه و الضعه،بینما هیّأ ربّنا الآخره حیث القرار الأبدی للمتقین فدعاهم الی دار ضیافته،و مقام کرامته،و منازل قربه و رضوانه.

وَ إِنْ کُلُّ ذٰلِکَ لَمّٰا مَتٰاعُ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا المتاع:ما یتمتّع به الإنسان مؤقّتا.

وَ الْآخِرَهُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِینَ فالقیمه الحقیقیه لیست للماده الزائله،بل القیمه الأساسیه للعمل الصالح الذی یدّخره المؤمنون للآخره.

و بکلمه:الدنیا زائله،و ما فیها من نعم لیست سوی متاع لا قیمه له عند اللّه، و لو لا أنّ إغراء هذه النعم کان یسبّب فی میل الناس جمیعا الی الکفر لکان ربّنا قد أکملها للکفّار،لدناءتها و زوالها،و لکنّ اللّه اللطیف بعباده أبی أن یجمع الخیرات عند الکفّار لیعطی فرصه الإیمان للآخرین.

1- 1) تفسیر نور الثقلین-ج /4ص 599.

[سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۳۶ الى ۴۵]

اشاره

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ اَلرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (۳۶) وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ اَلسَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۷)
حَتّٰى إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ يٰا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ اَلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ اَلْقَرِينُ (۳۸) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ اَلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي اَلْعَذٰابِ
مُشْتَرِكُونَ (۳۹) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي اَلْعُمْيَ وَ مَنْ كٰانَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۴۰) فَإِمّٰا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنّٰا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (۴۱) أَوْ
نُرِيَنَّكَ اَلَّذِي وَعَدْنٰاهُمْ فَإِنّٰا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (۴۲) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۳) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ
وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (۴۴) وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنٰا أَ جَعَلْنٰا مِنْ دُونِ اَلرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (۴۵)

اللغه

۳۸[المشرقين]:أى المشرق و المغرب،و غلب المشرق لقاعده الأشرف أو الأقرب إلى القصد.

ص:۴۷۲

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ

اشاره

نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً

هدى من الآيات:

ذكر اللّه نور ساطع يعشو عنه البعض(لأنّهم لا يريدون تحمّل مسئولياته) فيقيض لهم اللّه شيطانا يقودهم الى النار،و ذلك بأن يصدّهم عن سبيل الحق، و يزيّن لهم الباطل فيحسبون أنّهم على هدى.

بهذا يكمل السياق ما بدأه بالآيات المتقدّمه من تهوين شأن الدنيا،و تسفيه من يتخذ متاعها مقياسا للحق،ذلك أنّ علاج الميل الى الدنيا معرفه حقيقتها،و لكن كيف يتمّ ذلك؟ إنّما بذكر اللّه فهو نور،و حين يعرض عنه البعض يبتلون بالشياطين من الجن، و بقرناء السوء من أبالسه الإنس الذين يزيّنون للمحرومين أعمال السلاطين و المترفين من أدعياء العلم و الدين.

و عند لقاء اللّه فى ذلك اليوم الرهيب يكتشف المرء مدى خسارته،فيقول لقرين

ص:۴۷۳

السوء الـذى أضـلّه:يا ليت كنّا متباعـدين فى الدنيا كما تباعد المشـرق عن المغرب، و لكن هيهات لا ينفع يومئذ التبرّى من قرينه الذى يلازمه الى الأبد.

و حين يضلّ اللّه أحـدا لا تنفعه دعوه الرسول أو عظه الناصـحين.أو يسـمع الأصمّ،أو يهتـدى الأعمى،و من هو فى ضـلال بعيد؟! (بهذا يشير الذكر الى مسئوليه الإنسان عن هداه أو ضلالته).

أمّا الرسول فما عليه إلاّ البلاغ فإذا عـذّب اللّه أولئك الضـلاّل بعـد أن يـذهب به أو فى حياته فإنّ الأمر بيـد اللّه يعذّبهم آجلا أو عاجلا.

إنّما عليه(و علينا نحن التابعين له)أن يستمسک بالوحى(و لا تزلزله دعايات المترفين)فهو على صراط مستقيم.

إنّ القرآن هو ذلك الـذكر الـذى يعالـج أمراض القلب،و التى يجمعها حبّ الـدنيا،و هو للرسول أوّلا،و لقومه الأقرب فالأقرب،و سوف يسألون جميعا عنه.

(و هو الشرف الذى يسمو على شرف المال و الجاه عند قريش،لأنّه يدخل المؤمن حصن التوحيد،و يفكّ عنه أغلال الشرک).

و التوحيد هو رساله الأنبياء(و هو يتنافى و الخضوع لأصحاب القوّه و الثروه).

بينات من الآيات:

اشاره

[۳۶]کيف نواجه إغراء المـادّه،و نتجـاوز الافتتـان بمـا لـدى الكفّـار من مظاهر القوّه،و زخرف الحياه؟إنّ الإنسان من تراب و كلّ شىء يحنّ الى أصله،فحبّ الدنيا عميق فى کيان الإنسان و هو رأس كلّ خطيئه،فكيف الخلاص منه؟

علما بأنّه من دون التطهّر من حبّ الـدنيا لا يخلص توحيد الإنسان،بل يظل يخلط عملا صالحا و آخر سيّئا،بل يشوب نيّته نزغات شيطانيه حتى فی الصالحات من أعماله،لا يخلص-مثلا-لقياده الحق إلاّ عنـد ما توفّر له متاع الحياه الدنيا، فإذا محّص بالبلاء أنهار فی وادی الشرک.

الإجابه تتلخّص فی کلمه ذکر اللّه،فيه تفيض النفس سکينه،و القلب اطمئنانا.إنّه النور الذی يهزم ظلام الجهل و الوسوسه و الغفله عن الفؤاد..

فعنـد ما تعصف وساوس الشـيطان بالنفس،و تتلاحق عليه نزغاته و همزاته، لا يجـد الإنسان مفرّا إلاّ الی اللّه.أو لم يقل ربّنا: وَ إِمّا يَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱)و قال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَکَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (۲).

و لکن البعض يعشو عن ذکر اللّه،يتغافـل عنه و يتجـاهله،لا يسـتعيذ باللّه، يستسـلم لنزغات الشـيطان،و لا يتـذکّر أنّه عـدو مبين،و هنالک يتمکّن منه الشيطان، و يعيّن له اللّه قرين سوء من الشياطين يقوم بأمرين:

الأوّل:يمنعه من عمل الخير،و لا يدعه يسلک سبيل الرشاد، فيسلب بذلک توفيق الهدايه عنه.

الثانی:يزيّن له سوء عمله فيراه حسنا فلا يفلح أبدا.

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمنِ قالوا أصل العشو النظر ببصر ضعيف،يقال عشی إذا ضعف بصره،و أظلمت

۱- ۱) الأعراف/(۲۰۰).

۲- ۲) الأعراف/(۲۰۱).

عينه.

نُقَيِّضْ نعيّن أو نتيح.

لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ يلازمه و لا يدعه لوحده ليله و نهاره.

و لعل استخدام اسم«الرحمن»هنا لبيان مدى عمى الرجل الذى يعشو عن النظر الى آثار من وسعت رحمته كلّ شىء.أ فلا التجأ إليه من عاديه إبليس،و فرّ الى كهف رحمته من عدوّه المبين؟! [۳۷] وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ بالضبط نقيض ما تفعله الملائكه بقلب المؤمن حيث تثبّته على الطريق،و تزيل عن طريقه العقبات حتى يتوفّق لعمل الخير،بينما قرين السوء يسوّف صاحبه التوبه،و يعرقل مسيرته الى اللّه،و يلقى عليه الكسل كلّما قام الى الصلاه أو دعى الى فعل الخير.إنّه يملأ قلبه و عودا كاذبه و أمانى و وساوس.

بل قد يفتح الشيطان أمام صاحبه بابا مستقبليّا من الخير حتى يمنعه عن الخير العاجل،ثم يمنعه عن ذلك الخير أيضا.

وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ هكذا يزيّن الشيطان لقرينه الضلال حتى يحسبه هدى.و ما دام الإنسان يشك فى طريقته يرجى له النجاه،و لكن حينما يزيّن الشيطان له عمله فلا يجد فى نفسه

داعيا الى التفكّر فى صحّه نهجه و سلامه خطّه،لا ينجو أبدا.

و نستوحى من الآيه بصيرتين:

الأولى:إنّ الخطوه الأولى فى سبيل الضلال كما فى طريق الهدى يخطوها الإنسان بكامل حريّته،فإذا عشى عن ذكر الرحمن أضلّه اللّه بقرين السوء،و إذا تذكّر بصّره و أعاذه من شر الشيطان.

إذا فمسئوليه الإنسان الكبرى هى اختيار الهدايه بالاستعاذه باللّه،بالإقلاع عن حاله التكبّر الدونيّه الى سماء العبوديّه للّه.

الثانيه:لا يلغى مسئوليه الإنسان عن عقائده و أفعاله أنّه يحسب أنّها صحيحه ما دام هذا الحسبان آت من تزيين الشيطان.إنّه كمن يلقى بنفسه من شاهق يتحمّل مسئوليه عمله حتى و لو فقد الإختيار أثناء دحرجته بين الصخور.لماذا؟ لأنّه هو الذى سلب نفسه القدره حين رمى بنفسه من عل..كذلك الذى يرفض الالتجاء الى اللّه فيقيّض اللّه له شيطانا يضلّه.إنّه لا يزال مسئولا عن ضلالته لأنّ بدايتها منه.

و هكذا مجرّد الإعتقاد بشىء لا يبرّر المضىّ فيه ما لم يعتمد على منهج سليم، و إلاّ فكثير من المجرمين يعتبرون أفعالهم صالحه.

[۳۸]إذا أردت أن تعرف حقيقه شىء فى الدنيا فانظر كيف يتجسّد فى الآخره،إذ أنّ تلك الدار هى المقياس.إنّها الحصاد الأكبر بينما الدنيا مزرعه و هل يعرف الزرع إلا بالحصاد.

و إنّما يصوّر لنا كتاب ربّنا مشاهد الآخره،و يبثّ فى كلّ موضوعه صورا

مناسبه لها من واقع الآخره،بهدف جعلها مقياسا،و لعلّنا نقترب أكثر فأكثر الى حقائق الخلق،و لا ننظر الى ظاهر من الحياه الدنيا.

و هنا فى سوره الزخرف حيث تبيّن آياتها المحور السليم للحياه و هو التوحيد، لا المال و لا الصداقه القائمه على أساسه،يبيّن لنا القرآن مشهدا من مشاهد الصراع القائم هنالك بين أصدقاء السوء هنا،فيقول:

حَتّٰى إِذٰا جٰاءَنٰا و حضر عند ربّه هذا الذى عشى عن ذكر اللّه.

قٰالَ يٰا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ يتمنّى يومئذ أن يكون بينهما ما بين المشرق و المغرب لما يجد من سيئات الاقتران به.

[۳۹]كلّا..لا ينفع التبرّى من البعض،و لا ينفع التبرير،لأنّ الظلم قد وقع فعلا بكامل اختيارهم،و النار تسع الجميع.

وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ أى لا يجديكم نفعا أنّكم تمنّون التباعد عن بعضكم،إذ أنّه جاء متأخّرا بعد أن ظلمتم أنفسكم.

إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ قالوا:لا ينفعكم اشتراككم فى العذاب شيئا إذ لا تتقاسمون العذاب بل لكلّ الحظ الأوفر.

و قالوا:لا يتسلّى أحد بعذاب غيره فليست هنالك البليه إذا عمّت طابت،لأنّ العذاب هنالك لا يطيب لأحد أبدا،لأنّه شديد و دائم.

و لأنّ قرناء السوء فى خصام دائم مع بعضهم فلا يسلّى أحد أبدا.

[۴۰]و حين يضلّ قرين السوء صاحبه يكون مثله مثل الأصم و الأعمى.

أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ كلاّ..لأنّ جهاز الاستقبال معطّل عنده فكيف يستمع،و قد قال الشاعر:

لقد أسمعت إن ناديت حيّا و لكن لا حياه لمن تنادى

أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كٰانَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ كلاّ..لأنّ من انحرف عن الطريق قليلا ترجى أوبته إليه،و لكنّ الذى شطّ بعيدا حتى أحاطت به الضلاله كيف يمكن هدايته.

هكذا ينبغى اليأس عمن استبدّ بقلبه حبّ الدنيا فأخذ يقيس كلّ شىء بالمال و الجاه،و القوّه الظاهريه.إنّه فى ضلال مبين،و لا يعجبك ما عنده فتفكّر فى كسبه بأيّه وسيله فتقدّم له التنازلات من دينك و مواقفك،كلاّ..ما عند اللّه خير و أبقى.

[۴۱]إنّ عاقبه هؤلاء العذاب فى الدنيا و قبل العذاب الأكبر عند ربّهم، و سواء تمّ ذلك بعد وفاتك أو فى حياتك فإنّهم معذّبون،فلا تغررك أموالهم و أولادهم،و لا يحزنك مكرهم و دعاياتهم،و لا تستعجل عليهم فإنّ العذاب الذى ينتظرهم شديد.

فَإِمّٰا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنّٰا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ

إنّ وجود الرسول و المؤمنين بين الكفّار قد يؤخّر عنهم العذاب الى أجل محدود، قال اللّه تعالى: وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١).

[۴۲]و قد يعذّب اللّه الكفّار فى عهد الرسول و بمشهد منه أو من الدعاه من أتباعه،لكى يريهم قوّته و يقرّ أعينهم بنصره.

أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنٰاهُمْ فَإِنّٰا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فلا تنفعهم ثروتهم أو قوّتهم شيئا.

[۴۳]و لأنّ عاقبه الكفّار الدمار فلا بدّ من مواجهه إغرائهم و إرهابهم،و لا يمكن ذلك إلاّ بالتمسّك الشديد بالرساله.

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ لينظر المؤمن الى الظواهر السياسيه و الاجتماعيه من خلال بصائر الوحى،لكى لا يتأثّر بها سلبيّا،و ليطبّق مناهج الرساله بدقّه حتى يمكّنه اللّه فى الأرض،لأنّ كلّ بند من بنود الشريعه قوّه و اقتدار،و ليكن واثقا من سلامه خطه فإنّ الثقه بالنصر طريق إليه.

إِنَّكَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ [۴۴]و ليس الشرف فى أموالهم و مناصبهم،و إنّما هو فى الوحى الذى يعبق ذكر المتمسكين به فى كلّ أفق.

ص:۴۸۰

١- ١) الأنفال/(٣٣).

وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ لقد ذهب أصحاب الأموال،و أصبحوا أحاديث يعتبر بهم المعتبرون،بينما بقى ذكر أصحاب الرساله على كلّ شفه و على امتداد العصور.

بلى.إنّ أصحاب الرساله مسئولون قبل غيرهم عنها،لأنّها نزلت فى بيوتهم فهم أحقّ بها و أهلها.

وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ

و جاء فى حديث مأثور عن الإمام الباقر-عليه السلام-أنّه قال :«الذكر رسول اللّه،و أهل بيته أهل الذكر،و هم المسؤولون » (1).

[۴۵]و لا يجوز الاستسلام لأهواء المترفين أو الطغاه،لأنّ فى ذلك شركا بربّ العزه..و قد جاءت الرساله لتطهير النفوس من الشرك،و تطهير المجتمع من القيادات الشركيه،فكيف تقبل بهم اليوم شركاء فى السلطه.

وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنٰا أَ جَعَلْنٰا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ كلّا..إنّما هو إله واحد،و ما جعل اللّه لرجل من قلبين فى جوفه يخضع بأحدهما لربّه و بالثانى لأصحاب الثروه أو السلطه.

التوحيد محور العلاقه الاجتماعيه:

سبق الحديث فى محور سوره الزخرف المتمثّل فى تهوين شأن الدنيا،لكى

۱- ۱) نور الثقلين/ج(۴)ص(۱۰۵).

لا يجعلها المسلم قيمه يقيس بها الأمور،و آيات هذا الدرس تنسف العلاقه القائمه على أساس هذه القيمه الزائله،ذلك أنّ القيمه السليمه عند اللّه هى التى تمتدّ من الحياه الدنيا إلى الآخره.

و إذا استطعنا إصلاح قيمه التجمّع أو الرابطه التى توصلنا ببعضنا فجعلناها الإيمان دون المصالح العاجله،و لا الإقليم،و العنصر،و الشهوات،و الأهواء، و العصبيّات،فقد أقمنا فعلا المجتمع الربّانى المنشود.

و لقد جاءت رسالات السماء جميعا و فى طليعتها القرآن الكريم لتحقيق هذه الغايه الساميه،و لكن كيف؟بتهوين الدنيا،و حط شأنها،لكى لا تصبح بما فيها من زخرف مقياسا،ثمّ بالنهى عن اتخاذ المترفين فيها قاده،و أخيرا ببيان الرابطه الشيطانيه التى تنتهى بأصحابها الى النار.

و إذا كان حبّ الدنيا أرضيّه فإنّ قياده المترفين الشجره.أمّا ثمرتها فهى الصله بين قرناء السوء.

و يبدو أنّ السياق ذكّرنا أوّلا بهوان الدنيا على اللّه(حتى أعطاها للكفّار)ثم أخذ يبصّرنا بحقيقه قرناء السوء فى هذا الدرس،حيث نستوحى منه بصائر حكيمه فى الروابط الاجتماعيه،ذلك أنّ للعلاقه الاجتماعيه-و بالذات تلك التى ترتكز عليها البنى التحتيّه للمجتمع-قاعده،فقد تكون الأرض قاعده التجمّع فتنشأ الصله الوطنيّه و الإقليميه،و قد تكون اللغه هى القاعده فتنمو الحاله القوميّه،و قد نكون المصالح العامّه التى تنمو و تتّسع الى الحاله الإمبرياليه،و قد تتجلّى فى صوره الأمميّه البروليتاريّه.

و الصله التى تربط فى هذه الحالات جميعا بين الإنسان و الإنسان هى صله ماديه

ناشئه من التراب،بینما رسالات اللّه ترید صله أخری هی صله الروح،صله الحبّ الإلهی،صله القیم الربّانیه،و هذه الصله قائمه علی أساس ذکر اللّه.

و هی تستنزل رحمه اللّه،و تنمّی قیم الفضیله و الخیر و الإحسان،کما تحافظ علی الحق و العدل و الحریه،بینما الصلات الأخری تستدرج البشر الی نقمه اللّه، و تطمس معالم الحق،و لا تنمّی الخیر، بل و تساهم-عاده-فی إشاعه الفحشاء، و بثّ روح الاعتداء و الظلم.

فإذا بحثنا عمیقا فی أسباب الشقاء و العداء و عوامل الصراع و الحرب و الاعتداء بین الناس،سواء داخل التجمّع الواحد أو بین الأمم،فلن نجدها سوی هذه الصلات الجاهلیه النابعه من حبّ الدنیا و زخرفها.

و القرآن هنا یحذّرنا من الوقوع فی هذه المهالک،و یأمرنا بالتمسّک بالوحی،فمن عشی عنه فقد قرن به شیطان،یبعده عن السبیل،و یزیّن له السیئات.

و یبدو أنّ باطن هذه الآیات التبصیر بدور القرین فی حیاه الإنسان،و القرین قد یکون زوجه أو زوجا أو صاحب السبیل أو زمیل الدراسه أو شریک التجاره أو الجلیس و الأنیس،و الإسلام یأمرنا بذکر اللّه حتی یکون معیار اتخاذ القرین ربانیّا،لأنّه حسب ما یکون الإنسان یختار أقرانه،و کما

یقول الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام :«کلّ امرء یمیل إلی مثله».

«لا یصحب الأبرار إلاّ نظراؤهم».

«لا یوادّ الأشرار إلاّ أشباههم » (۱).

۱- ۱) میزان الحکمه/ج(۵)ص(۲۹۸).

و حین یتخذ القرین بمعیار إلهی تکون علاقته به متینه،بینما إذا کانت المصلحه أو الهوی أساسا للصداقه انهارت بتبدّل الأحوال..

و حین یکون المعیار الإلهی حاکما یصنع المؤمنون من تجمّعهم جنه أرضیّه حیث یوادّون بعضهم فی اللّه لا تجد فی قلوبهم غلاّ للذین آمنوا و یأنس الواحد منهم الی صاحبه کما الظمآن الی شراب سائغ..و هنالک تتجلّی السعاده الدنیویه،کما لا تتجلّی فی أیّ نعمه أخری..

و تمتد هذه الخلّه حتی یوم القیامه حیث یقول ربّنا: اَلْأَخِلاّٰءُ یَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِینَ و حتی تبلغ بهم الجنه حیث تراهم إِخْوٰاناً عَلیٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِینَ .

ص:۴۸۴

[سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۴۶ الی ۵۶]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسی بِآیاتِنا إِلی فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَقالَ إِنِّی رَسُولُ رَبِّ اَلْعالَمِینَ (۴۶) فَلَمّا جاءَهُمْ بِآیاتِنا إِذا هُمْ مِنْها یَضْحَکُونَ (۴۷) وَ ما نُرِیهِمْ مِنْ آیَهٍ إِلاّ هِیَ أَکْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قالُوا یا أَیُّهَا اَلسّاحِرُ اُدْعُ لَنا رَبَّکَ بِما عَهِدَ عِنْدَکَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمّا کَشَفْنا عَنْهُمُ اَلْعَذابَ إِذا هُمْ یَنْکُثُونَ (۵۰) وَ نادی فِرْعَوْنُ فِی قَوْمِهِ قالَ یا قَوْمِ أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ اَلْأَنْهارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هٰذَا اَلَّذِی هُوَ مَهِینٌ وَ لا یَکادُ یُبِینُ (۵۲) فَلَوْ لا أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَهٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ اَلْمَلائِکَهُ مُقْتَرِنِینَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (۵۴) فَلَمّا آسَفُونا اِنْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِینَ (۵۵) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِینَ (۵۶)

اللغه

۵۰[ینکثون]أی یغدرون و ینقضون العهد.

۵۳[أسوره]:جمع سوار و هو الحلیه التی تلبس فی الیدین المرفق و الزند.

ص:۴۸۵

۵۴[فاستخفّ قومه]:بأن حسبهم خفيفى العقول يتمكّن من إنهاضهم لنصره بمجرد خطاب و مغالطه،كما هى عاده الطغاه دائما أمام الجماهير.

۵۵[آسفونا]:أغضبونا و اللّه تعالى لا يغضب كما الإنسان، و إنّما له رسل و ملائكه يغضبون له،كما أنّ غضبه عزّ و جل على العصاه هو إراده عقوبتهم.

ص:۴۸۶

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ؟!

هدى من الآيات:

فى سياق هذه السوره التى تدور حول تصحيح علاقه الإنسان بما حوله،يضرب لنا القرآن مثلا من فرعون الذى اغترّ بزينه الحياه الدنيا، و استعبد الناس بها، فكانت نهايته الأليمه أن أغرقه اللّه و جنده،و ما هذه العاقبه و أمثالها من الظالمين ببعيد.

لقد جاء موسى عليه السلام الى فرعون لكى يحدّد له العلاقه السليمه بالطبيعه،فله أن يسخّرها و يستفيد منها،لا أن يركن إليها و يطمئنّ بها،لأنّها متغيّره،و كلّ متغيّر زائل،بيد أنّ فرعون آثر الكفر على الإيمان،و رفض الانقياد لرساله اللّه،و قياده موسى عليه السلام .

و يركّز اللّه فى هذه القصه على علاقه الإنسان بالطبيعه،فقد اعتقد فرعون أنّه ما دام يملك مصر،و أنّ الأنهار تجرى من تحته،فلا بدّ أن يكون هو ملك الناس و موجّههم دون موسى عليه السلام الذى جاءه بمدرعه الصوف،و بيده عصاه التى يتوكّأ

عليها،و يهشّ بها على غنمه،غافلا عن أنّ قياده الحياه ليست للأغنى أو الأعتى بل للأصلح.

و تتناسب هذه الآيات و الآيه التى تقول: وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ لأنّ أهل الجاهليه كما فرعون اعتقدوا بأنّ الأصلح للحكم هو الأغنى و ليس الأصلح الأقرب إلى اللّه عزّ و جل.

كما هى مثل للقرين الذى يقيّضه اللّه لمن يعشو عن ذكره،حيث أنّ فرعون حين وجد قوما فاسقين استخفّهم،و أثار فيهم النزعات الشرّيره و الشهوات العقيمه، فقال لهم:ألا ترون-يا قومى-أنّى أملك مصر،كما بيدى تنظيم أنهارها. هل أنا خير أم هذا الذى لا يتزيّن بأسوره من ذهب،و لا تصفّ وراءه جنوده(من الملائكه)؟! و هكذا يصدّ الطغاه(و هم قرناء السوء)الغافلين عن ذكر ربّهم،و يزيّنون لهم سوء أعمالهم ليحسبوا أنّهم مهتدون! و أخيرا:يضرب القرآن بهذه الآيات مثلا لعاقبه المستهزئين بالرسالات،الذين ازيّنت الدنيا فى أعينهم،فعبدوها و قاسوا كلّ شىء بزخرفها،كيف يحيط بهم ما عبدوه،و يكون هلاكهم بما افتخروا به.ألا ترى كيف تبجّح فرعون بالأنهار التى تجرى من تحته فأطاعه قومه بذلك فأغرقهم اللّه فيها؟!هكذا يضرب اللّه للناس الأمثال.

و للسياق هنا محوران:الأول:ما يتعلّق بموسى عليه السلام و فرعون،الثانى:ما يرتبط بفرعون و ملئه،الذين لم يتدخّلوا لحسم الحوار للحق،فاستحقّوا العذاب بسبب سكوتهم عن فرعون و اتباعهم له.

بينات من الآيات:

[۴۶] وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآيٰاتِنا إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَقٰالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعٰالَمِينَ الملأ فى القرآن هى الطبقه المترفه المتسلّطه على الناس.و نستوحى من إشراك اللّه للملأ مع فرعون فى الدعوه أنّ هؤلاء كانوا فراعنه صغارا يستفيدون من فرعون، و يستفيد منهم،و كانوا يلتفّون حوله،و يستعين بهم، و إذا راجعنا قصص الأنبياء نجد أنّ الملأ هم الذين كانوا يحرّضون الناس على الكفر،و يقفون أمام الرسالات.

[۴۷] فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِآيٰاتِنٰا إِذٰا هُمْ مِنْهٰا يَضْحَكُونَ كانوا يضحكون من الآيات التى جاء بها موسى عليه السلام بدل أن يستفيدوا منها و يؤمنوا بها،و مثلهم مثل الصخره الملساء لا يستقرّ عليها قطر السماء،و لا تنبت الزرع،كذلك القلوب المتحجّره تنزاح عنها المواعظ،و يستهزأ أصحابها بالرسالات و الرسل،و هذا مثل لما أجمله السياق فى فاتحه السوره.

[۴۸] وَ مٰا نُرِيهِمْ مِنْ آيَهٍ إِلاّٰ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهٰا تدرّج اللّه لهم بالآيات،فمن العصا و اليد،الى السنين و نقص من الأموال و الثمرات،الى الطوفان و الجراد و القمّل و الضفادع و الدم،الى الرجز،و كلّ آيه من هذه الآيات أكبر و أعظم من أختها،و كلّها كانت من نوع العذاب الأدنى الذى يقضيه اللّه بلطفه على بعض الأمم بهدف إنذارهم.

وَ أَخَذْنٰاهُمْ بِالْعَذٰابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [۴۹]تراهم هل رجعوا؟كلاّ..فحين يصيبهم العذاب يتوسّلون بموسى عليه السلام

-و یسمّونه ساحرا-أن یدعو ربّه بما عهد عنده من الآیات و الرساله إن أزال عنهم العذاب إنّهم لمهتدون.

وَ قٰالُوا يٰا أَيُّهَا السّٰاحِرُ ادْعُ لَنٰا رَبَّكَ بِمٰا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنٰا لَمُهْتَدُونَ و فی هذه الآیه ثلاث ملاحظات:الأولی:أنّهم سمّوا موسی ساحرا،و الثانیه:

أنّهم قالوا:ادع لنا ربّک،و لم یقولوا:ربّنا،و الثالثه:أنّهم حین العذاب بالآیات لم یهتدوا،و لکنّهم قالوا:إنّنا لمهتدون إن کشف عنا ربّک العذاب،فهم لن یهتدوا إلاّ بعد أن یکشف اللّه عنهم العذاب.

و تساءل المفسّرون:کیف سمّوا موسی ساحرا ثم سألوه أن یدعو ربّه بالنجاه؟ و الجواب:

أوّلا:یکشف القرآن الحکیم دائما تناقضات الکفّار،و کیف أنّهم ضلّوا فلا یهتدون سبیلا،و بالذات فیما یرتبط بظاهره النبوّه،فقال ربّنا سبحانه: بَلْ قٰالُوا أَضْغٰاثُ أَحْلاٰمٍ بَلِ افْتَرٰاهُ بَلْ هُوَ شٰاعِرٌ فَلْيَأْتِنٰا بِآيَةٍ كَمٰا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (۱).

و قال سبحانه: اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثٰالَ فَضَلُّوا فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (۲).

و قوم فرعون بدورهم ضلّوا فی أمر موسی،فمن جهه قالوا:یا ساحر،و من جهه ثانیه اعترفوا بأنّ قدرته لیست منه،و لا من بعض ما یعرفه من الحیل،بل من اللّه، فسألوه أن یدعو ربّه.

۱- ۱) الأنبیاء/(۵).

۲- ۲) الإسراء/(۴۸).

ثانیا:إنّ تهمه السحر التی کان الکفّار یفترونها علی الأنبیاء کانت أقوی حجّه لصدق نبوّتهم،إذ أنّهم اعترفوا من خلالها بأنّ الرسل یأتون بما هو خارق العاده،و لکنّهم کانوا یفسّرونها بالسحر..و نحن نعرف براءه الرسل من السحر، إذ لا یفلح الساحر حیث أتی،و نعرف الفرق الذی جهلوه بین السحر و النبوه، فیکون اعتراف الأمم الکافره دلیلا علی صدق الرسل،و أنّ تلک کانت آیات تشابهت علیهم بامتلاک الرسل الخوارق،کما نعرف أنّ کفر أولئک الجاهلین کان بدافع الکبر و حبّ الدنیا و الهروب من المسؤولیه.

ثالثا:بالرغم من اتهام النبی موسی علیه السلام بالسحر،و نکثهم المکرّر لوعدهم إیّاه بالتصدیق،لم یزل هذا النبی العظیم یدعو ربّه لأجلهم.و حقّا:ما أوسع هذا الصدر،و ما أرحم هذا القلب،و ما أدوم هذه الاستقامه فی طریق الدعوه التی ینبغی أن نجعلها لأنفسنا أسوه و مثلا حسنا.

[۵۰]و برحمه اللّه سبحانه الواسعه و عطفه علی العباد یرفع عنهم العذاب،مع علمه أنّهم لن یهتدوا إذا أبدا،و لکن لیعطیهم الفرصه تلو الفرصه.

فَلَمّٰا کَشَفْنٰا عَنْهُمُ الْعَذٰابَ إِذٰا هُمْ یَنْکُثُونَ و یتبیّن لنا من هذه الآیات أنّ العذاب نوعان:عذاب الإنذار،و عذاب الانتقام،فمن رأی النوع الأوّل من العذاب فلا یفوّت الفرصه علی نفسه،لأنّه إذا جاءه العذاب الثانی فلا مردّ له من اللّه.

و إنّنا نجد فرعون و ملأه قد تعهّدوا بالهدایه،إذ قالوا: إِنَّنٰا لَمُهْتَدُونَ ،و لکنّهم أخلفوا بعد أن کشف اللّه عنهم العذاب.

[۵۱]و خشی فرعون من انتشار الدعوه بین قومه فاستدرک الأمر بإثاره الشهوات

ص:۴۹۱

فی أنفسهم.

وَ نادی فِرْعَوْنُ فِی قَوْمِهِ کیف نـادی کلّ أهل مصـر الـذین کانوا قومه؟هل جمع الملأ منهم فنادی فیهم؟أم أنّه بثّ الشائعات عبر أجهزه إعلامه،و وسائل دعایته،کالسـحره و الکهنه و من أشـبه؟لعلّ هـذا أقرب الی معنی النـداء فی قومه،حیث یظهر أنّه أبلغ کلّ قومه بکلامه هذا.

قالَ یا قَوْمِ فأثار فیهم النخوه و العصبیه حیث ناداهم بأنهم قومه.

أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ و هکـذا احتـجّ علیهم بأنّه ملکهم الشـرعی فلا بدّ من طاعته.أو لیس یملک القوه و المنعه؟ثم احتجّ علیهم بأنّه یملک ناصیه القدره الاقتصادیه أیضا،قائلا:

وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی فهـو المنظّـم للریّ الـذی بـأمره تجری الأنهـار المتفرّعـه مـن النیـل،و الـتی قیـل بأنّهـا کـانت تبلغ(۳۶۰)کم،و کانت تروی منها زراعتهم.

و قـد قـالوا:إنّ الحضـاره النهریّه تـدعو الی النظم و الاسـتقرار أکثر من غیرهـا،لأنّ حیاه أهلها قائمه علی حسن توزیع المیاه.و لعلّ السـیاق یشـیر الی ذلک حیث لمّـح فرعون بأنّ الرساله تهـدّد الناظم الذی یهیّأ توزیع المیاه،و لذلک قال المفسّـرون إنّ معنی«من تحتی»هو بأمری و سلطتی،و هو تعبیر بالغ الروعه.

و لا ریب أنّ الإصلاح فی المجتمعات المستقرّه کذلک المجتمع أشدّ صعوبه.

ص:۴۹۲

أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ لماذا لم يقل:أ فلا تعقلون،أو تتفكرون؟لأنّه يدعوهم الى رؤيه الظاهر،أمّا إذا دعاهم للتفكير فسوف يكتشفون بأنّه ليس سوى بشر عادى مثلهم،و إنّما سيطر عليهم بجهلهم.و لو عقلوا لعرفوا أنّ ملك مصر للّه ثم لمن عمّرها،و أنّ فرعون يستحقّ منهم أشدّ العذاب على استغلالهم ماليّا،و التسلّط عليهم سياسيّا،بلا تخويل منهم،و لا تفويض من عند اللّه،فكيف يطالبهم بأجر،و يمنّ عليهم،لأنّه طغى عليهم،و انتهب ثرواتهم؟!! [۵۲]ثم استهزأ برسول اللّه إليهم،و أخذ يقيّم حقائق رسالات ربّ العالمين بالمعيار المادى،و كيف أنّ موسى عليه السلام مستضعف،و أنّه لا يفصح قولا،و لا يملك شرفا.

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لاٰ يَكٰادُ يُبِينُ مستضعف،و راعى غنم.لا ذكر له.و هذه عاده الطغاه أن يستصغروا الرسل و الدعاه الى اللّه،فلقد سمعنا قصه إبراهيم و قومه لمّا جعل الأصنام جذاذا حين قالوا تصغيرا:« سَمِعْنٰا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقٰالُ لَهُ إِبْرٰاهِيمُ »(۱).

[۵۳]ثم أخذ يقيس موسى عليه السلام بما يملكه من ثروه أو سلطه،و هكذا يقيس الجاهليّون الناس بالغنى و القوّه،لا بالصلاح و الخير.

فَلَوْ لاٰ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ الأسوره جمع السوار.

أَوْ جٰاءَ مَعَهُ الْمَلاٰئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ

ص:۴۹۳

و إذا لم يكن ذا مال،فلتأت معه الملائكه متقارنين يعاضد بعضهم بعضا، كالجنود المجنّده التی يملكها هو.

و جاء حديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام :و لقد دخل موسى بن عمران و معه أخوه هارون-عليهما السلام-على فرعون،و عليهما مدارع الصوف، و بأيديهما العصى،فشرطا له-إن أسلم-بقاء ملكه،و دوام عزّه،فقال:ألا تعجبون من هذين يشرطان لی دوام العز،و بقاء الملك،و هما بما ترون من حال الفقر و الذلّ،فهلّا ألقى عليهما أساوره من ذهب؟!إعظاما للذهب و جمعه، و احتقارا للصوف و لبسه!و لو أراد اللّه سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذّهبان،و معادن العقيان،و مغارس الجنان،و أن يحشر معهم طيور السماء و وحوش الأرضين لفعل،و لو فعل لسقط البلاء،و بطل الجزاء،و اضمحلّت الأنباء،و لما وجب للقابلين أجور المبتلين،و لا استحقّ المؤمنون ثواب المحسنين، و لا لزمت الأسماء معانيها،و لكنّ اللّه سبحانه جعل رسله أولى قوّه فی عزائمهم، و ضعفه فيما ترى الأعين من حالاتهم،مع قناعه تملأ القلوب و العيون غنى، و خصاصه تملأ الأبصار و الأسماع أذى.

و لو كانت الأنبياء أهل قوه لا ترام،و عزه لا تضام،و ملك تمد نحوه أعناق الرجال،و تشد اليه عقد الرحال،لكان ذلك أهون على الخلق فی الإعتبار،و أبعد لهم فی الاستكبار،و لآمنوا عن رهبه قاهره لهم،أو رغبه مائله بهم،فكانت النيات مشتركه،و الحسنات مقتسمه.و لكن الله سبحانه أراد أن يكون الإتباع لرسله، و التصديق بكتبه،و الخشوع لوجهه،و الاستكانه لأمره،و الاستسلام لطاعته، أمورا له خاصه،لا تشوبها من غيرها شائبه،و كلما كانت البلوى و الاختبار أعظم كانت المثوبه و الجزاء أجزل (1).

۱- ۱) الأنبياء/(۶۰).

[۵۴] فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطٰاعُوهُ لقد جرّد فرعون قومه من ثقل العقل و الإيمان،بما أثار فيهم من حبّ الشهوات الرخيصه،فأطاعوه،لأنّ الإنسان حينما يملك العقل و الإيمان فإنّه سيكون رصينا و موزونا،لا تحرّكه العواصف،و لا تزيله القواصف،بينما إذا فقده كان كريشه تتقاذفه الرياح.

و لقد كان فرعون-شأن كلّ الطغاه-يعرف أن منطق العقل و العلم و الفطره يؤيّد موسى عليه السلام ،و لكنّه انحرف عنه الى إثاره العصبيّات،و التلويح بالإرهاب و الإغراء،و بالتالى إزاغه الناس عن عقولهم الرصينه الى شهواتهم الخفيفه.

و هذا شأن الاعلام الجاهلى اليوم الذى يستخدم آخر إنجازات العلم فى إثاره الشهوات،و بثّ العصبيّات،و تخويف الناس من الرساليين،انطلاقا من النزغات الشيطانيّه.

هل سمعت كيف دعا وزير الحرب الأمريكى رؤوساء العرب بدعم إسرائيل ماديّا،لأنّها تحافظ على عروشهم ضدّ ما أسماه بالتطرّف الدينى؟ أسمعت كيف يتّهمون أولياء اللّه بالإرهاب،ثم يعذّبونهم،و يذبحونهم،و لا من معترض؟ و ما نقموا منهم إلاّ أنّهم يدعونهم الى التوحيد،و نبذ الأنداد،الذين يمثّلهم اليوم مستكبروا الشرق و الغرب و عملاؤهم.

لقد قال فرعون و أجهزه إعلامه:لماذا لا يلبس موسى أسوره من ذهب،و يدعم منطقه بجنود من الملائكه؟و اليوم تقول أجهزه الفراعنه الجدد:ما قيمه شرذمه من

المطرّفين،إنّهم لا ـ يملكون قوه و لا مالا؟ (۱) بلى.و لكنّهم يـدعون الى اللّه،و اللّه هو القوىّ الغنى.و لكن من الـذى يتّبع دعايات الظالمين،و يخضع لإعلامهم؟إنّما هم الفاسقون.

إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ سلّموا أنفسهم للباطل ففسقوا عن الحق،لأنّهم لم يربّوا أنفسهم منذ البدء على التسليم للحق،فكان لا بدّ أن يسلّموا لباطل فرعون.

و يبـدو من هـذه الآـيه أنّ فرعـون ليس هـو المسؤول الوحيـد،إنّمـا الـذين اتبعـوه كـانوا أيضـا مسـئولين،و إلاّ ـ لمـا قـال عنهم ربّنا:«فأطاعوه»و لما قال عنهم:« إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ »فقـد أطاعوا فرعون فى باطله،لأنهم كانوا فاسـقين فى واقعهم، فاسـتحقّوا العذاب باختيارهم السىء.

[۵۵]لقد أغضبوا الربّ الرحمن بعنادهم على الجحود،و بلغ بهم فعلهم المشين درجه الأسف.

فَلَمّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ إنّ اللّه لا يتأسّف،و لكنّ الواقع واقع يبعث على الأسف،و اللّه يفعل ما ينبغى أن يفعله من يأسف،كما أنّ أولياء اللّه الذين رضاهم رضى اللّه و سخطهم سخط اللّه يأسفون.

[۵۶] فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِينَ سلفا:مثالا يحتذى بهم،و مثلا:عبره لمن يعتبر.

۱- ۱) نهج البلاغه/ح(۱۹۲)ص(۲۹۱-۲۹۲)-صبحى الصالح.

[سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۵۷ الى ۶۶]

اشاره

وَ لَمّا ضُرِبَ اِبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُکَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (۵۷) وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَکَ إِلاّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (۵۸) إِنْ هُوَ إِلاّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (۵۹) وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْکُمْ مَلائِکَةً فِي اَلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (۶۰) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ اِتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لا يَصُدَّنَّکُمُ اَلشَّيْطانُ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۲) وَ لَمّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُکُمْ بِالْحِکْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَکُمْ بَعْضَ اَلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اَللّهَ وَ أَطِيعُونِ (۶۳) إِنَّ اَللّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۴) فَاخْتَلَفَ اَلْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۶۵) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ اَلسّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۶۶)

ص:۴۹۷

وَ لاٰ یَصُدَّنَّکُمُ الشَّیْطٰانُ

هدی من الآیات:

تتوالی آیات الدرس تبصرنا بشرف الرساله،و هوان الدنیا،لکی نبنی تجمّعنا علی أساس الوحی لا المتاع الزائل،و ابن مریم آیه فی شرف الزهد فی الدنیا،و مثل أعلی لبنی إسرائیل فی الرغبه عن زخرف الحیاه،و قد أمعن عبید الدنیا من الیهود و من تأثّر بهم من الجاهلیّین العرب فی الصدّ عنه،و عن سبیله المستقیم،و نهض الرسول لردّ الشبهات التی بثّوها حوله،لکی تتکرّس فی الأمه قیاده الحق،و قیم الرساله المتمثّله فی موسی و عیسی و محمّد-صلی اللّه علیهم-و من مضی علی سبیلهم کالإمام علی و أهل بیت الرسول-علیهم السّلام-و المنتجبین من أصحابهم.

کذلک نجد سوره الزخرف تضرب لنا المثل العالیه من حیاه أولی العزم من الرسل باستثناء نوح علیه السلام ،لأنّ السوره تبصّرنا أساسا بقیاده أصحاب الرسالات، و تحرّضنا ضد قیاده أولی القوّه و الثروه.

و الجاهلیّون الذین منعهم تعصّبهم الأعمی عن الإیمان بعیسی کانوا یتساءلون:

ءآلهتنا خير أم هو؟و هم يعلمون مقام عيسى،و لكنّهم إنّما جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.

ثم يتابع السياق حديثه عن عيسى-عليه السلام-الذى جعله اللّه مثلا لبنى إسرائيل،فيقول:(إنّ أعظم فضائله كانت فى عبوديّته للّه!)فهو عبد أنعم اللّه عليه،و كانت دعوته الى اللّه الواحد(كما دعوه كلّ الرسل)و إنّما جاء ليعلّم بنى إسرائيل الحكمه،و يفصل بين خلافاتهم،و لكنّهم عادوا و اختلفوا فيه،فويل للظالمين من عذاب أليم.

و يختم الدرس بالإنذار من الساعه التى تأتيهم بغته و هم لا يشعرون.

بينات من الآيات:

[۵۷]يتّبع القرآن الحكيم منهجا رائعا حين يفصّل القول فى موضوعه هامه عبر سوره واحده أو سور شتّى،ثم يجمله مشيرا إلى ذلك التفصيل،و هكذا ينبغى أن يتّبع المتدبّر منهج النظره الشموليّه الذى أشارت إليه النصوص،بأن يفسّر بعض القرآن ببعضه،و يعيد متشابهاته الى محكماته،و لا يجعل القرآن عضين يأخذ ببعضه و يترك بعضا.

و هنا يجمل القرآن حديثه عن النبى عيسى-عليه السلام-كما جعله مثلا يحتذى لبنى إسرائيل،كما ضرب مثلا للعرب لعلّهم به يهتدون إلى نوع القياده الذى أمروا باتباعه.

لقد رفع اللّه شأن ابن مريم حين خلقه من غير أب،و جعله يكلّم الناس فى المهد صبيّا،و آتاه الكتاب و الحكمه،و جعله مباركا.

و لقد أكرمه اللّه بالزهد فى الدنيا،و الخلق الرفيع،و تلك هى قيم الوحى الحق،

و ليس المال و الجاه و ما أشبه.

و كان يكفى العرب هدى مثال عيسى،فرساله النبى محمد صلى الله عليه و آله و رساله أخيه عيسى عليه السلام واحده،و زهده فى الدنيا،و خلقه العظيم،و معالم شخصيته،كلّها متشابهه و معالم شخصيه ابن مريم،و لكنّ قريشا صدّت عن هذا المثل السامى.

لماذا؟ أوّلا:لأنّهم لم يؤمنوا بتلك القيم العليا التى مثّلها عيسى-عليه السلام- بشخصيته و دعوته،فهم عبدوا آلهه تمثّل الشهوات و الأمانى الزائله، و زيّنها قرناؤهم من شياطين الجنّ و الإنس فى أعينهم،حتى قالوا:ءآلهتنا خير أم هو؟! ثانيا:لأنّ إيمانهم بعيسى بن مريم عليه السلام مثال الفضائل(و الذى قد فرض نفسه على وجدانهم و فطرتهم بالرغم منهم)كان يدعوهم الى الإيمان بالنبى محمد صلى الله عليه و آله لأنّهما على نهج واحد،فصدّوا عن ذاك ليصدّوا عن هذا.

ثالثا:و لعلّ قريشا تأثّرت بالدعايه السلبيه التى بثّها اليهود حول النبى عيسى -عليه السلام-،و يبدو أنّ من أبعاد رساله النبى صلى الله عليه و آله فى قومه إحياء ذكر إخوته الأنبياء الكرام-عليهم السلام-لا سيّما أنبياء بنى إسرائيل الذين ربما منعت عصبيه العرب من قبولهم،و بالذات عيسى-عليه السلام-الذى تعرّض للإعلام المضادّ من قبل اليهود بالإضافه الى كونه من بنى إسرائيل.

وَ لَمّٰا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً أى بيّن القرآن كما الرسالات السابقه و اتباعها مثال عيسى عليه السلام فى زهده و خلقه و آياته ليهتدى به العرب الى رسولهم الكريم،و الى أوصيائه الذين يجسّدون نهجه.

إِذٰا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ

ص:۵۰۰

فلاـ يؤمنون به مع أنّ شخصيته أسمى من كلّ ريب،و لعل كلمه«يصدّون» أشربت معنى الصدّ عن سبيل اللّه،و قال بعضهم:إنّ معناها يضجّون، من الصديد و هو الجلبه،فيكون تفسيرها:يثيرون الضجيج و اللغط حول هذه الشخصيه من الأفكار السلبيه لكى لا يؤمنوا بعيسى عليه السلام ،و قد سمّى القرآن أفكار الضالّين باللغو فى آيات أخرى،كقوله سبحانه: وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ (١).

و قد طبّقت نصوص أهل البيت-عليهم السلام-هذه الآيه على أمير المؤمنين -عليه السلام-لأنّه كما جاء فى أحاديث عديده عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه شبيه عيسى بن مريم عليه السلام .

و لاـ ريب أنّ عليّا-عليه السلام-كان مثالا للقياده الربّانيه التى تمثّل قيم الوحى،كما كان النبى عيسى بن مريم عليه السلام ،كما أنّ عليّا-عليه السلام-غالى فيه قوم حتى قالوا فيه مثلما قالت النصارى فى عيسى بن مريم،و قلاه آخرون حتى ساووه بمعاويه،و اقتصد فيه الصالحون.

فى الحديث عن أهل البيت-عليهم السلام-عن الإمام على عليه السلام قال :

«جئت الى النبى(صلّى اللّه عليه و آله)يوما فوجدته فى ملأـ من قريش،فنظر إلىّ ثم قال:يا على إنّما مثلك فى هذه الأمه كمثل عيسى بن مريم أحبّه قوم و أفرطوا فى حبّه فهلكوا،و أبغضه قوم فأفرطوا فى بغضه فهلكوا،و اقتصد فيه قوم فنجوا.

فعظم ذلک عليهم،و ضحكوا،فنزلت الآيه » (٢).

و للآيه تفسير آخر مستوحى من نصّ ورد فى نزول الآيه،نذكره فيما يلى،علما

١- ١) فصّلت/(٢۶).

٢- ٢) جوامع الجامع-الطبرسى/ج(٢)ص(٥١٧).

بـأنّ تطبيق القرآن على موارد نزول آياته لا يعنى تحديـده بها،فللقرآن أبعاد مختلفه و بطون شتّى تجرى عليها جميعا الآيات كما تجرى الشمس على السهول و الجبال.

روى أنّـه لمـا نزلـت هـذه الآـيه: إِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهٰا وٰارِدُونَ (۱)قال أحد مشـركى قريش و هـو(عبـد اللّه ابن الزعـبرى):هـذا خـاصّه لنـا و لآلهتنـا أم لجميـع الأـمم؟فقـال الرسـول صـلى الله عليه و آله :«بـل لجميـع الأـمم» فقـال:خصـمتك و رب الكعبـه،أ لسـت تزعـم أنّ عيسـى بـن مريـم نـبى،و تثنى عليـه خيرا و على أمّـه،و قـد علمت أنّ النصـارى يعبدونهما،و اليهود يعبدون عزيرا، و الملائكه يعبدون،فإذا كان هؤلاء فى النار فقد رضـينا أن نكون نحن و آلهتنا معهم، فسـكت النبى-صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم-و فرح القوم،و ضـحكوا،و ضـجّوا،فأنزل اللّه تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنىٰ أُولٰئِكَ عَنْهٰا مُبْعَدُونَ (۲).

[۵۸] وَ قٰالُوا أَ آلِهَتُنٰا خَيْرٌ أَمْ هُوَ هـل آلهتنـا خير أم عيسـى؟ إنّهم زعموا أنّ آلهتهم خير من عيسـى لأنّهـا تمثّـل الـثروه و القوّه و التقاليد المتوارثه، بينما عيسى-عليه السلام-مثال الزهد و الطهر و الفضيله.

و هم يعرفون أنّ عيسى خير من آلهتهم،و لكنّهم لا يريدون الإذعان بهذه الحقيقه التى تنسف أساس بنيانهم الجاهلى.

مٰا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاّٰ جَدَلاً لأنّ فطرتهم تهديهم إلى سموّ عيسى بعلمه و رسالته و بأخلاقه و فضائله عن آلهه

ص:۵۰۲

۱- ۱) الأنبياء/(۹۷).

۲- ۲) الأنبياء/(۱۰۱).

تمثّل شهواتهم و عصبيّاتهم التافهه.

بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ كلّما ابتعدت أمّه عن قيم الوحى كلّما ازدادت حاجتها النفسيه الى الخصام و الجدال،أو ليس الإنسان يمارس الجدال من أجل دحض الحق،كما قال ربنا:

وَ جٰادَلُوا بِالْبٰاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ؟أو ليسوا قد هبطوا الى حضيض الباطل، فلا بدّ أن يبلغوا ذروه الخصام حتى يبتدعوا لكلّ حقّ باطلا يجادلون به لدحض الحق.

هكذا

قال الرسول(صلّى اللّه عليه و آله) :

«ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلاّ أوتوا الجدال،ثم تلا هذه الآيه » (۱).

و حسب بعض التفاسير أنّ معنى الآيه:إنّ القوم قالوا ما دام عيسى ابن مريم فى النار-لأنّه يعبد من دون اللّه-فلا بأس أن تكون آلهتهم أيضا فى النار و هم معها، و لكنّهم كانوا يعلمون أنّ عيسى ليس فى النار،لأنّه لم يكن راضيا عن عبادتهم له،و لم يكن يدعو أحدا إلى عباده أحد غير اللّه،فما كان مثلهم بعيسى إلاّ جدلا.

[۵۹]و إبطالا لجدالهم بيّن اللّه أنّ عيسى لم يكن إلها كما اتخذه النصارى، و لم يدع الرسول الناس الى نفسه أن يعبد من دون اللّه،إنّما كان عيسى عند القرآن عبدا مخلوقا،و إنّما كان يميّزه عن الآخرين نعمه الوحى الذى أنزل عليه.

إِنْ هُوَ إِلاّٰ عَبْدٌ أَنْعَمْنٰا عَلَيْهِ حيث انتخبه اللّه لرسالاته.

۱- ۱) تفسير فتح القدير/ج(۴)ص(۵۶۴).

وَ جَعَلْنٰاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرٰائِيلَ ليقتدوا به،حيث أنّ الرسول-أي رسول-يجسّد المكرمات،فيأمر اللّه باتخاذ سنّته منهجا.و لقد فشت الماديه فى بنى إسرائيل،و فرّغت الرساله من روحها و قيمها و أهدافها المباركه،فكان عيسى بن مريم-عليه السلام-مثلا لبنى إسرائيل فى الزهد و الخلق الرفيع.هكذا

يصف أمير المؤمنين-عليه السلام-أخاه عيسى بن مريم حين يقول :

«و إن شئت قلت فى عيسى بن مريم عليه السلام،فلقد كان يتوسّد الحجر، و يلبس الخشن،و يأكل الجشب و كان إدامه الجوع،و سراجه باللّيل القمر، و ظلاله فى الشتاء مشارق الأرض و مغاربها،و فاكهته و ريحانه ما تنبت الأرض للبهائم،و لم تكن له زوجه تفتنه،و لا ولد يحزنه،و لا مال يلفته،و لا طمع يذلّه، دابّته رجلاه،و خادمه يداه » (1).

[۶۰]و اللّه غنىّ عن طاعتهم،و لو شاء لأهلكهم،و أسكن مكانهم ملائكته الذين لا يعصون اللّه ما أمرهم،و هم إذ يعصونه بالشرك لا يخرجون عن إطار قدرته.

وَ لَوْ نَشٰاءُ لَجَعَلْنٰا مِنْكُمْ مَلاٰئِكَةً أى بدلا منهم.

فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ [۶۱]و مضى القرآن يكرم عيسى بن مريم،و يجعله من أشراط الساعه،حيث رفعه اللّه اليه،و ادّخره لآخر الزمان حيث يهبط من السماء،و يصلّى خلف المهدى

۱- ۱) نهج البلاغه/خطبه(۱۶۰)ص(۲۲۷).

المنتظر-علیه السلام-بعد ظهوره.

وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّٰاعَهِ

جاء فی النصوص المتظافره عن الرسول-صلّی اللّه علیه و آله-: «ینزل عیسی بن مریم فیقول أمیرهم:تعال صلّ بنا،فیقول:لا.إنّ بعضکم علی بعض أمراء تکرمه من اللّه لهذه الأمّه» (۱) فَلاٰ تَمْتَرُنَّ بِهٰا أی فلا تشکّوا،و إنّما یشک الإنسان حین یجعل علمه جهلا بالتکاسل عن العمل،کما

قال الإمام أمیر المؤمنین-علیه السلام -:«لا تجعلوا علمکم جهلا، و یقینکم شکّا، إذا علمتم فاعملوا،و إذا تیقّنتم فأقدموا » (۲)و لعلّ الحکمه فی التأکید علی النهی من الشک هی أنّ الحقائق العظمی تحمّل الإنسان مسئولیه کبیره،و لکی تهرب النفس منها تستجیر بالشک و الارتیاب:من یقول أنّ الساعه قائمه،و من یقول أنّ الناس یبعثون..

و عیسی-علیه السلام-کان کلّ شیء فیه دلیلا علی الساعه،فقد ولد من غیر أب،ثم رفع الی السماء دلیلا علی قدره اللّه التی لا تحدّ،ثم انّه کان دائم التذکره بالآخره،و قد اتخذ من الزهد فی الدنیا منهجا لحیاته،و محورا لدعوته.

وَ اتَّبِعُونِ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِیمٌ

۱- ۱) نور الثقلین/ج(۴)-ص(۶۱۱)نقلا عن مجمع البیان ثم قال:أورده مسلم فی الصحیح و فی حدیث آخر:کیف أنتم إذا نزل فیکم ابن مریم و إمامکم منکم.

۲- ۲) نهج البلاغه/حکمه(۲۷۴)ص(۵۲۴).

و اتباع الرسول دليل الإيمان بالساعه،فمن أيقن بها و فكّر كيف ينقذ نفسه من ويلاتها،فسوف لا يجد صراطا مستقيما الى الجنه و الرضوان غير رساله الرسول و حسن اتباعه فيها.

و«هذا»إشاره الى رساله اللّه المتمثّله فى القرآن.

[۶۲] وَ لاٰ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطٰانُ فيجعل بينكم و بين الصراط المستقيم حواجز التكبّر،و العزّه بالإثم،أو حواجز الدم و اللغه..و هكذا،و قد تكون نفسك أو صديقك أو حتى زوجتك هم شيطانك الذى لا يفتأ يصدّك عن الصراط المستقيم.

إنّ الشيطان و ما فتأ حتى الآن يجعل بينك و بين الرسل أو من يخلّفه حواجز من التهم و الشائعات و الشبهات،و هكذا تجد أجهزه الطاغوت يلمّعون الوجوه الخبيثه، و يشوّهون صور الرسل و الشخصيات الرساليه.

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ فقد يأتى إليكم بصفه الناصح،و هو لكم عدو مبين،و هو يمكر و يكيد و يزيّن و يغرّ،و يأتى الإنسان من بين يديه و من خلفه،و بالتالى إنّه قد عقد العزم على إغواء أبناء آدم،

جاء فى الحديث :«إنّ الشيطان يسنّى لكم طرقه،و يريد أن يحلّ دينكم عقده عقده،و يعطيكم بالجماعه الفرقه،و بالفرقه الفتنه،فاصدفوا عن نزعاته و نفثاته » (۱).

[۶۳] وَ لَمّٰا جٰاءَ عِيسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَهِ

ص:۵۰۶

۱- ۱) نهج البلاغه/خ(۱۲۱)ص(۱۷۸).

و هو جوهر الرساله،الـذى يصـدّقه عقـل الإنسـان و فطرته..و رأس الحكمه توحيـد اللّه،و مخـافته،و التوكّل عليه،و التحابب فيه،و الإحسان الى الناس ابتغاء رضوانه،و هذه هى وصايا الأنبياء(عليهم السلام)و بالذات النبى عيسى بن مريم -عليه السلام-

فلقد جاء فى بعض مواعظه :

«بحقّ أقول لكم:إنّ أرواح الشياطين ما عمّرت فى شىء ما عمّرت فى قلوبكم،و إنّما أعطاكم اللّه الدنيا لتعملوا فيها للآخره،و لم يعطكموها لتشغلكم عن الآخره،و إنّما بسطها لكم لتعلموا أنّه أعانكم بها على العباده،و لم يعنكم بها على الخطايا.

بحقّ أقول لكم:إنّ الأجر محروص عليه،و لا يدركه إلاّ من عمل له.

بحقّ أقول لكم:إنّ الشجره لا تكمل إلاّ بثمره طيّبه،كذلك لا يكمل الدّين إلاّ بالتحرّج عن المحارم.

بحقّ أقول لكم:إنّ الزرع لا يصلح إلاّ بالماء و التراب،كذلك الإيمان لا يصلح إلاّ بالعلم و العمل.

بحقّ أقول لكم:إنّه لا يجتمع الماء و النار فى إناء واحد،كذلك لا يجتمع الفقه و الغى(و فى نسخه:و العمى)فى قلب واحد.

بحقّ أقول لكم:إنّ النفس(الشـمس)نور كلّ شـىء،و إنّ الحكمه نور كلّ قلب،و التقوى رأس كلّ حكمه،و الحقّ باب كلّ خير،و رحمه اللّه باب كلّ حق،و مفاتيح ذلك الدعاء و التضرّع و العمل،و كيف يفتح باب من غير مفتاح » (١).

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ج(١۴)ص(٣١۶)نقلا عن تحف العقول.

و يبدو أنّ عيسى-عليه السلام-بعث لتصحيح مسيره المؤمنين بالتوراه،

و لقد أجمل الإمام الصادق-عليه السلام-شريعه عيسى حين قال :

«كان بين داود و عيسى بن مريم أربع مأه سنه،و كان شريعه عيسى أنّه بعث بالتوحيد و الإخلاص و بما أوحى به نوح و إبراهيم و موسى،و أنزل عليه الإنجيل، و أخذ عليه الميثاق الذى أخذ على النبيّين،و شرع له فى الكتاب:إقامه الصلاه مع الدين،و الأمر بالمعروف،و النهى عن المنكر،و تحريم الحرام،و تحليل الحلال، و أنزل عليه فى الإنجيل مواعظ و أمثال،و ليس فيها قصاص،و لا احكام حدود، و لا فرض مواريث،و أنزل عليه تخفيف ما كان نزل على موسى فى التوراه،و هو قول اللّه فى الذى قال عيسى بن مريم لبنى إسرائيل: وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِی حُرِّمَ عَلَيْكُمْ و أمر عيسى من معه ممن اتبعه من المؤمنين أن يؤمنوا بشريعه التوراه و الإنجيل » (۱).

وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فقد جاء عيسى-عليه السلام-ليرفع الاختلاف الكبير الذى كان قد دبّ فى بنى إسرائيل حتى بلغ دينهم فتفرقوا مذاهب شتّى،و أبرزها أربع:

الأولى:طائفه الصدوقيين من أولاد هارون،الذين توارثوا الولايه على الهيكل منذ عهد داود و سليمان،و اهتمّوا بالقشور و شكليّات الطقوس،و أضاعوا القيم فتراهم يرتكبون الموبقات ثم يأخذون على غيرهم استخفافهم ببعض الطقوس.

الثانيه:طائفه الفريسيين،حيث عزفوا عن الدنيا،و مالوا الى التصوّف، و ترفّعوا على الناس،و اغتروا بما لديهم من زهد و معرفه.

ص:۵۰۸

۱- ۱) المصدر/ص(۲۳۴).

الثالثه:السامريين نفوا الكتب التى أضيفت الى الكتب الموسويّه فى العهود المتأخره.

الرابعه:طائفه الآسين و قد تأثّروا ببعض المذاهب الفلسفيه (۱).

و قد جاء عيسى بن مريم ينفى كلّ هذا التكلّف فى الدين،و يعيد الناس الى عباده ربّهم الواحد،و يأمرهم بالاهتمام بروح الدين و ليس حدوده فقط،فقال فيما قال:

«أيّها القاده العميان الذين يحاسبون على البعوضه،و يبتلعون الجمل!!إنّكم تنقّون ظاهر الكأس و الصفحه،و هما فى الباطن مترعان بالرجس و الدعاره،ويل لكم أيّها الكتبه و الفريسيّون المراؤون.إنّكم كالقبور المبيضّه،خارجها طلاء جميل،و داخلها عظام نخره» (۲).

و خاطب الجماهير،و تحدّث عن العلماء الفجّار،قائلا:

بحقّ أقول لكم:إنّ شر الناس لرجل عالم آثر دنياه على علمه،فأحبّها و طلبها،و جهد عليها حتى لو استطاع أن يجعل الناس فى حيره لفعل،و ماذا يغنى عن الأعمى سعه نور الشمس و هو لا يبصرها،كذلك لا يغنى عن العالم علمه إذا هو لم يعمل به.ما أكثر ثمار الشجره،و ليس كلها ينفع و يؤكل،و ما أكثر العلماء،و ليس كلّهم ينتفع بما علم،و ما أوسع الأرض،و ليس كلّها تسكن،و ما أكثر المتكلّمين،و ليس كلّ كلامهم يصدق،فاحتفظوا من العلماء الكذبه الذين عليهم ثياب الصوف،منكّسوا رؤوسهم الى الأرض،يزوّرون به الخطايا،

ص:۵۰۹

۱- ۱) فى ظلال القرآن،بتصرّف و إيجاز/ص(۳۴۸-۳۴۹)نقلا عن«عبقريه المسيح»للعقاد/الطبعه السابعه-دار احياء التراث العربى.

۲- ۲) المصدر.

یطرفون من تحت حواجبهم کما ترمق الذئاب،و قولهم یخالف فعلهم،و هل یجتنی من العوسج العنب،و من الحنظل التین؟! (۱).

فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ إذ أنّ الفلاح لا یکون إلاّ بتقوی اللّه،و طاعه رسوله.

[۶۴] إِنَّ اللّٰهَ هُوَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ أستوی أنا و أنتم عنده،فهو ربی و ربکم،و لست بربّکم،أو ابن ربّکم.

فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِیمٌ الصراط المستقیم أن تسقط فی ذاتک عباده الأولیاء أو عباده الأصنام،أنّی کانت حجریه أم بشریه،و تعبد اللّه وحده.

[۶۵] فَاخْتَلَفَ الْأَحْزٰابُ مِنْ بَیْنِهِمْ اختلفوا فی عیسی علیه السلام ،منهم من جعله ثالث ثلاثه،و منهم من عاداه و أراد قتله،و منهم من آمن به و صدّقه،قال تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا أَنْصٰارَ اللّٰهِ کَمٰا قٰالَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ لِلْحَوٰارِیِّینَ مَنْ أَنْصٰارِی إِلَی اللّٰهِ قٰالَ الْحَوٰارِیُّونَ نَحْنُ أَنْصٰارُ اللّٰهِ فَآمَنَتْ طٰائِفَهٌ مِنْ بَنِی إِسْرٰائِیلَ وَ کَفَرَتْ طٰائِفَهٌ فَأَیَّدْنَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلیٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظٰاهِرِینَ (۲).

فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْ عَذٰابِ یَوْمٍ أَلِیمٍ

۱- ۱) بحار الأنوار/ج(۱۴)ص(۳۰۷).

۲- ۲) الصف/(۱۴).

و هذا الاختلاف على عيسى عليه السلام كان سببا للعذاب الأليم،لأنّه ظلم،و هكذا كلّ اختلاف فى الدين نابع من الأهواء.

[۶۶] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ لو مات الإنسان و هو قائم يصلى أو فى حاله عباده أخرى،فطوبى له و حسن مآب،أمّا لو كان يعمل الخبائث،أو يظلم الآخرين،فيا للخساره العظمى!إنّ ساعه الموت مصيريّه لا بدّ من أن نكون مستعدّين لها دائما،لأنّها تنزل بنا فى أيّه لحظه،و لذا نجد فى سوره مريم عليه السلام قوله: وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا و قوله: وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ،و قد قال يعقوب لبنيه: فَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱)،

و فى الدعاء: «اللّهمّ اجعل خير أعمالى خواتيمها،و خير أيّامى يوم ألقاك ».

ص:۵۱۱

۱- ۱) البقره/(۱۳۲).

[سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۶۷ الى ۷۷]

اشاره

اَلْأَخِلاّٰءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ اَلْمُتَّقِينَ (۶۷) يٰا عِبٰادِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اَلْيَوْمَ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۶۸) اَلَّذِينَ آمَنُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا مُسْلِمِينَ (۶۹) اُدْخُلُوا اَلْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْوٰاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (۷۰) يُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِصِحٰافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوٰابٍ وَ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِيهِ اَلْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ اَلْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (۷۱) وَ تِلْكَ اَلْجَنَّةُ اَلَّتِي أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷۲) لَكُمْ فِيهٰا فٰاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ (۷۳) إِنَّ اَلْمُجْرِمِينَ فِي عَذٰابِ جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ (۷۴) لاٰ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۵) وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا هُمُ اَلظّٰالِمِينَ (۷۶) وَ نٰادَوْا يٰا مٰالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنٰا رَبُّكَ قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ (۷۷)

اللغه

۷۰[تحبرون]:تسرّون فيها سرورا يظهر أثره على وجوهكم.

۷۱[بصحاف]:جمع صحفه،و هو الجام الذى يؤكل فيه الطعام.

۷۵[لا يفتّر]:لا يخفّف،من الفتور بمعنى التخفيف.

ص:۵۱۲

اُدْخُلُوا الْجَنَّهَ أَنْتُمْ وَ أَزْوٰاجُكُمْ تُحْبَرُونَ

هدی من الآیات:

تتركّز سوره الزخرف فی إبعاد الإنسان عن محوريه الماده،و بالذات فی العلاقات الاجتماعيه،و قد تلونا فی الآيه(۳۶)كيف أنّ الذی يعشو عن ذكر اللّه يقيض اللّه له شيطانا فهو له قرين،و هنا يبين القرآن أهميه الخلّه الربّانيه التی تمتدّ الی يوم القيامه حيث يخاطب عباد اللّه بألاّ خوف عليهم و لا هم يحزنون،و هم الذين آمنوا و أسلموا لربّهم،فيسرعون الی دخول الجنه هم و أزواجهم يحبرون.

و بعد أن يفصّل القول فی نعم الجنه يذكّرنا الربّ بأنّهم ورثوها بأعمالهم(ممّا يزيدهم نعمه الی نعمتهم)بينما المجرمون فی عذاب جهنم خالدين،لا يخفّف عنهم،و لا ترجی لهم النجاه،و هذه هی العاقبه التی اختاروها لأنفسهم بظلمهم، و عند ما طلبوا من مالك(الملك الموكّل بجهنم)أن يقضی اللّه عليهم(فيموتوا)يقول لهم مالك:إنّكم باقون هنا.

ص:۵۱۴

بينات من الآيات:

[۶۸-۶۷]يذكّرنا الربّ هنا بأمرين:

أوّلا-:بمحوريه التقوى فى الصداقه،لأنّها هى الباقيه حقّا،و فى يوم القيامه حيث يبحث كلّ واحد عن خليل يشفع له فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِينَ وَ لاٰ صَدِيقٍ حَمِيمٍ (۱)لا ينفع غير الأصدقاء فى اللّه فليس المطلوب صداقه كيفما اتفق،بل تلك الصداقه التى تمتدّ من الدنيا الى الآخره،الى أن يدخلا فى الجنه بسلام.

و فى مقابل هذه الصداقه هناك صداقه لا تتعدّى حدود الزماله أو المصلحه المشتركه،تنتهى بانتهاء الزماله أو المصلحه.إنّ هذه الصداقه ليست بالضروره سيئه إلاّ أنّها محدوده،و تقوم فى الغالب على أسس ماديه،و هى معرضه للاهتزاز و الزوال.

و هذا جانب من النظره الشامله الى الحياه فى الإسلام،التى تنظم حياه الإنسان و علاقاته على أساس التقوى،لا-على رمال متحرّكه،فالعلاقه الماديه عقيمه سواء كانت فى السياسه أو الإقتصاد أو الاجتماع.

ثانيا:بمنهجيه الآخره.إذا أردنا أن نعرف صحه فكره لا بد أن ننظر الى عاقبتها،و عاقبه الأمور تتجلّى فى الآخره بأظهر صورها،و علينا أن نجعل ذلك مقياسا لعملنا فى الدنيا،فما عاقبه التقوى إلاّ الجنه،و ما نهايه الخلّه الصالحه إلاّ الشفاعه و التقابل على سرر فى الجنه،قد نزع اللّه ما فى قلوبهم من غلّ،و هكذا فإنّ أىّ علاقه لا تنفع فى الآخره فهى ليست نافعه فى الدنيا أيضا،و إنّما أنت الذى تبنى لنفسك قصرا فى الجنه بعملك،أو تحجز لنفسك دركا فى النار(لا سمح اللّه)،

۱- ۱) الشعراء ۱۰۰/-۱۰۱

و الـدنيا صوره مصـغّره عن الآـخره،فـالظلم ظلمـات يوم القيـامه،و الغـل و الغش حيّات و عقارب فى النار،و النظره الحرام نار فى العين يوم القيامه،و الكذب عقرب تلدغ اللسان.

و ربّنا سبحانه يوزّع مشاهد القيامه على سور القرآن توزيعا ينسجم و موضوعاتها، فإذا كانت سوره الزخرف تتحدّث عن علاقات الإنسان الماديه تجد فيها ما يتناسب و هذا الموضوع،مثل نهايه العلاقات فى الآخره،و إنّما يتحدث القرآن الكريم عن الآخره قبل و بعـد كـلّ بصـيره يبيّنهـا،لأـنّ النفس لو تركت من دون التـذكره بالآخره لطغت و لتجبّرت،و لم تنتفع بالبصائر،و لا كيف كانت عاقبتهمـا.تقول الروايه التـاريخيه:كـان عقبه بن أبى معيـط يجـالس النـبى صـلى الله عليه و آله فقـال قريش قـد صـبأ عقبه بن أبى معيط،فقال خليل له يسـمّى أميّه بن خلف:وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمّـدا و لم تتفل فى وجهه،ففعل عقبه ذلك،فنذر النبى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)قتله،فقتله يوم بدر جهدا،و قتل أميّه فى المعركه..قالوا فيهما نزلت هذه الآيه» (1).

ترى هـل كـانت عـاقبه عقبه هـذه السوءى لو لم تربطه بـأميّه تلك الخلّه القائمه على غير أساس إيمانى؟! اَلْأَخِلاّٰءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ بلى.لا بدّ للإنسان من صداقه،إذا فليبحث عمّن يهديه الى الحق،و يعينه على دينه و دنياه،هكذا

أمرنا الإمام الصادق عليه السلام:

«و اطلب مواخاه الأتقياء،و لو فى ظلمات الأرض،و إن أفنيت عمرك فى

ص:516

1- 1) راجع تفسير القرطبى/ج 16 ص 109.

طلبهم،فإنّ اللّه عزّ و جلّ لم يخلق أفضل منهم على وجه الأرض-بعد النبيّين صلوات اللّه عليهم-و ما أنعم اللّه على عبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبتهم » (۱).

و نجد فى النصوص الدينيه الكثير من الأحاديث حول الصداقه.كيف تكون فى اللّه؟و ما هى علامات الأخلّاء المتقين؟و ما هى حدود التعاون بينهم؟و ما هى الحقوق المتبادله بينهم؟كلّ ذلك لتنظّم حلقات المجتمع الإسلامى رصينه مباركه،و تتنامى روح التعاون بينهم فى كافّه الحقول،فى السلم كما فى أيّام المقاومه ضد الغزاه و الطغاه،حين تقوم طلائع حزب اللّه قياما واحدا للّه،لمحاربه أعداء اللّه،و من أجل تطبيق حكم اللّه فى الأرض،عندئذ يحتاجون الى قيم تنظيميّه و برامج للتعاون،فلا يجدون أفضل من هذه النصوص التى تغنينا عن الكثير من الأساليب التنظيميه التى يستوردها البعض من هنا و هناك.

بلى.الحكمه ضالّه المؤمن يأخذها أنّى وجدها،و إنّ تجارب الآخرين فى تنظيم المقاومه ضد الغزاه و الطغاه هى ثروه إنسانيه مشتركه لا بأس بالانتفاع بها،و لكن بشرطين:أوّلا:أن نبنى تنظيما على أسس إسلاميه طاهره،اعتمادا على الزخم الهائل من بصائر الآيات و الأحاديث التى وردت فى ذلك،ثانيا:أن نهذّب ما نستفيده من تجارب الآخرين بما لدينا من قيم و تعاليم.

و إنّ البحث عن الخليل الإيمانى صعب،و هام فى ذات الوقت،و لذلك نجد التحريض عليه شديدا،و يكفينا هنا الحديث التالى ناصحا فى هذا الحقل:

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى الخليلين المؤمنين،و الخليلين الكافرين:

ص:۵۱۷

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۴ ص ۶۱۳.

«فأمّا الخليلان المؤمنان فتخالاّ في حياتهما في طاعه اللّه تبارك و تعالى،و تباذلا عليها،و توادّا عليها،فمات أحدهما قبل صاحبه،فأراه اللّه منزلته في الجنه، يشفع لصاحبه فيقول:يا ربّ خليلي فلان كان يأمرني بطاعتك،و يعينني عليها، و ينهاني عن معصيتك،فثبّته على ما ثبّتني عليه من الهدى حتى تراه ما أريتني فيستجيب اللّه له حتى يلتقيا عند اللّه عزّ و جل،فيقول كلّ واحد منهما لصاحبه:

جزاك اللّه من خليل خيرا،كنت تأمرني بطاعه اللّه،و تنهاني عن معصيته.

و أمّا الكافران فتخالا بمعصيه اللّه،و تباذلا عليها،و توادّا عليها،فمات أحدهما قبل صاحبه،فأراه اللّه تبارك و تعالى منزلته في النار،فقال:يا ربّ خليلي فلان كان يأمرني بمعصيتك،و ينهاني عن طاعتك،فثبّته على ما ثبّتني عليه من المعاصي حتى تراه ما أريتني من العذاب،فيلتقيان عند اللّه يوم القيامه،يقول كلّ واحد منهما لصاحبه:جزاك اللّه من خليل شرّا،كنت تأمرني بمعصيه اللّه، و تنهاني عن طاعه اللّه » (1)يا عِبادِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ لا خوف عليهم من موقف يدوم خمسين ألف سنه،و لا خوف عليهم من النار، و لا حزن عندهم من التقصير في الدنيا،كلاّ..إنّهم لم يخسروا فرصهم في الدنيا حتى يحزنوا كما يحزن غيرهم.

[69] اَلَّذِينَ آمَنُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا مُسْلِمِينَ و لعلّ الإسلام هنا يعني التسليم للقياده الشرعيه.

[70] اُدْخُلُوا الْجَنَّهَ أَنْتُمْ وَ أَزْوٰاجُكُمْ تُحْبَرُونَ

ص:518

1- 1) المصدر ص 612

لقد كانوا يؤثّرون على أزواجهم و من يحيط بهم من عشيرتهم الأقربين عبر التربيه،و اليوم يجدون فائده هذا التأثير،فلا يفرّق بينهم و بين أزواجهم،كما أنّهم يشفعون لأزواجهم و من اتصل بهم فى الدنيا بعمل صالح أو علم نافع،إذ يدعون لهم فيستجاب لهم،و هذه حقيقه الشفاعه،أمّا سببها فهو تواصل الخيرات بين المؤمنين،فمن أخذ من أحد علما نافعا فى الدنيا استفاد فى الآخره،و من اتبع إمام هدى انتفع بشفاعته،و من خدم أهل الصلاح لصلاحهم شفعوا له عند ربّهم، و هكذا.

و

قد ورد فى الروايات أنّ المؤمن إذا ادخل الجنه يسمح له بأنّ يدخل معه من يريد، و

فى بعض الروايات أنّ المؤمن يشفع فى مثل ربيعه و مضر،و أنّ المؤمن ليشفع فى صديقه إذا مات قبله و أدخل الجنه.

و الحبور هو السرور و البهجه لانتهاء العناء،و قال البعض:إنّه لذه السماع، و إذا جعلنا معنى الحبر الكرامه فإنها تعنى سموّا فى المقام،و فرحا فى القلب، و سرورا فى العين،و لذّه فى السماع،و زينه و طيبا.

[٧١] يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ وَ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ دخول الجنه هو يوم عيد المؤمنين،ففى الجنه يطاف على المؤمنين بصحاف الذهب و أكواب كانت قواريرا،و فى الجنه ما تشتهيه الأنفس من أنواع الملذّات، فمن الحور الى الغلمان الى صنوف الأكل و الرحيق و السندس،و ما تلذّ الأعين، فكلّ شيء جميل و جذّاب،و قد أجمل القول لأنّ التفصيل فوق مستوى عقولنا نحن البشر.

و قد جاءت فى تفسير الآيه أحاديث بحرمه اتخاذ أوانى الذهب و الفضه،لأنّهما

کرامه للمؤمن فی الآخره.قالوا:الصفحه ما تتسع لإطعام خمسه،أما الکوب فقالوا:إنّه الکوز بلا عروه.

وَ أَنْتُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ لا خوف من الموت،و لا من التحوّل الی النار.

[۷۲] وَ تِلْکَ الْجَنَّهُ الَّتِی أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ یدخل اللّه المؤمنین الجنه بما عملوا،فالجنه لیست بالتمنّی و لکن بالسعی و الجد و العمل،و لیس أیّ عمل،کلاّ..إنّما العمل الخالص للّه،و لعلّ کلمه الوراثه هنا تشبه کلمه الشکر التی تقال لمن عمل صالحا،و هو یورث بهجه روحیه ..و قلّما یحدّثنا القرآن عن النعم المادیه فی الجنه أو فی الدنیا إلاّ و یشفعها ببیان النعم المعنویه التی هی أعمق لذّه و أدوم سرورا.

[۷۳] لَکُمْ فِیهٰا فٰاکِهَهٌ کَثِیرَهٌ مِنْهٰا تَأْکُلُونَ الفاکهه هی ما یأکل الإنسان تفکّها و لیست هی الغذاء الأساسی.إنّها فاکهه کثیره یأکل المؤمنون منها،للتنعّم و اللّذه،و لیس للحاجه و الضروره.

[۷۴]و فی مقابل المؤمنین هناک المجرمون.

إِنَّ الْمُجْرِمِینَ فِی عَذٰابِ جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ فالإجرام سبب للخلود،إذ لیست کلّ الذنوب تؤدّی الی الخلود فی عذاب جهنم.

[۷۵] لاٰ یُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِیهِ مُبْلِسُونَ

ص:۵۲۰

فلا أمل للمجرمين من الفكاك من العذاب حيث لا يخفّف عنهم،و هم مبلسون فيه لا يرجون الخلاص.

[۷۶]فهل ظلمهم اللّه حين أدخلهم هذا المصير؟كلا..

وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا هُمُ الظّٰالِمِينَ إذ بعث اللّه لهم أنبياء،و تعاهدهم بالنعم،و أمهلهم بأن أعطاهم الفرصه بعد الفرصه،و حين يأخذهم الجليل بالعذاب،و يكبّهم فی النار،فهل هو ظالم لهم؟! كلا..

و لا بد أن نتلوا هذه الآيات و كأنّنا المعنيّون بها حتى ننتفع بها.

[۷۷] وَ نٰادَوْا يٰا مٰالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنٰا رَبُّكَ قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ

جاء فی الحديث :«إنّ أهل النار إذا دخلوها،و رأوا نكالها و أهوالها،و علموا عذابها و عقابها،و رأوها كما قال زين العابدين عليه السلام :«ما ظنّك بنار لا تبقى على من تضرّع إليها،و لا يقدر على الخفيف عمّن خشع لها،و استسلم إليها،تلقى سكّانها بأحرّ ما لديها من أليم النكال و شديد الوبال»يعرفون أنّ أهل الجنه فی ثواب عظيم،و نعيم مقيم،فيؤمّلون أن يطعموهم أو يسقوهم ليخفّف عنهم بعض العذاب الأليم،كما قال اللّه عزّ و جلّ جلاله فی كتابه العزيز: وَ نٰادىٰ أَصْحٰابُ النّٰارِ أَصْحٰابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنٰا مِنَ الْمٰاءِ أَوْ مِمّٰا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ قال:فيحبس عنهم الجواب أربعين سنه،ثم يجيبونهم بلسان الاحتقار و التهوين: إِنَّ اللّٰهَ حَرَّمَهُمٰا عَلَى الْكٰافِرِينَ قال:فيرون الخزنه عندهم و هم يشاهدون ما نزل بهم من المصاب فيؤمّلون أن يجدوا عندهم فرجا بسبب من الأسباب، كما قال اللّه جلّ جلاله: وَ قٰالَ الَّذِينَ فِي النّٰارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنّٰا يَوْماً مِنَ

الْعَذٰابِ قال:فيحبس عنهم الجواب أربعين سنه،ثم يجيبونهم بعد خيبه الآمال: قٰالُوا فَادْعُوا وَ مٰا دُعٰاءُ الْكٰافِرِينَ إِلاّ فِى ضَلاٰلٍ قال:فإذا يئسوا من خزنه جهنّم،رجعوا الى مالك مقدّم الخزّان،و أمّلوا أن يخلّصهم من ذلك الهوان، كما قال جلّ جلاله: وَ نٰادَوْا يٰا مٰالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنٰا رَبُّكَ قال:فيحبس عنهم الجواب أربعين سنه و هم فى العذاب،ثمّ يجيبهم كما قال اللّه فى كتابه المكنون: قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ قال:فإذا يئسوا(يأملون)من مولاهم ربّ العالمين الذى كان أهون شىء عندهم فى دنياهم،و كان قد آثر كلّ واحد منهم عليه هواه مدّه الحياه،و كان قد قدّر عندهم بالعقل و النقل أنّه أوضح لهم على يد الهداه سبل النجاه،و عرّفهم بلسان الحال أنّهم الملقون بأنفسهم الى دار النكال و الأهوال،و أنّ باب القبول يغلق عن الكفّار بالممات أبد الآبدين،و كان يقول لهم فى أوقات كانوا فى الحياه الدنيا من المكلّفين بلسان الحال الواضح المبين:

هب أنّكم ما صدّقتمونى فى هذا المقال،تجوّزون أن أكون من الصادقين؟ فكيف أعرضتم عنى،و شهدتم بتكذيبى و تكذيب من صدّقنى من المرسلين؟! و هلا تحرّزتم من هذه الضرر المحذّر الهائل؟أما سمعتم بكثره المرسلين،و تكرار الرسائل؟ثم كرّر جلّ جلاله مرافقتهم فى النار بلسان المقال فقال: أَ لَمْ تَكُنْ آيٰاتِى تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهٰا تُكَذِّبُونَ فقالوا: رَبَّنٰا غَلَبَتْ عَلَيْنٰا شِقْوَتُنٰا وَ كُنّٰا قَوْماً ضٰالِّينَ رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْهٰا فَإِنْ عُدْنٰا فَإِنّٰا ظٰالِمُونَ فيقفون أربعين سنه ذلّ الهوان لا يجابون،و فى عذاب النار لا يكلّمون،ثم يجيبهم اللّه جلّ جلاله:

اِخْسَؤُا فِيهٰا وَ لاٰ تُكَلِّمُونِ قال:فعند ذلك ييأسون من كلّ فرج و راحه، و يغلق أبواب جهنّم عليهم،و يدوم لديهم مآتم الهلاك و الشهيق و الزفير و الصراخ و النياحه » (۱).

و

فى روايات أخرى: إنّ اللّه عند ما يقول لهم:إنّكم ها هنا ماكثون،يقولون

ص:۵۲۲

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۸/ص ۳۰۴

لمالك:ادع لنا ربّك أن يسمح لنا بالبكاء على أنفسنا،فبعد أربعين سنه يأتيهم الجواب من اللّه أن ابكوا،فيبكون.و هل البكاء آنئذ ينفعهم؟!كلا..نستجير باللّه من النار.

ص:۵۲۳

[سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۷۸ الى ۸۹]

اشاره

لَقَدْ جِئْنٰاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ (۷۸) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنّٰا مُبْرِمُونَ (۷۹) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنّٰا لاٰ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰاهُمْ
بَلىٰ وَ رُسُلُنٰا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (۸۰) قُلْ إِنْ كٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ اَلْعٰابِدِينَ (۸۱) سُبْحٰانَ رَبِّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ رَبِّ اَلْعَرْشِ
عَمّٰا يَصِفُونَ (۸۲) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّٰى يُلاٰقُوا يَوْمَهُمُ اَلَّذِي يُوعَدُونَ (۸۳) وَ هُوَ اَلَّذِي فِي اَلسَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِي اَلْأَرْضِ إِلٰهٌ وَ
هُوَ اَلْحَكِيمُ اَلْعَلِيمُ (۸۴) وَ تَبٰارَكَ اَلَّذِي لَهُ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلسّٰاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۵) وَ لاٰ
يَمْلِكُ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ اَلشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۸۶) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اَللّٰهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُونَ
(۸۷) وَ قِيلِهِ يٰا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۸۸) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلاٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۸۹)

اللغه

۷۹[أبرموا]:أحكموا،و حاكوا المؤامرات ضدّ الحق.

ص:۵۲۴

۸۸[و قيله]:أی قول الرسول.

ص:۵۲۵

وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّمٰاءِ إِلٰهٌ

اشاره

وَ فِی الْأَرْضِ إِلٰهٌ

هدی من الآیات:

ینذر القرآن الذین یعاندون الرساله،فلا یتبعون الحق،بأنّ عنادهم سوف یسلّط علیهم عذابا لن یحید عنهم.

و إذا عاند الإنسان الحق فإنّه سوف ینکر کلّ شیء حق بلا تورّع(و قد رأینا کیف أنّ بعض الفلاسفه فی التاریخ أنکر الوجود الذی هو أظهر و أجلی شیء عرفه البشر،فقالوا:إنّ ما نراه لا یعدو کونه خیالات).

ثم یبیّن ربّنا سفه ما یقوله المشرکون من أنّ للّه ابنا،و ذلک بأن یردّ علیهم الرسول صلی الله علیه و آله أنّه أوّل العابدین للّه،و أنّ کلّ شیء مخلوق للّه،و لیس من شیء قائم بذاته،إنّما اللّه القائم علی کلّ شیء،فلو لا أنّه یمسک السموات و الأرض لزالتا، و لئن زالتا إن أمسکهما من أحد من بعده!و کما فی التکوین کذلک فی التشریع، فلو أراد اللّه أن یفقر أحدا هل یغنیه أحد؟!أو أراد أن یضلّه هل یهدیه أحد؟!

و آخر الآيات تتحدّث عن اللّه الذى هو فى السماء إله و فى الأرض إله و هو الحكيم العليم،الذى له ملك السموات و الأرض و ما بينهما،و لا يحتاج الى ابن، و أنّنا إليه راجعون،و أنّ الذين يعبدون من دون اللّه لا يملكون شفاعه،فلن تشفع لهم الجنّه و لا الأصنام،و لكنّ الشفاعه عند من يكذّبون بهم من الرسل و الأنبياء.

و هؤلاء الذين يكذّبون بالرسل إنّما يكذّبون باللّه،و لئن سألتهم من خلق الخلق و خلقهم ليقولنّ اللّه.إنّهم يعترفون باللّه تكوينيّا،فهو الذى خلقهم و خلق كلّ الخلق،و لكن لا يؤمنون باللّه تشريعيّا،إذ أرسل إليهم الرسل،و أيّدهم بآياته،فما فائده إيمانهم بأنّ اللّه خالقهم،إذ لم يؤمنوا بأنّ اللّه هو الوحيد الذى يجب أن يشرّع، لأنّ شرعه سبحانه يتناسب مع أهداف الخلقه،و لا أقدر على التشريع إلاّ من خلقنا.

و أخيرا يحدّد السياق العلاقه المثلى مع هؤلاء القوم المتمثله فى العفو عنهم، و الدعوه الى السلام،و ترك أمرهم الى يوم القيامه.

بينات من الآيات:

[۷۸]إتماما للحديث عن النار،و عقب أن يردّ عليهم مالك بأنّهم ماكثون أبدا فى النار،يبيّن لهم سبب ذلك،قائلا:

لَقَدْ جِئْنٰاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ قال ابن عباس:إنّ المراد من الأكثر هنا هو الكل.و لعلّه فهم من الآيه أنّ عاده البشر هى كراهيه الحق إلاّ من عصمه اللّه،و نستلهم من ذلك أنّ على الإنسان أن يتجاوز فى ذاته هذه الكراهيه بعزم الإراده حتى يبلغ الحق،أمّا إذا استرسل مع هواه فسوف يقوده الى الباطل.

[۷۹]لا ينفع التحدّى و العناد شيئا،لا بدّ من التسليم و الطاعه،و إذا زعم الكافرون أنّهم قادرون على مواجهه الحق و أهله،بالكيد المتين،و العزم الشديد، و المكر الخفى،فليعلموا بأن اللّه أمتن كيدا،و أشدّ عزما،و هو خير الماكرين.

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنّا مُبْرِمُونَ إذا كانوا قرّروا أن لا يؤمنوا باللّه،فقد قرّرنا و أبرمنا أمرا،فكان أمرنا أنّهم فى النار خالدون،ماكثون فيها خاسئون،و الإبرام هو القرار الذى لا تراجع فيه أو تردّد.

[۸۰]بعد أن قهر اللّه كبرياءهم،بإنذارهم بنار جهنم،و تصوير ذلّهم و خزيهم،و ردّ طلباتهم حتى بالإعدام للنجاه من عذاب النار..و بعد أن أوصل ذلك بإنكار الحق و هدّدهم بأنّ تحدّيه لا يجديهم نفعا و انبأنا بأنّ كراهيه الحق حاله عامه و علينا معالجتها فى أنفسنا،بالخوف من عاقبه الكفر بالحق.

أقول بعد أن أسقط ربّنا هذه الحواجز التى تفصل البشر عن الإيمان بالحق، أخذ ينسف تبريرا يحتمى الى ظلّه الكفّار،حين يزعمون أنّهم قادرون على إخفاء كفرهم عن اللّه بالنفاق.

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ بَلى نسمع سرهم الذى يحدثون أنفسهم به فقط و نجواهم الذى يتحدثون به فى مجالسهم الخاصه.

وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ و ليس رسل اللّه يكتبون عليهم أعمالهم فقط،بل و هم«لديهم»عندهم

حاضرون و فی الروایات:ان الملائکه الکتبه تجلس فی حنک الإنسان،فما یلفظ من قول الا کان علیه رقیب عتید.

و لکی نقتلع جذور النفاق من أنفسنا فلیس أفضل من استشعار علم اللّه بالسر و النجوی.

جاء فی الدعاء :«إلهی و سیدی فأسألک بالقدره التی قدّرتها،و بالقضیه التی حتمتها و حکمتها،و غلبت من علیه أجریتها،أن تهب لی فی هذه اللیله، و فی هذه الساعه،کلّ جرم أجرمته،و کلّ ذنب أذنبته،و کلّ قبیح أسررته،و کلّ جهل عملته،کتمته أو أعلنته،أخفیته أو أظهرته،و کلّ سیئه أمرت بإثباتها الکرام الکاتبین،الذین وکلتهم بحفظ ما یکون منی،و جعلتهم شهودا علیّ مع جوارحی،و کنت أنت الرقیب علیّ من ورائهم،و الشاهد لما خفی عنهم، و برحمتک أخفیته،و بفضلک سترته » (۱)[۸۱]و عاد القرآن ینفی الشرک،و أن یکون للرحمن ولد،لکی لا یظنّ الإنسان أنّ بمقدوره الفرار من حکومه اللّه الی ظلّ الشرکاء،کلا...لیس أمام البشر إلاّ طریق واحد،هو طاعه اللّه،و تحمل مسئولیّاته.

ثم انّ سوره الزخرف تطهر قلب الإنسان من عباده الثروه و السلطه،بینما الشرک تجسید لهذه العباده،فالمشرکون أنّما عبدوا الأنداد لأنّهم زعموا أنّها رمز المال و البنین،و هکذا نجد السیاق فیها یدحض الأفکار الشرکیه،و یستجلی بصائر التوحید.

و من تلک الأفکار ما زعمته النصاری فی نبیّهم أنّه ابن اللّه،و قد بیّن القرآن إنّما هو عبد أنعم اللّه علیه،و لکی یحصّن القرآن المسلمین من الغلوّ فی دینهم،کما

۱- ۱) دعاء کمیل

فعلت الأمم السابقه،فإنّ هـذه الآيه تبيّن أنّ نبيّنا محمـدا(صـلّى اللّه عليه و آله) ليس إلاّ عبـدا للّه،بل هو أوّل العابـدين له،و كيف يكون العبـد ربّيا أو ولـدا للّه؟! قُـلْ إِنْ كٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعٰابِدِينَ و لا ريب أنّ محمـدا أعظم الأنبياء،فإذا كان هو أذلّ العابدين،فكيف يكون غيره ابنا للّه؟!تعالى اللّه عما يصفون.

و هكـذا نفت الآـيه الكريمه الشـريك عن اللّه ببلاـغه نافـذه، من هنا قال كثير من المفسّـرين:انّ كلمه«إن»هنا نافيه،و معناها:ليس للرحمن ولد.و يبدو أنّ معنى النفى مفهوم من مجمل تركيب الجمله،و ليس من كلمه«إن».

و روى السيوطى عن ابن عباس أنّه قال(فى الآيه):لم يكن للرحمن ولد، فأنا أوّل العابدين،و روى عن الحسن و قتاده أنّهما قالا:ما كان للرحمن ولـد فأنا أوّل العابـدين،قال:يقول محمـد:فأنا أوّل من عبد اللّه من هذه الأمّه،و روى عن مجاهد:قل إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أوّل العابدين،فأنا أوّل من عبد اللّه وحده و كذّبكم بما تقولون. (١)

و مثل هذا

روى عن الإمام أمير المؤمنين-عليه السلام-أنّه قال :« إِنْ كٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعٰابِدِينَ ،أى الجاحدين » (٢)و التأويل فى هذا القول باطنه مضاد لظاهره.

و يبدو أنّ الآيه تنفى أيضا الأسس الفاسده لنسبه الولد الى اللّه سبحانه،ذلك أنّهم زعموا أنّ الأعظم مالا يكون الأقرب الى اللّه،و تسقط عنه المسؤوليّات،

ص:۵۳۰

١- ١) الدّر المنثور/ج ۶ ص ٢۴

٢- ٢) نور الثقلين/ ج ۴ ص ۶١۶.

كلاـ.إذا كـانت الولاـده صـحيحه-و هى غير صـحيحه-فـإنّ الأقرب الى اللّه هو الرسول،و ليس أصـحاب المال،و نحن حين نرى أقرب الناس الى اللّه أشـدّهم خوفا منه،و أكثرهم عباده له،و أعظمهم تمسّـكا بالـدّين، فإنّنا نهتـدى ألاّ شـريك له،و لا يجوز لغير الرسول-بطريقه أولى-أن يتهرّب من المسؤوليه بدعوى أنّه ابن اللّه أو منتم الى ابن اللّه.

إنّ من أهمّ الدواعى الى الغلوّ فى الدّين،و ادّعاء الصله النسبيه بين ربّ العرش سبحانه و الأنبياء عليهم السلام(كعزير عند اليهود،و المسـيح عنـد النصارى) التهرّب من المسؤوليه،بـدعوى أنّ ابن اللّه ينجيهـم من عـذاب اللّه،و يفديهم بنفسه للخلاص من نقماته،و بدعوى أنّهم أولاد اللّه،بانتمائهم نسبيّا أو سببيّا الى اللّه.

ألم يزعم اليهود أنّهم أبنـاء اللّه و أحبّاؤه؟أو لم يتخـذوا من تلك العقيـده الفاسـده تبريرا لعـدوانهم على سائر الناس،و القول بأنّه ليس عليهم فى الأمّيين سبيل؟!كذلك زعم الجاهليّون العرب أنّ انتسابهم الى إبراهيم الخليل عليه السـلام يكفيهم فخرا،و من اللّه قربى! أو لـم يزعـم بعض المسـلمين أنّ مجرّد حبّهـم للرسـول و أهـل بيتـه(صـلّى اللّـه عليه و آله)و أصـحابه يغنيهم عن العمـل؟! كلاـ..ليس للرحمن ولـد،و الـدليل على ذلك أنّ الرسول هو أوّل العابـدين للّه، و إذا كان له ولد لم يكن أوّل من يعبد اللّه،ذلك الرسول الأقرب الى اللّه.

و الملائكه ليسوا أولاد اللّه،لأنّهم عباده المكرمون،لا يسبقونه بالقول،و هم بأمره يعملون.

و عيسى عليه السلام ليس ولد اللّه،لأنّه ليس إلاّ عبدا أنعم اللّه عليه.

ص:۵۳۱

و هذا التفسير يبدو لى واضحا و متفقا مع سائر الآيات،كما هو متفق مع تفسير الرعيل الأوّل من المفسّرين..بينما ذهب السّدّى و تبعه آخرون أنّ معنى الآيه:لو كان للرحمن ولد فأنّا أحقّ الناس بعباده ذلك الولد لأنّى أوّل العابدين،«فإنّ السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده» (۱)و لا أستحسن هذا التفسير،بالرغم من ميل كثير من المتأخّرين اليه،لأنّه لا ينسجم مع النهج الذى نعهده فى بصائر القرآن،و اللّه العالم.

و يبقى سؤال:كيف ذكر الرسول أنّه أوّل العابدين و قد جاء متأخّرا زمنيّا عن سائر الأنبياء المخلصين فى طاعه اللّه؟ تجيب النصوص الدينيه عن ذلك بما يلى:

إنّ نبىّ اللّه محمّد(صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)أوّل من عبد اللّه و سبّحه،و قد جاءت الروايات مؤكّده على ذلك،

فقد روى:

عن أبى ذر الغفارى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله(فى خبر طويل فى المعراج ساقه الى أن قال) :«قلت-يا ملائكه ربى هل تعرفونا حقّ معرفتنا،فقالوا:

يا نبىّ اللّه و كيف لا نعرفكم و أنتم أوّل ما خلق اللّه؟خلقكم أشباح نور من نوره، فى نور من سناء عزّه،و من سناء ملكه،و من نور وجهه الكريم،و جعل لكم مقاعد فى ملكوت سلطانه،و عرشه على الماء قبل أن تكون السماء مبنيّه، و الأرض مدحيّه،ثم خلق السماوات و الأرض فى سته أيّام،ثم رفع العرش الى السماء السابعه فاستوى على عرشه و أنتم أمام عرشه تسبّحون و تقدّسون و تكبّرون،

۱- ۱) التفسير الكبير للفخر الرازى/ج ۲۷ ص ۳۳۰

ثم خلق الملائکه من بدء ما أراد من أنوار شتّی،و کنّا نمرّ بکم و أنتم تسبّحون و تحمدون و تهلّلون و تکبّرون و تمجّدون و تقدّسون،فنسبّح و نقدّس و نمجّد و نکبّر و نهلّل بتسبیحکم و تحمیدکم و تهلیلکم و تکبیرکم و تقدیسکم و تمجیدکم،فما أنزل من اللّه فإلیکم،و ما صعد الی اللّه فمن عندکم،فلم لا نعرفکم؟ » (۱)

و جاء فی الروایه عن المفضّل عن أبی عبد اللّه علیه السلام قال :«یا مفضّل!أما علمت أنّ اللّه تبارک و تعالی بعث رسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله و سلّم)و هو روح إلی الأنبیاء علیه السلام و هم أرواح قبل خلق الخلق بألفی عام؟قلت:بلی.قال:أما علمت أنّه دعاهم الی توحید اللّه،و طاعته،و اتباع أمره،و وعدهم الجنه علی ذلک،و أوعد من خالف ما أجابوا إلیه و أنکره النار؟فقلت:بلی » (۲)

و عن أبی عبد اللّه علیه السلام قال :إنّ بعض قریش قال لرسول اللّه(صلّی اللّه علیه و آله و سلّم):بأی شیء سبقت الأنبیاء و فضّلت علیهم،و أنت بعثت آخرهم و خاتمهم؟قال:إنّی کنت أوّل من أقرّ بربّی جلّ جلاله،و أوّل من أجاب، حیث أخذ اللّه میثاق النبیّین،و أشهدهم علی أنفسهم:« أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قٰالُوا:

بَلیٰ »فکنت أوّل نبی قال:بلی، فسبقتهم الی الإقرار باللّه عزّ و جل (۳)

و فی الدعاء عن الامام الهادی علیه السلام یصف الرسول صلی الله علیه و آله و آله :«خلقکم اللّه أنوارا فجعکم بعرشه محدقین » (۴)[۸۲] سُبْحٰانَ رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّٰا یَصِفُونَ لو أنّهم عرفوا شیئا من عظمه ربّهم لما خرقوا له بنین و بنات،و لما شبّهوه

۱- ۱) بح/ج ۱۵ ص ۸

۲- ۲) المصدر/ص ۱۴

۳- ۳) المصدر/ص ۱۵

۴- ۴) الزیاره الجامعه.

بأنفسهم فی الأمثال و الصفات.إنّه هو اللّه ربّ السموات و الأرض،و ربّ القدره العظیمه.

و فی الحدیث :«ربّ المثل الأعلی عمّا به مثّلوه،و للّه المثل الأعلی الذی لا یشبهه شیء،و لا یوصف،و لا یتوهّم » (۱)[۸۳]ربما ضر المزید من الاهتمام بجدال المشرکین،و یکفی أن ندعوهم الی الهدی،و نبیّن لهم الحجج،فإذا عموا عنها ترکناهم یخوضون فی غیّهم،و یلهون أنفسهم بأفکارهم الضالّه،و یلعبون فی الحیاه بلا هدف حکیم،حتی یلاقوا یوم الجزاء العادل الذی یعدهم اللّه.

فَذَرْهُمْ یَخُوضُوا وَ یَلْعَبُوا و لعلّ الخوض هنا یساوق اللهو و هو ما یصرف الإنسان عن الواقع،بینما اللعب هو السعی المنظّم لأهداف غیر رشیده(حسبما یبدو لی).

و حین یبتعد الإنسان عن هدی ربّه فهو بین فکره باطله یلهو بها عن الحق و سعی دؤوب لغیر الأهداف المشروعه،و قد قال ربّنا سبحانه: وَ مٰا هٰذِهِ الْحَیٰاهُ الدُّنْیٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ .

أمّا المهتدون الی ربّهم فعقولهم تستنیر بضیاء المعرفه،و تزداد ولها الی الحقائق، أمّا سعیهم فهو دائب فی سبیل تحقیق الفلاح و الرضوان.

و بتفکّر أعمق سنصل الی الحقیقه التالیه:إنّه الإیمان باللّه وحده الذی یجعل الفکر یعمر بهدف سام،هو معرفه اللّه أکثر فأکثر،کما یجعل عمل الإنسان ذا معنی و ذا هدف مقدّس هو ابتغاء مرضاه اللّه.

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۴ ص ۶۱۷

[۸۴]إنّه اللّه الذی وسعت رحمته و قدرته و هیمنته و تدبیره السموات و الأرض، یدبّرهما بذات النظام الحسن الحکیم،فلا فطور و لا خلل لا فی أصغر موجود و لا أکبر.

إنّ وحده التدبیر دلیل علی وحده الخالق،و وحده الحاکم و المهیمن،و هی حجه بالغه ضد أولئک الذین زعموا أنّ للأرض آلهه و للسماء إله،فما للّه للّه و ما لقیصر لقیصر،کلا..کلّ شیء للّه،و الیه المصیر.

وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلٰهٌ و آیات اللّه تهدینا الی بالغ حکمته و علمه.

وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ و هل ینبغی أن یخرق للّه ولد أو یشرک به شیء؟کلا..و العجیب أنّ حاله الجدل قد بلغت بالبعض الی اتخاذ هذه الآیه الکریمه ماده للجدل،کما جاء فی الحدیث التالی:

فی الکافی عن هشام بن الحکم قال:قال أبو شاکر الدیصانی :إنّ فی القرآن آیه هی قولنا،قلت:و ما هی؟فقال: وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلٰهٌ ،فلم أدر بما أجیبه،فحججت فخبرت أبا عبد اللّه-علیه السلام-فقال:

«هذا کلام زندیق خبیث،إذا رجعت الیه فقل:ما اسمک بالکوفه؟فإنّه یقول:فلان،فقل له:ما اسمک بالبصره؟فإنّه یقول:فلان،فقل:کذلک اللّه ربّنا،فی السماء إله،و فی الأرض إله،و فی البحار إله،و فی القفار إله،و فی کلّ مکان إله».

قال:فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته،فقال:هذه نقلت من الحجاز ! (۱)[۸۵] وَ تَبٰارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا و هذه الآيه تجيب على إشكال سابقتها،فهو إله في السماء،و إله في الأرض، إلاّ أنّ السموات و الأرض ملكه،و تحت قبضته..و تبارك مصدر البركه.

وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّٰاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [۸۶]و حين تقوم الساعه،و نرجع الى اللّه،فهل يملك الشركاء المزعومين الشفاعه؟كلا..

وَ لاٰ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ كما أنّه في عالم التكوين ليس هناك اللّه و ابنه،فكذا في عالم التشريع،فإنّه لا شفيع عند اللّه إلاّ من شهد بالحق،فالفضل آنئذ للّه،و القدره له وحده،و هو يمنع من قدرته ما يشاء دون أن تنقص قدرته مقدار ذرّه،و من دون أن يصير ذلك صاحب قدره ذاتيّه،و ليس باستطاعه أحد أن يقف أمام اللّه،فالكلّ مهما أوتوا عبيد له سبحانه،و إنّه لا يشفع أحد لأحد إلاّ من شهد بالحق.

و في الروايه عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال في هذه الآيه :«هم الذين قد عبدوا في الدنيا،لا يملكون الشفاعه لمن عبدهم » (۲)[۸۷]و هؤلاء الذين عبدوا غيره،و لم يشفع لهم أحد،لأنّ اللّه لا يقبل الشفاعه

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) تفسير البرهان/ج ۴-ص ۱۵۶

لأحد إلاّ من شهد بالحق له سبحانه،هؤلاء..

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّهُ فَأَنّى يُؤْفَكُونَ فاللّه يحاكمهم،و أفضل حكم فطرتهم، فيقول لهم:من خلقكم؟و لا يملكون ان يقولوا غيره سبحانه.

لقد كانوا يعترفون بأنّ اللّه خالق السموات و الأرض،و لكنّهم كانوا يزعمون -مع ذلك-وجود قدره ذاتيه لسواه،شأنهم شأن أغلب البشر اليوم حيث أنّهم يغترّون بمظاهر القوه عند الطغاه و المتجبّرين،فيخضعون لهم،و يذرون حكم اللّه الحق الى أحكامهم الجائره.

[٨٨]لقد بلغ الاهتمام بشأن الدعوه عند الرسول صلى الله عليه و آله حدّا جأر الى اللّه، و أخذ يشكو اليه عدم إيمان قومه.

وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ و لعلّ التعبير ب«قوم»للدلاله على أنّهم اجتمعوا على ترك الإيمان.

[٨٩]فكيف ينبغى التعامل مع قوم لا يؤمنون؟ تحدّد الآيه الأخيره من هذه السوره العلاقه السليمه معهم،قائله:

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إنّها علاقه العفو عن جرائمهم بحقّه،و السلام معهم،و المؤمن يحمل فى داخله قلبا يسع الدنيا و يزيد،لأنّ نظره الى الآخره،و لا يأبه بما يجرى حوله هنا.

ص:٥٣٧

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامى عام ١۴٢۶ الهجرى فى المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فى الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فى العلوم الإسلامية وتبعثرها فى أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين فى العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهى منظمة فى برامج إلكترونية وجاهزة فى مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبىّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ فى المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة فى الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين فى الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها فى ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمى البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولیة العمل.

نشاطات المؤسسة:
طبع الكتب والملزمات والدوريات
إقامة المسابقات فی مطالعة الكتب
إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية
إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية
افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com
إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...
الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها
تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms
إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس
إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين
إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛
١.JAVA
٢.ANDROID
٣.EPUB
٤.CHM
٥.PDF
٦.HTML
٧.CHM
٨.GHB
إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية
١.ANDROID
٢.IOS
٣.WINDOWS PHONE
۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.
عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب في طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.